# أصول المعرفة

في

# شرح دعاء عرفة

للإمام الحسين "ع"

عبّاس أحمد الريس الدرّازي البحراني

(قده)

دار البلاغة

# أُصُولُ المعْرِفَة

في

شَرحِ دُعاءِ عَرَفَة

# أُصُولُ المعْرِفَة
# في
# شَرح دُعَاءِ عَرَفَة
## لِلإمَامِ الحُسَين "ع"

عبّاس أحمد الريس الدرّازي البحراني (قده)

## الجزء الرابع

دَارُ البَلاغَة

الطبعة الأولى

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف وفاكس: ٣١٧٤٢٥ - ٨٢٠٣٢٠ - ٨٣٤٢٦٥ - ص.ب: ٢٥/١٦ - تلكس: ٢٢٥٩٧ بلاغ - بيروت - لبنان

بِسمِ الله الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ والعصْــرِ إنَّ الإنســانَ لَفي خُســر . إلاَّ الـــذِينَ آمَنَــوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ . وتوَاصَوا بالحقِّ وَتَواصَوا بالصَّبرِ ﴾ .

صدق الله العلي العظيم

بِسمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ

## خطبة الكتاب

الحمد لله الذي أنعم علينا بالإيمان ، وأفاض علينا بنواله جميل الإحسان ، وهدانا لدين الإسلام الأغر ، وأرشدنا للنجاة به يوم المحشر ، وعرّفنا محمداً وآله الأمجاد ، وبصّرنا بهم سبيل الرشاد[1] .

وأشهد ألا إلٰه إلاّ الله شهادة من صدّق وتيقن ، واستعصم بالله واطمأن[2] ، ووحد ربه إذ هداه ، واعترف بأنه لا معبود سواه ، وهو الذي

---

(1) سبيل الرشاد هو طريق الحق الذي يوصل الإنسان إلى مرضاة الله سبحانه ـ ولولاهم لم يعرف الإنسان الحق من الباطل ؛ لأن معرفة الحق بمعرفة أهله ، وأهله هم علي وأولاده .

(2) اطمئنان الإنسان بالله يعني اطمئنان قلبه بذكر الله ، وذلك كما أشار إليه الكتاب العزيز في قوله تعالى : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .

فطر كل شيء وسوّاه ، فهو الله خالق كل شيء ، ومميت كل حي ، سبحانه وتعالى عمّا يشركون ، وعلا جدّه[٣] عمّا يصفه الواصفون .

| | |
|---|---|
| لك الحمد ياذا الجلال الذي | له يد عنت جبهات العباد |
| تعاليت من مالك للأمور | فأنت الكريم وأنت الجواد |
| تقدست من مرشد للهدىٰ | فلولاك لم ندر درب الرشاد |
| عرفتك من عالم الذر إذ | فطرت على ذا ليوم المعاد |
| شهدت بأنك تحيي العظام | وإن أنكرت ذاك أهل العناد |
| فلا رب غيرك ياذا العطاء | ورب كلام قديم يعاد |
| وإني مقيم على نيتي | ولست أريد سوىٰ ما أراد |
| فللرّب فضل على عبده | فمهما عصىٰ العبد مولاه جاد |

والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين ، وخاتم النبيين والمرسلين ، الذي دعا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأيقظ الناس من الغفلة والسنة ، وأقام اعوجاج كل مائل ، وهداهم إلى الفضائل ، وأبعدهم عن مسالك الرذائل[٤] . حتىٰ آمنوا بالله سراً وجهراً[٥] ، فعلوا على سائر الأمم قدرا ، واستل الأحقاد من القلوب العليلة[٦] ، وكثّر بذلك القلّة القليلة[٧] . واجتمعوا وتآلفوا ، وتعاونوا وتكاتفوا ، حتىٰ أقاموا الدنيا

(٣) فسروا الجد بالعظمة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ بسورة الجن ، الآية (٣) وفسروه بالحظ والغنى ، وقالوا بأن من كان غنياً كان حظه وافراً وهو متأول .

(٤) الرذائل هي كل ما من شأنه أن يحط من كرامة الإنسان وليس هناك رذيلة معينة إلا أن الزمان الجاهلي قد تفشت فيه رذائل كثيرة مثل قتل النفس والإعتداء وشرب الخمر ووأد البنات .

(٥) أما السر فهو في أول الدعوة لأن الإسلام ضعيف ، والجهر عندما قويت شوكة المسلمين ، ويمكن أن يكون المعنى يقصد الموصف المخلص والمنافق .

(٦) العليلة التي لا تميز بين الحق والباطل أو لا تستطيع على ذلك .

(٧) لأن النبي (ص) جمع شملهم ووحدهم تحت راية واحدة .

وأقعدوها ، وطالوا الجوزاء وقعدوها . صلىٰ الله عليه ما مال غصن بنسيم ، وما انجلىٰ بالنور الليل البهيم .

عليه سلام كلما طلعت ذكاً ... بأنوارها أو آذنت بغروب
وصلىٰ عليه الله ما لاحِ بارق ... وما غرّدت ورق بلحن طروب
جزاه إلٰه الخلق خيراً فإنه ... حبيب إلٰه الخلق أي حبيب
هدىٰ الناس طراً من ضلال وغفلة ... وأنقذهم من مهلك وشعوب
أتاهم وهم لا يعبدون سوى الهوى ... وكم للهوى من محنة ولغوب[٨]

وعلى آله شموس الأرض ، ومقيمي النفل والفرض[٩] الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا ، وحباهم شرفاً ومجداً كبيرا ، وأقامهم حججاً على الخلق أجمعين ، وألزمهم بطاعتهم إلى يوم الدين ، فسلكوا بهم طريقاً مستقيما[١٠] ، وفازوا بذلك فوزاً عظيماً[١١]

هم عصمة اللاجي إذا حمحمت ... مصائب الدهر أو الدهر جار
ونور ليل مظلم حالك ... فكم بهم ليل بهيم أنار
وكم تجلت بهم غمة ... قد شب منها بالحشىٰ أي نار
بهم يغيث الله في أرضه ... من كل ملهوف بصوب القطار
فهم أنوف الدهر بل غرّة ... وهم سيوف للوغىٰ بل غرار[١٢]

---

(٨) اللغوب : التعب والإعياء ، والمعنى أن الهوى يردى الفتى في مهاوى الردى ؛ ولأن الناس في الجاهلية ليس لهم من دين أو لا يعولون على دين يمنعهم عن ارتكاب الذنوب فهم يقعون في هذه المحن التي تجر إلى النار لأنهم قد اغضبوا بذلك الخالق .

(٩) أما الفرض فهو ما أوجبه الله عليهم من العبادات وسائر الواجبات وأما النفل فهو كل عطاء قدموه للناس حتى أوصلوهم إلى شاطىء الأمان .

(١٠) الطريق المستقيم هو كيفية العبادة يكون العبد مطلوباً بها حتى تبرأ ذمته ، ويسقط الواجب ، ولا يكون ذلك إلا بالإتيان به صحيحاً .

(١١) الفوز العظيم هو الرضوان من الله سبحانه ليس شيئاً سواه .

(١٢) الغرة هي الجبهة وهي أفضل شيء في الإنسان ، والغرار هو حد السيف وهو أفضل ما في السيف بل هو السيف كله .

يـا دوحـة المجـد ونـامـوسـه لكم سـلام الله مـا الـنجم دار

أما بعد :

فإن الله جلّ جلاله ، وعظم نواله ، وتوالت أفضاله[١٣] ، قد منّ علي بتوضيح الغامض من هذا الدعاء الشريف ، وتفضل علي بـإظهار المضمـر وبإزالة التنكير بالتعريف ، وأعانني على إكمـاله إعـانة القـوي للضعيف . حتىٰ زال منه كل غموض ، وارتفع بذلك كل مخفوض[١٤] ، فاستوىٰ على سوقه يعجب الزرّاع[١٥] وهو بما حوىٰ خير متاع . يفيد المبتدي ، ويهدي إلى سبيل الخير من يهتدي . وعلى قلة ما في كفي من العلم والأدب ، فقد اخترت من ذلك نخب ، فجاءت بكثير من العجب ، على أن ذلك بادرة من بـوادر الخير[١٦] إذ رسمت فيـه الطريق إلى السيـر ، فإن اهتـديت فيه إلى لاحب الطريق فإن من الله التوفيق ، وإن تنكبت الدرب السوي فلست أول من يخطي[١٧] .

فإني أنا الجاني الذي لم أجد سوىٰ إلهي غفـوراً للذنـوب الكبـائـر
وإني أرىٰ في كـل نـاحيـة لـه نوالاً وأرجوا العفـو من خير غـافر
فرحمـاك يـاذا المجـد إني مـزاول لكـل قبيـح يـالقبـح سـرائـري
فيـا أيهـا الستّـار إني بحـاجـة لستـر قبيح الفعـل يـا خيـر سـاتـر

على أني لـم أدخـر جهـداً في ذلـك ، إلا وقـد طـرحتـه في تلك

---

(١٣) توالى الأفضال زيادة النعم فوق الحاجة التي يحتاجها الإنسان .

(١٤) يعني أن الذليل صار عزيزاً ببركة النبي ودعوته ؛ لأنهم كانوا قبل ذلـك يتخبطون في الفوضى .

(١٥) المعنى كما فسر الآية المفسرون : كزرع أخرج أفراخه فأغانها فقويت وغلظت وقام على سوق يعجب الزارعين بجوده رشده .

(١٦) يعني أن هذا الشرح هو إشارة إلى عمل غير هذا من الشروح والكتابات الأخرى .

(١٧) يعني أن هذا الشرح إذا راق للناس فذلك من الله وإن لم يكن كذلك فأنا لست أول من أخطأ أو فشل .

المسالك ، لأنه قد طرح ـ عليه السلام ـ فيه كثيراً من العلوم ، وجمع فيه بين المنطوق والمفهوم ، فحوىٰ بذلك حياة المسلمين[١٨] التي أرادها الإسلام ، ورسم لهم طريقاً واضحاً بذلك الكلام ، فهو لمناجاة الله دعاء مستجاب[١٩] ، ولا ستنزال الخير يفتح الف باب وباب[٢٠] ، صلوات الله عليه مالاح نجم في السماء ، وما سحّ غيث وهمىٰ :

سلام أبا الشهداء الذي ... أقمت الحياة غداة الطفوف
وعاؤك في عرفات له ... هدير لدى كل قلب مخوف
يبلّ الصدى بل يرد القضا ... ويروي الفؤاد الظمي اللهوف
تراه دعاءً يشق السماء ... كشق الرؤوس بضرب السيوف[٢١]
وطورا تراه يردّ الأديب ... بحيرته فيطيل الوقوف[٢٢]
وأخرىٰ ترى العالم العبقري ... يعود بليداً برغم الأنوف
وتسمع ذلك من ناسك ... يلبي ويسعى به أو يطوف
إذا أخلص المرء في نسكه ... رأىٰ الخير في كل فعل صنوف[٢٣]

---

(١٨) يعني أن الدعاء وجد فيه ما يغنى الإنسان المسلم عن التطفل في أخذ الأشياء التافهة من هنا أو هناك .

(١٩) لأنه عليه السلام قد أقسم على الله فيه بكثير من الأقسام التي لا ترد .

(٢٠) لأن الدعاء لم يكن للآخرة فقط ، والدين ليس من شأنه أن يركز على جانب الدنيا ليهمل جانب الآخرة أو العكس .

(٢١) شق السماء يعني وصول الدعاء إليها ولا يحجبه عن الإستجابة حاجب ، وأما شق الرؤوس بالسيوف فوجه الشبه هو كون السيف سلاحاً ، كما أن الدعاء سلاح يشق السماء كما يعمل السيف في الرؤوس .

(٢٢) إطالة الوقوف عبارة عن كثرة التأمل والتفكر في تلك المعاني التي وردت في ألفاظ الدعاء ، وعباراته المتناسقة ، لأن الوقوف سكون ، ويلزم من ذلك عدم الصوت الذي يشوش الفكر .

(٢٣) صنوف الخير يعني أنه يأتي من كل جهة ، وبذلكَ تتعدد مصادره ، وتتعدد صنوفه من حيث الكيف والكم .

حتىٰ صار هذا الدعاء عند الناسكين الأولياء ، كالحمد في الصلاة أو في الجسد كروح الحياة ، على كثرة ما أثر عنهم من الأدعية الجليلة وفيها ما فيها من المعاني الجزيلة ، التي تأخذ بالألباب(٢٤) ، وتهدي الإنسان إلى طريق الصواب . إلّا أن دعاءه ـ عليه السلام ـ بين تلك الأدعية هامة(٢٥) ، وفي ما بينها يعتبر علامة ، ولا غرو(٢٦) فهو من فم من غذاه رسول الله بريقه وربّاه ، وهو الذي انجبه علي ـ عليه السلام ـ ورعاه ، وذلك هو أمير البيان ، وصاحب السيف والسنان(٢٧) .

فهم ذرية بعضها من بعض ، خلقهم الله أوتاداً للأرض(٢٨) ، وهم نور الوجود ، وأهل الكرم والجود ، وجنابهم الغاية في المقصود .

وإني كلما تلوت هذا الدعاء في موقف عرفات ، هاجت عن حولي الزفرات ، وسالت منهم العبرات ، وانشدوا به إلى مولاهم الرب ، وترسموا به لاحب الدرب(٢٩) .

وإني أقدم لإخواني المؤمنين خاتم الأجزاء ، راجياً أن يقبل المولى هذا العناء ، وألا ينساني إخواني من الدعاء .

---

(٢٤) الألباب جمع لب وهو العقل . يعني أن الأدعية الواردة منهم عليه السلام تحير العقل بما تحمل من المعاني الجليلة والعميقة التي لا يدركها إلا من أوتي حظاً من العلم والفهم .

(٢٥) الهامة هي أعلى الرأس ، فهو تظهر أول ما يظهر الجسم ، لأن أعالي الأشياء تظهر قبل أسافلها وتبرز قبل غيرها من أجزائه .

(٢٦) لا غرو يعني لا عجب ، أي لا غرابة أن أصبح هذا الدعاء وهو دعاء الحسين (ع) بهذه المنزلة من الأدعية فإنه ابن النبي وعلي .

(٢٧) يعني هو القوة المتمثلة في دين الإسلام ، والسيف والسنان كناية عن القوة الرادعة للدين ؛ لأن المقاتل لا يستغنى عنهما في ساحة الحرب وفقدانهما يعني فقدان القوة .

(٢٨) أوتاد الأرض يعني التي تستقر بها ووتد كل شيء ما يعتمد عليه فأهل البيت عليهم السلام هم الذين تعتمد عليهم الأرض وتولاهم لمادت وزلزلت زلزالاً شديداً .

(٢٩) الترسم هو طلب الطريق الواضح الذي لا إبهام فيه ولا لبس فكأن الدعاء يرشدهم إلى الصراط المستقيم بما فيه من معارف إلهية .

وختاماً أحمد الله على إكمال هـذا الشرح الجليـل ، وإظهار مـا في الدعاء من المعنى الجزيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل :

لـه الحمد لا زال يعـطي الجزيـل وحـق على الـعبـد أن يـحـمـدا
وأن يشكـر الله شكـراً جـزيـلاً ليبقى النــوال بـطول المـدى[٣٠]
ويـربط قـلبـاً بـرب الـسـمـاء وليس عجيبـاً بـأن يـصعـدا
إذا بـلغ الـحـب ذاك الـجـنـاب فقـد بلغ الـمجـد والـسؤددا[٣١]
وإن كــان فــي حــبـه كــاذبـاً مضى كـل مـا يـدعيه سـدى[٣٢]

عباس أحمد الريس الدرازي

(٣٠) يعني أن شكر النعم والقيام بحقها هو كفيل ببقائها واستمرارها ونكرانها يعرضها للزوال .
(٣١) يعني أن الحب إذا تعلق بالباري فإنه قد بلغ الغاية في الشرف والرفعة ؛ لأن ذلك من درجات الكمال .
(٣٢) يعني أن الله مطلع على ما تكنه القلوب من خير أو شر ، فإن كان خيراً فقد نال خيراً ، وإن كان شراً فحبه كذب وافتراء وعمله باطل .

# أُصُولُ المعرفة

قال عليه السلام :

( اَللَّهُمَّ وَفِّقْنَا وَسَدِّدْنا ، وَاعْصِمْنا وَاقْبَلْ تَضَرُّعَنا ، يا خَيْرَ مَنْ سُئِلَ ، وَيا اَرْحَمَ مَنِ اُسْتُرْحِمَ ، يا مَنْ لا يَخْفى عَلَيْهِ إِغْماضُ الْجُفوُنِ ، وَلا لَحْظُ الْعُيوُنِ ، وَلا مَا اسْتَقَرَّ في الْمَكْنوُنِ ، وَلا مَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ مُضْمَراتُ الْقُلُوبِ ، إلاَّ كُلُّ ذٰلِكَ قَدْ اَحصٰاهُ عِلْمُكَ ، وَوَسِعَهُ حِلْمُكَ ) .

## اللُّغَةُ

سددنا : السداد ( بالفتح ) الإصابة في المنطق ، أن يكون الرجل مسدداً . ويقال : إنه لذو سداد في منطقه وتدبيره ، وكذلك في الرمي يقال : سدّد السهم إذا استقام ، وسدّدته تسديداً ، واستدّ الشيء إذا إستقام ، قال الشاعر :

أعلمه الرماية كل يوم فلما إشتدّ ساعده رماني

قال الأصمعي : إشتدّ ( بالشين المعجمة ) ليس بشيء . قال ابن بري هذا البيت ينسب إلى معن ابن أوس ، قاله في ابن اخت له . وقال ابن دريد : هو لمالك ابن فهم الأزدي ، وكان اسم ابنه سليمة ، رماه بسهم فقتله ، فقال البيت .

وسدّت علي الطريق أي عميت علي مذاهبي .

والسداد ما سدّ به ، وكل شيء سددت به خللاً فهو سداد ( بالكسر ) ولهذا سمي سداد القارورة ، وهو صمّامها ( بالكسر ) . ومنها سداد الثغر إذا سدّ بالخيل والرجال . قال العرجي :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

**إغماض** : الغمض والتغميض والإغماض النوم . يقال : ما اكتحلت غماضاً ولا غمضاً ( بالضم ) ولا تغميضاً ، ولا تغماضاً أي ما نمت ، قال الشاعر :

أصاح ترىٰ البرق لم يغتمض يموت فواقاً ويشريٰ فواقا

وغمض عنه تجاوز . وسمع الأمر فغمض عنه ، وعليه يكنىٰ به عن الصبر .

وأغمض في السلعة إستحطّ من ثمنها لرداءتها ، وفي التنزيل العزيز ﴿ **ولستم بآخذيه إلاّ أن تغمضوا فيه** . . الآية ﴾[1] أي انتم لا تأخذونه إلا بوكس ، فكيف تعطونه في الصدقة .

**الجفون** : الجفن جفن العين أي غطاؤها من أعلى وأسفل ، والجمع أجفن وأجفان وجفون . والجفن غمد السيف . وجفن السيف غمده ، والجفنة معروفة أعظم ما يكون من القصاع ، والجمع جفان . قال تعالى ﴿ **يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب** ﴾[2] .

**إنطوت** : الطي نقيض النشر ، طويته طياً وطية وانطواءً . وطويت الصحيفة أطويها طياً : الطي المصدر . قال ذو الرمّة :

---

(١) سورة البقرة : الآية ،(٢٦٧).

(٢) سورة سبأ : الآية ، (١٣) .

من دمنة نسفت عنها الصبا سفعاً    كمـا تنشـر بعـد الطيـة الكتب

وفي حديث السفـر اطولنا الأرض أي قربها لنا ، وسهّل السيـر فيها حتىٰ لا تطول علينا فكأنها قد طويت ، ومطاوي الدرع غضونها إذا ضمت . قال الشاعر :

وعـنـدي حـصـداء مـسـرودة    كـأن مـطاويـهـا مـبـرد

وطـوىٰ عني نصيحته وأمـره ، كتمه ، وطـوىٰ فلان كشحـه أعـرض بودّه . وفي الخطبة الشقشقية لأمير المؤمنين علي ـ عليه السلام . وهي من احدىٰ روايع نهج البلاغـة قال ـ عليـه السلام ـ : ( فسـدلت دونها ثـوباً ، وطويت عنها كشحاً . . الخطبة ) .

مضمـرات : الضمـر الهـزال ولحـاق البـطن ، وقـد ضمـر الفـرس ( بالفتح ) و( الضـم ) ، قال أبو ذؤيب :

بـعـيـد الـغـزاة فـمـا إن يـزال    مـضـطـمـراً طـرفـاه طـلـيـحـا

والمضمار الموضع الذي تضمر فيه الخيل ، وتضميرها أن تعلف قوتاً بعد سمنها .

والضمير السّرو داخل الخاطر ، والجمع ضمـائر . والضميـر الشيء الـذي تضمـره في قلبـك ، والمضمـر المـوضـع ، والمفعـول أو الـظفـر والمظروف . قال الأعوص ابن محمد الأنصاري :

سيبقىٰ لها في مضمر القلب والحشىٰ    سـريـرة ودّ يـوم تبلىٰ السـرائـر

وأضمـرت الشيء أضمرتـه ، وأضمرتـه الأرض غيبته إمـا بمـوت أو بسفر .

## البيان

في بداية هذه الفقرة شرع ـ عليه السلام ـ في طلب بعض المهمات التي لا تتحقق ولا توجد إلّا من عنده سبحانه ، فإن هناك بعض المطالب التي يستحيل وجودها عند غيره ، وذلك لأن هذه المطالب إمّا لأنها صعبة لا يمكن تحقيقها على يد الإنسان ، وإما أن تكون مجهولة المعالم والمسالك لا يعلمها ، فلا يستطيع أن يحققها ؛ لأن تحقيق الشيء فرع عن معرفته .

## التوفيق

فقوله ـ عليه السلام ـ ( اللهم وفقنا ) يشير إلى أن التوفيق محصور عنده سبحانه لا يكون إلّا بيديه . وهذا التوفيق يتشعب إلى كثير من المعاني ، وهو كلمة شاملة لتحقيق كثير من المهمات .

فهناك التوفيق في القول ، وهو أن يقول الإنسان خيراً أو يسكت ؛ لأن الإنسان محاسب على ما يقول ، ولأن لسانه يخرج ما كان مخبوءاً في قلبه ، فإن كان قد وفق للخير في السر والعلانية ظهر ذلك على لسانه عند الكلام ، وإن كان غير ذلك فهو كذلك .

وأما أن يكون التوفيق في العمل وهو كل ما يصلح أن يكون خيراً . والتوفيق في هذه الحال إما أن يكون راجعاً إلى نفسه فقط كطلب الرزق من الحلال الطيب ، وإما أن يكون موفقاً في عمل الخير لغيره من الناس كإصلاح ذات البين ، والنصح والإرشاد ، أو يكون الناس موفقين للأخذ عنه من فعل الخير ، وكلا هذين الإتجاهين توفيق ، وهو من عند الله تعالى . وقد أشار إلى ذلك الكتاب المجيد في قوله سبحانه ﴿ **إن أريد إلّا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلّا بالله** . . الآية ﴾[٣] فقد جاء في

---

(٣) سورة هود : الآية ، ٨٨ .

تفسيرها أن الذي يترشح من إرادة باستطاعة مني من تدبير أمور مجتمعكم ، وتوفيق الأسباب بعضها ببعض الناتجة لسعادته إنما هو بالله سبحانه لا غنىٰ عنه ولا مخرج من إحاطته ، ولا إستقلال في أمر دونه فهو الذي أعطاني ما هو عندي من الإستطاعة ، وهو الذي يوفق الأسباب من طريق إستطاعة . فاستطاعتي منه وتوفيقي به . وهذه حقيقة قد بينها ، واعترف بأن توفيقه بالله وذلك من فروع كونه ـ تعالى ـ هو الفاطر لكل نفس والحافظ عليها ، والقائم على كل نفس بما كسبت كما قال تعالى ﴿ **الحمد لله فاطر السمٰوات والأرض** ﴾[٤]

ومن الواجب للعبد العالم بمقام ربه العارف بهذه الحقيقة أن يمثلها بإنشاء التوكل على ربه والإنابة والرجوع إليه ، ولذلك لما ذكر شعيب ـ عليه السلام ـ أن توفيقه بالله عقبه بإنشاء التوكل والإنابة فقال : ﴿ **عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾[٥] .

ومما تقدم ندرك أن التوفيق لا يطلب إلاّ من الله تعالى . لأنه هو المضطلع على خفايا القلوب ومضمراتها ، وهو العالم بالأخلاص في الطلب ، ولقد ورد في أبحاث سابقة من الكتاب في أماكن متفرقة كلام حول التوفيق .

## العصمة وما في معناها

لقد جرىٰ الحديث عن العصمة في كثير من مناسبات الكلام فيما مضىٰ من أبحاث الكتاب بصورة مستقلة .

أما ها هنا فسنشير إليها مع مراعاة معان أخرىٰ تنطبق معها ، أو تفارقها في بعض الحالات جرياً مع النص في قوله ـ عليه السلام ـ ( وسددنا

(٤) سورة فاطر : الآية ، ١ .

(٥) تفسير الميزان ج١٠ ، ص ٣٦٩ .

واعصمنا ) والتسديد مقارب للعصمة إلآ أن هناك قليلاً من الفوارق ربما يلتمس منه العطف المغاير بالواو .

فالتسديد كما ورد في بحث اللغة هو الإعتدال في المنطق والتدبير ، ولكنه مهما ورد فيه من الإطراء في التعريف فإنه لا يرتفع إلى مستوىٰ العصمة بمعناها المصطلح ، أو المعنىٰ المشار إليه في النص ، فالعصمة بهذا الإعتبار هي أخص من التسديد ، ويظهر أن بين الكلمتين عموماً وخصوصاً مطلقاً .

وإذا تأملت في هاتين الكلمتين وكيفية مجيئهما في النص قضيت عجباً ولقيت نصباً ؛ وذلك لأنه ـ عليه السلام ـ قد تدرج في طلبه من المهم إلى الأهم ، فهو قد طلب التسديد من الله بعد التوفيق ، والتسديد أخص ، ثم ارتقى إلى طلب العصمة من الله بعد التسديد والعصمة أخص ، وهذا يدلك على كيفية وزن الكلام ، وجعله كالبنيان المرصوص الذي يعتمد آخره على أوله ، وهذا بدوره أيضاً يدل على عصمته في الكلام .

ويبقىٰ هنا سؤال يطرح نفسه وهو : ماذا يقصد الحسين ـ عليه السلام ـ من العصمة التي ذكرها ؟

فإن كان المقصود بالعصمة هي التي قد أعطيت للأنبياء والأئمة فذلك تحصيل الحاصل لأنها موجودة فيه فعلاً .

وإن كان المقصود ما هو أعم من ذلك فهذا هو ما يحوم حوله الإشكال .

فإن العصمة بالمعنىٰ الأخص وهي عصمة الأنبياء والأئمة ـ عليهم السلام ـ كفيلة بحماية الإنسان عن الذنب الكبير والصغير ، بل وحتىٰ ما ينافي المروءة ، بل وحتىٰ من خطرات القلوب والأوهام التي تداعب خيال الإنسان . وعلى هذا التقدير فلا داعي لأن يطلب من الله العصمة بالمعنىٰ الأعم .

إلاّ أنا نقول : بأن هذا الطلب كما ذكرنا هذا مراراً ـ ليس له بمفرده ؟ لأنه يشرك في دعائه أهل ذلك الموقف جميعاً ؛ لأن ضمير الجمع يدل على ذلك في قوله ( واعصمنا ) كما أنه من البعيد أن يقصد من هذا الجمع تعظيم نفسه في مقام التواضع في ذلك الموقف ، وذلك لعدم إمكان الجمع بينهما .

وعليه فإن الدعاء له ولأهل الموقف بالعصمة هو بمعنىٰ الدعاء لهم بكل خير كالتوفيق والتسديد .

وربما توجهت هناك نظرة أخرىٰ في العلاقة بين هاتين الكلمتين ( سددنا ) و( اعصمنا ) وهو أن يريد التوضيح والتفسير بهذا العطف ، وذلك كما قال الشاعر :

إن الغريب وإن عزت مكانته    هيهات ينفك عن وجد وعن حزن

وغير ذلك من الأساليب التي يستشف منها تأكيد المعنىٰ المقصود .

## التضرع

ثم أخذ في التماس القبول من الله تعالى لهذه المناجاة ولهذا التضرع فقال ( واقبل تضرعنا ) والتضرع هو سؤال وزيادة ، وبعبارة أخرىٰ هو سؤال مصحوب بالخضوع والتواضع والإشفاق من ردّ طلبه خائباً . وإلى هذا أشار قوله تعالى ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية انه لا يحب المعتدين ﴾(٦) . قال في مجمع البيان : التضرع التذلل وهو إظهار الذل الذي في النفس ومثله التخشع ، ومنه التطلب لأمر من الأمور وهو الميل في الجهات ذلاً .

ومعناه أنه سبحانه بعد ذكر دلائل توحيده بدعائه على وجه الخشوع

---

(٦) سورة الأعراف : الآية ، ٥٥ .

كافة عبيده تخشعاً وسراً ، قيل بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً ، ثم قال إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره ، وإن كان الرجل لقد فقّه الكثير وما يشعر به الناس وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الكثيرة في بيته عنده الزور فلا يشعرون به ، ولقد تداركنا أقواماً ما كان على وجه الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً ، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ولا يسمع لهم صوت ، إلّا همساً بينهم وبين ربهم .

وروي عن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ كان في غزاة فأشرفوا على وادٍ فجعل الناس يهللون ويكبرون ويرفعون أصواتهم فقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم ألا أنكم لا تدعون الأصم ، ولا غائباً : إنكم تدعون سميعاً قريباً إنه معكم ، وقيل : إن التضرع رفع الصوت ، والخفية السر ، أي ادعوه علانية وسراً عن علي ابن إبراهيم في تفسيره وقوله : (إنه لا يحب المعتدين ) في الدعاء . قيل : هو أن يطلب منازل الأنبياء فيجاوز الحد في الدعاء ، وقيل معناه لا يحب المجاوزين الحد المرسوم في جميع العبادات والدعوات(٧) .

ويتضح مما تقدم أن التضرع والإلحاح في المسألة طلب مخلص ؛ لأنه يسأل الله في السر والعلن ، وهذا لا يعني أن الإنسان في دعائه يغلب عليه جانب اليأس والقنوط ، ولكن السؤال من الله والحاجة إليه هي معنىٰ الغنىٰ الحقيقي ؛ لأن الإنسان لا يفكر في أحدٍ سواه سبحانه ، فالتضرع والخشوع ينبغي أن يكون مربوطاً برباط الإيمان والثقة بالإجابة ، ومعنىٰ التضرع والإلحاح هنا هو إطالة السؤال من الله ، لأنه عبادة ، وهي حالة كرهها لغيره وحببها لنفسه .

---

(٧) مجمع البيان للطبرسي ج٤ ، ص ٦٦٠ .

# السؤال من محله

ولما أن عدّد مطالبه وذكر تضرعه سأل الله بما هو أهله من الصفات ، فقال ـ عليه السلام ـ ( يا خير من سئل ) فالسؤال قد يصدر من الإنسان إلى الإنسان فيستجاب أو يرفض ، وذلك لعوامل شتىٰ منها :

١ ـ **العامل المالي** : فمرة يكون المسئول ملياً ، فيكون قادراً على أن يلبي حاجات السائل في حدود مقدرته على العطاء ، وبذلك تتفاوت العطية ، ويتفاوت الكرم بتفاوت القدرة ، ولا ننسىٰ في ذلك العامل النفسي الذي يؤثره المال شدة وضعفاً .

٢ ـ **العامل النفسي** : وهذا أيضاً له مدخلية بين السائل والمسئول ، فبمقدار الثقة المتبادلة بينهما من صدق أو كذب يكون العطاء ، وبمقدار المعرفة بينهما يكون ذلك أيضاً .

وقد روىٰ التاريخ أن إعرابياً جاء إلى النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ فقال يا رسول الله : إني قتلت ابن عم لي فطولبت بالدية فقال النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ : يا أعرابي إنا قوم لا نعطي المعروف إلاَّ على قدر المعرفة . فقال يا رسول الله وما ذاك ؟ قال : إني سائلك فأجب . قال يا أعرابي : بم عرفت ربك ؟ قال : يا رسول الله إن البعرة تدل على البعير ، وأثر الأقدام يدل على المسير ، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج لا يدلان على اللطيف الخبير ؟ ! وأعطاه النبي الطلب .

وهكذا نجد أن العظماء والمفكرين لا بد وأن يتعرفوا علي أي مشكلة لمعرفة أبعادها حتىٰ يعطوا ما ينبغي ، ليكون العطاء في محله . أما علّام الغيوب المضطلع على السرائر ، ومضمرات القلوب ، فلا يحتاج إلى تمحيص وفحص وسؤال وجواب ، لأنه عالم بالحاجة قبل السؤال .

٣ ـ **العامل التربوي** : وهذا العامل له أهمية كبيرة مع الظروف

المحيطة بحياة الإنسان من فقر وغنىً وبؤس وشقاء ، وبمقدار تعايش الإنسان مع هذه الظروف يستطيع أن يقدر العطاء ، ويجعل حساباً للبذل ، وبذلك تحدث الزيادة والنقصان .

وهناك أمور غير ذلك تكشف مدىً فعاليتها في الزيادة والنقصان عند الإنسان .

أما العطاء من الله بعد السؤال فلا يتناوله هذا الحساب ؛ لأن خزائن الله غير محدودة ولا معدودة حتىً يكون العطاء من عنده محدوداً أو معدوداً .

ثم إنه سبحانه يعطي العطاء الجزيل على العمل القليل ، وهو يعطي من سأله ، ويعطي من لم يسأله ، ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة ـ كما ورد في الدعاء المأثور عن أهل البيت الطاهر ـ عليهم السلام .

فعندما يقول ـ عليه السلام ـ ( يا خير من سئل ) هو أن عطاءه بعد السؤال عطاء كثير يختلف كل الإختلاف عن عطاء الإنسان الذي يحسب ليوم فقره ، ويتأمل في عطائه ، ويتردد فيما يعطي خوفاً من الفقر ولو بعد حين . وبنظرة أخرىً أنه لا يرد سائلاً ولا يخيب آملاً ، فعندما يسأله الإنسان من له هذه الصفات يسأله مطمئناً

## منتهى الرّحمة

أما قوله ـ عليه السلام ـ ( ويا أرحم من استرحم ) فإن طلب الرحمة من الله طلبها من معدنها ، لأنه أهل العفو والرحمة ، وما الرحمة المنتشرة في الخلق التي أنشأت التعاطف بينهم الا بسببها ، لأنه سبحانه وتعالى قد علّم الإنسان كيفية الرحمة ، ومقياسها ومواطنها ، لأنها لو لم تكن بحساب من حيث المكان والكم ربما تكون في بعض المواطن نقمة ويكون العكس كذلك . قال أبو الطيب المتنبي :

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ... ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلا ... مضر كوضع السيف في موضع الندىٰ

فقوله عليه السلام ـ ( ويا أرحم من استرحم ) يعني أن رحمته وسعت كل العباد ، وأنها توضع في مواضعها ، وهو يعرف المستحق لهذه الرحمة من غيره ، وبذلك يكون أرحم من غيره .

## سبب غمض الجفون

ثم وصف ربه بصفة خاصة به سبحانه فقال : ( يا من لا يخفىٰ عليه اغماض الجفون ) ومن الأسباب المباشرة لذلك هو النوم وهذا من باب ذكر المسبب بدلاً من السبب ، لأن النوم سبب في هذا الغمض . وهناك إشكال يرد في هذا المقام على هذه العبارة ، وهو لماذا ذكر ـ عليه السلام ـ عدم خفاء عمض الجفون وهي غطاء العين دون غيره من بقية حركات الأعضاء ؟

وفي مقام الإجابة نقول إنّ هذا الخفاء الذي ذكرته العبارة واضح من نفس الحركات لجارحة العين ، لأن بعض الجوارح في جسم الإنسان كاليد والرجل تكون حركاتها عنيفة . هذا من جهة ومن جهة أخرىٰ أن السبب المباشر في إغماض الجفون هو النوم ـ كما قلنا آنفاً . وهو لا يحس بحاسة ، ولا يميز بجارحة ، بل هو المسيطر على الجوارح والحواس كلها ، لأن الإغماض هو أعم مطلقاً من النوم ، وبذلك يكون الأثر وهو اغماض الجفون بمعنىٰ النوم سراً من الأسرار الخفية التي لا يعلمها حتى الإنسان نفسه . وعليه فإن إغماض الجفون بمعنىٰ النوم ـ كما ورد في بحث اللغة ـ لايحتاج إلى كثير من التأمل في طلب معرفته ، ولكن الشك فيه يكون إذا اختلط بغيره من الحالات التي تشاكل النوم كالإسترخاء والهدوء لإستعادة النشاط واستكمال الراحة .

أضف إلى ذلك أن حركات الجفون من غمضها وفتحها هي من ألطف الحركات في جسم الإنسان لا يكاد أن يشعر بها أحد غير صاحبها ، ومع ذلك فإنها لا تخفى على الله .

وجميع ما تقدم من الحركات تأتي بإيعاز من المخ في الرؤية لأن تفاعل الحدقة السريع مع النور وإنقباضها على قدر درجة الإضاءة يتعلق بمراكز إنعكاسية موجودة في المناطق السفلىٰ من الدماغ ولكن تقدير المسافات والأبعاد وفهم المرئيات يتعلق بقشر الدماغ حيث ترقد مراكز الوعي والإدراك والفهم والتحليل والذاكرة والإبداع ، وإصابة هذه المناطق تؤدي إلى العمىٰ الروحي أي أن الإنسان المصاب يرىٰ الأشياء ولكن لا يفقهها[٨] .

وإلى هذا أشار قوله ـ تعالى ـ ﴿ **وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون** ﴾[٩] قال الطبرسي في مجمع البيان ( وتراهم ) فاتحة أعينهم نحوكم على ما صورتموهم عليه من الصور ، وقال الجبائي : جعل الله إنفتاح عيونهم في مقابلتهم نظراً منهم إليهم مجازاً ، لأن النظر تقليب الحدقة الصحيحة نحو المرئي طلباً لرؤيته وذلك لا يتأتىٰ في الجماد ، ويقال : تناظر الحائطان إذا تقابلا . وقيل : معناه لا يقبلون منه . ومنه سمع الله لمن حمده[١٠] .

وذلك لأن المشركين ينظرون ولكنهم لا يميزون الحق من الباطل ، لأن التمييز يتطلب جهداً عقلياً ، وهم إما أنهم لا يريدون أن يتعبوا عقولهم بالتفكير ، وإما أنهم يفكرون ولكنهم يجهلون مقامك العالي ودرجتك عند الله .

---

(٨) الطب محراب للإيمان ج١ ، ص ٢١٣

(٩) سورة الأعراف : الآية ، ١٩٨ .

(١٠) مجمع البيان ج٤ ، ص ٧٨٦ .

إذاً فإن المخ يتدخل بشكل كبير في موضوع الرؤية ، وحتىٰ فهم الألوان يبدو أن الدماغ هو الذي يتدخل أيضاً في فهمها ، وتمييزها عن بعضها البعض ، ولقد وجد أن تخريب بعض المناطق في الفص القفوي يعطي نتائج متباينة .

ونعود ثانية إلى النص الماثل أمامنا للتأمل فندرك فيه أن إغماض الجفون إنما يكون بإيعاز من المخ الذي يصدر أوامره إلى جميع أنحاء الجسم ويبسطها على جميع جوارحه بشكل غريب وبسرعة غريبة بحيث أنه لا يختلف عنده العضو القريب منه والبعيد عنه ، وهذه الإشارات التي يرسلها المخ في إصدار أوامره إلى منطقة العين ، وهي أقرب منطقة إلى المخ ، ولا تكاد أن توجد بينهما حدود سياسية تأتي بصورة فورية لا تستغرق شيئاً من الزمن ، ومعنىٰ ذلك أن هذه الإشارات تعبر من هذه المنطقة إلى هذه المنطقة بدون أدنىٰ عرقلة وانفعال في كلا العضوين .

إن هذه الإشارات بخفائها ودقتها ورقتها لا تخفىٰ على الله ـ سبحانه وتعالى ـ مع كونها متاخمة للعدم ، وقد مرّ معنا في الجزء الثالث شيء من ذلك عند تفسير قوله ـ عليه السلام ( تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . . النص ) ومرّ معنا أيضاً في أبحاث الجزء الثاني من الكتاب كلام حول موضوع العين هو شبيه في شيء من هذا ، ومرّ في الجزء الأول من الكتاب شيء من ذلك بعنوان ( النوم ) .

وبهذا الأعتبار ندرك ما قاله ـ عليه السلام ـ أنه لا يخفىٰ عليه سبحانه( إغماض الجفون ) ؛ لأنه يعلم بالشيء قبل أن يقع . وإلى هذا أشار أمير المؤمنين علي ـ عليه السلام ـ في دعاء الصباح : ( يا من قرب من خواطر الظنون ، وبعد عن لحظات العيون ، وعلم بما كان قبل أن يكون . . الدعاء ) .

على أن ما يدور في فلك هذه العبارة هو إشارة إلى تلك الحالة التي

تعتري الإنسان من الخمود وعدم الوعي والإحساس والسكون ، وذلك أقرب إلى العدم منه إلى الوجود ، ومع ذلك فإن هذا الشيء المقارب للعدم لا يخفىٰ عليه سبحانه ، وإن كان القول بعدم الواسطة بينهما وارد ، إلا أن التشبه بأحدهما ليس ببعيد .

ولذلك فإن قوله ـ عليه السلام ـ ( ولا لحظ العيون ) ترديد بين هذه العبارة وبين العبارة السابقة ، وهو كالترديد بين الوجود والعدم ، لأن لحظ العيون هو النظر ، وهو يلازم الوعي والإنتباه ، فلا يمكن للعين أن تلاحظ شيئاً ، بمعنىٰ أن تنظر إليه في حالة إغماض الجفون ؛ لأن الجفون هي غطاء العين ، ولا يمكن للعين اللحاظ بتغطيتها ، فالعبارتان تدوران مدار الوجود والعدم .

## علم الغيب

ثم يواصل ـ عليه السلام ـ كلامه بهذا المعنىٰ فيقول ( ولا ما استقر في المكنون ، ولا ما انطوت عليه مضمرات القلوب ) وهذا كله مضافاً إلى ما تقدم من علم الغيب ، فمعنىٰ الإستقرار في المكنون البقاء في علم الغيب ، وتكاد الجملتان أن تنطبقا كل منهما على الأخرىٰ تمام الإنطباق في المعنىٰ ، إلّا أنه عند التأمل لا يخلو من تفاوت بسيط لا يستحق الذكر ، وإذا رجعنا إلى معنىٰ المكنون وجدنا أن هذه الكلمة تعني المخزون ، وهو ما لم يظهر للناس ولم يعرفه أحد ، وهذا هو معنىٰ الغيب ، وقد عرّفوه بتعريفات كثيرة وأسلمها أنه خلاف الشهادة ، وينطبق على ما لا يقع عليه الحس ، وهو الله سبحانه وآياته الكبرىٰ الغائبة عن حواسنا ، ومنها الوحي .

وقد ذكروا حقيقة السبب في اختصاص العلم بالغيب به تعالى أن غيره أياً ما كان محدود الوجود لا سبيل له إلى الخارج منه الغائب عنه من حيث إنه غائب ، ولا شيء غير محدود ، ولا غير متناه محيط بكل شيء

إلاّ الله سبحانه فله العلم بالغيب .

ولكنه سبحانه ذكر في كتابه المجيد أنه ربما أظهر على غيبه بعض من يرتضي وذلك في قوله ـ تعالى ـ ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلاّ من ارتضىٰ من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾(١١) قال في الميزان : ومفاد الكلمة ﴿ عالم الغيب ﴾ بإعانة من السياق إختصاص علم الغيب به ـ سبحانه وتعالى ـ مع إستيعاب علمه كل غيب ، وإذا أضاف الغيب إلى نفسه ثانياً فقال : ﴿ على غيبه ﴾ بوضع الظاهر موضع المضمر ليفيد الإختصاص .

والمعنىٰ هو عالم كل غيب علماً يختص به فلا يطلع على الغيب أحداً من الناس ، فالمفاد سلب كلي وإن أصر بعضهم على كونه جزئياً محصل معناه لا يظهر على كل غيبه أحدا .

ثم استثنى من ذلك ﴿ من ارتضىٰ ﴾ فيفيد أن الله تعالى يظهر رسله على ما شاء من الغيب المختص به ، فالآية إذا انضمت إلى الآيات التي تخص علم الغيب به تعالى كقوله : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو ﴾(١٢) وقوله ﴿ ولله غيب السمٰوات والأرض ﴾(١٣) وغيرهما . أفاد ذلك معنىٰ الأصالة والتبعية فهو تعالى بعلم الغيب لذاته ، وغير تعلمه بتعليم من الله(١٤) .

أما مضمرات القلوب فربما توجه إلى وجهين :

**الأول** : هو ما يكنه الإنسان إبتداءً في القلب وهو من محض تصوراته

---

(١١) سورة الجن : الآية ، ٢٦ ، ٢٧ .

(١٢) سورة الأنعام : الآية ، ٥٩ .

(١٣) سورة النحل : الآية ، ٧ .

(١٤) الميزان ج ٢٠ ص ٥٣ .

وتخيلاته التي يخترعها قلبه فتبقىٰ تراوده من حين لآخر في يقظته ونومه .

**الثاني** : وهو ما يرد على الإنسان من مؤثرات خارجية من خير أو شر ، وربما اختلفت هذه المؤثرات شدة وضعفاً ، ومن ثم تختلف مدة بقائها في القلب فلا تنسىٰ ، ولكن بعضها لا يلبث أن يتلاشىٰ ، غير أن البعض الآخر لا يزال باقياً وذلك بحكم قوة المؤثر . وهذه لا يعرف عنها الإنسان كل الإنسان من أصحاب الإحساس المرهف ، فالبعض يدرك بعض التلاشي ، والبعض الآخر لا يدركه ، وبعض ينسىٰ ، ولا ينسىٰ البعض الآخر ، ولذلك يبقىٰ الإنسان يتذكر حادثة تمر عليه ، فربما ذكرها إجمالاً ، ولكنها تغيب عنه تفصيلاً غير أن الله سبحانه هو عالم بذلك كله لا تخفىٰ عليه خافية وإلى هذا أشار قوله تعالى : ﴿ **والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما** ﴾[١٥] قال في مجمع البيان : يعلم ما في قلوبكم من الرضا والسخط والميل إلى بعض النساء دون بعض ، وهو أعلم بمصالح عباده حليم في ترك معاجلتهم بالعقوبة[١٦] .

ومما تقدم من الكلام يتجلىٰ معنى قوله ـ عليه السلام ـ ( ولا ما انطوت عليه مضمرات القلوب ) فإن من مضمرات القلوب السخط والرضا والنفاق والإيمان وغير ذلك مما ليس بالأشياء المادية أو تدرك بالحواس ، أو يعلم بها أحد ؛ وذلك لأن القلب هو ( المنطقة الحرام ) البعيدة عن كل المؤثرات الخارجية ـ كما ذكرنا ذلك مراراً ـ إلّا أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل ما في القلب من خطرات ، وكل ما يعتريه من حالات إنفعالية بحتة ، ويضرب لنا التاريخ مثلاً من سيرة الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ ، إنه في مسيره إلى العراق لقيه الفرزدق خارجاً من الكوفة ، فسأله عن حال الناس فيها ، فقال : يابن رسول الله خلفتهم قلوبهم معك وسيوفهم عليك :

---

(١٥) سورة الأحزاب : الآية ، ٥١ .

(١٦) مجمع البيان للطبرسي ج ٨ ص ٥٧٥ .

ومعنىٰ ذلك أن القلوب لم يؤثر فيها عبيد الله بن زياد بقهره وشدة بطشه ، فهو وإن سخر الأجسام وحمّلها السيوف لحرب الحسين ـ عليه السلام ـ إلّا أن القلوب لم يستطع علىٰ إمالتها ضد الحسين . وهكذا نرىٰ أن القلب بمكانه الجغرافي من أعضاء البدن بعيد عن المؤثرات الخارجية ، إلّا أنه سريع التأثر بها قريب الإنفعال . ومعنىٰ ذلك أن الآثار المتعمدة لا يمكن أن تصل إليه ، ولكنه فيما إذا أراد التأثر هو نفسه فإن باستطاعته ذلك .

## العلم والحلم

هما صفتان متلازمتان ، لا تنفك إحداهما عن الآخرىٰ ، فلا تكاد ترىٰ عالماً إلّا وقد جاءته صفة الحلم منقادة . على أننا لا ننكر الشواذ من الناس الذين يخرجون من القاعدة ولكل قاعدة شواذ . فهناك من يمتاز بالعلم ولكنه لا يتصف برزانته ، وهناك من يتصف بالحلم ، ولكن ليس له حظ من العلم . على أن الحلم جنبة كبيرة من جنبات الأخلاق التي تمدّح الله بها نبيه الكريم فقال سبحانه ﴿ **وإنك لعلىٰ خلق عظيم** ﴾[17] قال السيد البحراني في تفسير البرهان ، حدّث محمد بن يعقوب ، عن عدّة من أصحابنا عن أحمد بن أبي عبد الله عن أبيه ، عن حماد بن عيسىٰ ، عن حريز بن عبد الله ، عن بحر السقاء قال : قال أبو عبد الله ـ عليه السلام ـ يا بحر حسن الخلق يسير ثم قال ألا أخبرك بحديث ما هو في يدي أحد من أهل المدينة ؟ قلت بلىٰ قال : بينما رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ ذات يوم جالس في المسجد إذ جاءت جارية لبعض الأنصار وهو قائم فأخذت بطرف ثوبه فقام لها النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ فلم تقل شيئاً ولم يقل لها النبي شيئاً حتىٰ فعلت ذلك ثلاث مرات فقام لها النبي ـ صلىٰ الله

(١٧) سورة القلم : الآية ، ٤ .

عليه وآله ـ في الرابعة وهي خلفه فأخذت هدبة من ثوبه ثم رجعت فقال لها الأنصار فعل الله بك وفعل حبست رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ ثلاث مرات لا تقولين له شيئاً وهو لا يقول لك شيئاً ما كانت حاجتك إليه ؟ قالت : إن لنا مريضاً فأرسلني أهلي لأخذ هدبة من ثوبه يتشفى بها فلما أردت آخذها رآني فقام واستحييت أن آخذها وهو يراني وأكره أن أستأمره في أخذها فأخذتها[١٨]

وفيه أيضاً عن الشيخ في أماليه ، قال حدّثنا الشيخ أبو عبيد الله الحسين بن عبيد الله الغضائري رحمه الله ـ ، عن أبي محمد هارون بن موسىٰ التلعبكري ، قال حدثنا محمد بن همّام ، قال حدّثنا علي بن الحسين الهمداني ، قال حدّثنا عبد الله ( أحمد بن ) محمد ابن خالد البرقي ، عن أبي قتادة القمي ، عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال : إن لله عز وجل وجوهاً خلقهم من خلقه وأرضه ، لقضاء حوائج إخوانهم ، يرون الحمد مجداً . والله يحب مكارم الأخلاق . وكان في ما خاطب الله تعالى نبيه أن قال له : يا محمد ( وإنك لعلىٰ خلق عظيم ) قال : السخاء وحسن الخلق[١٩] .

هذا ما كان يتصف به الناس إذ يعتبر الحلم من الأخلاق الفاضلة كما مرّ في الروايتين المتقدمتين . أما الحلم المنسوب إليه سبحانه فهو كما مرّ تواً في الآية المتقدمة وهي قوله تعالى ﴿ **والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما** ﴾[٢٠] ، وكما ذكر الطبرسي في تفسيرها من أنه سبحانه أعلم بمصالح عباده ، حليم في ترك معاجلتهم بالعقوبة .

بعد هذا نقول إن قوله ـ عليه السلام ـ ( إلّا كل ذلك قد أحصاه

(١٨) تفسير البرهان للبحراني ج ٤ ص ٣٦٩

(١٩) تفسير البرهان ج ٤ ص ٣٦٩ .

(٢٠) سورة الأحزاب : الآية ، ٥١ .

علمك ، ووسعه حلمك ) قد سبق لنا الحديث في هذا المعنىٰ وهو الإحصاء ، وكيفية العلم به في أبحاث سابقة من الكتاب . لأن علمه سبحانه لا يحدّ بحدود لأنه لا يشبه علم الخلق الذي يأخذه بعضهم من بعض وينتهي إلى نقطة معينة من مكان معين .

أما سعة الحلم فإن ذلك قد ذكرته الآيات الكثيرة من الكتاب العزيز مثل قوله تعالى ﴿ **ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً** ﴾(٢١) قالوا في تفسيرها : أن يمهل فلا يعاجل بالعقوبة ، ويغفر لمن تاب ورجع إليه ، وفي الوصفين ( الحليم والغفور ) دلالة على تنزهه تعالى عن كل نقص ، فإن لوازم الحلم ألّا يخاف الفوت ، ولوازم المغفرة ألّا تتضرر بالمغفرة ، ولا بإفاضة الرحمة ، فملكه وربوبيته لا يقبل نقصاً ولا زوالاً .

وقد قيل في وجه هذا التنزيل في الآية : إنه إشارة إلى أن الإنسان في قصوره عن فهم هذا التسبيح الذي لا يزال كل شيء مشتغلاً به حتىٰ نفسه بجميع أركان وجوده بأبلغ بيان ، مخطىءً من حقه أنه يؤاخذ به ، لكن الله سبحانه بحلمه ومغفرته ، لا يعاجله ويعفو عن ذلك إن شاء ، ولازمه أن يكون الإنسان في وسعه أن يفقه هذا التسبيح من نفسه ومن غيره .

وعليه فإن سعة الحلم المنسوب إليه سبحانه معناه عدم الخوف من الفوت ، وذلك لأن الإنسان لا يخرج من ملكه تعالى ، ولا يخرج عن كونه عبداً له ، والعبد يؤمر وعليه أن يطيع ، وله الجزاء والثواب إن أطاع ، وعليه العقاب إن عصىٰ . هذا بالنسبة إلى الحلم المنسوب إليه سبحانه .

أما الحلم المنسوب إلى الإنسان فهو الأناة والتريث في تأمل لئلا يقع الإنسان المنتقم في خطأ ربما لا يستطيع أن يتداركه بعد أن يسبق السيف العذل .

---

(٢١) سورة الإسراء : الآية ، ٤٤ .

قال عليه السلام :

( سُبْحانَكَ وَتَعالَيْتَ عَمَّا يَقولُ الظّالِمُـونَ ، عُلُوّاً كَبيراً ، تُسَبِّـحُ لَكَ السَّمٰـاوٰاتُ السَّبْعُ ، وَالأَرض وَمـَــنْ فيهِـــنَّ ، وَاِنْ مِنْ شَيْءٍ اِلاّ يُسَبِّـحُ بِحَمْدِكَ ، فَلَكَ الْحَمْدُ وَالْمَجْدُ ، وَعُلُوُّ الْجِدِّ ، تَعالَيْتَ رَبَّنا يا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْـرٰامِ ، وَالْفَضْـلِ وَالإِنْعٰـامِ ، وَالأَيٰـادي الْجِسٰـامِ ، وَاَنْتَ الْجَـوٰادُ الْكَريمُ ، الرَّؤُوفُ الرَّحيمُ ) .

## اللُّغَةُ

**الجد** : الجد العظمة ، وفي التنزيل العزيز ﴿ **وانه تعالى جدُّ ربنا ما اتخـذ صاحبـة ولا ولدا** ﴾[1] قيـل جدّه عـظمتـه ، وقيـل : غنـاه ، وقـال مجاهد : جدّ ربنا جلال ربنا . وقال بعضهم : عظمة ربنا ، وهما قريبان من السواء .

وقال إبن عباس : لو علمت الجن أن في الإنس جداً ما قالت ذلـك وفي حـديث الدعـاء : تبارك اسمـك وتعـالىٰ جـدّك ، أي عـلا جـلالـك وعظمتك .

(١) سورة الجن : الآية ، ٣ .

والجد الحظ ، والسعادة والغنىٰ . وفي حديث أنس : إنه كان الرجل منّا إذا حفظ البقرة وآل عمران جدّ فينا ، أي عظم في أعيننا ، وجلّ قدره فينا وصار ذا جد .

**الجلال** : الجلال العظمة ، والجليل من صفات الله ـ تقدس وتعالى ـ ، وقد يوصف به الأمر العظيم ، والرجل ذو القدر الخطير . وأجله عظّمه . قال أبو النجم :

الحمد لله العلي الأجلل      أعطىٰ فلم ينجل ولم يُنجل

وقوم جلة ذوو أخطار ، وجلت الناقة إذا أسنت ، وجلّت الهاجنة عن الولد أي صغرت . وفي حديث الدعاء : اللهم أغفر لي ذنبي كلّه دقّه وجلّه أي صغيره وكبيره .

والجلل الشيء العظيم والصغير الهين ، وهو من الأضداد في كلام العرب ، ويقال للصغير والكبير : جلل ، وقال امرؤ القيس لما قتل أبوه :

بقتل بني أسدٍ ربهم      ألا كل شيء سواه جلل

أي يسير هين ، ومثله قال لبيد :

كل شيء ما خلا الله جلل      والفتىٰ يسعىٰ ويلهيه الأمل

**الجسام** : الجسام بالكسر جمع جسيم . وجسم الرجل وغيره يجسم فهو جسيم ، وتجسمت الأمر إذا ركبت أجسمه وجسيمه ، وتجسم من الجسم ، والتجسم ركوب أجسم الأمر ومعظمه ، والجسم بضم الجيم والسين الأمور العظام ، والأجسم الأضخم ، قال عامر بن الطفيل :

لقد علم الحي من عامر      بأن لنا الذروة الأجسما

## البيان

إن من صفات الداعي التي ينبغي أن يكون عليها في حالة دعائه وتملقه وتقديم حاجاته بين يدي ربه أن يثني عليه أبلغ الثناء ، ويذكره بأحسن الذكر ، ويصفه بالصفات التي يتفرد بها ولا يشاركه فيها أحد من مخلوقاته .

يقول ـ عليه السلام ـ ( سبحانك وتعاليت عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً ) ولقد مرّ معنىٰ كلمة ( سبحان ) في كثير من مناسبات الكلام ، وقلنا بأنها تعني التنزيه ، وقد استشهدنا بقول الشاعر :

سبحانه ثم سبحاناً يعود له　　　وقبلنا سبح الجودي والجمد

أما كلمة ( تعاليت ) فهي تعطي ما يقارب معنىٰ ( سبحان ) وكلاهما تعني بصفة عامة الترفع والتنزه عن كل كلام لا يليق بالحضرة المقدسة . وهذا التنزيه هو تنزيه الخالق عن صفات المخلوق . فقوله ـ عليه السلام ـ ( علواً كبيرا ) يشعر بالفارق ما بينهما .

والذي يقوله الظالمون هو الشرك ؛ لأن المشركين هم الظالمون إستناداً إلى قوله ـ تعالى ـ في سورة لقمان ﴿ **وإذ قال لقمان لأبنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم** ﴾[(٢)] . وفي عبارة الدعاء تلويح للآية الشريفة لفظاً ومعنىً وهي قوله ـ تعالى ـ ﴿ **سبحانه وتعالى عمّا يقولون علواً كبيرا** ﴾[(٣)] قال الطوسي في التبيان : سبحانه أي تنزيهاً له ـ تعالى ـ عمّا يقولون ، أي عن قولهم . ويجوز أن يكون المراد عن الذي يقولونه من الأقوال الشنيعة فيه بأن معه آلهة . ﴿ **وعلواً كبيرا** ﴾ إنما لم يقل تعالياً ؛

(٢) سورة لقمان : الآية ، ١٣ .
(٣) سورة الإسراء : الآية ، ٤ .

لأنه وضع مصدراً مكان مصدر نحو قوله ـ تعالى ـ ﴿ وتبتل إليه تبتيلا ﴾[٤] ومعنىٰ ﴿ تعالى ﴾ أي صفاته في أعلىٰ المراتب فإنه لا مساوي له فيها ؛ لأنه قادر ولا أحد أقدر منه ، وعالم ولا احد أعلم منه ولا مساوي له في ذلك[٥] .

واستناداً إلى شرح الآية الكريمة : ـ كما أورده الشيخ في تفسيره ـ إن الظالمين يقولون مالا يعلمون ، بل يقولون خلاف ما يعلمون ، وهذه ليست من صفات العقلاء ، لِأن القول بغير علم هو تهريج ليس له معنىٰ ، لأن قولهم لله شريك لا يستند إلى دليل مادي ولا عقلي ، والذي يقوله الظالمون أي المشركون ـ كما فسّرت بذلك الآيات المذكورة ، وكما ورد عن أبي علي أن المقصود بالظالمين هم المشركون ـ قول تكاد السماوات تتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا . فتعاليه سبحانه عن قولهم بأن له شريكاً في الملك يعني تنزيهه عن الشريك ؛ لأن الشركاء يبغي بعضهم على بعض ، ويظلم بذلك بعضهم على بعض وليس هو كذلك ، وربما ألمح الظلم الذي تشير إليه الآية في سورة لقمان بذلك .

وربما راود الإنسان معنىً آخر لهذه العبارة ، وهو أن الظالمين الذين يقولون قولاً خاطئاً يظلمون انفسهم بذلك القول ؛ لأنه يتسبب في ورودهم العذاب الذي من جملة انواعه النار التي تطلع على الأفئدة ، ومعنىً آخر ، وهو أنهم يظلمون الناس بتضليلهم وإغوائهم ليبعد وهم ويصدوهم عن طريق الهدى .

وعلى كل حال فإن الظالمين هم الذين يقولون بخلاف ما يقوله العقلاء ، بل ويتنكرون لوجدانهم .

---

(٤) سورة المزمل : الآية ، ٨ .

(٥) التبيان للطروسي ج ٦ ص ٤٨٢ .

# تسبيح السمٰوات والأرض

ثم يواصل كلامه ـ عليه السلام ـ في هذا المعنىٰ فيقول ( تسبح لك السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمدك ) إن التسبيح ممن يعقل هو قول ( سبحان الله ) وأما من غير من لا يعقل فإنه لا يتأتىٰ منه التسبيح بالقول ، ولكن الله قد سمّاه تسبيحاً في كثير من آيات الكتاب العزيز ، وبل وسمّاه سجوداً في قوله ـ تعالى ـ ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من في السمٰوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء** ﴾[٦] . قال في الميزان : إن الخطاب لكل من يرىٰ ويصلح لأن يخاطب ، والمراد بالرؤية العلم ، ويمكن أن يختص بالنبي ـ صلى الله عليه وآله ـ ويكون المراد بالرؤية ، الرؤية القلبية كما قال فيه تعالىٰ ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأىٰ ، أفتمارونه على ما يرىٰ** ﴾[٧] .

وتعميم السجدة لمثل الشمس والقمر والنجوم والجبال من غير أولي العقل دليل على أن المراد بها السجدة التكوينية ، وهي التذلل والصغار قبال عزته وكبريائه تعالى وتحت قهره وسلطنته ، ولازمه أن يكون ﴿ **من في الأض** ﴾ شاملاً لنوع الإنسان من مؤمن وكافر . إذ لا إستثناء في السجدة التكوينية والتذلل الوجودي[٨] .

وفي ذلك نظر : وهو أن الكافر لا يحدث منه ذلك الخضوع والتذلل لأن التذلل والخضوع أمران ماديان يثبت وجودهما في الخارج ، ويأتيان

---

(٦) سورة الحج : الآية ، ١٨ .

(٧) سورة النجم : الآية ، ١٢ .

(٨) الميزان ج ١٤ ص ٣٥٩ .

طوعاً من الإنسان ، وهما لا يتحققان طوعاً من الكافر إذا قلنا بذلك .

ونرجع البصر مرة ثانية في العبارة المطروحة أمام هذا البحث فنراها تشير إلى الآية الكريمة في قوله تعالى ﴿ **تسبح له السمٰوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً** ﴾[٩] وهي تثبت لأجزاء العالم المشهود التسبيح ، وإنها تسبح الله وتنزهه عما يقولون من الشريك وينسبون إليه .

وعند هذه الموجودات المشهودة من السماء والأرض وما فيهما ما يكشف كشفاً صريحاً عن وحدانية ربها في ربوبيته وينزهه تعالى عن كل نقص وشين فهو تسبيح .

والحق أن التسبيح في الجميع حقيقي قالي ، غير أن كونه قالياً لا يستلزم أن يكون بألفاظ موضوعة ، وأصوات مقروعة فقوله تعالى ﴿ **تسبح له السمٰوات السبع والأرض ومن فيهن** ﴾ يثبت لها تسبيحاً حقيقياً ، وهو تَكَلُّمُها بوجودها ، وماله من الإرتباط بسائر الموجودات الكائنة وبيانها تنزه ربها عما ينسب إليه المشركون من الشركاء وجهات النقص ، وقد استفاضت الروايات من طرق الشيعة وأهل السنة أن للأشياء تسبيحاً ، ومنها روايات تسبيح الحصىٰ في كف رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ . قاله في الميزان .

وفيه نظر : وهو أن تسبيح الحصىٰ في كف رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ بموجب أمر الٰهي خاص ، لأنه معجزة خاصة في زمان خاص في مكان خاص لغرض إثبات المعجزة له ـ صلى الله عليه وآله ـ والذي بدوره يثبت النبوة بذلك . وفي ذلك مجال للحديث والمناقشة أعرضنا عنه خوف الإطالة .

---

(٩) سورة الإسراء : الآية ، ١٤ .

# لغز السَّبْعةِ المُحيِّر

وبنظرة أخرىٰ للآية الكريمة نـريد أن نقـول : إن السماوات السبـع ـ كما ورد هذا العدد في الآيات والروايات ـ هو عدد فيه لغز محير لم يكشف عنه الحجاب حتىٰ هذه اللحظة . ويبدو أن هذا العدد هو عدد مبارك ؛ لأنه موجود في كثير من الطقوس الدينية الإسلامية .

فـالسماوات سبـع ، والأرضون سبـع ، والمثاني وهي عـدل القرآن سبع ، والطواف بالبيت سبعة ، والسعي بين الصفا والمروة سبعة ، والجمار سبع سبع .

وقـد إورد الشيخ الصـدوق في كتاب الخصـال تحت عنوان ( بـاب السبعة ) كثيراً من الأحاديث ، وأكثر من ذلك ، فمنها قوله :

حدثنا أبي ـ رضي الله عنه ـ قال حـدثنا سعـد بن أبي عبد الله ، عن أحمد بن محمد ابن عيسىٰ ، عن أبي يحيىٰ الـواسطي بـإسناده رفعـه إلى الصادق ـ عليه السلام ـ قال : الدنيا سبعة أقاليم : يـا جوج ، ومـاجوج ، والروم ، والصين ، والزنج ، وقوم موسىٰ ، وأقاليم بابل[١٠] .

وفي الخصال أيضاً قال : حدثنـا أحمد بن الحسن القـطان ، قال : حدثنا أحمد بن يحيىٰ ابن زكريا القطان قـال : حدثنـا بكر بن عبـد الله بن حبيب قال : حدثنا تميم بن بهلول قال : حدثنا عبد الرحمن بن الأسود عن محمد بن عبد الله بن عبـد الرحمن بن معمـر ، عن عمّار بن يـاسر ؛ وعن جـابـر بن عبـد الله قـالا : قـال رسـول الله ـ صلى الله عليـه وآلـه ـ لعلي ـ عليه السلام ـ أحاجك يوم القيامة فأحاجك بالنبوة وتحاج قومك فتحاجهم بسبع خصال : إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن

---

(١٠) كتاب الخصال للصدوق ص ٣٥٧ .

المنكر ، والعدل في الرعية ، والقسم بالسوية والأخذ بأمر الله ـ عز وجل ـ ، أما علمت يا علي أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ موافينا يوم القيامة فيدعىٰ فيقام عن يمين العرش فيكسىٰ كسوة الجنة ، ويحلي من حليّها ، ويسيل له ميزاب من ذهب من الجنة فيهب من الجنة ما هو أحلىٰ من الشهد وأبيض من اللبن وأبرد من الثلج ، وأدعىٰ أنا فأقام عن شمال العرش فيفعل بي مثل ذلك ، ثم تدعىٰ أنت يا علي فيفعل بك مثل ذلك ، أما ترضىٰ .

يا علي أن تدعىٰ إذا دعيت أنا وتكسىٰ إذا كسيت أنا وتحلّىٰ إذا حليت أنا ، إن الله ـ عز ذكره ـ أمرني أن أدنيك فلا أقصيك ، وأعلمك فلا أجفوك ، وحقاً عليك أن تعي وحقاً علي أن أطيع ربي ـ تبارك وتعالى ـ[11] .

وقال فيه أيضاً : حدثنا أبي ـ رضي الله عنه ـ ، قال : حدثنا سعد بن عبد الله ، عن محمد بن عبد الجبار ، عن الحسن علي بن فضال ، عن ثعلبة بن ميمون ، عن بعض أصحابنا ، عن المعلّىٰ بن خنيس قال : قلت لأبي عبد لله ـ عليه السلام ـ : ما حق المؤمن على المؤمن ؟ قال : سبعة حقوق واجبات ما فيها حق إلّا وهو واجب عليه وإن خالفه خرج من ولاية الله وترك طاعته ولم يكن لله عز وجل فيه نصيب قال : قلت : جعلت فداك حدّثني ما هي ؟ قال : ويحك يا معلّىٰ إني شفيق عليك أخشىٰ أن تضيع ولا تحفظ وتعلم ولا تعمل قلت : لا قوة إلّا بالله ، قال : أيسر منها أن تحب له ما تحب لنفسك ، وتكره له ما تكره لنفسك ، والحق الثاني أن تمشي في حاجته وتبتغي رضاه ولا تخالف قوله ، والحق الثالث أن تصله بنفسك ومالك ويدك ورجلك ولسانك . والحق الرابع أن تكون عينه ودليله ومرآته وقميصه . والحق الخامس أن لا تشبع ويجوع ، ولا تلبس ويعرىٰ ، ولا

---

(١١) كتاب الخصال للصدوق ص ٣٥٠ .

تروى ويظمأ . والحق السادس ان يكون لك إمرأة وخادم وليس لأخيك إمرأة ولا خادم أن تبعث خادمك فتغسل ثيابه ، وتصنع طعامه ، وتمهد فراشه ، فإن ذلك كله إنما جعل بينك وبينه . والحق السابع أن تبّر قسمه وتجيب دعوته ، وتشهد جنازتـه ، وتعوده في مرضه ، وتشخص بدنك في قضاء حاجته ، ولا تحوجه إلى أن يسألك ولكن تبادر إلى قضاء حوائجه ، فإذا فعلت ذلك به وصلت ولايتك بولايته بولاية الله عز وجل[١٢] .

أما تسبيح السماوات السبع والأرض ومن فيهن وكل شيء فقد تقدم كيفيته .

وأما ذات السماوات السبع فقد جاء وصفها في كثير من كتب الهيئة التي تتعرض لهذا الوصف وعلى رأسها ما قاله أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ في نهج البلاغة :

( ونظم بلا تعليق رهوات فرجها ، ولاحم صدوع إنفراجها ، ووشج بينها وبين أزواجها ، وذلـل للهابـطين بأمـره ، والصاعـدين بأعمـال خلقه خزونة معراجها ، وناداها بعد إذ هي دخان فالتحمت عرىٰ أشراجها ، وفتق بعـد الإرتتاق صـوامت أبـوابهـا ، وأقـام رصـداً من الشهب الثـواقب على نقـابها ، وأمسكهـا من أن تمور في خـرق الهواء بـأمره ، وأمـرها أن تقف مستسلمة لأمره ، وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها وقمرها آيـة ممحوة من ليلها ، وأجراهما في مناقل مجراهما ، وقدر سيرهما في مدارج درجهما ، ليميز بين الليل والنهار بهما ، وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما ، ثم علق في جوها فلكها وناط بها زينتها ، من خفيات دراريها ، ومصـابيح كـواكبها ، ورمىٰ مسترقي السمع بثـواقب شهبهـا ، وأجـراهـا على إذلال تسخيرها من ثبات ثابتها ، ومسير سائرها ، وهبوطها وصعودها ، ونحوسها وسعودها ) .

---

(١٢) كتاب الخصال للصدوق ص ٣٦٢ .

## حقيقة السموات السبع

أما حقيقة هذه السماوات السبع وترتيبها فإن أكثر المسلمين يعتقدون فيها ـ كما جاءت به شريعتهم ـ أنها هي أفلاك السيارات التي أثبتها قدماء الحكماء ، والتزموا بأنها أجسام بسيطة شفافة كروية متلاصقة ، وغير ذلك من الصفات ، ونحن نجد الحكماء المتأخرين كشفوا بعد الألف من هجرة النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ غشاوة الجهل عن وجوه الجواهر العلوية ، وشرحوا لنا احوال الكرات من الثوابت والسيارات ، فلم يجدوا من تلك الأفلاك عيناً ولا اثراً ، بل وجدوا ما ينافي وجودها .

فإذا انتفى وجود هذه الأجرام العظيمة ، وبطلت مباني الهيئة القديمة فأين تكون السماوات والأرضون التي تواتر ذكرها في الدين الإسلامي على مبلغها السلام والتحية ؟

وفي مقام التحقيق لا يكاد يخفى على من استقرأ كتب المسلمين أنهم وإن اتفقوا في عدد السماوات ، ولكنهم مختلفون في حقيقتها وتطبقها على أفلاك الفلاسفة ، حتى أن بني نوبخت وهم من قدماء الإمامية المشهورين بعلوم النجوم والفلسفة يرون السماوات السبع فوق الأفلاك وتبعهم في ذلك حسب المنقول الشيخ أبو الفتح محمد الكراجكي المتوفي سنة ٤٤٩ هـ .

نعم منذ أن شاعت الهيئة البطليموسية في القرون المتوسطة الهجرية اشتهر بين المسلمين أن السموات السبع هي الأفلاك العظيمة للسيارات السبع ، حتى إعتقد المتفلسفون منهم أن الكرسي هو فلك الثوابت ، وأن العرش هو فلك الأفلاك على ترتيب الهيئة القديمة ، وهذا ما صرح به شيخنا البهائي في صدر تشريح الأفلاك ، وغيره في غيره .

أما حقيقة السماوات فلا زالت مجهولة عند علماء الإسلام وغيرهم ؛

لأن المنقول بالظن واليقين من مقالات هذا الشرع المبين في ابواب السماوات والأرصين غير مناسب لما اثبته الفلاسفة للجواهر السماوية لا ذاتاً ولا صفة ، بل التنافي بينهما ظاهرٌ وبينٌ جداً .

إن الشرع الإسلامي ناطق بأن السماء تقبل الطي والإنخراق ، والشمس والقمر يقبلان التكوير والإنشقاق وأن السماء خلقت من بخار أو دخان ولها ملاك وأبواب وسكان ودواب ، وفيها صخور وجبال وذرات اقل من المثقال ، وهي حادثة غير أزلية ، وزائلة غير ابدية ، وأن الجنة موجودة الآن في ما بينها بجميع لذاتها الحية ، وغير ذلك مما يناقض مباني الهيئة البطليموسية . ولأجل هذا التنافي التزم المحققون من علمائنا بالتفرق في أكثر ظواهر الشرع ، حتى ذهب بعضهم إلى إتحاد عنوان السماوات وعنوان الأفلاك . كل هذا لكي يوفقوا بزعمهم بين الشريعة المقدسة وبين تلك الفلسفة المندثرة ، حيث كانوا مستأنسين بقواعدها غافلين عن وهن أساسها ، منذهلين من أن النبي وأمناءه ـ عليهم السلام ـ كانوا يحذرون الناس عن الميل إلى آراء الفلاسفة ، فلو كانت آراؤهم هي البواطن لظواهر أقوال الشريعة فما هذا التحذير وعمدة الاضطراب إنما هو فهم حقيقة هذا الجسم المحيط بالأرض ، وأنه عنصري أو فلكي أو غيرهما ، بل وفي انه جسم مادي أو جوهر قدسي ، بل وفي أنه جوهر أو عرض ، كالقائل بأن السماء في عرف الشرع نفس جهة العلو والجو لا غير[١٣] .

## حقيقة الأرض

وقالوا في الأرض كما قالوا في السماء ، واختلفوا في هذه كما اختلفوا في تلك ، وتوقفوا بعد ذلك هنا كما توقفوا هناك ، وأصابهم الوهن والضعف في كلتا الحالتين ، وظهر بهم العجز فارتدوا خاسئين .

---

(١٣) الهيئة والإسلام ص ١٤٠ .

وقالوا بأن الأرض مسطحة ، وقالوا بأنها كروية ، وقالوا بأنها مكعبة ، وقالوا بأنها كالأسطوانة المستديرة ، وقالوا بأنها كسفينة مجوفة ، وقالوا هي كالطبل ، وقدماء اليونان قالوا : إنها كدائرة مسطحة مركزها بلادهم ومحيطها سواحل المحيط ، فهم كالمدعي وصلاً بليلىٰ .

وقال نيوتن المتوفىٰ في سنة ١٧٢٧ م والمتأخرون عنه إنها شبه الكرة وليست كرة تامة ؛ لوجود تسطيح في جانبي قطبيها ، أي يقصر محيطها القطبي عن محيطها الإستوائي نحو ثلاثة عشر فرسخاً ، ويقصر أحد القطرين الإستوائيين عن الآخر بميلين ، وهذا الرأي هو الذي قد فاز اليوم بالشهرة وتصديق الحكماء ، وقيام البراهين والشواهد عليه .

وأما الشريعة الإسلامية ففيها إشارات ودلائل علىٰ كروية الأرض ، بل وعلىٰ تسطيح قطبيها ، وفاقاً للرأي الأخير .

أما الإشارات فانها تعرف من تشبيهات الأئمة ـ عليهم السلام ـ لجرم الأرض بالأجسام المستديرة استدارة غير تامة غالباً ، كالربوة والدرة والمهاة والجبل من زبد ، وخلقة الجوز والقبة ونحوها .

وأما الدلالات فأحدها قوله تعالىٰ : « ﴿ برب المشارق والمغارب ﴾[١٤] ؛ فإن كروية الأرض تستلزم أن تكون كل نقطة فرضت عليها مشرقاً لقوم ومغرباً لقوم ، فيصح تكثر المَشارق والمغارب بناءً علىٰ الكروية من غير أن نتكلف في تفسير الآية .

ثم لنا أن نقول : أن في آثار شريعتنا من خطبها وأخبارها وأدعيتها ـ كمالا يخفىٰ ـ أن الأرض قائمة بنفسها في الفضاء غير معتمدة ولا محمولة علىٰ جرم غير جرمها وفاقاً للمحققين من الحكماء ، قال الله تعالىٰ :

---

(١٤) سورة المعارج : الآية ، ٤٠ .

﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾[١٥] قال ابن شهر أشوب هبة الله ابن سلامة في الناسخ والمنسوخ ﴿ بأمره ﴾ يعني بلا دعامة تدعمها ، ولا علاقة تتعلق بها ، وقال غيره يعني أن إقامتها بلا مقوم محسوس هي من قدرته ، ولو كان غير ذلك لم يتحقق كونه آية ربانية .

وقال تعالىٰ : ﴿ إن الله يمسك السماء والأرض أن تزولا ﴾[١٦] أي بناموس الجاذبية العامة .

وقال النبي في دعاء رواه ابن طاووس في مهج الدعوات ، والعلامة المجلسي في البحار : « نور السماوات والأرضين وفاطرهما ، ومبتدعهما بغير عمد ، خلقهما فاستقرت الأرضون بأوتادها فوق الماء »[١٧] .

وعندما نستعرض ذلك ونبين بأن الأرض تقوم علىٰ غير عمد نريد أن نجعلها مثالاً حسياً لبقية الأجرام السماوية التي تملأ هذا الكون الرحيب ، فكلها بلا عمد ، وكلها معلقة ، وكلها تسبح في فلك لا تتعداه ، وكلها بقدرة قادر سبحانه وتعالىٰ عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

بقي أن نقول : إن ما في هذه السماوات السبع ، وما في هذه الأرضين السبع ، وما بينهن وما فوقهن وما تحتهن كل يسبح بحمده من إنس وجن وحيوان ونبات وجماد علىٰ اختلاف كيفيات التسبيح وتغاير مصاديقه . وقد تقدم في صدر الشرح لهذه الفقرة المطروحة بين يدي هذا البحث ما يشير إلىٰ ذلك .

ولما ذكر ـ عليه السلام ـ أن السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، يسبح بحمده ، فقد شمل هذا القول كل شيء وكل موجود ؛ لأنه ليس وراء

---

(١٥) سورة الروم : الآية ، ٢٥ .
(١٦) سورة فاطر : الآية ، ٤١ .
(١٧) الهيئة والإسلام ص ١٤٠ وما بعدها .

السموات السبع والأرض ذكر لمخلوق ، بل ذكر شيء من الأشياء ، اللهم إلا ما يتخيله الفلاسفة بأوهامهم برسم الخرائط لما وراء هذا الكون ، وباختلاق النظريات التي لا تشير إلى الواقع بصلة ؛ ولذلك فإنه قد بّين ذلك الشمول بقوله عليه السلام : ( وإن من شيء إلا يسبح بحمدك ) وهذا هو منتهىٰ الإعتراف لله سبحانه بالعظمة والهيمنة على هذا الوجود .

## التحميد والتمجيد

ثم واصل ـ عليه السلام ـ كلامه بهذا المعنىٰ فقال : ( فلك الحمد والمجد وعلو الجد ) . لقد ضم حمده إلىٰ حمد غيره ، وتمجيده إلىٰ تمجيد غيره من سائر الموجودات ، وكأنه يريد أن يقول إني أخصك بالحمد فأحمدك حمداً ليس كحمد غيرك ، وأمجدك تمجيداً ليس كتمجيد غيرك من سائر الموجودات ، ولكني أشاركهم في تمجيدك ، وأعترف لك بالعظمة ، وهو علو الجد ، ونلتمس في هذا البيان اعترافاً واضحاً بالعجز عن أداء الحمد لله كما ينبغي ، وتمجيده كما ينبغي ، فكأنه قال عليه السلام : إني أحمدك كحمد كل شيء في السموات والأرض ، وأمجدك كما مجّدك من في السموات والأرض . والعبارة كما ترىٰ تتسع لكثير من الإحتمالات في هذا المجال ، وتقبل كثيراً من التوجيهات .

أما علو الجد فإن المقصود به زيادة العظمة ـ كما هو مذكور في بحث اللغة ـ وبهذا الإعتبار يمكن القول : بأن هذه العبارات المتلاحقة ، والمتساوية في المعاني ، وكل واحدة آخذة بعنق الأخرىٰ كلها مسوقة لتعظيم ذي الجلال ـ سبحانه ـ سواءً في ذلك السابقة واللاحقة . فاستمع إليه يقول : ( تعاليت ربنا يا ذا الجلال والإكرام ، والفضل والإنعام ، والأيادي الجسام ) وأنت إذا تأملت هذه الكلمات الموصوفة وصفاً اخذك العجب من كيفية هذا التركيب المحكم . ولا أريد أن أقول أكثر مما هي عليه ؛ لأنها واضحة المعالم ، سهلة الفهم .

فقوله عليه السلام ( تعاليت ) هو معنىٰ قوله ياذا الجلال . ومعنى ( الإكرام ) هو الفضل وهو ( الإنعام ) . ثم يصف بعد ذلك هذا كله بالجسامة والكبر ؛ لأن العطاء القليل من الله هو كثير عند العبد خصوصاً إذا كان العبد قانعاً .

ثم أثنىٰ علىٰ الله بما هو أهله ، فوصفه بالصفات التي تليق بجوده وكرمه فقال : ( وأنت الجواد الكريم ) والجواد والكريم بينهما عموم وخصوص مطلق ، وقد ذكر الخاص قبل العام ، وذكر ذلك ـ كما قرره علماء البلاغة ـ يقتضي فائدة يتوخاها المتكلم في الخاص دون العام . وقد ذكرت هذه الناحية في قوله تعالىٰ ﴿ **ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً** ﴾[18] ومثله أيضاً قوله عليه السلام : ( الرؤوف الرحيم ) فإن الرأفة داخلة في عموم الرحمة ، إلا أنها أخص من الرحمة . وبهذه النظرة نستطيع أن نوجه تقديم ( الرؤوف ) علىٰ ( الرحيم ) ؛ وذلك لأن الأولى أكثر أهمية ، وأعظم دقة في الحنان والعطف ؛ فتقديمها يشعر بأن الله سبحانه يرأف بالعباد قبل أن يرحمهم ؛ وذلك لأن الرحمة تأتي ملازمة للرأفة ، ولا تأتي الرأفة ملازمة للرحمة ، وذلك لما قلناه من نسبة العموم والخصوص المطلق .

ونرىٰ هذه الظاهرة واردة في كثير من آيات الذكر الحكيم ، وقد جرت عبارة الدعاء مجرىٰ تلك الآيات المليئة بالبلاغة .

---

(١٨) سورة عبس : الآيات ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ .

قال عليه السلام :

( اَوْسِعْ عَلَيَّ مِنْ رِزْقِكَ ، وَعافِنِي في بَدَني وَديني ، وَآمِنْ خَوْفي ، وَاَعْتِقْ رَقَبَتي مِنَ النّـارِ ، اَللّٰهُمَّ لا تَمْـكُـرْ بي ، وَلا تَـسْتَـدْرِجْـني ، وَلا تَخْذلْني ، وادْرَأْ عَنّي شَرَّ فَسَقَةِ الْجِنِّ وَالإنْسِ ) .

## اللغة

اعتق : العتق خلاف الرق وهو الحرية ، وأمة عتيق وعتيقـة في إماء عتائق ، والعاتق الجارية التي قد أدركت وبلغت مخدرة في بيت أهلها ولم تتزوج ، قال الشاعر :

أقيـدي دمـاً يـا أم عمـرو هـرقتـه　　بكفيـك يـوم الستـر إذ أنت عـاتق

وفرس عاتق سابق وجمعه عتاق ، والعتيق الكريم الرائع من كل شيء والعتق الكـرم ، والعتق الجمال ، والعتيق من أسمـاء البيت الحـرام سمي بذلك إما لأن الله قد أعتقـه من الغرق يـوم الطوفـان ، وإما لأن من حجـة عتقت رقبته من النار ، وإمرأة عتيقة جميلة كريمة قال الشاعر :

هجان المحيا عوهج الخلق سربلت　　من الحسن سـربـالاً عتيق البنـائق

المكر : إحتيال في خفية قال ـ تعالى ـ ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً

**وهم لا يشعرون** ﴾[1] ، وقوله ـ تعالىٰ ـ ﴿ **أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض** ﴾[2] وفي حديث الدعاء ( اللهم امكر لي ولا تمكر بي ) . قال ابن الأثير : مكر الله ايقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه . وقيل : هو استدراك العبد بالطاعات فيتوهم بأنها مقبولة وهي مردودة والمعنىٰ الحق مكرك بأعدائي لابي ، وأصل المكر الخداع .

**تستدرجني** : استدرجه أي أدناه منه على التدريج فتدرج وفي التنزيل العزيز ﴿ **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون** ﴾[3] قيل معناه سنأخذهم من حيث لا يعلمون ؛ وذلك لأن الله ـ تعالى ـ يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به فيركنون إليه ويأنسون به فلا يذكرون الموت ، فيأخذهم علىٰ غرتهم أغفل ما كانوا ، وسيأتي شرح هذه الآية عند الحديث عن هذه الكلمة في عنوان ( البيان ) . واستدرجه كلامي أن أقلقه حتىٰ تركه يدرج علىٰ الأرض وقال الأعشىٰ :

ليستدرجنك القوم حتى تهزه وتعلم أني منكم غير ملجم

**تخذلني** : الخاذل ضد الناصر خذله وخذل عنه ترك نصرته وعونه والتخذيل حمل الرجل علىٰ خذلان صاحبه وتثبيطه عن نصرته .

وخذلان الله العبد أن لا يعصمه من الشبه فيقع فيه نعوذ بلطف الله من ذلك .

وتخاذل القوم أي خذل بعضهم بعضاً . وفي الحديث المؤمن أخو المؤمن لا يخذله ، وتخاذلت رجلا الشيخ أي ضعفتا ، ورجل خذول الرجل تخذله رجله من ضعف أوعاهة أو سكر . قال الأعشىٰ :

---

(١) سورة النمل : الآية ، ٥٠ .
(٢) سورة النحل : الآية ، ٤٥ .
(٣) سورة الأعراف : الآية ، ١٨٢ .

فترى القوم نشاوى كلهم مثلما مدت نصاحات الربح
كل وضاح كريم جده وخذول الرجل من غير كسح

## البيان ـ السعة في الرزق

بدأ ـ عليه السلام ـ في هذه الفقرة يسأل الله من فضله ليوسع عليه من رزقه . ومما يسترعي الإنتباه في هذه الفقرة ، ويشد الإنسان إليه شداً هو قوله ـ عليه السلام ـ : ( أوسع علي من رزقك ) والسعة في الرزق تختلف عن الرزق نفسه ، فإن الرزق ينزل من السماء بقدر معلوم ، إلاّ أن الإنسان قد يصيب طريقه إليه وقد يخطؤه، وهذا من تقصير الإنسان ، ومن ثم يتأثر الرزق زيادة ونقصاناً ، وسعة وضيقاً . والعبارة تشعر بأن الرزق عنده مسلم من حيث المبدأ ، غير أنه كما قلنا قابل للضيق والسعة ، ومن الناس من يحصل على رزقه بسهولة ومنهم من لا يحصل عليه إلاّ بعد التعب والشقاء ، وربما كان ذلك ناشئاً عن خطأ في طلبه ، وهناك عوامل لها الأثر البالغ في الرزق نذكر منها ما يلي :

**١ـ الطريق إلى الرزق** : إن الطريق إلى الرزق قد شرعه الله لعباده سواء في ذلك المؤمن والكافر ، والقوي والضعيف ، لا فرق في ذلك من حيث الجنس واللون . والطول والقصر ، ويبدأ الإنسان يشق طريقه لاختيار مصادر الرزق بحسب همته المعطاءة ، فمن الناس من يرضى لنفسه بالعيش الحقير مهما كان مصدر ذلك الرزق ، لا من حيث الحل والحرمة ، ولكن من حيث الحقارة والخسّة وعكسهما . ومن الناس من له همة عالية لا يرضى لنفسه بالذل والهوان ، فهو يتنقل من مكان إلى مكان في سبيل العيش ، ولو حصل في ذلك النصب والتعب ، فمنهم من يصيب رزقه في أول الطريق ، ومنهم من يصيبه في منتصفها ومنهم من يصيبه في نهايتها ؛ وذلك لأسباب أرادها الله ـ تبارك وتعالى بالعبد لا يتسع المقام لذكرها ولا يهمنا أن نذكرها ، وقد أشار إلى ذلك الكتاب العزيز في قوله تعالى ﴿ هو

**الـذي جعل لكم الأرض ذلـولاً فامشـوا في مناكبهـا وكلوا من رزقه وإليـه النشور ﴾**[٤] .

**٢ ـ كيفية طلب الرزق** : وهذا يعني الاسلوب الذي ينتهجه الإنسان في الحصول على رزقه ، فمن الناس من يستخدم الوسائل التي تدر عليـه الرزق الكثير كالتجارة والصنـاعة ، ومنهم من لا يفعـل ذلك ، إمـا لأنه لا يهتدي لهذه الوسائل ، وإما لأنه لا يريد أن يتعب نفسه ، وإما لأنه لا يعرف ذلك ، وإما لأن الوسائل غير متـوفرة لـديه ، وبـذلك يحـدث التفاوت بين الناس في الفقر والغنىٰ والضيق والسعة . ولكن هذا لا يعني أن الله قد قتر على الإنسـان رزقـه ، وهـو لا يعني أيضـاً أن يتخـاذل الإنسـان عن طلب المعاش ، محتجاً بأن الله قد حتم على نفسه الرزق .

**٣ ـ الأرضية الصالحة مع المجتمع الصالح لطلب الرزق** : فإن طلبه في بلد فقير لا يسبب إلاّ الفقر ، ولا نعني بالبلد الفقير أنه ليس فيه شيء من مصـادر الرزق ، أو شيء من المـوارد الـطبيعيـة ـ كمـا يحلو هـذا التعبيـر للبعض ـ فـإن الله سبحانـه قد قسم الأرزاق على العبـاد في جميـع أرجـاء المعمورة ، ولكنا نعني أن هناك فصائل من أبناء البشر لا يهمها شيء ممـا حولها .

**خذ مثلاً** : إن العرب ما قبل الإسلام كانوا يعيشون عيشة جافية ، في بداوة وهمجية ، يتنقلون في تلك الصحراء الواسعة من واحة إلى واحـة ، ومن ماء إلى ماء فكانوا ينزلون على الماء حتىٰ إذا نضب تركوا مكانه ورحلوا إلى مـاء آخر لا يكلفـون أنفسهم عناء إستنبـاط الميـاه ولا إستغـلالهـا في الزراعة ، وإنما يكتفون بما لديهم من مواشي ومراعي يستهلكونها يـوماً أو بعض يوم حتىٰ ينتهي كل شيء ، وهذا لا يعني قلة الخيرات في الأرض من

---

(٤) سورة الملك : الآية ، ١٥ .

زراعة ومعادن ، ولــو أنهم فعلوا ذلك واستنبطوها وجدّوا في عمارتها لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، وقد أثبتت الأيام ذلك .

وهناك أمور آخرىٰ يتسبب عنها الضيق والسعة في الرزق ومما تقدم بيانه يظهر معنىٰ قوله ـ عليه السلام ـ ( أوسع علي من رزقك ) فإن الرزق مقرر ، ولكن يأخذه الإنسان إما بسهولة أو بصعوبة ، والسعة في الرزق يعني توفر الأسباب الكفيلة بذلك .

## العافية في الدين والبدن

ثم بدأ ـ عليه السلام ـ يقدم مطالب مختلفة إلى الله سبحانه فقال ( وعافني في بدني وديني ) أما العافية في البدن فهي اخص من عدم المرض ؛ لأن المرض هو عدم الصحة ، والعافية هي عدم وجود أي عيب وأي مرض في البدن ، فربما يكون الإنسان في صحة تامة ولكنه ذو عاهة ، فالأعمىٰ قد يكون في صحة ولكنه ليس في عافية ؛ لأنه ناقص البدن ، وقد قال ـ عليه السلام ـ ( وعافني في بدني ) أما العافية في الدين فهو السير على طريق الكتاب المنزل الذي لم يكن فيه عوج ، فإن التمسك بكتاب الله ، يعني الأخذ بكل شيء من الدين ؛ لأنه هو بمنزلة الروح من الجسد ، فالعافية في الدين هو عدم الشكوك في أي شيء من أمره مما يساور الإنسان في ليله ونهاره ويقظته ونومه ، وسعته وضيقهِ ، وفي كل لحظات حياته من أولها إلى آخرها . وبنظرة أخرىٰ نقول : إن قوله هذا يعني أنه يطلب العافية في بدنه لكي يؤدي ما وجب عليه في الدين ؛ لأن من مستلزمات العبادة الكاملة أن يكون الإنسان معافاً ، لأن عبادة ذوي العاهات وإن كان فيها معذوراً إلّا أنها غير كاملة أو متكاملة ، وعليه فإن هذا الطلب لم يكن جديداً في حياة الإنسان ، لأن العافية في البدن موجودة ولأن العافية في الدين موجودة أيضاً إذاً فهو يريد أن يختم له بذلك .

# الخوف بأنواعه

ثم أخذ ـ عليه السلام ـ يسأل الله أن يكفيه أمر خلقه ممن يخاف منه فقال : ( وآمن خوفي ) والخوف قد مرّ الحديث عنه في كثير من مناسبات الكلام في صورة مباشرة وغير مباشرة ، إلاَّ أنا نضيف هنا فنقول : إن الخوف ينقسم باعتبارات مختلفة إلى عدة أقسام ، إلاّ أن ما يهمنا هنا هما قسمان يدخلان في صميم العبارة :

**الأول** : هو خوف الإنسان من غيره من سائر المخلوقات ومنهم الإنسان ، وهذا النوع من الخوف قد وضع له الشرع الشريف حدوداً ، وجعل له إعتبارات عند وجوده وقد أودع الله ـ سبحانه ـ في الإنسان غرائز مختلفة يعمل بموجبها الإنسان على إنقاذ نفسه بتجنب مواطن الخطر ، والإبتعاد عن تلك المواطن عندما يكون إتلاف النفس ليس له مقابل . أما إذا أجبر الإنسان وأرغم على اقتحام الأخطار كالدفاع عن النفس أو المال أو العرض أو الدين ، فإن الخوف في هذه الحال أو في هذه الأحوال يكون مذموماً بقدر ما يكون ممدوحاً في بقية الحالات الأخرىٰ ، ومن نتائج عدم الخوف الشجاعة عندما يقتحم الإنسان ساحة الحرب ، وكذلك الكرم ويحدث عندما يوقى الإنسان شح نفسه .

**الثاني** : الخوف من الله وهذا النوع من الخوف ناتج عن المعرفة والقرب من الله سبحانه فكلما تجلى لعبده قرب منه ، وكلما حدث ذلك خاف الإنسان مقام ربه ونهى النفس عن الهوىٰ ، وكلما حدث ذلك الخوف حدث معه الرجاء وسار معه في عرض واحد ، وبذلك يحدث التوازن بين هذين الإنفعالين في سيرة الإنسان ، وهي سيرة المتقين . وقد تحدثنا عن هذه الدرجة العالية بالذات في كثير من المناسبات في مطاوي الأبحاث السابقة من الكتاب .

فقوله عليه السلام ( وآمن خوفي ) يحتمل الوجهين السابقين . فإن الدعاء الصادر منه عليه السلام وهو بذلك المستوى من الرفعة لا بد وأنه يقصد الأمان من كل ما يخاف منه من مخاوف الدنيا ومخاوف الآخرة .

## مطالب متفرقة

أما قوله عليه السلام ( واعتق رقبتي من النار ) والعتق كما سبق تفسيره في بحث اللغة هو بخلاف الرق ، والعتق من النار يعني نجاته منها ، وذلك لأن النار لا يدخلها إلّا مذنب ، والمذنب مأخوذ بذنبه ، فهو رق بهذا الذنب بمعنى أنه لا يستطيع الإنكار والتخلص منه ، فهو رق لذلك وطلب العتق من النار يعني إزالة السبب الموجب للنار وهو الذنب الذي يجر الإنسان إلى ذلك ، وإزالة السبب وهو الذنب يعني محوه وغفرانه .

وفي العبارة السابقة تلميح بالإعتراف بالذنب ، كما سبق أن قلنا : بأن دخول النار يتسبب عن الذنب ، فمن زحزح عنها فقد غفر ذنبه فكأنما هو يشير بكلمة ( إعتق ) إلى فعلية الرق الذي حصل له من ذلك الذنب ، على ما كان عليه من براءته منه بالضرورة ، ولكنه لا ينفي عن نفسه التقصير في عبادة الله حق عباته .

أما قوله عليه السلام ( اللهم لا تمكر بي ) فإن المكر المنسوب إليه تعالى في هذه العبارة هو عين المكر الذي ذكر في قوله تعالى ﴿ **ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون** ﴾[5] قال في التبيان : أخبر تعالى أنهم مكروا بهذا القول ، وهو قول متقدم ، ومكرنا نحن أيضاً بأن جازيناهم على مكرهم ، وجعلنا وبالهم عليهم ، فإنا أهلكناهم عن آخرهم . وقيل : إن الله أرسل عليهم صخرة أهلكتهم . ويحتمل أن يكون المعنىٰ في

---

(٤) سورة الملك : الآية ، ١٥ .

(٥) سورة النحل : الآية ، ٥٠ .

﴿ **مكرنا** ﴾ إنا أنجينا المؤمنين بالمكر بالكفار بكل ما يقدرون عليه من الإضرار بهم وإلجائهم إلى الإيمان ، وإنما نسبه إلى نفسه لما كان بأمره[6] .

وقال في الميزان : أما مكرهم فهو التواطي على تبييته وأهله أي صالح ، بشهادة السياق السابق ، وأما مكره تعالى فهو تقديره هلاكهم جميعاً بشهادة السياق اللاحق ، وهو قوله تعالى ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين** ﴾[7] .

## الإستدراج

وهذه العبارة قريبة المعنىٰ بالعبارة التي بعدها ، وهي قوله ـ عليه السلام ـ ( ولا تستدرجني ) فالإستدراج هو الإستصعاد أو الإستنزال درجة درجة ، والإستدناء من أمر أو مكان . وقرينة المقام تدل على أن المراد به هنا الإستدناء من الهلاك . إما في الدنيا أو في الآخرة .

قال في الميزان في تفسير قوله تعالى ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون** ﴾[8] إن تقييد الإستدراج بكونه من حيث لا يعلمون للدلالة على هذا التقريب خفي غير ظاهر عليهم ، بل مستبطن في ما يتلهون فيه من مظاهر الحياة المادية فلا يزالون يقتربون من الهلاك باشتداد مظالمهم ، فهو تجديد نعمة بعد نعمة حتىٰ يصرفهم التلذذ بها عن التأمل في وبال أمرهم .

لما إنقطع هؤلاء عن ذكر ربهم ، وكذبوا بآياته سلبوا إطمئنان القلوب وأمنها بالتشبث بذيل الأسباب التي من دون الله وعذبوا باضطراب النفوس

---

(٦) التبيان ج ٨ ص ١٠٣ .

(٧) تفسير الميزان ج ١٥ ص ٣٧٥ .

(٨) سورة الإعراف : الآية ، ١٨٢ .

وقلق القلوب وقصور الأسباب وتراكم النوائب ، وهم يظنون أنها الحياة ناسين معنىٰ حقيقة الحياة السعيدة فلا يزالون يستزيدون من مهلكات زخارف الدنيا فيزدادون عذاباً وهم يحسبونه زيادة في النعمة حتىٰ يردون عذاب الآخرة وهو أمرّ وادهىٰ ، وهم يستدرجون في العذاب من لدن تكذيبهم بآيات ربهم حتىٰ يلاقوا يومهم الذي يوعدون ، وربما أشار قوله تعالى **﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾**(٩) . إلى ذلك وهذا معنىٰ آخر من الإستدراج .

وفي معنىٰ آخر عرّفوه بأنه هو إنزال المحبوب على العبد عقوبة له على معصيته وهو لكثرة جهله يحسب أنه تعالى يريد به خيراً فيقوم على ذنبه فيجدد عليه النعمة فيجدد الذنب إلى أن يرد على الله تعالى وقد أحاطت به خطاياه وماله في الآخرة من خلاق . والآيات التي تنطق بذلك إضافة إلى ما مرّ بيانه كثيرة مثل قوله تعالى **﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ﴾**(١٠) وقوله تعالى **﴿ لا يضرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾**(١١) وكثير هي الآيات التي تعرض هذه النماذج التي تنصرف عن الآخرة إلى الدنيا وعن الجد إلى الهزل ، وعن الروح إلى المادة . وقد ورد عن أهل البيت الطاهر ـ عليهم السلام ـ كما في النهج عن أمير المؤمنين عليه السلام ـ قال : إذا رأيت ربك سبحانه يتابع عليك نعمة نعمة وأنت تعصيه فاحذره .

وقال ـ عليه السلام ـ فيه أيضاً : أيها الناس ليراكم من النعمة وجلين

---

(٩) سورة التوبة : الآية ، ٥٥ .

(١٠) سورة آلم عمران : الآية ، ١٧٨ .

(١١) سورة آل عمران : الآيتان ، ١٩٦ ، ١٩٧ .

كما يراكم من النقمة . يا بن آدم وإنه من وسع عليه في ذات يده فلم يـر ذلك استدراجاً فقد أمن مخوفاً .

وفي الكافي عن الصادق ـ عليه السلام ـ : إذا أراد تعالى بعبد شـراً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمه لينسيه الإستغفار ويتمادى بها وهو قول الله عـز وجل ﴿ **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون** ﴾ بالنعم عند المعاصي .

وفي الخصـال عنه ـ عليـه السلام ـ : إن الله تعـالى أهبط ملكاً إلى الأرض فلبث منها دهراً طويلاً ، ثم عـرج إلى السماء فقيـل له مـا رأيت ؟ قال : رأيت عجائب كثيرة وأعجب ما رأيت عبداً متقلباً في نعمتـك يأكـل رزقك ويدعي الربوبية فعجبت من جرأته عليك ، ومن حلمك عنه فقال الله جل جلاله : فمن حلمي عجبت ؟ قال قد أمهلته أربعمائة سنـة لا يضرب عليه عرق ولا يريد من الدنيا شيئـاً إلاّ نالـه ولا يتغير عليـه فيها مـطعم ولا مشرب .

وفي الكافي عن الصادق ـ عليه السلام ـ كان من مناجاة الله لموسىٰ إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنب عجّلت عقوبته ، فما فتح الله على أحد هذه الدنيـا الاّ بذنب ينسيه ذلك الذنب فلا يتوب ، فيكون إقبال الدنيا عليه عقوبة لفعله الردىٰ .

وفي الكافي عنه ـ عليه السلام ـ : دعي النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ إلى طعام فلما دخل منزل الرجل نظر إلى دجاجة فوق حائط قد باضت فتقع البيضة على وسط وتد في حائط فتثبت عليه ولـم تسقط ولم تنعكس فتعجب النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ منها ، فقال الرجل : عجبت من هذه البيضة ؟ فـوالـذي بعثـك بـالحق مـا رزئت شيئـاً قط فنهض رسـول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ ولم يأكل من طعامه شيئاً وقال : من لم يرزأ فمالله فيه حاجة .

ومما تقدم من تفسير الآيات ونصوص الروايات يظهر لك معنى قوله عليه السلام في عبارة الدعاء المطروحة أمام هذا البحث ( ولا تستدرجني )

وتلك قريبة في المعنى من العبارة السابقة ( اللهم لا تمكربي ) .

وعطفاً على ما تقدم أنه أخذ يسأل ربه ألا يخذله بقوله ( ولا تخذلني ) والخذلان هو التخلية في ساعة الحاجة العسيرة التي يكون الإنسان فيها في حاجة إلى غيره .

على أن هذه الحاجة التي تمس الإنسان تختلف من وقت لآخر ، وتختلف من إنسان إلى آخر . لحاجة الإنسان إلى الغذاء ـ مثلاً ـ تختلف عن حاجته إلى الكساء ، وهاتان تختلفان عن حاجته إلى الماء ، وكل هذه الحاجات تختلف كل منها عن الأخرى شدة وضعفاً .

ومن جهة أخرىٰ أن الحاجة إلىٰ الله ـ سبحانه ـ لا يمكن أن يقضيها أحد غيره ، فإن الحاجة إليه حاجة إلزامية ، ولأن الأمر يرجع إليه ، فإذا خذل الله الإنسان فلا يمكن أن يعوض ذلك بنصر أحد من جهة أخرىٰ ، ولقد ورد في دعاء المهمات عن زين العابدين عليه السلام قوله ( ولا ناصر لمن خذلت . . الدعاء ) .

فقوله ـ عليه السلام ـ ( ولا تخذلني ) يمكن أن يستشف منه أن خذلان الباري للعبد ، وإهماله ، أو إرساله إرسال من لا خير فيه ، أو الإعراض عنه يعني لا حاجة فيه ـ كما مر ـ في الحديث في بحث الإستدراج .

## دره الشر من الخلق جميعاً

أما قوله عليه السلام ( وإدرأ عني شر فسقة الجن والإنس ) فإن ذلك يكشف عن أن الشر يأتي من هذين الجنسين وهما الثقلان ـ بفتح الثاء والقاف ـ اللذان جرىٰ ذكرهما في كثير من الروايات عن أهل البيت الطاهر ـ عليهم السلام ـ ولا يمكن أن يتخيل ورود شر في ما وراء ذلك .

وقد يعترض فيقال بأن الحيوانات الضارية في الغابات ، وإن

الـوحوش في الفلوات تجلب شـراً وأي شر عليهـا وعلىٰ غيرهـا من سائـر الكائنات .

ويرد بأنه ـ عليه السلام ـ يقصد بشر الجن والإنس الشر المدبر الذي يخطط له صاحبه قبل وقوعه ، كالسرقة والإختـطاف وتدبيـر القتل ، ونهب المال ، وهتك العرض . وهذا لا يجري إلا بعقل مـدبر . وذلـك لـم يكن موجوداً إلا عند هذين الجنسين الجن والإنس ، أما الحيوانات فإنها لا تعلم مما تأتي به شيئاً ؛ لأنهـا قد فـطرت علىٰ ذلك ، فهي تعمـل وتتصرف في حدود ممالكها الحيوانية الخاصة . ثم إنه قد ورد من طرق الفريقين الخاصة والعامة ، بأن الشاه ترعىٰ مع الذئب ، ويلعب الصبي بالثعبان ، ولا يمس أحداً ضرر من أحد ، وذلك عنـدما يـظهر الإمـام المهدي المنتـظر ويبسط العدل والأمان ، ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجـوراً ورد هذا بأن الشر هو شر من أي مصدر كـان ، والخير هـو خير من أي مصـدر كان ، وأجيب عنه بأن الشر المقصود يختلف عن غير المقصود ، صحيح أن كلاهما مكروه ، ولكن ألا ترىٰ أن النائم مثلاً عندما يتكلم بكلام لا يحاسب عليه ، فعندما يشتم في نومه أحداً ، أو يغتابه ؛ فـإنه وإن كـان ذلك شـراً مجازاً إلا أنه لا يترتب عليه أثر عند العقلاء ، وكذلك السكران فهو وإن كان قصد السكر ، وتسبب عنه شر إلا أن ذلك لا يصح أن ينسب إليه عقلاً أيضاً في تلك الحال كنسبته إليه في حالة صحوه ، وإن كان هناك للشرع الشريف نظرة أخرىٰ بحسب الآراء الفقهيـة . وعليه فـإن الشر المضـاف إلى الجن والإنس هو الشر حقيقة ؛ لأنه يأتي عن سابق تصميم وإصـرار ، وما عـداه فهو مجاز ؛ لأنه يأتي بغير ذلك .

قال عليه السلام :

( يٰا اَسْمَعَ السّٰامِعينَ ، يٰا اَبْصَرَ النّٰاظرينَ ، وَيٰا اَسْرَعَ الْحٰاسِبينَ ، وَيٰا اَرْحَمَ الرّٰاحِمينَ ، صَلِّ عَلىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ ، وَاَسْأَلُكَ اَللّٰهُمَّ حٰاجَتي الَّتي اِنْ اَعْطَيْتَنيهٰا ، لَمْ يَضُرَّني مٰا مَنَعْتَني ، وَاِنْ مَنَعْتَنيهٰا لَمْ يَنْفَعْني مٰا اَعْطَيْتَني ، اَسْأَلُكَ فِكٰاكَ رَقَبَتي مِنَ النّٰارِ ، لٰا اِلٰهَ اِلّٰا اَنْتَ ، وَحْدَكَ لٰا شَريكَ لَكَ ، لَكَ الْمُلْكُ ، وَلَكَ الْحَمْدُ ، وَاَنْتَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ، يٰا رَبُّ يٰا رَبُّ ، يٰا ربُّ) .

## اللغة

**فكاك** : الفك أن تفك الخلخال والرقبة ، وفك يده فكاً إذا أزال المفصل وفكاك الرهن وفكاكه ( بالكسر ) ما فك به.. وفك الرقبة تخليصها من إسار الرق . قال ـ تعالىٰ ـ ﴿ **فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة** ﴾[1] وفلان يسعىٰ في فكاك رقبته . وفك الرقبة يفكها فكاً أعتقها .

وفي الحديث اعتق النسمة وفك الرقبة ، وفك الأسير من الأسر فصله . وفي المحكم والفك إنفراج المنكب عن مفصله استرخاءاً وصعفاً .

---

(١) سورة البلد : الآية ، ١٣ .

وفي التهذيب ملتقىٰ الشدقين من الجانبين ، قال أكثم إبن صيفي . مقتل الرجل بين فكيه ، يعني لسانه .

وقال الأزهري : وقول الله ـ تعالىٰ ـ ﴿ منفكين ﴾ ليس من باب ما إنفك وما زال ، إنما هو من إنفكاك الشيء من الشيء إذا انفصل عنه وفارقه .

## البيان

تطالعنا في هذه الفقرة عبارات تشبه بعضها بعضاً ، ورد فيها أفعل التفضيل وجميعها تشير إلى زيادة كما هو المعروف عند علماء النحو والصرف ، وقد ذكرنا في الجزء الثالث من الكتاب بعض الأسباب لهذا التفضيل ، والمقارنة بين صفات الباري ـ سبحانه ـ التامة ، وبين صفات المخلوقين الناقصة .

هذا ولا يزال الإشكال متعلقاً بالعقل في هذا التفضيل في قوله عليه السلام ( يا أسمع السامعين ، ويا أبصر الناظرين ويا أسرع الحاسبين ، ويا أرحم الراحمين ) ويؤكد هذا الإشكال ما جاء علىٰ لسان الشاعر في قوله :

ألم ترأن السيف يزرىٰ بقدره    إذا قيل هذا السيف خير من العصا

وهو عين ما ورد في النص . وتراودنا بعد ذلك الآية الكريمة في قوله ـ تعالى ـ **﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم بغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾**[٢] . قال في التبيان : ( يغفر الله لكم ) معناه يستر الله عليكم خطيآتكم ولا يعاقبكم عليها ( وهو أرحم الراحمين ) فالرحمة النعمة علىٰ المحتاج ، ومن الرحمة ما هو واجب ، وفيها ما ليس بواجب ، فالواجبة من

---

(٢) سورة يوسف : الآية ، ٩٢ .

الرحمة ما لا يجوز الإخلال بها ، وإن كان سببها تفضلاً كالثواب الذي سببه التكليف وهو تفضل[٣] .

وندرك من هذا المعنىٰ ما هو المقصود من فعل التفضيل بالنسبة للرحمة ، فالواجبة أعظم مما ليست بواجبة ، ويحتمل غير بعيد أن فعل التفضيل يشير إلىٰ ذلك وهو فيما إذا اختلفت الرحمة شدة وضعفاً .

وقد ذكر ذلك علماء النحو في أبحاثهم ، إلا أنهم لم يعرضوا طرفي التفضيل من أي جهتيه زيادة ونقصاناً ، وشدة وضعفاً ، وغاية ما قالوه ـ كما ذكر ذلك شارح ألفية إبن مالك ـ أن أفعل التفضيل إذا أضيف إلىٰ معرفة جاز أن يوافق المجرد في لزوم الإفراد والتذكير ، فيقال : هي أفضل النساء ، وهما أفضل القوم ، وهو مقارب لما نحن فيه يدركه العقل عند التأمل .

وبعد هذا نستطيع أن نقول : إن معنىٰ قوله ـ عليه السلام ـ ( يا أسمع السامعين ) يعني علمه بجميع المسموعات ، وقد ورد تفسير ذلك عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ ، وقد مر هذا في بحث سابق من أبحاث الكتاب ، علىٰ أن هناك من الأصوات ما هو غير مسموع ، ولكن علمه ـ تعالىٰ ـ بذلك يشمل هذا وغيره ، فعلمه بجميع الأصوات الصادرة من الأشياء يعني قبل صدورها ، وإلا لما كان ذلك علماً ، لأنها بعد صدورها تكون شيئاً مشاعاً بين جميع من له حاسة السمع المهيئة لتلقي الأصوات ، وهذا ما يتنافى مع النص ( يا أسمع السامعين ) .

وكذلك القول في بقية العبارات الواردة في الفقرة المطروحة بين يدي هذا البحث ، مثل قوله ـ عليه السلام ـ ( ويا أبصر الناظرين ) فإن ذلك يعني علمه بجميع المرئيات ، سواءً وجدت أم لم توجد . وفي الحديث عن

---

(٣) تفسير التبيان للطوسي ج ٦ ص ١٩١ .

هذه النقطة نجد أنفسنا أمام حاضرنا المتطور وجهاً لوجه . فإذا تطرقنا إلىٰ ما اعتمده الإنسان في عالم الرؤية تبادر الى الذهن تلك المناظير التي تريك أجزاء واسعة من هذا الكون الرحيب إلىٰ أن بلغوا إلىٰ رؤية أجرام سماوية تبعد عنا قرابة المليوني سنة ضوئية كما اصطلح علىٰ ذلك علماء الفيزياء ـ ونحن هنا نريد أن نستعرض نموذجاً من النماذج التي ساعدت الإنسان في تطوير رؤيته وتقويتها ؛ فمن ذلك .

## الرادار

هو جهاز مرسل ولاقط ، يمكن بفضل انعكاس الموجات ( الهيرتزية ) القصيرة جداً من رؤية الأشياء البعيدة كالسفن ، والطائرات ونحوها ، وتحديد مسافاتها وإتجاهاتها . وهناك رادار لتمييز الأهداف المتحركة وتقدير سرعتها ويسمىٰ ( رادار دوبلري )

ولا نذهب بعيداً إذا قلنا بأن الرادار قد سبق ببحوث علمية في السونار الذي عرفوه بأنه نظام السير بالصدىٰ . والذي عرف أولاً في بريطانيا باسم ( أسديك ) ، وهو نظام للتوجيه والكشف وتعيين المسافة مستخدماً الموجات الصوتية تحت الماء .

أما الرادار فيلجأ إلىٰ المبدأ ذاته مستخدماً الموجات اللاسلكية عوضاً عن الموجات الصوتية .

والمبادىء الأساسية للنظامين بسيطة . تبث الموجات الصوتية أو الموجات الكهروطيسية ( اللاسلكية ) وحين تصادف جسماً صلباً ينعكس بعضها ويعود فيحدث ( صدىٰ ) صوتياً أو لاسلكيا . فالوقت الذي ينقضي بين بث الموجة وعودتها مضروباً سرعتها يعطي المسافة التي قطعتها ، وهي في الحالة العادية ضعف بعد الجسم .

كانت أجهزة الرادارالأولىٰ محمولة علىٰ عربات مقطورة لنقلها

ويستخدم بعضها عدسة لتوجيه الحزمة الرادارية .

وطور السونار بالدرجة الأولىٰ لاكتشاف الغواصات ؛ وليقوم مقام قائد الغواصة ؛ لاكتشاف السفن الأخرىٰ ، وحقول الألغام ، وقطع الجليد المغمورة والأنقاض ، والأشياء الخطرة الأخرىٰ الموجودة تحت الماء .

قد يكون السونار إما ناشطاً أو سلبياً . في السونار الناشط تبث موجة صوتية ويلتقط صداها . وفي السونار السلبي تكتشف السفن الأخرىٰ بالإستماع إلىٰ الصوت الذي تحدثه محركاتها . ويستعمل السونار اليوم أيضاً في سفن صيد الأسماك للبحث عن أسرابها ، وفي استكشاف قيعان البحر وعرف هذا النظام بنظام اكتشاف الإتجاه باللاسلكي تطورت بموجبه القدرة الدفاعية الجوية لبريطانيا علىٰ الرغم من تفوق طائرات قوات المحور في الحرب العالمية الثانية .

ثم انتقل هذا النظام إلىٰ الولايات المتحدة حيث أجريت بحوث إضافية مكثفة ، واتخذت هذه التقنية الجديدة اسم ( الردار ) . وقد قام العلماء الألمان ببحوث مشابهة خلال السنوات الأولىٰ من الحرب وتوصلوا إلى نتائج مماثلة .

وتتألف إنشاءات الرادار من ثلاث وحدات منفصلة ، جهاز إرسال يبث إشارة لاسلكية ذات شكل خاص ، وجهاز استقبال يلتقط جميع الموجات المنعكسة ويحللها ، ووحدة عرض تشاهد عليها المعلومات التي يرغب في الحصول عليها علىٰ الفور(٤) .

ويعتبر الرادار ( الإستشعار عن بعد ) كما يحلولهم أن يسموه بذلك ـ أحد فروع العلوم التطبيقية الحديثة . وقد استعملت الطاقة الإشعاعية لجمع المعلومات في أكثر الحالات التطبيقية لهذا العلم ـ بغض النظر عن

---

(٤) بهجة المعرفة ج ٥ ص ٣٣٤ .

الوقت القصير نسبياً ـ الذي أصبح فيه الإستشعار عن بعد تقنية أبحاث فإن محاولات استخدام هذه التقنية متعددة كمجال الأرصاد الجوية ، وفي مجال الزراعة ، وفي مجال المياه ، وفي حرائق الغابات ، وفي مجال حفظ الطاقة ، وفي مجال جرد المصادر الطبيعية وغيرها من الفوائد التي لا تحصىٰ .

من كل ما تقدم ندرك أن الإنسان لما كان إبصاره محدوداً حاول أن يستعين بما ينجز من مخترعات ذلل بها الصعوبات ، واستطاع بها أن يرىٰ مالا يرىٰ ويستشعر عن بعد مالا يشعر به عن بعد حتىٰ وصل إلىٰ مرحلة من العلم أذهلته حتىٰ هو نفسه ، ولكن مع كل هذا فإن هذه الآلات المتطورة جداً لا ترىٰ إلا ما كان أمامها ، ولا ترىٰ ما لم يكن ، ولكن العبارة الموجودة في متن الدعاء ( يا أبصر الناظرين ) تنادي بأن الله ـ تبارك وتعالى ـ يعلم بالمرئيات وأحوالها قبل أن توجد ، وهذا معنىٰ أفعل التفضيل ، لأنه لو كان بعين لما حدث هذا الفرق وهذا التفضيل بين الله وبين خلقه[٥] .

أما قوله ( يا أسرع الحاسبين ) فهذا ما ينطبق علىٰ قوله ـ تعالىٰ ـ ﴿ **ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين** ﴾[٦] ، فقد جاء في تفسيرها : أنه لما بيّن تعالىٰ إختصاصه بمفاتح الغيب ، وعلمه بالكتاب المبين الذي فيه كل شيء ، وتدبيره لأمر خلقه منذ وجدوا إلىٰ أن يرجعوا إليه تبين أن الحكم إليه لا ليغره .

وكذلك قوله ( وهو أسرع الحاسبين ) نتيجة أخرىٰ لسابق البيان بأنه تبين به أنه ـ تعالى ـ لا يؤخر حساب أعمال الناس عن الوقت الصالح له ، وإنما يتأخر ما يتأخر ليدرك الأجل الذي أجل له[٧] . قال المؤلف وفي هذا

---

(٥) مجلة العربي العدد ٣٥٥ ص ١٠٥ من مقال للدكتور مأمون ملكاني .

(٦) سورة الأنعام : الآية ، ٦٢ .

(٧) الميزان للطباطبائي ج ٧ ص ١٣٣ .

المعنىٰ يتجلىٰ ـ سبحانه وتعالىٰ ـ لخلقه بأجلىٰ معاني العدل والرحمة في تخليصهم يوم القيامة من ذلك الموقف الرهيب في أسرع وقت لدفع الأذىٰ عنهم ؛ وليأخذ كل جزاءه بما كسبت يداه ، وما ربك بظلام للعبيد .

ثم لنا أن نستظهر من عبارة الدعاء بناءً علىٰ هذه المقارنة التي عقدها ـ عليه السلام ـ بين الله وبين غيره في سرعة المحاسبة . أما المقارنة وطرح أفعل التفضيل ، والسؤال المطروح هو أنه هل للإنسان أن يحاسب غيره يوم القيامة كما يحاسب الله خلقه في ذلك اليوم حتىٰ يكون أسرع من غيره ؟

وفي مقام الجواب نحاول أن نتعرف علىٰ معنىٰ المحاسبة في اللغة ؛ فالحساب عدك الشيء ، والمحاسبة المفاعلة وهي المعاملة في الحساب بين الطرفين .

والحساب له دور عملي في حياة الإنسان لتسيير أموره وإنجاز معاملاته ، ونستطيع أن نطرح العبارة بصورة عنوان لبحثه بحثاً دقيقاً فنقول .

## أسرع الحاسبين

العنوان يتكون من مقطعين هما : السرعة ، والحساب . وكلاهما نحتاجه في أمورنا الحياتية بكافة مجالاتها المعقدة والبسيطة ، وحيث أن الحساب يحتاج إلىٰ السرعة فقد ظل ملازماً لها .

والسرعة هي الإنجاز أو الإنتقال بأقصر مدة زمنية قياسية . ولوحاولنا تقسيمها إلىٰ :

أ ـ السرعة العقلية ، وهي حركة الفكر في الباطن من حالة إلىٰ أخرىٰ بأقصر زمن . وفي حالة البديهة والحدس قد ينعدم الزمن .

ب ـ السرعة المادية ، وهي تطلق علىٰ موضوعها إن كان جسماً أو آلة ميكانيكية .

فالجسم ينتقل من مكان إلىٰ آخر ، وإذا قطع المسافة الطويلة في زمن قصير قلنا : إنه سريع .

والآلة الميكانيكية بكافة أنواعها تؤدي دوراً في إنجاز مهمتها في أقصر زمن فنقول عنها : سريعة الأداء .

وأطلق علىٰ هذا العصر بعصر السرعة لما يتميز به من التطور في كافة المجالات بفضل السرعة في الإنجاز والحركة المختصرة ؛ فعندنا من مميزات هذا العصر السرعة في الحركة ، والسرعة في البناء ، والسرعة في الكتابة ، وكذلك تمت السرعة في الحساب .

والحساب كعلم ، هو عملية العد التي تستخدم الطرق الرياضية البسيطة أو المعقدة ؛ لتعطي نتيجة .

ولما كنا نعيش عصر السرعة والتطور في جميع المجالات إحتجنا إلىٰ السرعة في إنجاز المسائل الرياضية ؛ حيث تعقدت طرقها ومسالكها وأصبحت الأرقام وحساباتها علماً قائماً بذاته يحتاج إلىٰ السرعة المذهلة في إعطاء النتائج وخصوصاً أصبحنا في عصر يستخدم عشرات الأصفار علىٰ الجهة اليمنىٰ من الرقم مما يعني أننا نتعامل مع أرقام تحتاج إلىٰ السرعة .

أما كيف نحسب فهناك عدة طرق :

أ ـ العقل ، ويتعامل في حدود جغرافيته وعلمه فهو محدود ـ وإن كان كبيراً ـ فقد يقوم العقل بعملية حساب بسيطة في أقصر زمن ، وبالبديهة ولكنه في حالة تعقد العملية الحسابية يستنفر العقل جميع قواه وتحدياته ويستخدم طرقه الكثيرة في العد ، ومنها : الإستدلال ، والإستقراء ، والإستنباط ، وقد لا ينجح في الحصول علىٰ نتيجة ؛ لأنه محدود ؛ فهنا إحتاج إلىٰ تدخل طرف مادي آخر مساعد وهو الآلة .

ب ـ الآلة الحاسبة ، أو ما يطلق علىٰ تسميته بالحاسوب ، أو ما

يقابلها بالإنجليزية « الكمبيوتر » وقد أرغم الإنسان علىٰ إختراعه ، والذي أرغمه علىٰ ذلك هو حاجته الضرورية إلىٰ الأداء السريع في عملية الحساب وإعطاء النتيجة التي تستغرق مئات الساعات والأيام في إنجازها(٨) .

## الكمبيوتر

ويسمىٰ بالحاسوب ، ويسمىٰ بالحاسبة الإلكترونية ، ويسمىٰ الآلة الذكية وكلها أسماء لمسمىٰ واحد .

وقد عرفوه في أول أمره بأنه عبارة عن آلة تنجز العملية الرياضية المعطاة سلفاً ، أو أي مهمة في زمن يسير لا يستغرق أكثر من بضع ثوان .

وقد أصبح هذا التعريف بداثياً عندما دخل الحاسوب في مجالات الحياة المختلفة .

أما التركيب الميكانيكي لجهاز الكمبيوتر وبصورة مبسطة فهو يتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية أو ثلاث وحدات :

أ ـ وحدة الإدخال ، أو وحدة إدخال المعلومات حيث تستقبل جميع المعلومات والمعطيات ، وهذه هي مهمتها .

ب ـ وحدة التشغيل المركزي ، وهي وحدة مهمتها القيام بمعالجة المهمة الموكلة إليها فمثلاً عملية الجمع بين ارقام معينة تتم في هذه الوحدة حيث تطلب الأرقام وتقوم بعملية الجمع .

ج ـ وحدة الأخراج ، وهي التي تعطي النتيجة التي تمت في وحدة التشغيل المركزي . وهي في جهاز الكمبيوتر إما عبارة عن آلة طابعة تطبع علىٰ ورق أو عبارة عن شاشة تليفزيونية تعرض النتيجة وقد تلحق بهذه الأجزاء الثلاثة ذاكرة أوعدة ذاكرات للحفاظ علىٰ بقاء المعلومات والنتائج .

---

(٨) عبد العظيم الريس .

ولكن رغم إختراع جهازالكمبيوتر وتطويره من جيل إلى آخر ومن كبير إلىٰ صغيـر حيث أصبح مفكـرة في الجيب أوساعـة في يد . نقـول ورغم سرعته المذهلة وإنجازه العظيم . نتساءل مرة أخرىٰ من الأسرع الإنسان أو الكمبيوتر ؟

واختلفت الإجـابات فمنهم من قـال : الكمبيوتـر ؛ لأنه يقـوم بعمل وإنجاز مهمات صعبـة في زمن يسير يعجـز العقل البشـري في التفكير في انجازها في سنوات ، ومنهم من قال : عقل الإنسان هو الأسرع ؛ لأنه هو السبب وهو المخترع للجهاز ويستطيـع أن يغير من مهمـاته الميكـانيكية ؛ ليعجز عن الأداء السريع .

وبصورة عامة ظل الكومبيوتر بتطور في تقنيته وبرمجياته ووصل القمة في أداء جميع المهمات التي ما كان الإنسان ليحلم في إنجازها حتىٰ تمكن من تسخيره في عمليات الذكاء الإصطناعي والتخاطب مع بني البشر . وفي مجال البرمجيات تعددت لغات الكومبيوتر تبعاً لأغراضها فمنها لغات ذات غرض علمي بحت كلغة الفورتران ، ومنها ما يخص المجال التجاري كلغة الكوبول . . . الخ . ويبقىٰ الكومبيوتر في عصرنا الحاضر جهازاً لا يستغنىٰ عن الإنسان ولا يمكن للإنسان أن يستغني عنه ، وفي هـذه العلاقـة أسرار يعرفها الإنسان نفسه العارف بذلك(٩) .

ويمكن تمثيل عناصر الذكـاء الإصطنـاعي في دائرتين واحـدة داخل الأخرىٰ ، وكل واحدة منهما بها أربعة عناصر ، وتعتبر العناصر في الدائرة الداخلية هي الأساسية والتي تستخدم في التطبيقات .

لقد أمكن للباحثين في الذكاء الإصطناعي اكتشاف أن السلوك الذكي

---

(٩) من مقال كتبه ابن العم الأستاذ عبد العظيم ملا خليل الريس ، وهو اخصائي في موضوع الإحصاء التطبيقي بناء على طلبنا ، وقد اعتمد فيه على المصادر العلمية الموثوقة .

لا يرجع إلىٰ طريق الإستنتاج ، بل إلىٰ المعرفة التي يمتلكها الشخص ، والمعرفة المكتسبة خلال حياة الإنسان هائلة إلىٰ درجة إستحالة قياسها ، ولذلك لا بد من وجود طرق يمكن بها تمثيل تلك المعرفة بشكل يسمح بسهولة برمجتها واستعادتها .

إن ما خرج به علينا العلماء مؤخراً وهو ما عُرف بمشروع الجيل الخامس للحاسوب ( أي الآلات ذات الذكاء الإصطناعي ) الذي يؤمل تحقيقه في التسعينيات وسيكون تأثيره كبيراً علىٰ الطب والتعليم والعلوم والصناعة والهندسة وجميع الأنشطة بشكل لم يخبره البشر من قبل ولم يروه فيما سبق من تقنية .

وقد يجود علينا المستقبل مع التقدم العملي والتقني باختراعات ومساهمات في بناء آلة ذكية . ومع إيمان بعضهم بإمكانيات العلم غير المحدودة وبأنها مسألة وقت . إن لم يكن عاجلاً فسيكون آجلاً ـ يرىٰ بعضهم أنه من المستحيل انتاج آلة كالإنسان ، تفكر وترىٰ وتسمع وتتكلم[١٠] ـ ﴿ **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾[١١] .

ومما تقدم يظهر المعنىٰ من قوله ـ عليه السلام ـ ( أسرع الحاسبين ) أن هذه السرعة في الحساب لا تقف عند حد ، فطرح أفعل التفضيل ليس معناه التفاضل بينه وبين غيره ، ولكنه تفضيل لا حدود له .

أما الإنسان فلأن ذلك وارد في حقه ـ أي التفاضل ـ فإنه حاول أن يتسابق مع الزمن لكي يختصره ويوفر على نفسه أكبر مدة زمنية فاخترع الحاسوب ، أو الحاسب الآلي الذي يقوم بعمليات حسابية معقدة ، كما حل بذلك كثيراً من المشاكل بفضل عقله الموهوب من خالق السماء .

---

(١٠) مجلة العربي ، العدد ٣٥٢ ص ٥٢ ، من مقال للدكتور علم الهدى حماد .
(١١) سورة البقرة : الآية ، ٢٣٢ .

ثم شرع ـ عليه السلام ـ بعد تلك المناجاة بذكر العبادة المحببة لكل مؤمن ، ومفتاح كل مغلق والوسيلة لاستجابة الدعاء فقال ( صلى على محمد وآل محمد ) وهذه العبارة قد شرحناها ، وذكرنا فضلها في كثير من مناسبات الكلام من مطاوي ابحاث الكتاب ، ولا نريد أن نقول أكثر مما قلنا هناك ، وإن كان الحديث عن ذلك حديثاً شهداً شهياً ؛ لأنه حديث يرتبط بالعبادة الحقة ، ويأخذ بجميع أطرافها .

ثم انتقل ـ عليه السلام ـ إلى طلب حاجته من الله جملة واحدة فقال ( وأسألك اللهم حاجتي التي إن أعطيتنيها لم يضرني ما منعتني ، وإن منعتنيها لم ينفعني ما أعطيتني ) إن حوائج الإنسان في هذه الدنيا لا تعد ولا تحصى وهي تختلف باختلاف مكانة الإنسان ومركزيته في مجتمعه ، فمرة يحتاج إلى المال ، ومرة يحتاج إلى الغذاء ، ومرة يحتاج إلى الكساء . ومهما كان نوع هذه الحاجات ومهما بلغت قيمتها وضرورتها فإنها تعوض بطريق أو بآخر إذا كانت من حوائج الدنيا .

أما إذا كانت من حوائج الآخرة فإنه لا يمكن تعويضها ، فإن فاتت فقد فاتت ، ولا يحل محلها شيء آخر ، وإن لم تفت فقد حصل الإنسان من ذلك على كل شيء بل ولم يفته شيء .

وهذه الحاجة التي ذكرها النص هي من أعظم ما يقصده الإنسان ، ولأجلها أرسل الله الأنبياء ، وشرّع الشرائع وقيس البرُّ والفاجر وطرح مفهوم المؤمن والكافر ، وذلك هو ما سأل ـ عليه السلام ـ في العبارة التالية ( أسألك فكاك رقبتي من النار ) .

والحديث عن النار ضارب في القدم ، وهو قديم جداً ؛ لأنه يرتبط بوجود سائر المخلوقات .

# بحث حول النار

عرف الإنسان النار منذ اليوم الأول الذي وجد فيه علىٰ وجه الأرض ، وتبدأ هذه المعرفة عندما فتح عينيه علىٰ النار التي أخذت قربان هابيل وتركت قربان قابيل . ولم يكن الإنسان منذ ذلك اليوم يعرف النار بأنها مصدر قلق تهدد حياته عندما يلعب بها . ويذكر المؤرخون والجيولوجيون أن الإنسان البدائي الذي عاش في الكهوف والغابات يشارك الحيوانات الضارية في هذا العيش فيرىٰ الأسد الضاري حملاً وديعاً قد عرف النار لأول مرة عندما ضرب بحجر علىٰ الأخرىٰ فانقدحت شرارة تولدت بالإحتكاك من هاتين الحجرين فاشتعلت في القش اليابس الموجود في تلك الغابة ، ثم انتشرت في كل مكان وعرفها الإنسان منذ تلك اللحظة ، وأخذ يطور الوسائل التي يحصل بواسطتها علىٰ النار ، ثم اندفع بتهوره إلى أكثر من ذلك عندما أخذ يلعب بها حتىٰ لقد أحرق نفسه بانتشارها في ما جاورت .

وهذه نظرية ـ كما تراها ـ لا تستند إلىٰ الدليل العلمي الذي ينبغي أن يخضع له كل شيء ؛ وذلك لأن الإنسان مدني بالطبع لا يرضىٰ لنفسه عيشة الغاب ، ولا يرضىٰ لنفسه بطبعه الإجتماعي أن يختار العيش مع الحيوانات الضارية التي لا يأمن منها علىٰ نفسه .

وفي حديث للإمام الصادق ـ عليه السلام ـ في موضوع النار قال ـ عليه السلام ـ : والنار كذلك فإنها لو كانت مبثوثة كالنسيم والماء كانت تحرق العالم وما فيه ، ولما لم يكن بد من ظهورها في الأحايين لغناها في كثير من المصالح جعلت كالمخزونة في الأجسام فتلتمس عند الحاجة إليها وتمسك بالمادة والحطب ما احتيج إلىٰ بقائها لئلا تخبو ، فلا هي تمسك بالمادة والحطب فتعظم المؤنة في ذلك ولا هي تظهر مبثوثة فتحرق كلما هي فيه ، بل هي علىٰ تهيئة وتقدير اجتمع فيها الإستمتاع بمنافعها والسلامة من ضررها ثم فيها خلة أخرىٰ وهي انها مما خص بها الإنسان دون جميع

الحيوانات لما له فيها من المصلحة فإنه لو فقد النار لعظم ما يدخل عليه من الضرر في معاشه ، فاما البهائم فلا تستعمل النار ولا تستمتع بها ولما قدر الله عز وجل أن يكون هذا هكذا خلق للإنسان كفاً وأصابع مهيأة لقدح النار واستعمالها ولم يعط البهائم مثل ذلك لكنها أعينت بالصبر علىٰ الجفاء والخلل في المعاش لكيلا ينالها في فقد النار ما ينال الإنسان عند فقدها(١٢) .

وقد ذكروا بأن هذه النار التي يستعملها الإنسان في أغراضه في السلم والحرب تتكون من ثلاثة عناصر شبهوا كلاً منها بمثلث خاص يلتقي في نهاية طرفيه بالمثلثين الآخرين ليحدث إشتعال النار ، فإذا ما حاولنا إخماد النار مرة ثانية حاولنا أن نفصل أحد المثلثات الثلاثة عن المثلثين الآخرين ، وهذه العناصر هي كما يلي :

**الأول** : المادة المشتعلة ، كالحطب والزيت والغاز وغير ذلك من المواد الصلبة والسائلة والغازية مما يقبل الإشتعال .

**الثاني** : العامل المساعد علىٰ الإشتعال ، وهو غاز الإكسجين الذي يكون خمس الهواء الجوي ، ومصادر هذا الغاز هو النبات وغيره من مواد التحضير التي يباشرها العلماء ليستخرجوه من مواد مختلفة ، ليس هذا موضع تفصيلها .

**الثالث** : درجة الحرارة التي تبلغ إلىٰ درجة الإشتعال ، فما لم تكن درجة الحرارة مرتفعة فلا يمكن أن يحدث اشتعال ولا يمكن أن تنتشر النار قبل ذلك .

وقد ذكرنا في بعض تضاعيف الكتاب نبذة عن موضوع النار ونقول هنا : إن الإنسان قد بدأ يلعب بالنار ، إما لجهله بآثارها ونتائجها ، وإما لأنه

---

(١٢) من أمالي الإمام الصادق (ع) ج٣ ، ص ١٧٤ بحاشية محمد الخليلي .

قد غلبت عليه شقوته وأنانيته .

هذا ما يكون من نار الدنيا وآثارها وأحوالها ، ولكن مع ذلك كله لا تقاس بنار الآخرة ؛ لأن نار الدنيا ـ كما أسلفنا ـ بعناصرها الثلاثة نستطيع أن نفصل أياً منها فتخمد النار .

أما نار الآخرة التي توعّد الله بها الكافرين والمنافقين فإنها تختلف كل الإختلاف عن نار الدنيا فهي مسجرة من غضب الله وليس لله فيها رحمة ، وقد ذكرت بإسهاب في القرآن المجيد ، ولكنها إذ تذكر لم تذكر علىٰ سبيل الإخبار وإنما تذكر في مقام التهديد والتوعيد والتحذير . قال تعالىٰ : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾[13] . قال في التبيان : وصف ـ تعالىٰ ـ النار التي حذرهم منها فقال : ﴿ **وقودها الناس والحجارة** ﴾ قيل : تلك النار الناس والحجارة كوقود الكبريت ، وهو أشد ما يكون من العذاب ﴿ **عليها ملائكة غلاظ** ﴾ في الأخلاق وإن كانوا رقاق الأجسام ؛ لأن الظاهر من حال الملك أنه روحاني ؛ فخروجه عن الروحانية كخروجه عن صورة الملائكة . ﴿ **شداد** ﴾ في القوىٰ ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم** ﴾ به . وفي ذلك دلالة علىٰ أن الملائكة الموكلين بالنار وبعقاب العصاة معصومون عن فعل القبيح لا يخالفون الله في أمره ، ويمتثلون كل ما يأمرهم به[14] .

وقال الطبرسي في مجمع البيان في تفسير الآية : والمعنىٰ قوا أنفسكم وأهليكم النار بالصبر علىٰ طاعة الله ، وعن معصيته وعن إتباع الشهوات ، وقوا أهليكم النار بدعائهم إلىٰ الطاعة ، وتعليمهم الفرائض ،

---

(١٣) سورة التحريم : الآية ، ٦ .
(١٤) تفسير التبيان ج ١٠ ص ٥٠ .

ونهيهم عن القبائح ، وحثهم علىٰ أفعال الخير .

وقال مقاتل بن حيان : هو أن يؤدب الرجل المسلم نفسه وأهله ، ويعلمهم الخير ، وينهاهم عن الشر، فذلك حق علىٰ المسلم أن يفعل بنفسه وأهله ، وعبيده وإمائه في تأديبهم وتعليمهم . ثم وصف سبحانه ـ النار التي حذرهم منها فقال : ﴿ **وقودها الناس والحجارة** ﴾ أي حطب تلك النار الناس وحجارة الكبريت وهي تزيد في قوة النار(١٥) .

وجاء وصف نار الآخرة ـ كما ذكر ذلك المحدث الكبير الحكيم المتأله محمد بن المرتضىٰ المعروف بالفيض الكاشاني ـ قال : والنار دار الهوان ، ودار الإنتقام من أهل الكفر والعصيان ، لايقضىٰ عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ، لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً ، وإن استطعموا طعموا من الزقوم ، وإن استغاثوا غيثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً ، ينادون من مكان بعيد (﴿ **ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون** ﴾ فيمسك الجواب عنهم أحياناً ثم قيل لهم : ﴿ **اخسئوا فيها ولا تكلمون** ﴾ ، ﴿ **ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون** ﴾ ، ﴿ **لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم**﴾(١٦) وقد وردت روايات أهل البيت ـ عليهم السلام ـ بتهويل هذه النار التي سجّرها جبارها لغضبه .

فمن ذلك ما رواه الصدوق بإسناده عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال : بينا رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ ذات يوم قاعداً إذ أتاه جبرئيل ـ عليه السلام ـ وهو كئيب حزين متغير اللون ، فقال رسول الله : يا جبرئيل ما لي أراك كئيباً حزيناً ؟ فقال : يا محمد فكيف لاأكون كذلك وإنما وُضِعَتْ منافيخ جهنم اليوم . فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : وما

---

(١٥) مجمع البيان للطلبرسي ج ١٠ ص ٤٧٧ .

(١٦) المحجة البيضاء ج ١ ص ٢٥٤ .

منافيخ جهنم يا جبرئيل ؟ فقال : إن الله ـ تعالى ـ أمر بالنار فأوقد عليها ألف عام حتىٰ إحمرت ، ثم أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتىٰ إبيضت ، ثم أمر بها ألف عام حتىٰ إسودت ، وهي سوداء مظلمة ، فلو أن حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وضعت علىٰ أهل الدنيا لذابت الدنيا من حرّها ، ولو أن قطرة من الزقوم والضريع قطرت في شراب أهل الدنيا مات أهل الدنيا من نتنها .

قال : فبكىٰ رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ وبكىٰ جبرئيل ـ عليه السلام ـ فبعث الله اليهما ملكاً فقال : إن ربكما يقرؤكما السلام ويقول: إني قد أمنتكما من أن تذنباً ذنباً أعذ بكما عليه[١٧] .

وبإسناده عن مولانا الباقر ـ عليه السلام ـ قال : لما نزلت الآية ﴿ وجيء يومئذ بجهنم ﴾[١٨] سئل عن ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ فقال : أخبرني الروح الأمين ، إن الله لا إله غيره إذا جمع الأولين والآخرين أوتى بجهنم تقاد بألف زمام ، آخذ بكل زمام ألف ملك من الغلاظ الشداد لها هدّة وتغيظ وزفير ، وإنها لتزفر الزفرة فلولا أن الله أخرهم إلى الحساب لأهلك الجميع . ثم يخرج منها عنق محيط بالخلائق ـ البرمنهم والفاجر ـ فما خلق الله عبداً من عباده ـ ملك ولا نبي ـ إلا ينادي : يا رب نفسي نفسي ، وأنت تقول : يا ربي أمتي أمتي .

وروى الحسين ابن سعيد الأهوازي في كتابه ، عن زيد إبن علي ، عن آبائه عن علي ـ عليه السلام ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : إن ناركم هذه لجزء من سبعين جزء من نار جهنم ، ولقد أطفئت سبعين مرة بالماء ، ولولا ذلك لما استطاع آدمي أن يطفئها إذا

---

(١٧) علم اليقين في أصول الدين للفيض الكاشاني ج ٢ ، ص ١٠٣٣ .
(١٨) سورة الفجر : الآية ، ٢٣ .

التهبت ، وإنه ليؤتىٰ بها يوم القيامة حتىٰ توضع علىٰ النار ، ما يبقىٰ ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا بركبتيه فزعاً من صرختها[١٩] .

وعن ابن بكير ، عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال : إن في جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له ( سقر ) شكىٰ إلىٰ الله ـ تعالى ـ شدة حره وسأله أن يأذن له أن يتنفس ، فأذن له فتنفس فأحرق جهنم .

ومما تقدم نستطيع أن نستخلص بأن النار تنقسم إلى ضربين :

**الأول** : نار الدنيا وقد وجدت لمنفعة الناس ، وفائدتهم ، واستعمالها في أغراضهم السلمية ، وهذا لا يضير بكون النار نافعة غير ضارة ، ولكنها تكون ضارة إذا أساء الإنسان استخدامها والتصرف فيها ، فيجني بذلك على نفسه وعلى غيره من سائر الأحياء ، ويجر بذلك تدمير البناء الحضاري الذي سعىٰ في بنائه عدة قرون .

**الثاني** : نار الأخرة ، وهي التي قد وجدت لغرض العذاب والإنتقام من الظالم ، والإنتصاف إلى المظلوم ؛ ليتجلىٰ بذلك العدل الإلهي الذي إتصف به ـ سبحانه ـ وإلآ يكن كذلك فقد تساوىٰ في الجزاء الظالم والمظلوم ، والكافر والمؤمن ، ويتشبه الخير والشر وبالعكس .

وبعد ما تقدم يظهر لك سؤال الحسين ـ عليه السلام ـ فكاك رقبته من النار ـ كما طالعتنا به العبارة المطروحة أمام هذا البحث ـ ويظهر معنىٰ سؤاله وأهميته في الحياة الأخرة ، وأن من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ولا واسطة بين هاتين المنزلتين .

وإذا تأملت ما جاء بعد هذه العبارة أخذك العجب إذ جعل ـ عليه السلام ـ توحيد الباري وسيلة لفكاك رقبته من النار ، وهو نعم

(١٩) بحار الأنوار ج ٨ ص ٨٨ .

الوسيلة ، بل هو الوسيلة كلها فقال ـ عليه السلام ـ ( لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ) إذ أن كل ما سوىٰ الشرك مغفور ، وذلك بناءً علىٰ ما جاء في الآية الكريمة: ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾[20] . قالوا في تفسيرها : إن ظاهر سياق الآية هو في مقام التعليل . ومغفرته ـ سبحانه ـ وعدم مغفرته لا يقع شيء منهما وقوعاً جزافياً ، بل علىٰ وفق الحكمة ، وهو العزيز الحكيم .

فأما عدم مغفرته للشرك ؛ فإن الخلقة إنما تثبت علىٰ ما فيها من الرحمة علىٰ أساس العبودية والربوبية . قال ـ تعالى ـ ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[21] . ولا عبودية مع شرك .

واما مغفرته لسائر المعاصي والذنوب التي دون الشرك فبشفاعة من جعل له الشفاعة من الأنبياء والأولياء والملائكة والأعمال الصالحة .

علىٰ أن من الحكمة أن لا يغفر لكل مذنب ذنبه ، وإلا لغي الأمر والنهي ، وبطل التشريع ، وفسد أمر التربية الإلهية ، وإليه الإشارة بقوله ﴿ **لمن يشاء** ﴾ . وهنا يظهر أن كل واحدة من المعاصي لا بد أن لا يغفر بعض أفراده وإلا لغي النهي عنه . وهذا لا ينافي عموم لسان آيات أسباب المغفرة ، فإن الكلام في الوقوع دون الوعد علىٰ وجه الإطلاق ، ومن المعاصي ما يصدر عمن لا يغفر له بشرك ونحوه .

فمعنىٰ الآية أنه ـ تعالىٰ ـ لا يغفر الشرك من كافر ولا مشرك ، ويغفر سائر الذنوب دون الشرك بشفاعة شافع من عباده ، أو من عمل صالح وليس هو ـ تعالىٰ ـ مقهوراً أن يغفر كل ذنب من هذه الذنوب لكل مذنب ، بل له

---

(٢٠) سورة النساء : الآية ، ٤٨ .

(٢١) سورة الذاريات : الآية ، ٥٦ .

أن يغفر ، وله أن لا يغفر ، كل ذلك لحكمة[٢٢] .

فالعبارة المشار إليها في صدر هذا الحديث وسيلة وأي وسيلة لفكاك الرقبة من النار ، وهو ـ عليه السلام ـ عندما يقولها يقولها بشرطها وشروطها وهو من شروطها ـ علىٰ أحد المعاني لحديث السلسلة الذهبية .

ثم وصف ربه ـ تعالى ـ بقوله : ( لك الملك ولك الحمد ) . أما الملك فإما أن يكون المقصود به في العبارة هو التصرف المطلق من الأوامر والنواهي وغيرها مما ينطبق علىٰ الموجودات ، والقيومية التي هي التسلط والتصرف المطلق ، وإما أن يكون بمعنىٰ الدوام لا ينفك ولا يزول .

أما تقديم الخبر علىٰ المبتدأ فيدل علىٰ إختصاصه بالملك ( بضم الميم ) دون غيره ؛ لأن اللام تدل علىٰ ذلك إضافة إلىٰ تأخير المبتدأ . ومعنىٰ ذلك أنه يريد أن يقول : إنك قوي تتصرف في ذلك تصرف القوي . وكذلك الحمد في تقديم الخبر علىٰ المبتدأ ، وهو يعني أن الحمد خاص به ولا يقال لأحد سواه ؛ لأنها كلمة لا تقال إلا لله ـ سبحانه ـ . أما الشكر والثناء والمدح فهي وإن كانت كلمات قريبة المعنىٰ من الحمد إلا أنها مشتركة بين الله وبين خلقه ، وقد أشرنا إلىٰ ذلك في أول أبحاث الجزء الأول من الكتاب .

ثم كرر ـ عليه السلام ـ قوله : ( يا رب يا رب يا رب ) وقد ورد نظير هذا التكرار في كتاب الله العزيز في كثير من السور ، مثل سورة الرحمن ، وسورة المرسلات ، وسورة الجحد . والتكرار في مثل تلك المواطن التي يلجأ فيها الإنسان إلىٰ ربه ليس بضائر ولا مذموم ، بل ممدوح ، بل هو مطلوب ، وذلك بحسب ما يقتضيه الظرف المقول فيه ذلك ، وقد ورد أن الإمام زين العابدين ـ عليه السلام ـ كان في مناجاته يكرر هذه الكلمة ( يا

---

(٢٢) تفسير الميزان للطبطبائي ج ٤ ، ص ٣٧٠ .

رب ) حتى ينقطع نفسه ، في الدعاء المنسوب إليه والمشهور ( بدعاء أبي حمزة ) الثمالي .

ونحن إذا تأملنا كلمة ( رب ) وعرفنا أن معناها مالك الشيء ومستحقه عرفنا المقصود من تذييل العبارة المطروحة للبحث بهذه الكلمة وتكرارها .

أما التذييل فإنه لما فرغ من إثبات الوحدانية والملك والحمد والقدرة في العبارات السابقة ذيّلها بهذه الكلمة التي هي من صفات الباري سبحانه ـ الخاصة ، لأنه لا يقال ( الرب ) في غير الله إلا بالإضافة ؛ ولذلك حذف ياء المتكلم إما مرعاة لهذا الجانب وإما مراعاة لهذه الصفة التي تميز الخالق من المخلوق . وقد ذكر ابن منظور الإفريقي في لسان العرب في باب( ربب ) أن كلمة( الرب ) بالألف واللام تقال لغير الله ، وقد قالوه في الجاهلية للملك ، واستشهد علىٰ ذلك بقول الحرث ابن حلزة :

وهو الرب والشهيد علىٰ يوم الحيارين والبلاء بلاء

أما التكرار في كلمة ( رب ) فيظهر بالقرائن أن المقصود به الإعتراف مرة بعد أخرىٰ بالقدرة والملك الدائم لله ـ سبحانه ـ لكل شيء ، وهو داخل أيضاً في هذا الكل ـ كما فسر المعنى بذلك فيما سبق ـ وذلك يعطي معنىٰ الإستمرار أيضاً في العبودية له ـ سبحانه ـ وقد وردت علىٰ الخاطر هذه الأبيات أثناء البحث وهي تدخل في صلب الموضوع :

يا رب يا رب ما أحلىٰ ترددها في مسمع الدهر بل في مسمع البشر
يقولها المرء في ضيق وفي سعة لكي يزول بها ما كان من خطر
إسم تردد في سمعي فكان له صدىٰ أرق صدى من رنة الوتر
قدست يا رب تقديساً يفوق علىٰ ما قلت ليس بقول الكاذب الأشر
وإنما المرء مرهون بما كسبت يداه رهنا فخذ ما شئت أو فذر

قال عليه السلام :

( اِلٰهي اَنَا الْفَقيرُ في غِناي فَكَيْفَ لا اَكوُنُ فَقيراً في فَقْري ، اِلٰهي اَنَا الْجاهِلُ في عِلْمي فَكَيْفَ لا اَكوُنُ جَهوُلاً في جَهْلي ، اِلٰهي اِنَّ اخْتِلافَ تَدْبيرِكَ ، وَسُرْعَةَ طَوٰآءِ مَقاديرِكَ مَنَعا عِبادَكَ الْعارِفينَ بِكَ عَنِ السُّكوُنِ اِلىٰ عَطاءٍ ، وَاليَأْسِ مِنْكَ فِي بَلاءٍ ) .

## اللُّغَةُ

تدبيرك : التدبير في الأمر أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته ، والتدبر التفكر في الأمر . وفلان ما يدري قبال الأمر من دباره أي أوله من آخره . ويقال إن فلاناً لو استقبل من أمره ما استدبره لهدي لوجهة أمره .

قال أكثم ابن صيفي لبنيه : يا بني لا تتدبروا أعجاز أمور قد ولّت صدورها . والتدبير ان يتدبر الرجل امره ، والتدبير أن يعتق الرجل عبده بعد موته فيقول أنت حرٌّ بعد موتي وهو مدبر .

والدبران نحم بين الثريا والجوزاء ، ويقال له التابع والتوبيع وهو من منازل القمر ، سمي دبراناً لأنه يدبر الثريا أن يتبعها ودابر العيش آخره . قال معقل بن خويلد الهذلي :

وما عـرّيت ذا الحيـات إلّا لأقطع دابـر العيش الحبـاب

**طـواء** : الطواء أصله أن ينطوي ثديا المرأة فلا يكسرهما الحبـل وأنشد :

وثديان لم يكسر طواءهما الحبل

والإطواء الإنتباه في ذنب الجرادة وهي كالعقدة واحدها طوىٰ ، وقال بعضهم طـوىٰ بالضم مثل طوىٰ ( بـالكسر ) وهـو الشيء المثنى ، وطوىٰ بالقصر وادٍ بمكة . وذو طواء بالمد موضع بطريق الطائف ، ومضىٰ لطيته أي لوجهه الذي يريده ، ولنيته التي انتواها ، وفلان يطوي البلاد أي يقطعها بلداً عن بلـد ، عن بلد ، وطوى المكان إلى المكان جاوزه ، وأنشـد ابن الإعرابي :

عليها ابن علات إذا اجتس منزلاً طـوتـه نجـوم الليـل وهي بـلاقـع

**العارفين** : العرفان العلم وقد ذكرنا في البحث السابق بصورة عـابرة الفـرق بين العلم والمعرفـة ، والعرف بـالكسر من قـولهم ما عـرف عرفي إلّا بآخره ، أي عرّفني الاّ أخيراً ، ويقال للحازي عـرّاف ، وللطبيب عرّاف لمعرفة كل منهم بعلمه ، والعرّاف الكاهن . قال عروة بن حزام :

فقلت لعـرّاف اليمـامـة : داوني فـإنـك إن أبـرأتـني لـطبيـب

والمعروف ضد المنكر . والعرف ضـد النكر ، والعـرف والمعروف الجود .

اليأس : اليأس القنوط ، وقيل اليأس نقيض الرجـاء . وفي التنزيـل العزيز : ﴿ **أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدىٰ الناس جميعاً** ﴾[١] أي أفلم يعلم . وقال أهل اللغة معناه أفلم يعلم الذين آمنوا علماً يئسوا معه

---

(١) سورة الرعد : الآية ، ٣٠ .

أن يكون غير ما علموه ؟ وقيل معناه : أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الذين وصفهم الله بأنهم لا يؤمنون ؟

وروي عن ابن عباس أنه قال : ييأس بمعنىٰ علم لغة للنخع وفيها أقوال أخر لا داعي لذكرها .

**بلاء**: بلاه يبلوه إذا جرّبه واختبره، وابتلاه الله إمتحنه، والإسم البلوى والبلية والبلاء ، ويقال ابتليته بلاءً حسناً وبلاءً سيئاً ، والبلاء الإختبار يكون بالخير والشر قال تعالى : ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة** ﴾ والبلاء الإنعام ويقال أبلاه الله بلاءً حسناً وأبليته معروفاً. قال زهير:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

## البيان

في أسلوب هذه الفقرة نمط آخر من التواضع والتضرع الذي تفضل به علينا سيد الشهداء ـ سلام الله عليه ـ وهو قوله ( إلٰهي أنا الفقير في غناي ، فكيف لا أكون فقيراً في فقري ؟ ) وفي ذلك إعتراف ظاهر بالحاجة إلى الله ـ سبحانه ـ

## معاني الفقر وآثاره

والفقر الذي ذكره في العبارة يحتمل كثيراً من الوجوه فمنها :

١ ـ **الفقر المادي** : وهو أن النعم التي أضفاها الله ـ سبحانه ـ على الإنسان لا تزال تحتاج إلى استمرارية لكي تستمر حياة الإنسان وبذلك يكون في حاجة دائمة مهما بلغ به الغنىٰ .

وقد تعرض لهذه الظاهرة الكتاب العزيز في قوله تعالىٰ ﴿ **فقال ربّ أني لما أنزلت إلي من خير فقير** ﴾[٢] قال في التبيان : أي فقير إلى ما

---

(٢) سورة القصص : الآية ، ٢٨ .

أنزلت إلي من خير أو بعبارة أخرىٰ إن هذا الخير الـذي أنزلتـه إلي أنا في حاجة إليه . وقال ابن عباس : أدرك موسىٰ جزع شديد فقال : ﴿ **ربِّ إني لما أنزلت إلي من خير فقير** ﴾[٣] .

وقال في الميزان : قد حمل الأكثرون قوله ﴿ **رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير** ﴾ على سؤال طعام يسدبه الجـوع ، وعليه فـالأولىٰ أن يكون المراد بقوله ﴿ **ما أنزلت إلي** ﴾ القوة البـدنية التي كـان يعمل بهـا الأعمال الصالحة التي فيها رضا الله كالدفاع عن الإسرائيلي ، والهرب من فرعـون بقصد مدين ، وسقي غنم شعيب .

ويظهر منه أنه ـ عليه السلام ـ كان ذا مراقبـة شديـدة في أعمالـه فلا يأتي بعمل ، ولا يـريده ـ وإن كـان مما يقتضيـه طبعه البشـري ـ إلاّ إبتغاء مرضاة ربه وجهاداً فيه ، وهذا ظاهر بالتدبر في القصة[٤] .

٢ ـ **الفقر المعنوي**: ونعني به ما هو أسمىٰ وأعلىٰ من المادة ، بعد علمنا بأن الله قد كفل رزق كل موجود ، فهو لا يعنيه من أمر رزقه شيء ، وبذلك يرتفع الإنسان إلى مصاف الملائكة ، ويكـون مرتبـطاً بالله ارتبـاطاً كليـاً ، وبسبب هـذا الإرتبـاط تشتـد العـلاقـة بين الخـالق الغني الـرازق ، وبين المخلوق الفقير المرزوق .

٣ ـ **مطلق الحاجة** : سواءً كان في مال أو علم أو صحـة وما شـاكل ذلك من أمور الإنسان التي يعتمد عليها في حياته . فإن جميع هذه الوسائل لا تطلب إلاّ من الله سبحانه وتعالى ، وبذلك يكون الإنسان مديناً لربّه ولا يستطيع أن يؤدي شكر نعمة من نعمه

وهناك أمور كثيرة من حاجات الإنسان وافتقاره إلىٰ الله ـ سبحانه ـ لا

---

(٣) التبيان للطوسي .

(٤) تفسير الميزان للطباطبائي .

يأتي عليها حصر .

قال المحقق الفيض الكاشاني : إعلم أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه ، فأما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمىٰ فقراً ، وإن كان المحتاج إليه موجوداً مقدوراً عليه لم يكن المحتاج فقيراً ، وإذا فهمت هذا لن تشك في أن كل موجود سوىٰ الله فهو فقير ، لأنه محتاج إلىٰ دوام الوجود في ثاني الحال ودوام وجود مستفاد من فضل الله وجوده ، فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاداً له من غيره فهو الغنىٰ المطلق ولا يتصور أن يكون مثل هذا الوجود إلا واحداً فليس في الوجود إلا غني واحد ، وكل من عداه فإنهم محتاجون إليه ليمد وجودهم بالدوام ، وإلىٰ هذا الحصر الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ **والله الغني وأنتم الفقراء** ﴾[٥] وهذا معنىٰ الفقر مطلقاً ، ولكنا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال علىٰ الخصوص وإلا ففقر العبد بالإضافة إلىٰ أصناف حاجاته لا ينحصر ، لان حاجاته لاحصر لها ، ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال ، وهو الذي نريد الآن بيانه فقط فنقول : كل فاقد للمال فإنا نسميه فقيراً بالإضافة إلىٰ المال الذي فقده إذا كان ذلك المفقود محتاجاً إليه في حقه ، ثم يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر ونحن نميزها ونخصص كل حال بإسم لنتوصل بالتمييز إلىٰ ذكر أحكامها .

**الحالة الأولىٰ** : وهي العليا أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذىٰ به وهرب من أخذه مبغضاً له ومحترزاً من شره وشغله وهو الزهد واسم صاحبه الزاهد .

**الثانية** : أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح بحصوله ولا يكرهه

---

(٥) سورة محمد ، الآية : ٣٨ .

كراهة يتأذىٰ بها ويزهد فيه ولو أتاه رضي به وصاحب هذه الحالة يسمىٰ راضياً .

**الثالثة** : أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه بل إن أتاه عفواً صفواً أخذه وفرح به ، وإن افتقر إلىٰ تعب في طلبه لم يشتغل به ، وصاحب هذه الحالة نسمية قانعاً إذ قنع نفسه بالموجود حتىٰ ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة .

**الرابعة** : أن يكون تركه الطلب لعجزه وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلاً إلىٰ طلبه ولو بالتعب لطلبه أو هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص .

**الخامسة** : أن يكون ما فقده من المال مضطراً إليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب ويسمىٰ صاحب هذه الحالة مضطراً كيف ما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية وقلما تنفك هذه الحالة عن الرغبة فهذه خمسة أحوال أعلاها الزهد والإضطرار إن إنضم إليه الزهد وتصور ذلك فهو أقصىٰ درجات الزهد(٦) .

وقال في ميزان الحكمة نقلاً عن المجلسي ـ رضوان الله عليه ـ في تبيين قوله ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ ( كاد الفقر أن يكون كفراً ) .

**توضيح** : هذه الرواية من المشهورات بين الخاصة والعامة ، وفيهاذم عظيم للفقر ، ويعارضها من الأخبار ما روي عن النبي ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ ( الفقر فخري وبه أفتخر ) ، وقوله ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ ( اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين . . . )

---

(٦) المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء للكاشاني ج ٧ ، ص ٣١٥ .

ثم ذكر أحاديث وردت من طرق العامة ، ثم ذكر ما ذكره الراغب في المفردات من وجوه الجمع بين هذه الأحاديث ، ذكرنا معظمها في مطاوي الكلام السابق ومنه قوله : الفقر إلىٰ الله المشار إليه بقوله : اللهم اغنني بالأفتقار إليك ، ولا تفقرني بالإستغناء عنك ، وإياه عنىٰ ـ تعالىٰ ـ بقوله﴿ رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ ، وبهذا ألم الشاعر فقال :

ويعجبني فقري إليك ولم يكن ليعجبني لولا محبتك الفقر

ويقال : إفتقر فهو مفتقر وفقير .

وفي الخبر أنه ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ تعوذ من الفقر ، وقال : الفقر فخري وبه أفتخر علىٰ سائر الأنبياء . وقد جمع بين القولين بأن الفقر الذي تعوذ منه ـ صلى الله عليه وآله ـ الفقر إلىٰ الناس ، والذي دون الكفاف والذي افتخر به الفقر إلىٰ الله ـ تعالى ـ ، وإنما كان هذا فخراً له علىٰ سائر الأنبياء مع مشاركتهم له فيه ؛ لأن توحيده وإتصاله بالحضرة الإلهية وإنقطاعه إليه كان في الدرجة التي لم يكن لأحد مثلها في العلو ؛ ففقره إليه كان أتم وأكمل من فقر سائر الأنبياء .

وقال الكرماني في شرح البخاري في قوله ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ : ( أعوذ بك من الفقر ) إستدل به علىٰ تفضيل الغنىٰ ، وبقوله ـ تعالى ـ : ( إن ترك خيراً ) أي مالاً ، وبأنه ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ توفي علىٰ أكمل حالاته وهو موسر بما أفاء الله عليه ، وبأن الغني وصف للحق ـ تعالى ـ وحديث : أكثر أهل الجنة الفقراء إخبار عن الواقع ، كما يقال : أكثر أهل الدنيا الفقراء . وأما تركه الطيبات فلأنه لم يرض أن يستعجل من الطيبات .

وأجاب الآخرون : بأنه إيحاء إلىٰ أن علة الدخول الفقر ، وتركه الطيبات يدل علىٰ فضل الفقر ، واستعاذته من الفقر معارض باستعاذه من الغنىٰ ، ولا نزاع في كون المال خيراً بل في الأفضل ، وكان عند وفاته

ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ درعه مرهوناً ، وغنىٰ الله ـ تعالى ـ بمعنىٰ آخر .

وذهب أكثرهم إلىٰ أن الكفاف أفضل من الغنىٰ والفقر ؛ فإنه سالم من آفاتهما وليس ببعيد . وقال بعضهم : هذا كله صحيح لكن لا يدفع أصل السؤال في أيهما أفضل الغنىٰ أم الفقر ؟ لأن النزاع إنما ورد في حق من إتصف بأحد الوصفين أيهما في حقه أفضل ؟

وقيل : إن السؤال أيهما أفضل ؟ لا يستقيم؛ لاحتمال أن يكون لأحدهما من العمل الصالح ماليس للآخر فيكون أفضل(٧) .

وقد ورد في الفقر أحاديث كثيرة فمنها ما أوحىٰ الله ـ تعالى ـ إلىٰ إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال : يا إبراهيم خلقتك وابتليتك بنار نمرود فلو ابتليتك بالفقر ورفعت عنك الصبر فما تصنع ؟ قال إبراهيم : يا رب الفقر إليٰ أشد من نار نمرود ، قال الله : فبعزتي وجلالي ما خلقت في السماء والأرض أشد من الفقر(٨) .

ومن وصايا لقمان لابنه إعلم أي بني إني قد ذقت الصبر وأنواع المر فلم أر أمر من الفقر فإن افتقرت يوماً فاجعل فقرك بينك وبين الله ، ولا تحدث الناس لفقرك فتهون عليهم(٩) .

وقال ـ عليه السلام ـ لأبنه محمد ابن الحنفية : يا بني إني أخاف عليك الفقر ، فاستعذ بالله منه ؛ فإن الفقر منقصة للدين ، مدهشة للعقل ، داعية للمقت(١٠) ، وقال علي ـ عليه السلام ـ لابنه الحسن : لا تلم إنساناً

---

(٧) ميزان الحكمة لمحمدي الري شهري ج ٧ ، ص ٤٩٨ .
(٨) البحار ج ٧٢ ، ص ٤٧
(٩) البحار ج ٧٢ ، ص ٥٣ .
(١٠) نهج البلاغة حكم ٣١٩ .

يطلب قوته ، فمن عدم قوته كثر خطاياه ، يا بني الفقير حقير ، لا يُسمع كلامه ، ولا يعرف مقامه ، لو كان الفقير صادقاً يسمونه كاذباً ، ولو كان زاهداً يسمونه جاهلاً . يا بني من ابتلي بالفقر إبتلي بأربع خصال : بالضعف في يقينه ، النقصان في عقله ، والرقة في دينه ، وقلة الحياء في وجهه ، فنعوذ بالله من الفقر(١١) .

ونعود إلى العبارة مرة أخرىٰ لنتأمل ما يقول ـ عليه السلام ـ إنه يقول : إني مفتقر إليك ، وأنا غني غير محتاج إلى الناس بما أنعمت على ، وبعبارة أخرىٰ إني في غنىً عن الناس ولكني محتاج إليك مهما عظم هذا الغنىٰ ؛ لأن الحاجة إلى الله سبحانه دون غيره هي الغنىٰ بعينه ؛ وذلك لأن الإنسان ينصرف عمّن سوى الله ، ولا يسأل إلاّ الله . وهذا ليس معناه الإستغناء عن الناس ، فإن الله سبحانه هو وحده الغني وهم الفقراء إليه .

هذا في عدم الحاجة إلى الناس ، فكيف به في حال الحاجة إليهم ؟ إن هذا هو أولىٰ الإلحاح والتضرع إلى الله سبحانه ، ولذلك يقول : ( فكيف لا أكون فقيراً في فقري ) فإن هذه الحال التي رسمها ـ عليه السلام ـ وهي حالة الفقر كلها جاحة وكلها مسكنة .

وربما توجهت العبارة إلى جهة أخرىٰ وهو أن نقول : إن المقصود من هذا الفقر هو الفقر من العمل الصالح ، ولو كان ذلك مجازاً بالنسبة إليه . فكأنه يقول ـ عليه السلام ـ : إنه مع وجود عملي الصالح فإني محتاج إلى رحمتك ، فكيف بي مع عدم وجود هذا العمل لا شك إني محتاج بصورة أولىٰ إلى هذه الرحمة التي وسعت كل شيء .

إلا أن الوجه ـ كما تراه ـ لا ينسجم مع مقام العصمة الذي هو من شروط الإمامة ولكن بغض النظر عن ذلك فإن متن العبارة يحتمله .

(١١) البحار ج ٧٢ ، ص ٥٣ .

## العلم والجهل

ثم انتقل ـ عليه السلام ـ إلى معنىً آخر ، بنفس الإسلوب ، ولنفس الغرض فقال ـ عليه السلام ـ (إلهي أنا الجاهل في علمي ، فكيف لا أكون جهولاً في جهلي ) الجهل عدم ، والعلم وجود ، وهما نقيضان لا يجتمعان معاً ولا يرتفعان معاً ، فتقابلهما تقابل النقيضين كالظلمة والنور . وعلى كل حال فإن الإنسان مهما بلغ في العلم فهو جاهل بالنسبة إلى الله ؛ لأنه ـ سبحانه ـ هومصدر العلم ، ولا علم للإنسان إلا ما علمه الله وقد أشار إلى هذه الناحية الكتاب العزيز في قوله تعالى ﴿ **قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم** ﴾[١٢] .

قال في المعاني عن الصادق ـ عليه السلام ـ : إن الله ـ عز وجل ـ علّم آدم حججه كلها ، ثم عرضهم وهم أرواح على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين بأنكم أحق بالخلافة في الأرض لتسبيحكم وتقديسكم من آدم فقالوا : سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال الله تبارك وتعالى : يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم وقفوا على عظيم منزلتهم عند الله ـ عز ذكره ـ فعلموا أنهم أحق بأن يكونوا خلفاء الله في أرضه وحججه على بريته ، ثم غيبهم عن أبصارهم ، واستعبدهم بولايتهم ومحبتهم ، وقال لهم : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السمٰوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون .

فإذا كان الإنسان جاهلاً في حال علمه بالنسبة إلى الله فكيف في حال جهله ؛ ولذلك فإنه قد جاء في العبارة بصيغة المبالغة ( جهولاً ) أي كثير الجهل ، أو لأنه جاهل ضعفين ، أي جهله الحقيقي وهو عدم العلم ، وجهله بالقياس إلى الله ـ سبحانه ـ وهذا من قبيل قول الشاعر الجاهلي عمر

---

(١٢) سورة البقرة : الآية ، ٣٢ .

ابن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وبكلمة مختصرة وبسيطة أني في حال علمي إذا نسبت إلى الله ـ سبحانه ـ فإني جاهل ؛ لأني استمد العلم منه ـ تعالى ـ وفي حال جهلي إذا نسبت إليه فإني جهول ، كثير الجهل .

وهذه الصيغة ، وهي صيغة المبالغة في الجهل تعني الحاجة المستمرة إلى العلم من الله تعالى .

وعلى كل حال فإن العلم خير من الجهل بصفة عامة ؛ لأنه قد سبق وأن نبهنا عن العلم ومكانته في كثير من المواطن من الكتاب وقد قال الشاعر في ذلك :

العلم مصباح الحياة فنقبوا من قبل أن تثبوا عن المصباح
وترسموا بالعلم نهجاً واضحاً فالعلم يوضح أيما إيضاح
فالحق لا يرجى بغير عطائه فعطاؤه للحق كالمفتاح
لا يستوى الفذ المجد بعلمه لو أنصفوا كالجاهل المزّاح[١٣]

## اختلاف التدبير

ثم شرع ـ عليه السلام ـ في خطاب الباري بقوله ( إلهي إن اختلاف تدبيرك ، وسرعة طواء المقادير منعاً عبادك العارفين بك عن السكوت إلى عطاء ) والتدبير هو تصريف الأمور إلى جهاتها الخاصة بها ، وإلى هذا أشار قوله تعالى ﴿ **يدبر الأمر من السماء إلى الأرض** . . الآية ﴾[١٤] وقوله تعالى ﴿ **ثم استوىٰ على العرش يدبر الأمر** . . الأية ﴾[١٥] وقوله تعالى ﴿ **يدبر**

(١٣) الأبيات الثلاثة الأخيرة من تذييل المؤلف .

(١٤) سورة السجدة : الآية ، ٥ .

(١٥) سورة يونس : الآية ، ٣ .

**الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾**[١٦] فقد ورد في تفسير هذه الآية الأخيرة : إن التدبير هو الإتيان بالشيء عقيب الشيء ، ويراد به ترتيب الأشياء المتعددة المختلفة ، ونظمها بوضع كل شيء في موضعه الخاص به ، بحيث يلحق بكل منها ما يقصد به من الغرض والفائدة ، ولا يختل بتلاشي الأصل وتفاسد الأجزاء وتزاحمها ، ويقال دبّر أمر البيت أي نظم أموره ، والتصرفات العائدة إليه بحيث أدىٰ إلى صلاح شأنه وتمتع أهله بالمطلوب من فوائده .

فتدبير أمر العالم نظم أجزائه نظماً جيداً متقناً بحيث يتوجه به كل شيء إلى غايته المقصودة منه ، وهو آخر ما يمكنه من الكمال الخاص به ومنتهىٰ ما ينساق إليه من الأجل المسمىٰ ، وتدبير الكل إجراء النظام العام العالمي بحيث يتوجه إلى غايته الكلية وهي الرجوع إلى الله وظهور الآخرة بعد الدنيا[١٧] .

أما إختلاف التدبير الذي أشارت إليه عبارة النص ، فإنه بحسب ما ورد في معنىٰ الآية السابقة يحتمل وجوهاً :

**الأول** : إن المقصود بهذا الإختلاف هو إختلاف الجهات في السماء والأرض والهواء ، وجميع أرجاء هذا الكون ، فإن في كل جهة من جهاته تدبيراً خاصاً من تغيير وتبديل وإثبات ونفي وحذف وغير ذلك من الأمور التي تشعر بتسيير حركة هذا الكون وما يجري فيه من الحوادث كلها تدل على الإرادة والتقدير بحركة دائبة مقصودة ـ كما سوف تشير إليه العبارة التي تأتي بعد هذه العبارة .

**الثاني** : ان المقصود باختلاف التدبير هو إختلاف المقاييس التي

---

(١٦) سورة الرعد : الآية ، ٢ .

(١٧) تفسير الميزان للسيد الطباطبائي ج ١١ ، ص ٢٨٩ .

يقاس بها هذا العالم بحسب ما تقتضيه الحاجة بين عشية وضحاها وذلك لأن الله عالم بالأشياء قبل وجودها ، وعالم بالحوادث قبل حصولها ، فهو يعطي من التدبير في الأمور ما يتناسب وذلك الوجود للشيء أو ذلك الحصول للحوادث .

**الثالث** : هو أن الإخلاف في التدبير يأتي لتلك الأشيار المدبرة بحسب ما تقتضيه الحكمة الإلٰهية التي لها مدخلية كاملة في وجود الأشياء وحصول الحوادث ، فاختلاف التدبير ليس بحسب الفعل ، بل هو بحسب الأشياء المدبرة وما تقتضيه المصلحة منها ولها .

## سرعة طواء المقادير

وأما سرعة طواء المقادير فذلك يعني عدم التأمل ، وذلك لوجود العلم بالأشياء قبل وجودها ـ كما أشرنا الى ذلك تواً ـ لأن التريث في أي عمل من الأعمال هو من خوف الوقوع في الخطأ ولذلك قالوا في ما أثر من الحكم ( في التأني السلامة وفي العجلة الندامة ) غير أن هذا لا ينسحب على ما نحن فيه من سرعة المقادير الإلٰهية لأنها مقدرة على الأشياء قبل وقوعها ـ كما مر ـ وإلى هذا المعنى أشار قوله تعالى **﴿ وبارك فيها وقدّر فيها أوقاتها في أربعة أيام ﴾**[١٨] ، وقال تعالى **﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثىٰ وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار ﴾**[١٩] .

قال في الميزان : المقدار هو الحد الذي يحد به الشيء ويتعين ويمتاز به من غيره إذ لا ينفك الشيء الموجود عن تعين في نفسه وامتياز من غيره ، ولولا ذلك لم يكن موجوداً التبه .

(١٨) سورة فصلت : الآية ، ١٠ .
(١٩) سورة الرعد : الآية ، ٨ .

وهـذا المعنىٰ وهو كـون كل شيء مصـاحباً لمقـدار وقرينـاً لحـدّ لا يتعدى حقيقة قرآنية تكرر ذكرها في كلامه تعالى كقوله ﴿ **قد جعل الله لكل شيء قدراً** ﴾[20] وقوله تعالى ﴿ **وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وماننزله إلّا بقدر معلوم** ﴾[21] وغير ذلك من الآيات .

وإذا كان الشيء بحدّ لا يتعداه وهو مضروب عليه وذلك الحد عند الله وبأمره ولن يخرج من عنده وإحاطته ولا يغيب عن علمـه شيء كما قـال : ﴿ **إن الله على كل شيء شهيد** ﴾[22] وقال ﴿ **لا يعزب عنه مقدار ذرة** ﴾[23] فمن المحـال ألّا يعلم تعالى مـا تحمل كـل أنثىٰ وما تغيض الأرحـام ومـا تزداد . فذيل الآية وهو قوله ﴿ **وكل شيء عنده بمقدار** ﴾ تعليل لصدرها . والآية وما يتلوهـا كالتـذليل أن الله يعلم بكـل شيء ويقدر على كـل شيء ويجيب الدعوة ويخضع له كل شيء فهو أحق بالربوبية[24] .

فاختلاف التدبير، وسرعة طواء المقادير هما اللذان (منعا) والفاعل الضمير المثنىٰ العباد العارفين بالله عن السكون إلى الغطاء ؛ لأن العطاء قد يكون للإستدراج ـ كما مرّ في البحث المتقـدم ـ فهٰؤلاء قلوبهم وجلة من ذلك ، فأفئدتهم لا تسكن . بل هي وجلة ؛ لأن سرعة التغيير واردة في كل لحظة ، لـوجود المـراقب المحاسب ، فهـو يدبـر ويقدر ويغيـر بحسب ما تقتضيـه الحكمة البالغة فوراً .

فمهما عظمت النعمة وزاد الرخاء ، وتوفر الخير ، فإن هؤلاء العارفين لا ينسون ذكر الله ولا يأمنون مكره ، لأنهم على إرتباط مع الله سبحانه ، وقد

---

(٢٠) سورة الطلاق : الآية ، ٣ .

(٢١) سورة الحجر : الآية ، ٢١ .

(٢٢) سورة الحج : الآية ، ١٧

(٢٣) سورة سبأ : الآية ، ٣ .

(٢٤) تفسير الميزان ج ١١ ، ص ٣٠٦ .

عرفوا بأنه لم يخلقهم عبثاً .

وبقي أن نقول : إن العلاقة بين اختلاف التدبير ، وسرعة طواء المقادير تكاد أن تذهل العقول ، وعلاقة السرعة باختلاف التدبير يدل عليه ما جاء في قوله تعالى ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾(٢٥) فقد جاء في تفسيرها : إن هذه الآية تصف كلمة الإيجاد وتبين أنه تعالى لا يحتاج إلى إيجاد شيء مما أراده إلى ما وراء ذاته المتعالية من سبب يوجب له ما أراده أو يعينه في إيجاده أو يدفع عنه مانعاً يمنعه .

والظاهر أن المراد بالأمر الشأن ، وقد ورد في عدة من الآيات القضاء مكان الإرادة كقوله تعالى ﴿ **إذا قضىٰ أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾(٢٦) ولا ضير فالقضاء هو الحكم والإرادة من الله شيء واحد وهو كون الشيء الموجود بحيث له من الله سبحانه ، إلّا أن يوجد ، فمعنىٰ إذا أردناه : إذا أوقفناه موقف تعلق الإرادة .

ومن المعلوم أن ليس هناك أمر ينفصل عنه تعالى يسمىٰ إيجاد أو وجود ثم يتصل بالشيء فيصير به موجوداً وهو ظاهر فليس بعده تعالىٰ إلّا وجود الشيء فحسب .

ومن هنا يظهر أن كلمة الإيجاد وهي كلمة كن هي وجود الشيء الذي أوجده ، لكن بما أنه منتسب إليه قائم به ، وأما من حيث انتسابه إلىٰ نفسه فهو موجود إيجاد ومخلوق لا خلق .

ويظهر أيضاً أن الذي يفيض منه تعالى لا يقبل مهلة ولا نظرة ولا يتحمل تبدلاً ولا تغيراً ، ولا يتلبس بتدرج وما يترآىٰ في الخلق من هذه الأمور إنما يتأتىٰ في الأشياء في ناحية نفسها لا من الجهة التي تلي ربّها

---

(٢٥) سورة يٰس : الآية ، ٨٢ .

(٢٦) سورة البقرة : الآية ، ١٧ .

سبحانه وهذا باب ينفتح منه ألف باب .

وفي نهج البلاغة يقول ـ عليه السلام ـ لما أراد كونه كن فيكون ، لا بصوت يقرع ولا نداء يسمع ، وإنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه ، ومثله لم يكن من قبل ذلك كائناً ولو كان قديماً لكان إلٰهاً ثانياً : وفيه يقول ولا يلفظ ويريد ولا يضمر .

وفي الكافي بإسناده عن صفوان بن بحيىٰ قال : قلت لأبي الحسن ـ عليه السلام ـ أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق قال : فقال الإرادة من الخلق الضمير وما يبدوا لهم بعد ذلك من الفعل ، وأما من الله فإرادته إحداثه لا غير ذلك لأنه لا يروي ولا يهم ولا يتفكر ، وهذه الصفات منفية عنه وهي صفات الخلق .

فإرادة الله الفعل لا غير ذلك يقول له : كن فيكون بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكر ولا كيف لذلك كما أنه لا كيف له[٢٧] .

## قَانُون السُّرْعَة

يبحث الفيزيائيون في مجالهم الخاص السرعة ، ويضعون لها القوانين التي تتغير مفاهيمها ونتائجها بتغير كتلة الجسم الذي يسير . ويقولون في ضمن ذلك : إذا كان لدينا آلة بخارية وجعلناها تسحب عربة واحدة من عربات القطار فإنها قد تسرع بها سرعة كبيرة ، ولنفرض أنها تبلغ مائة ميل في الساعة.. ولكن إذا جعلنا الآلة نفسها تسحب عشر عربات فانها قد لا تستطيع أن تصل حتىٰ إلى سرعة خمسين ميلاً في الساعة .

ونقول عندئذٍ إن كتلة العربات العشر أكبر من كتلة العربة الواحدة ، أي أن عشر عربات تقاوم التسارع أكثر من الواحدة .

(٢٧) تفسير الميزان للطباطبائي ج ١٧ ص ١١٤ .

ومن المفروض في الفيزياء الكلاسيكية أن الكتلة ثابتة لا تتغير سواءً كانت واقفة أو متحركة ، وإنما قد يتغير وزنها فقط .

ولكن النظرية النسبية تقول : إن الكتلة تتغير بالحركة ، وتزداد كلما زادت السرعة بحسب قوانين رياضية وضعوها لذلك ، ولكننا لا نجد أنفسنا بحاجة إليها غير أنا نستطيع أن نستخلص منها هذا القانون بالكلمات التالية ( إذا ما تحرك جسم بالنسبة لمشاهد فإن كتلة الجسم ستزداد ، ويعتمد مقدار الزيادة على السرعة النسبية بين المساهد والجسم[٢٨] .

ولهذا فقد ذهب العالم الرياضي الشهير ( أينشتين ) للقول : بأن جميع السرعات في الأجسام لا تزيد عن سرعة الضوء التي تبلغ ( ١٨٦٠٠٠ ميل ) في الثانية ، أي ما يعادل ( ٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر ) في الثانية وإلاّ لتغيرت مقاييس الطبيعة ، وتغير تبعاً لذلك مفهوم الزمن ؛ لأنه قد اعتبر الزمن بعداً رابعاً في هذا الكون إضافة إلى الطول والعرض والإرتفاع بحسب مفاهيم نظريته النسبية .

وقد بنى كل ذلك على أن الضوء هو أحد الأجسام التي تسير في هذا الكون ، إلاّ أن الأجسام تختلف من حيث الصلابة ، وتشتد من جسم لآخر ، وتختلف تبعاً لذلك سرعتها زيادة ونقصاناً بسبب مقاومة الهواء الصلب الذي هو كالفولاذ ، وهو يحيط بجميع الأجسام في هذا الكون ـ بحسب ما تراه النظرية النسبية ـ فالضوء هو أرق الأجسام وأدقها ، ولذلك فإنه يصطدم بكثير من جزيئات هذا الهواء الذي تعوقه عن السير ، ولذلك قالوا بأنه يسير في خطوط مستقيمة نظراً لقلة هذه الجزئيات المقاومة عندما يسير الضوء في ذلك الوسط ، وإن كان في هذا الكلام شيء من التسامح نظراً لما قالوه أخيراً : إن الشعاع ينحرف عن مساره المستقيم عند نقطة

---

(٢٨) الكون الأحدب للدكتور عبد الرحيم بدر ص ١٠٩ وما بعدها بتصرف .

التماس للأجسام .

ولكن مع ذلك فإنه يستغرق زمناً في حركته من مكان إلى مكان ، وإن كان سريعاً .

فأشعة الشمس مثلاً تصل إلينا في مدة لا تقل عن ثمان دقائق تقطع ما بيننا وبينها مسافة تقدر ( ٩٣ مليون ميلا ) . ويقطع ما بيننا وبين الشعرىٰ اليمانية مثلاً حتىٰ تصل إلينا أشعته ( ١٥٠سنة ضوئية ) ، فقد قدّرت، هذه المسافة بالسنين الضوئية لعسر قراءة الأرقام بالأميال التي بيننا وبين هذا النجم القريب لنا جداً ، بالقياس إلى غيره من النجوم الأخرىٰ التي تبعد عنا عشرات الألوف من ملايين السنين الضوئية .

ومن خلال ما تقدم ندرك معنىٰ المعجزة في حديث المعراج الذي أكرم الله به نبيه ، فأنه قد حدث له ذلك التنقل من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصىٰ ومنه إلى السماء حتىٰ إخترق السماوات السبع وما فوقها كل ذلك في زمن لا يتعدىٰ ثلث ليلة ـ كما ذكروا في ذلك ـ ومنهم من قال في أقل من ذلك وكلٌ محتمل ، وذلك بعد إنعدام الزمن وإلغاء القوانين العلمية من جاذبية وحرارة وبرودة وغير ذلك ؛ لأن المعجزة بحسب المفهوم الديني هي التي تتحدىٰ المفاهيم الإنسانية برمتها .

أما الحديث عن الإسراء والمعراج فله مجال آخر ؛ لأن كلا منا لا يتسع للحديث عنه ، وإنما ذكرنا ذلك إستطراداً .

إذاً فالسرعة بحسب المفهوم الإنساني هي التي تتخذ طابع الزمن ، وتطرح قانون التسارع ، وتتناسب معه تناسباً عكسياً ، فكلما زادت السرعة قلّ الزمن وكلما قلت السرعة زاد الزمن .

أما بحسب المفهوم الشرعي كما هو الحال في العبارة المطروحة أمام هذا البحث ( وسرعة طواء مقاديرك ) فليس كذلك فإن هاهنا ينعدم قانون

السرعة ومفهوم الزمان والمكان ؛ وذلك بحسب ما أوردنا من تفسير في الآية السابقة على هذا البحث .

## اليأس

ثم ذيّل ـ عليه السلام ـ ما قاله في العبارة السابقة في قوله : ( واليأس منك في بلاء ) وإذا أخذنا اليأس بمعنىٰ القنوط قلنا أن العارفين عندما يعتريهم البلاء لا يقنطون من رحمة الله وييأسون من روحه ، فعندما يعتريهم الفقر ـ مثلاً ـ لا ييأسون من الغنىٰ ، وعندما يعتريهم المرض لاييأسون من الصحة ، وعندما تعتريهم الشدة لا ييأسون من الفرج ، وقد نادىٰ بذلك الكتاب العزيز في قوله ـ تعالى ـ ﴿ **ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون** ﴾[29] فقد جاء في تفسيرها ـ كما في الميزان ـ الروح بالفتح فالسكون النفس ، والنفس الطيب ، ويكنىٰ به عن الحالة التي هي ضد التعب وهي الراحة ، وذلك أن الشدة التي فيها إنقطاع الأسباب ، وانسداد طرق النجاة تتصور إختناقاً وكظماً للإنسان، وبالمقابلة الخروج إلى فسحة الفرج والظفر بالعافية تنفساً وروحاً لقولهم : يفرج الهم وينفس الكرب ، فالروح المنسوب إليه هو الفرج بعد الشدة بإن الله ومشيئته ، ومن يؤمن بالله أن يعتقد أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا قاهر لمشيئته ولا معقب لحكمه وليس له أن ييأس من روح الله ويقنط من رحمته ، فأنه تحديد لقدرته وفي معنىٰ الكفر بإحاطته وسعة رحمته كما قال ـ تعالى ـ حاكياً على لسان يعقوب ـ عليه السلام ـ (﴿ **إنه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون** ﴾[30] وقال حاكياً عن لسان إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿ **ومن يقنط من رحمة ربه إلاّ الضالون** ﴾[31] . وقد عدّ اليأس من روح الله في

---

(٢٩) سورة يوسف : الآية ، ٨٧ .

(٣٠) سورة الحجر : الآية ، ٥٦ .

(٣١) تفسير الميزان للطباطبائي ج ١١ ص ٢٣٤ .

الأخبار المأثورة من الكبائر الموبقة .

وعلى هذا فإن اليأس لا يراود نفسية الإنسان المؤمن الذي استعصم بالله ووثق بربه ؛ لأن نفسه العالية تأبىٰ أن تخضع للمؤثرات التي تأتي من الخارج بسبب النفايات المادية أو غير ذلك من العوامل الباهتة التي لا تلبث أن تتلاشىٰ بين عشية وضحاها .

وفي ضمن البحث جاءت هذه الأبيات :

اليأس جرم أيما إجرام ... فافهم رعاك الله بالإفهام
لا تخذل النفس العزيزة إنما ... خذلانها ضرب من الأسقام
لا تجعلن اليأس هماً قاتلاً ... فالله أكرم وهو ذو الإكرام
وإذا أصبت بفادح وبلية ... تحتار فيها عزمة الأحلام
فالجأ لربك إن ربك قادر ... متصرف بتصرف الأيام
( لا تشتمنّ الخطب أو تبكي له ) ... فزوال ذاك الخطب لا بكلام

قال عليه السلام :

**( اِلٰهي مِنّي مٰا يَليقُ بِلُؤْمي ، وَمِنْكَ مٰا يَليقُ بِكَرَمِكَ ، اِلٰهي وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِاللُّطْفِ وَالرَّأْفَةِ لي ، قَبْلَ وُجوُدِ ضَعْفي ، اَفَتَمْنَعُني مِنْهُمٰا بَعْدَ وُجوُدِ ضَعْفي ، اِلٰهي اِنْ ظَهَرَتِ الْمَحٰاسِنُ مِنّي فَبِفَضْلِكَ ، وَلَكَ الْمِنَّةُ عَلَيَّ ، وَاِنْ ظَهَرَتِ الْمَسٰاوي مِنّي ، فَبِعَدْلِكَ ، وَلَكَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ ) .**

## اللُّغَةُ

**يليق** : يقال هذا الأمر لا يليق بك أي لا يزكو بك ، فإذا كان معناه لا يليق قيل : لا يليق بك .

وقال الأزهري : والعرب تقول : هـذا الأمر لا يليق بـك ، معناه لا يحسن بك حتى يلصق بك ، وقيل معناه : إنـه ليس يوفق لـك . وما يليق بكفه درهم أي ما يحتبس ، وما يليقه هو أي ما يحبسه ، وما يلصق به ، قال الشاعر :

تقـول إذا استـهلكـت مـالاً للذةٍ فكيهـة هـل شيء بكفيـك لائق

**بلؤمي** : اللؤم ضـد الكـرم ويقـال للرجـل إذا سب يـالؤمـان ، ويـا يا ملأمـان . وألأم أظهر خصـال اللؤم ، وقد تـلاءم القوم والتئمـوا اجتمعوا

واتفقوا ، وتلاءم الشيئان إذا اجتمعا واتصلا .

ولأمة الحرب أداتها وقد يترك الهمز تحفيفاً ويقال للسيف لأمة وللرمح لأمة ، وإنما سمي لأمة لأنها تلاءم الجسد وتلائمه ، وقال بعضهم اللأمة الدرع الحصينة سميت لأمة لإحكامها وجودة حلقها قال الأعشىٰ :

وقوفاً بما كان من لأمة وهن صيام يلكن الحر

وقال غيره

كأن فروج اللأمة السرج شكلها على نفسه عبل الذراعين محذر

**المحاسن** : الحسن ضد القبح ونقيضه . نقول قد حسن الشيء وقال سهل بن حنظلة الغنوي .

لم يمنع الناس مني ما أردت وما أعطيهم ما أرادوا حسن ذا أدبا

وقالوا إمرأة حسناء لأن القياس يوجب ذلك ولم يقولوا حسنة ولكن قالوا سيبويه يقال في الأنثىٰ حسنة ، والجمع حسان كما لمذكر وحسّانة ، قال الشماخ :

دار الفتاة التي كنا نقول لها يا ظبية عطلاً حسنانة الجيد

وجمع الحسناء من النساء حسان ، ولا نظير لها إلا عجفاء وعجاف وأحاسن القوم حسانهم . وفي الحديث : ( أحاسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافاً ) والمحاسن ضد المساوي ، والعرب تقول : أحسنت بفلان وأسأت به ، أي أحسنت إليه وأسأت إليه قال كثير :

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة لدينا ولا مقلية أن تقلت

## البيان

في هذه الفقرة بدأ ـ عليه السلام ـ يعترف في تصاغر كعبد مملوك لا يقدر على شيء ، كما بدأ أيضاً يصف الباري بالمقابل من صفات العبد ،

ويستمر في هذه المقارنة بين العبد، والخالق والمخلوق، فبدأ يقوله ( الٰهي مني ما يليق بلؤمي )، وبنظرة أولية بسيطة نقول: إن الإنسان وهو مخلوق يليق منه ما يليق بالعبد، ويحدث منه ما يحدث من الإنسان المخطىء المصيب.

والعبارة المطروحة أمام هذا البحث تعرض فيها لما يعتري الإنسان بما يقترفه في هذه الحياة الدنيا. على أن الإنسان قد خلق وهو مجموعة من العناصر التي تختلط وتمتزج بعضها مع بعض. إن هذا المزيج من العادات والتقاليد والتربية والوراثة والفطرة، والتي تصب في مرفأ واحد لجدير بها أن تغير وتؤثر في الإنسان سلباً وإيجاباً على أن الإنسان هو إنسان قبل كل شيء، ففيه النزعة إلى الشر، كما فيه الميول إلى الخير، وما التربية التي ينشأ في ظلالها الإنسان إلاّ مراعاة لجوانب الخير وعاداته التي تنبعث من الداخل، فتحوط بالإنسان وتبقىٰ كذلك ما بقيت الرعاية. وكما هو الحال في جوانب الخير، كذلك الحال في جوانب الشر، وقد ورد نظير ما جاء في هذه العبارة عن الإمام المنتظر ـ عجل الله فرجه الشريف ـ في دعاء الإفتتاح ( فلم أر مولاً كريماً أصبر على عبد لئيم منك علي يا رب، إنك تدعوني فأولي عنك، وتتحبب إليّ فأتبغض إليك، وتتودد إلي فلا أقبل منك كأن لي التطول عليك، فلم يمنعك ذلك... الدعاء ).

ومراعاة لما سبق في بحث اللغة من معنىٰ اللؤم فإن المقصود به هو عدم الكرم؛ وذلك بحسب قرينة ما سيأتي من الطباق في العبارة التالية لما نحن فيه.

أما نسبة اللؤم إليه بهذا المعنىٰ فإنه قد قاس ذلك بكرم الله ـ كما هو واضح ـ. ولا شك أن هناك بوناً شاسعاً بين الكلمتين. فاللؤم من صفات الإنسان الذميمة التي يذم عليها، بل ويعاقب عليها في بعض الأحيان، فهو وإن وجد فيه الكرم إلاّ أنه يوجد إلى جانبه البخل، وهما صفتان

محلهما الإنسان لا شك في ذلك .

وأما الباري فإنه لا يتصف بالبخل ، لأن البخل يتسبب من خوف الفقر ، وهو غير وارد بالنسبة إليه سبحانه ، بل إنه يتصف بالكرم الذي لا حدود له ؛ لأنه يعطي بدون حساب ؛ لأن خزائنه لا ينقص منها شيء .

فقوله ـ عليه السلام ـ ( إلهي مني ما يليق بلؤمي ) يعني أن العبد المملوك من شأنه اللؤم والبخل وهو صفة إنسانية فيخاف من الفقر ، وأنا إنسان قبل كل شيء ، فاللؤم إذا نسب إلي فهو في محله ، ومحله الإنسان بعض النظر عن العصمة التي هي صفة زائدة فيه .

ثم عقب على ذلك بقوله ـ عليه السلام ـ ( ومنك وما يليق بكرمك ) ولا يليق بكرمه إلاّ التفضل والعطاء ، لأن ذلك من ملازمات الكرم . وهذه الصفة كما توجد في الخالق توجد في المخلوق أيضاً ـ وإن كان هناك إختلاف بين الكرمين ، إلاّ أن الحد المشترك وهو العطاء هو موجود وإن كان بتفاوت كبير ؛ ولذلك فقد خصص الكرم المنسوب إلى الله تعالى بالإضافة إلى ضمير الخطاب ، وعليه فإن الكلام ينصرف إلى الكرم المنسوب إليه سبحانه فما هو الذي يليق بكرمه كما صرّحت بذلك العبارة ؟

١ ـ إن الذي يليق بكرمه سبحانه هو العطاء بغير تقدير ؛ لأن العطاء المقدر مهما زاد فهو محدود ، وهكذا يكون في نظر الإنسان ، أما عنده سبحانه فهو لا شك مقدر ـ كما هو صريح الآيات والروايات ـ مثل قوله تعالى ﴿ **وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام** ﴾[(١)] فهو يعطي بمقدار ما يستحق العبد ، ولكنه مع ذلك يكون كثيراً في نظر الإنسان .

٢ ـ إن هذا العطاء ليس له عوض ، فهو أقرب شيء من المن الذي يعطى بغير مقابل . وإلى ذلك أشار سبحانه في الكتاب العزيز في قوله

---

(١) سورة فصلت : الآية ، ١٠ .

﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض . . الآية ﴾[٢] .

٣ ـ إن الكرم الإلٰهي لا يصح أن يقاس به كرم آخر ؛ لأنه هو مصدر كل عطاء وأصل كل نعمة ، ومنتهى كل حاجة ، فلا يمنع منه أحد ؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو المتعهد برزق الإنسان . وقد وصف نفسه بذلك في قوله تعالى ﴿ إن الله هو الرزّاق ذو القوة المتين ﴾[٣] وهي على وزن فعّال وهي من صيغ المبالغة ، ومعناه إما أن يكون كثير الرزق والعطاء ، وإما أن يكون عطاءً لا ينقطع وذلك من الظواهر الملازمة لحياة الإنسان أما مسألة الإيمان والكفر فليس لها مساس بمسألة الرزق ، نعم إنا نقول : إن المؤمن أولىٰ بنعم الله من الكافر ، وقد مرّ ذلك مفصلاً في أبحاث سابقة من الكتاب .

فالذي يليق بكرمه سبحانه هو أن يعطي العبد عطاءً لا يتصف بعطاء الإنسان ، لأن هذا ـ كما أسلفنا تواً ـ عطاء محدود مجذوذ .

## اللطف والرأفة وصفات أخرى

ثم وصف الباري سبحانه بما وصف به نفسه تعالى ، ثم جعل هذا الوصف بمثابة تسليم بما قال سبحانه وتصديق بكلامه فقال ( الهي وصفت نفسك باللطف والرأفة لي قبل وجود ضعفي ، أفتمنعني منهما بعد وجود ضعفيٰ ؟ ) ولا شك أن الضعيف أولىٰ باللطف والرأفة ، والإنسان ضعيف بالطبع ؛ لأن الله قد خلقه هكذا ، وأراد له ذلك ، ولكن أمدّه بالقوة ، وذلك لكي يحتاج بعضه إلى بعض فتتكون العلاقات الإنسانية من جميع جهاتها بواسطة الحاجات المختلفة التي تدخل في صميم حياتهم . وقد ذكرت الآيات القرآنية ذلك الضعف فقال تعالى ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم

---

(٢) سورة القصص : الآية ، ٥ .

(٣) سورة الذاريات : الآية ، ٥٨ .

**جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾**[٤] قال المفسرون : الضعف والقوة متقابلان ، و﴿ من ﴾ في قوله ﴿ **من ضعف** ﴾ للإبتداء ، أي إبتداء خلقكم من ضعف ، أي ابتدأكم ضعفاء ، ومصداقه على ما تفيده المقابلة أول الطفولية ، وإن أمكن صدقه على النطفة .

والمراد بالقوة بعد الضعف بلوغ الأشد ، وبالضعف بعد القوة الشيخوخة ، ولذا عطف عليه ﴿ **شيبة** ﴾ عطف تفسير[٥] .

وفي العبارة المطروحة أمامنا كثير من النظرات العميقة نذكر بعضاً منها :

١ ـ اعترف ـ عليه السلام ـ في أولها بما لعلّه يحدث منه كإنسان له صفات من الخير ، وصفات من الشر ، هذا مع الإغماض عن موضوع التي هي صفة زائدة كما كررنا ذلك سابقاً . فهو يقول : كل ما يصدر مني من شر ولؤم فهو مردود علي ؛ لأن من طبيعتي كإنسان فعله ذاك وقد فعلته وأنت نهيتني فلم أنته .

٢ ـ ثم أشار ـ عليه السلام ـ فيما بعد إلى ما يليق بربه من الكرم ، فإنه كلما عصىٰ الإنسان ربه لم يمنعه ذلك من الرأفة والرحمة به ، والإحسان إليه ، والإنعام عليه ، وهذا من شأنه سبحانه وتعالى على العبد ؛ لأنه خلقه وتكفل إليه بكل شيء ، لأن العبد لا يقدر على شيء .

٣ ـ ثم أخذ ـ عليه السلام ـ يطرح بعض الصفات التي جعلها واسطة لمطالبه ، والتي تتعلق بصورة مباشرة بتلك المطالب . ( اللطف ) و ( الرأفة ) وهاتان الصفتان هما اللتان تتعلق بهما أنظار البشر ؛ لأنهما أخص

---

(٤) سورة الروم : الآية ، ٥٤ .

(٥) الميزان ج ١٦ ، ص ٢٠٤ .

من الرحمة التي وسعت كل شيء .

وقد أطنب القرآن الكريم في هاتين الصفتين ( اللطف والـرأفة ) في كثير من الآيات ؛ لأنهمـا من الصفات التي تـربط الخالق بـالمخلوق ، إذ موضوعهما هما الموجودات ، فإن الرأفـة والرحمـة أرادهما الله لمخلوقـاته بخلاف بعض الصفات كالقادر والقاهر فإن مثل ذلـك وإن كان يتجلىٰ في قدرته وقهره لعباده إلاّ أن الرأفة والرحمة يحتاجها المخلوق حاجة ماسّة دون غيرهما من الصفـات الإلٰهية ؛ لأنهمـا متفرعتـان عن الرحمـة ، والرحمـة يحتـاجها الإنسـان على كل حـال . واللطف والرأفـة يحتـاجهمـا الإنسـان الضعيف قبل الإنسان القوي ؛ لأن هذا الأخير قائم بذاته ـ إن صح التعبير ـ ولذٰلك فإن العبارة المطروحة أمامنا للبحث تشيـر إلى هذه الحقيقـة بشكل واضح .

## المحاسن والمساويء

ثم أخذ ـ عليه السلام ـ يذكر التفضل من الله عليه في كلا الحالين ، ويقر لله ـ سبحانه ـ بأن له المنة عليـه يقول : ( إلٰهي إن ظهـرت المحاسن منى فبفضلك ، ولك المنة علي ) وظهور المحاسن من الإنسان يعني أن الله قد أظهرها للناس ، وعندما يظهرهـا للناس فـإنه يـريد بـه خيراً ، كتحببه إليهم ، واحترامه من جا نبهم ، وهذا مما لا شك فيه هو تفضل من الله على العبد ومنّة ، وقد ورد : أن الله إذا أحب عبداً حببه إلى خلقه ، ولا يمكن أن يحبب إلى الخلق بفعـل نفسـه . وقـد ورد في الـدعـاء : ( يـا من أظهـر الجميـل ، وستر القبيـح ، يا من لم يؤاخـذ بالجـريرة ، يـا من لم يهتـك الستر . . . الدعاء ) ـ كما مر ذلك فيما سبق من الأبحاث .

أما إذا كان الإنسان هو الذي يظهر محاسنه بنفسه فإن ذلك لا يعـدو كونه مفاخرة ورياء وعجباً في نفسه ، وهذا مـا يعرض العمـل الحسن إلى البطلان .

ثم يقول عليه السلام : ( وإن ظهرت المساوى مني فبعدلك ولك الحجة علي ) والمساوى يتسبب في ظهورها الإنسان نفسه ؛ وذلك لسوء تصرفه في تعامله مع نفسه وربه وأهله ، أما مع نفسه فقد ظلمها باقتراف المساوي ، وأوردها الهلكة باستحقاق العذاب ، وأما مع ربه فإنه قد عصاه ، وهو الذي أوجده بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ، وأما مع أهله فبمفارقته لهم إذ أطاعوا الله وعصىٰ ، أو جعل نفسه قدوة لأهله وهو قدوة غير صالحة .

أما الحجة التي ذكرها النص فهي قائمة لم تزل على الإنسان ، ولله الحجة البالغة على جميع خلقه . فقوله : ( ولك الحجة علي ) يعني أنا ملزم بأعمالي إن كانت خيراً أو شراً ؛ لأنك قد وهبت لي عقلاً مميزاً أستطيع أن أدير جميع حركاتي وسكناتي وسائر تصرفاتي به .

قال عليه السلام :

( اِلٰهي كَيْفَ تَكِلُني وَقَدْ تَكَفَّلْتَ لي ؟ وَكَيْفَ اُضامُ وَاَنْتَ النّاصِرُ لي ؟ اَمْ كَيْفَ اَخيبُ وَاَنْتَ الْحَفِيُّ بي ؟ ها اَنَا اَتوَسَّلُ اِلَيْكَ بِفَقْري اِلَيْكَ ، وَكَيْفَ اَتوَسَّلُ اِلَيْكَ بِما هُوَ مُحالٌ اَنْ يَصِلَ اِلَيْكَ ؟ اَمْ كَيْفَ اَشْكُو اِلَيْكَ حالي وَهُوَ لا يَخْفىٰ عَلَيْكَ ؟ اَمْ كَيْفَ اُتَرْجِمُ بِمَقالي وَهُوَ مِنْكَ بَرَزٌ اِلَيْكَ ؟ اَمْ كَيْفَ تُخَيِّبُ آمالي وَهِيَ قَدْ وَفَدَتْ اِلَيْكَ ؟ اَمْ كَيْفَ لا تُحْسِنُ اَحْوالي وَبِكَ قامَتْ ) .

## اللُّغَةُ

**تكفلت** : الكافل العائل والقائم بأمر اليتيم المربي له ، وكفل بالرجل بكفل ، وتكفل به ضمنه وفي الحديث : الربيب كافل ، والكفل والكفيل المثل يقال : مال فلان كفل أي ماله مثل قال عمرانِ بن الحرث :

يعلو بها ظهر البعير ولم    يوجد لها في قولها كفل

وذو الكفل إسم نبي من الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ أجمعين ـ وهو من الكفاله ، قيل سمي بذلك لأنه تكفل بني في أمته فقام بما يجب فيهم قال تعالى : ﴿ **وكفلها زكريا** ﴾[1] أي ضمنها إياه حتىٰ تكفل بحضانتها .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ، ٣٧ .

**أضام** : الضيم الظلم . وضامه حقه ضيماً نقصه إياه ، واستضامه فهو مستضام أي مظلوم ، وقد جمع المصدر من هذا فقيل فيه ضيوم ، والضيم بالكسر ناحية الجبل والأكمة ، والضيم وادٍ في السرات . قال ساعدة ابن جؤية .

فما ضرب بيضاء يسقي دنوبها دفاق مغروان الكراشي فضيمها

أخيب : خاب يخيب خيبة حرم ولم ينل ما طلب ، والخيبة الحرمان والخسران ، وقد خاب يخيب ويخوب . وفي الحديث : خيبةً لك وياخيبة الدهر ! وخيبة الله حرمه . وخاب إذا خسر ، وخاب إذا كفر . والخياب القدْحُ الذي لا يوري قال ثعلب :

اسكت ولا تنطق فأنت خياب كلك ذو عيب وأنت عياب

**الحفي** : حفي بالرجل حفاوة وحفاية ، وتحفىٰ به واحتفىٰ بالغ في أكرامه ، وتحفىٰ إليه في الوصية بالغ .

وقال الأصمعي : حفيت إليه في الوصية وتحفيت به تحفياً ، وهو المبالغة في إكرامه . وحفي الله بك في معنىٰ أكرمك الله ، والتحفي الكلام الحسن . وقال الزجاج في قوله ـ تعالى ـ ﴿ **إنه كان بي حفياً** ﴾(٢) معناه لطيفاً . وقال الليث : الحفي هو اللطيف بك يبرك ويلطفك ويحتفي بك . واحفاه الح عليه في المسألة وأحفىٰ السؤال أردده .

**محال** : قال الجوهري : التحول التنقل من موضع إلى موضع ، وأحال الرجل أتى بالمحال وتكلم به . وقولهم لا محالة أي لا بد . يقال : الموت آل لا محالة ، إما أن يكون المقصود لا نجاة ولا مفر ، وإما أن يكون لا حول للإنسان عنه . قال أبو الحسن التهامي :

وإذا رجوت المستحيل فإنما تبنى الرجاء على شفير هار

---

(٢) سورة مريم : الآية ، ٤٧ .

**أترجم** : الترجمان المفسر للسان بضم التاء وفتحها وتبعها الجيم والجمع التراجم وترجمان هو من المثل التي لم يذكرها سيبويه ، والترجمان هو الذي يترجم الكلام أي ينقله من لغة إلى أخرى .

**برز** : البراز بالفتح المكان الفضاء من الأرض البعيد الواسع ، وأبرز الكتاب أخرجه ، وأمرأة برزة بارزة المحاسن .

قال الزبيري : البرزة من النساء التي ليست بالمتزايلة التي تزايلك بوجهها تستره عنك وتنكب إلى الأرض ، وامرأة برزة فوثوق برأيها وعفافها ، ورجل برز ظاهر الخلق عفيف ، وقيل برز متكشف الشان ظاهر ، وبرز الفرس على الخيل سبقها ، وقيل كل سابق مبرز وقوله تعالى ﴿ **وترى الأرض بارزة** ﴾[3] أي ظاهرة بلا جبل ولا تلّ ولا رمل . وذهب أبريز خالص .

**وفدت** : قال الأصمعي : وفد فلان يفد وفادة إذا خرج إلى ملك أو أمير ، وقال غيره ، وفد عليه وإليه يفد وفداً ووفادة وإفادة قدم فهو وافد قال سيبويه وقال ابن مقبل :

إلّا الإفادة فاستولت ركائبنا    عند الجبابير بالبأساء والنعم

وقال الجوهري وفد فلان على الأمير أي ورد رسولاً فهو وافد ، والوافدان هما الناشزان من الخذين عند المضغ ، فإذا هرم الإنسان غاب وافده والوفد الركبان المكرمون قال تعالى : ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمٰن وفدا** ﴾[4] .

## البيان

طرح في بداية هذه الفقرة استفهاماً ليس علىٰ حقيقته ، لأن الإستفهام

(٣) سورة الكهف : الآية ، ٤٧ .

(٤) سورة مريم : الآية ، ٨٥ .

الحقيقي هو الذي يستفهم به عن المجهول ، فينكشف ذلك بعد الجواب . أما الإستفهام في قوله ـ عليه السلام ـ ( الهي كيف تكلني وقد تكفلت لي ؟ ) فهو استفهام في معنىٰ التعجب ، أي أعجب كيف تكلني إلىٰ غيرك من خلقك ، وقد تكفلت لي . وهو نظير قوله ـ تعالىٰ ـ ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً** . . الآية ﴾[5] تأويل ذلك ـ كما قال الزجاج ـ ﴿ **كيف** ﴾ استفهام في معنىٰ التعجب وهو للخلق والمؤمنين ، أيعجب من هؤلاء كيف يكفرون وقد ثبتت حجة الله عليهم .

وفي الآية الكريمة إشكال يداعب الفكر ، وهو كيف كان الإنسان ميتاً ثم أحياه الله ؟ لأن مفهوم الميت هو الذي فارقت روحه جسده ، وهذا لا ينطبق علىٰ المعدوم قبل وجوده ؛ وكيف يعبر بقوله ـ تعالىٰ ـ ﴿ **وكنتم أمواتاً** . . الآية ﴾ مع أنه ـ تعالى ـ يقول في سورة الإنسان ﴿ **هل أتىٰ علىٰ الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً** ﴾[6] .

قال في الميزان في تفسير الآية ﴿ وكنتم أمواتاً . . الآية ﴾ بيان حقيقة الإنسان من حيث وجوده ، فهو وجود متحول متكامل يسير في مسير وجوده المتبدل المتغير تدريجاً ، ويقطعه مرحلة مرحلة ، فقد كان الإنسان قبل نشأته في الحياة الدنيا ميتاً ، ثم حي بإحياء الله ، ثم يتحول بإماتة وإحياء . . وهكذا[7] .

ونعود إلىٰ النص الماثل لنتأمل فيه فنرأه في ذلك يطرح هذا التعجب الذي يلتمس منه التأكد بعد الإلتجاء إلىٰ الله ـ سبحانه ـ أنه لا يمكن أن يهمله في حالة من الحالات ، وقد تكفل له برزقه

---

(٥) سورة البقرة : الآية ، ٢٨ .

(٦) سورة الإنسان : الآية ، ١ .

(٧) تفسير الميزان للسيد الطباطبائي ج ١ ، ص ١١٢ .

## الفرق بين التكفل به والتكفل له

وهناك فروق بين هاتين الحالتين نذكر منها ما يلي :

فالأول يعني درء المخاطر والشرور ورد الأعداء من جن وإنس ، وكل ما يتربص بالإنسان الدوائر من حيث يعلم أو لا يعلم ، فإن الله قد تكفل بأن يبعد الإنسان عن كل ذلك ، فلن يصيبه إلا ما كتب له .

وأما الثاني فإنه يعني التكفل بالرزق من حيث الحاجة وعدمها ، فإن الله ـ سبحانه ـ قد كفل للإنسان ذلك من قبل خلقه ، وإلتزم له بكل حاجاته في الدنيا بما يحتاج إليه . وقد مر كثيراً ذلك في تضاعيف الكتاب بمختلف أجزاءه .

ثم انتقل ـ عليه السلام ـ بذلك الأسلوب ، وذلك الإستفهام الذي ملؤه التعجب إلىٰ الإعتراف ، بل التسليم بنعمه أخرىٰ ، فقال : ( وكيف أضام وأنت الناصر لي ؟ ) والضيم كما ورد في بحث اللغة هو الظلم ، وكأنه يقول ـ عليه السلام ـ : أنا لا أتوقع منك ضيماً ، لأنك أنت ناصري ، ولا يمكن أن يأتي الظلم من الناصر ، ثم إنك غير محتاج إلىٰ ظلمي .

وربما ورد إحتمال آخر وهو : أني ألّا أتوقع طلم ظام أولا أهابه ؛ لأنك أنت ناصري ، ومن كنت أنت ناصره فلا يهاب أحداً . وقد ورد في الحديث القدسي قوله تعالى « يا ابن آدم لا تخشى سلطاناً غير سلطاني » .

وإذا تأملت إلى الضيم الذي ذكر في العبارة بعد أن عرفت معناه اللغوي وهو الظلم تراه أنه يأتي من كثير من الجهات التي يستقي منها الإنسان حياته ، فمرة يوفق لقضاء ما يحتاج إليه ، ومرة يرد رداً جميلاً ، ومرة يرد رداً قبيحاً ، ومرة يعتدىٰ عليه فيؤخذ حقه ، ولا يأتي معنىٰ الضيم إلّا بعد اشتداد الخطب ، ومعنىٰ ذلك أنه يظلم ولا يستطيع أن يرد ظلامته ، أو يبث شكواه إلى غيره ، أو يغصب حقه ، ولا يستطيع أن ينتصف لنفسه ،

أو لا يستطيع أن يسترده إلّا بمضاعفات أخرىٰ وعواقب وخيمة .

ومرة اخرىٰ نقول بأن الضيم الذي أشار إليه وتعجب منه لا يناله وهو في حماية الله ورعايته ، ولله هو الطالب الغالب ، وهو نـاصر من لا نـاصر له . والإلتجاء إلى الله بهذا الإسلوب ، والتعبير بهذا الكلام هو من أروع ما يتناسب في ذلك المقام العظيم ، ومن أروع ما يقال من الكلام الذي يوجه إلى الله سبحانه في مثل تلك الحال التي يكون عليها الناسك .

وبهـذا الأسلوب يواصـل ـ عليه السـلام ـ التضرع وطـرح الإستفهام والتعجب فيقـول ( أم كيف أخيب وأنت الحفي بي ، ها أنـا أتوسـل إليك بفقري إليك ) أمـا الخيبة فهـو الخسران البيّن ، ولكنـه ليس الخسران لشيء موجود وإنما لشيء يتوقع الإنسان حصوله ثم يحول بينه وبينـه عائق يجعله منه في حالة يأس يؤدي إلى خسرانه وتركه . وهـذا لا يحصل إلا إذا كـان الإنسان يعول على الإنسان فيشافهه بذلك .

أما إذا توكل الإنسان على ربه ، وأخلص في هذا التوكل فإن الله عند حسن ظن العبد ، يكرمه ويحقق رجاءه ، بل ويزيد في إكرامه ؛ وذلك بأن يعطيه فوق ما يؤمل ، أو يرزقه من حيث لا يحتسب ، وهذا معنىٰ الحفاوة الحاصلة من الله تعالى لعبده . وهذا ما يفسره قوله قوله ـ عليه السلام ـ بلا فصل ( ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك ) قـال في مجمع البيـان في تفسير قوله تعالى ﴿ **هاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم بـه علم ولم تحاجـون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾[8] إن ﴿ **ها أنتم** ﴾ للتنبيه ، وقد كثر التنبيـه في ( هذا ) ولم يكثـر في( ها أنت ) لأن ( ذا ) مبهم ، من حيث يصلح لكل حاضر . والمعنىٰ فيه واحد بعينه ممّا يصلح له ، فقـوي بالتنبيه لتحريك النفس على طلبه بعينه ، وليس كـذلك ( أنت ) ؛ لأنـه لا

(٨) سورة آل عمران : الآية ، ٦٦ .

يصلح لكل حاضر في الجملة ، وإنما هو للمخاطب[٩] .

قال المؤلف : وضمير المتكلم الوارد في النص من عبارة الدعاء بعد هاء التنبيه ينطبق عليه ذلك تمام الإنطباق ، فإنه وإن كان حاضراً إلا أنه لا يصلح لكل حاضر .

أما معنى التوسل بالفقر الوارد في العبارة فهو يعني الإعتراف بالحاجة إلى الله ، وهذا ما أشار إليه الكتاب العزيز في قوله تعالى على لسان موسى بن عمران ﴿**ربِّ إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير**﴾ قال المفسرون فيها : قد حمل الأكثرون قوله : ﴿**ربّ إني لما أنزلت**﴾ على سؤال طعام يسدّ به الجوع ، وعليه فالأولى أن يكون المراد بقوله ( ما أنزلت إلى ) القوة البدنية التي كان يعمل بها الأعمال الصالحة التي فيها رضا الله ، كالدفاع عن الإسرائيلي والهرب من فرعون بقصد مدين ، وسقى غنم شعيب .

ويظهر منه أنه ـ عليه السلام ـ كان ذا مراقبة شديدة في أعماله فلا يأتي بعمل ، ولا يريده ـ وإن كان مما يقتضيه منه طبعه البشرى ـ إلا ابتغاء مرضاة ربه ، وجهاداً فيه ، وهذا ظاهر بالتدبر في القصة ، فهو القائل لما وكز القبطى : ﴿ **رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين** ﴾ ثم هو القائل لما خرج من مصر خائفاً يترقب ﴿ **رب نجني من القوم الظالمين** ﴾ ، ثم القائل لما أخذ في السلوك ﴿ **عسى ربي أن يهديني سواء السبيل** ﴾[١٠] .

وبنظرة أخرى إن قوله ـ عليه السلام ـ ( **ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك** ) يعني بعلوك ، وعدم حاجتك لأمثالي كعبد مملوك ، فأنت إذا خلقتني لم تخلقني إلا لكي تريني عجائب خلقك والتزمت لي بما أحتاج

---

(٩) بجمع البيان للطبرسي ج ٢ ، ص ٧٦٨ .
(١٠) الميزان للطباطبائي ج ١٦ ، ص ٢٥ .

إليه في حياتي كلها ، ولكنك لم تحتج إلي في شيء ، فأنا الفقير وأنت الغني ، والفقير محتاج إلى الغني ، وإلى هذا أشار قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد**﴾[11] . قال في الميزان : قصر الفقر فيهم وقصر الغنىٰ فيه ـ سبحانه ـ فكل الفقر فيهم ، وكل الغنىٰ فيه وإن كان الغنىٰ والفقر وهما الوجدان والفقدان متقابلين لا يرتفعان عن موضوعهما كان لازم الفقر السابق قصر آخر ، وهو قصرهم في الفقر ، وقصره تعالى في الغنىٰ ، فليس لهم إلاّ الفقر ، وليس له تعالى إلاّ الغنىٰ ، وهما الحاجة وعدمها .

فالله سبحانه غني بالذات له أن يذهبهم ويستغني عنهم ، وهم فقراء بالذات ليس لهم أن يستغنوا عنه بغيره .

والملاك في غناه تعالى عنهم وفقرهم أنه تعالى خالقهم ومدبر أمرهم ، وإليه الإشارة بأخذ لفظ الجلالة في بيان فقرهم وبيان غناه ، والإشارة إلى الخلق والتدبير في قوله بعد هذه الآية ﴿ **إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جدير** ﴾[12] .

فيعود معنىٰ الكلام إلى نحو من قولنا : يا أيها الناس أنتم بما أنكم مخلوقون مدبرون لله أنتم الفقراء إلى الله فيكم كل الفقر والحاجة ، والله بما أنه الخالق المدبر الغني لا غني سواه .

وعلى هذا لاضير في قصر الفقر في الناس سواءً أريد به المكذبون خاصة أو عامة الناس مع كون غيرهم من المخلوقات فقراء إلى الله كمثلهم ، وذلك أن عموم علة الحكم يعمم الحكم ، فكأنه قيل أنتم معاشر الخليقة الفقراء إلى خالقكم والمدبر لأمركم وهو الغني الحميد .

---

(١١) سورة فاطر : الآية ، ١٥ .

(١٢)سورة فاطر : الآية ، ١٥ .

وتذييل الآية بصفة الحميد للإشارة إلى أنه غني محمود الفعال إن أعطىٰ وإن منع ؛ لأنه إذا أعطىٰ لم يعطه البدل ؛ لغناه عن الجزاء والشكر ، وكل بدل مفروض وإن منع لم يتوجه إليه لائمة إذ لا حق لأحدٍ عليه ولا يملك منه شيء[١٣] .

فتوسله ـ عليه السلام ـ بفقره إلى الله هو كما لو توسل بغناه ـ سبحانه ـ فكأنه قال : أنت الغني الذي تعطي على غير جزاء ، وعطاؤك ومنعك فعل محمود في الحالتين ، ولكني في فقري وحاجتي لا أظن أنك تمنعني حاجتي بعد أن إضطلعت على حقيقة أمري ؛ لأنك غني عن شفائي . فهو يتوسل بالغنىٰ دون الفقر ، لأن الفقر عدم ، والغنىٰ وجود ، فعندما يتوسل بغنىٰ الله سبحانه فإنه يتوسل بصفة من صفاته تعالى ، أو بعبارة أخرى توسل به إليه ، وهذا ما أشارت إليه العبارة التالية ( وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك ) لأن الغني من صفاته سبحانه الدائمة فهي تنفي الفقر المتمثل في الإنسان والذي توسل به إليه ؛ لأنه لا يمكن أن يجتمع الفقر والغنىٰ فيه سبحانه ؛ لأنه لو قلنا باجتماعهما لقنا باجتماع المتقابلين ، ولو قلنا بزوال الغنىٰ وحلول الفقر لزم من ذلك الحاجة ، وهو منزه عن ذلك ، فالفقر محال أن يصل إليه سبحانه ، ولا يمكن تصوره فيه بوجه من الوجوه ، ولو كان ذلك افتراضاً .

والإستفهام المطروح هو كما سبق تفسيره في العبارات السابقة ، وكما سوف يأتي في العبارات اللاحقة ، بأن المقصود منه ليس الإستفهام حقيقة ، بل هو التعجب ، والتعجب الوارد في بعض الإستفهامات يلتمس منه تأكيد على المعنىٰ .

وعلى كل حال فإن العبارة تشير إلى أن الفقر لا يصلح أن يكون وسيلة

---

(١٣) تفسير الميزان ج ١٧ ، ص ٣٣ .

في نيل المطالب من الله سبحانه ـ كما أوهمت ذلك العبارة السابقة ـ لأن الفقر عدم ، والعدم لا ينتج عنه وجود ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، ولكن الغنىٰ هو الذي يحقق ما يطلب العبد من الله .

وبنظرة أولية بسيطة إنا نجد في أوساطنا أن السائل أو المحتاج يقصد الغني دون الفقير ، وإن كان العطاء ربما يحصل من كليهما ، بل ربما يحصل من الفقير دون الغني ، ولكن مظنة العطاء الجزيل هو من الغني وليس من الفقير ؛ لأن توفر المال عند الغني أكثر من توفره عند الفقير ؛ ولأن كلاً يعطي على قدره .

وبنظرة أخرىٰ أدق أن غناك يؤثر في فقري فأكون غنياً ، ولكن فقري لا يؤثر في غناك فتكون فقيراً ، أي أنك إذا أعطيتني لا ينقصك العطاء ولا تنفد خزائنك ، ولا يزيدك ذلك إلاّ جوداً وكرما . وهذا ما أشارت إليه الآيات الكثيرة في الكتاب العزيز ، مثل قوله تعالى ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق** ﴾[14] قال في الميزان : إن الذي عندكم أي في الحياة الدنيا التي هي حياة مادية قائمة على أساس التبدل والتحول ، منعوتة بنعت الحركة والتغير زائل نافد ، وما عند الله سبحانه مما يعد المتقين منكم باقٍ لا يزول ولا يفنىٰ ، والباقي خير من النافد بصريح حكم العقل .

والإطلاق في الآية قاعدة كلية غير منقوضة باستثناء ، تحتها جزئيات كثيرة من المعارف الحقيقية .

## الشكوى إلى الله

ثم واصل ـ عليه السلام ـ مسائله بنفس الأسلوب وأخذ يبث الشكوىٰ ولكن بنمط من الكلام غريب فقال ( أما كيف أشكو إليك حالي وهو لا

---

(١٤) سورة النحل : الآية ، ٩٦ .

يخفىٰ عليك ؟ ) والشكوىٰ إلى الله هـو بث ما يصيب الإنسـان من مكروه لغرض كشفه عنه ، ولكن هذا لا يعني أن الإنسان يظهر ما كان مجهولاً لدىٰ المشكىٰ إليه ، وهو إظهار بعد إخفاء ، وليس ظهوراً بعد خفاء .

وهذا ما يرد الإشكال الوارد على العبارة المتمثلة في أن الله سبحـانه وتعالى يعلم بأحوال العبد قبل شكواه فلماذا لا يبادره بالجواب قبل السؤال ؟

وإضافة إلى ما تقدم نقول : إن الله عالم بجميع أحوال العبـد ولكنه يريد به خيراً عندما يبتليه بأنواع البلاء مدة معينة من الزمن ، ثم إنه سبحانه يريد أن يضاعف له الثواب ، ويجزل لـه العطاء بصبـره على البلاء ثم إنـا نقـول إنه قـد ورد من طرقنـا إن الله يحب أن يرىٰ عبده في حـال تضـرع وخشوع ومسكنة ، فيلجأ إليه في ساعة العسرة ويسأله أن يفرج كربه ، وفي ذلك إرتباط بين العبد ومولاه .

وفي العبارة إعتراف واضح بأنه في حال ضرٍ ومسكنة ، ولكنه لا يريد أن يظهر هذا الضر لأحـد بشكل أو بـآخر لغيـر الله سبحانـه . ويحتمل أن يكون المقصود من ذلك ثلاثة أمور :

١ ـ إما أن يكون بأنه يقصد عدم الحاجة إلى البيـان لمن يعلم ضرّه ومسكنته ، وهو بصير بتدبير أموره ؛ لأن الإخبار بما هو معلوم هو من باب تحصيل الحاصل وذلك محال .

٢ ـ وإما أن يكون ذلك لمحض السؤال والتضرع ؛ لعلمه بأن ذلـك عبادة ، بل هو من أفضل العبادات ، وأكمل الطاعات ؛ ولأن الله يحب أن يـرىٰ عبده على هـذه الحال ، وتلك هي أفضـل الحالات التي تـربط بين الخالق والمخلوق ، وقد مرّ معنا كثير من ذلك في تضاعيف الكتاب ضمن الأجزاء السابقة .

٣ ـ وإما أن يكون المقصود هو ما يستقبل من حوادث الدهر ، فكأنه

يلح على مولاه ويقول : إنك قد كفيتني ما أخاف وأحذر قبل أن يقع وقد مضىٰ ، فاكفني ما أعلم وما لا أعلم مما هو في باطن القدر ومطاوي الأيام ، وهذا من أروع ما يلح به العبد في السؤال على مولاه ، لأنه قد فوض الأمور إليه وأوكلها، فليس على العبد بعد ذلك إلّا أن يثق بتحقيق مطالبه المشروعة من الله سبحانه .

ثم واصل ـ عليه السلام ـ كلامه وتضرعه على هذا النسق ( أما كيف أترجم بمقالي وهو منك برز إليك ؟ ) والترجمة تأتي في حالة عدم الفهم ، وتستعمل لنقل ذلك من لغة إلى لغة أخرىٰ ، لغرض إيضاح المقصود من الألفاظ الأصلية . ذكر ذلك علماء اللغة . وذلك يكون إما بالنقل من لغة إلى أخرىٰ ، وإما أن يكون من أسلوب إلى آخر من نفس اللغة ، وهذا يحدث فيما إذا أغلفت المعاني وتعسر الفهم ، إما إذا كان المعنىٰ معروفاً بارزاً فإن ذلك لا يحتاج إلي بيان ؛ وهذه العبارة في معناها كالعبارة السابقة ، إلّا أن هناك فرقاً يظهر في قوله ( برز ) فكأنه يقول ـ عليه السلام ـ : كيف أنقل ما في قلبي إليك وهو ظاهر بالنسبة إليك ، لأن مضمرات القلوب ، وما تخفيه الصدور ، وما هو ظاهر ، منك على حد سواء . فلست محتاجاً بعد هذا إلى ترجمة بمقال ، أو إلى ذكر حال .

## خيبة الآمال

ثم شرع ـ عليه السلام ـ في ذكر آماله التي يريد تحقيقها ، فهو ينفي بصيغة الإستفهام أن يخيب الله آماله بعد تلك الثقة التي ربطت بينه وبين خالقه فقال : ( أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك ) وخيبة الأمل هي الخسران ، ويحتمل بهذا المعنىٰ في ذلك جانبان :

**الأول** خيبة الآمال في الدنيا وهي أعم من الجانب الروحي أو المادي ؛ لأن الخيبة قد تكون في السعي لطلب الرزق والخير ، وليس معنىٰ ذلك أن الله تبارك وتعالىٰ يخيب عبده بعد أن يضرب في الأرض

بطلب الرزق بحسب ما أمر الله ، وعدم إصابته للخير والرزق ليس معناه أن الله قد خيب آماله ، ولكنه لم يهتد إلى طريق رزقه . قال تعالى ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾[١٥] فقد يضرب الإنسان في الأرض ما بين السهل والجبل وما بين البر والبحر فيخطيء الطريق ولا يصيب الرزق ـ كما قلنا ـ .

ومن الغباء أن يجمد الأنسان على باب واحد من أبواب الرزق ، فإذا لم يصبه بقي حائراً ، ولكنه ينبغي له أن يطرق كل الأبواب التي فتحها الله لعباده ، وأباح الرزق من خلالها ، ولا حرج عليه في الفشل بعد ذلك .

وقد تكون هذه الخيبة لطلب أمر من أمور الحياة الدنيا ، ولكنه يتعلق بأمر الآخرة ، غير أنه يخطيء الحساب ، ويعصي الله من حيث يطاع ، كالذهاب للحج لغرض أمر من أمور الدنيا محرم ، وهذا من الطبيعي أن آمال العبد تخيب فيه ، وذلك بانقلابه عليه لعنةً وسخطاً من الله .

والعبارة ترفع هذا الإيهام ، فإن الآمال إذا وفدت إلى الله ، بمعنىٰ أن العمل أريد به القربة منه سبحانه ، فإنها لا تخيب ؛ لأنه ـ تعالى ـ عند ظن عبده ، وقد ظن العبد بربه خيراً فهو إلى خير .

**الثاني** : أن تكون الخيبة بطلان العمل الأخروي الذي يريد به الإنسان وجه الله ، وهذا أيضاً لا يخيب إذا كان الإنسان قد أخلص لربه فيه ، وإنما يخيب عمل المنافق الكاذب في إخلاصه ؛ لأن العمل لا بد وأن يكون خالصاً لوجه الله ، وإلاّ فإنه يضرب به عرض الجدار . وإلي هذا أشار قوله تعالى ﴿ **وقد خاب من إفترىٰ** ﴾[١٦] وقوله تعالى ﴿ **وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما** ﴾[١٧] قال الطوسي : ﴿ **وعنت**

(١٥) سورة الملك : الآية ، ١٥ .
(١٦) سورة طه : الآية ، ٦١ .
(١٧) سورة طه : الآية :، ١١١ .

الوجوه ﴾ هو وضع الجبهة والأنف على الأرض في السجود في قول طلق بن حبيب ، وقوله ﴿ **وقد خاب من حمل ظلما** ﴾ أي خسر الثواب من جاء يوم القيامة كافراً ظالماً مستحقاً للعقاب[١٨] .

وقال في الميزان : هو بيان لجزائهم . أما قوله : ﴿ **وقد خاب من حمل ظلما** ﴾ فالمراد بهم المجرمون غير المؤمنين فلهم الخيبة بسوء الجزاء ، لا كل من حمل ظلما ما ، أي ظلم كان من مؤمن أو كافر ، فإن المؤمن لا يخيب يومئذٍ بالشفاعة . ولو كان العموم ، وإن كان من حمل ظلما ما فهو خائب فالمراد بالخيبة الخيبة من السعادة التي يضادها ذلك الظلم دون الخيبة من السعادة مطلقاً .

وقد تم باختتام هذه السورة بيان إجمال ما يجري عليهم يوم الجزاء من حين يبعثون إلى أن يجزوا بأعمالهم . فقد ذكر : إحضارهم بقوله : ﴿**يوم ينفخ في الصور** ﴾ أولاً ، ثم حشرهم وقرب ذلك منهم حتىٰ أنه يرىٰ أمثلهم طريقة أنهم لبثوا في الأرض يوماً واحداً بقوله : ﴿ **يتخافتون بينهم** ﴾ ثانياً . ثم تسطيح الأرض لاجتماعهم عليها بقوله : ﴿ **ويسألونك عن الجبال** ﴾ الخ ثالثاً . ثم طاعتهم واتباعهم الداعي للحضور بقوله : ﴿ **يومئذٍ يتبعون الداعي لا عوج له** ﴾ . . الخ . رابعاً . ثم عدم تأثير الشفاعة لإسقاط الجزاء بقوله ﴿ **يومئذٍ لا تنفع الشفاعة** ﴾ . الخ . خامساً : ثم إحاطة علمه بحالهم من غير عكس ، وهي مقدمة للحساب والجزاء بقوله : ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ . الخ . سادساً : ثم سلطانه عليهم وذلتهم عنده ، ونفوذ حكمه فيهم بقوله ﴿ **وعنت الوجوه للحي القيوم** ﴾ . . الخ . سابعاً . ثم الجزاء بقوله : ﴿ **وقد خاب** ﴾ . . الخ ثامناً .

وبهذا يظهر وجه ترتيب الآيات وذكر ما ذكر فيها .

---

(١٨) التبيان للطوسي ج ٧ ، ص ٢١٣ .

وبعد هذا يتضح ما أراده ـ عليه السلام ـ في النص الماثل ، فإن الخيبة كما يلوح في أفق العبارة خسران الثواب ؛ لأن مجيئه ـ عليه السلام ـ وحلوله في هذا المكان الأقفر ليس الغرض منه سؤال عدم الخيبة ، ليس الخيبة من جميع المال أو العقار ، وسائر أمور الدنيا فإن من أراد الدنيا وملاذها لا يأتي إلى هذا المكان المخصص للعبادة ، ولم يجعل مكاناً لكسب المال ولكنه قد يراود الفكر عن بعد معنىٰ آخر وهو أنه قد يسأل الإنسان في مثل ذلك المكان حوائجه من الدنيا جملة وتفصيلاً ، إلا أن حوائج الآخرة عنده هي أهم من حوائج الدنيا ولذلك ينصرف النص إلى هذا المعنىٰ أولىٰ من أن ينصرف إلى أي معنىٰ آخر ؛ مراعاةً للأهم وتقديمه على المهم .

ولذلك عقب ـ عليه السلام ـ بقوله ( أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت ) وتحسن الأحوال لا يأتي إلاّ كنتيجة لكل ما تقدم ويمكننا قرءة النص بوجهين .

**الوجه لأول** : ( تحسن ) بضم التاء وكسر السين ، وهو خطاب لربه سبحانه بإسلوب التعجب ، ومعنىٰ ذلك أنه يقول : إنك يا إلهي تحسن أحوالي لأني عبدك وفي قبضتك والعبد يعتمد على مولاه ، والمولىٰ يحب لعبده الخير ، ولا يستطيع أحد سواه كذلك .

**الوجه الثاني** : ( تحسن ) بفتح التاء وضم السين ، وهو فعل لازم فاعله ( أحوالي ) ومعنىٰ ذلك أن أحوالي تحسن وتطيب لأنها قامت بك ، وأنت كفيل برعايتها ؛ لأنك مدبري ومؤيدي من حيث أعلم ومن حيث لا أعلم ، والأحوال تحسن بلا شك إذا إستندت إلى مراع يتصف بالكمال والرحمة ، وكل صفات الحسن ؛ لأنها تأخذ منه ما يعطيها .

قال عليه السلام :

( اِلٰهي مٰا اَلْطَفَكَ بي مَعَ عَظيمِ جَهْلي ، وَمٰا اَرْحَمَكَ بي مَعَ قَبيحِ فِعْلي ، اِلٰهي مٰا اَقْرَبَكَ مِنّي وَاَبْعَدَني عَنْكَ ، وَمٰا اَرْأَفَكَ بي ، فَمَا الَّذي يَحْجُبُني عَنْكَ ؟ اِلٰهي عَلِمْتُ بِاخْتِلافِ الآثارِ ، وَتَنَقُّلاٰتِ الأَطْوٰارِ ، اَنَّ مُرٰادَكَ مِنّي اَنْ تَتَعَرَّفَ اِلَيَّ في كُلِّ شَيْءٍ ، حَتّىٰ لاٰ اَجْهَلَكَ في شَيْءٍ ) .

## اللُّغَةُ

**يحجبني** : الحجاب الستر ، وحجبه وحجّبه ، وأمرأة محجوبة قد سترت بستر وحجاب والجوف ما يحجب بين الفؤاد وسائره قال الأزهري : هي جلدة بين الفؤاد وسائر البطن وحجبه أي منعه من الدخول .

وفي الحديث : قال بنو قصي : فينا الحجابة ، يعنون حجابة الكعبة ، وهى سدانتها وتولي حفظها ، وهم الذين بأيديهم مفاتيحها .

وكل شيء منع شيئاً فقد حجبه ، كما تحجب الأخوة الأم عن فريضتها .

والحاجبان العظمان اللذان فوق العينين بلحمهما وشعرهما وقيل الحاجب الشعر النابت على العظم ، سمي بذلك لأنه يحجب عن العين

شعاع الشمس ، وحاجب الشمس ناحية منها . قال الشاعر :

تراءت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب

**الآثار** : الأثر بقية الشيء والجمع آثار ، والأثر بالتحريك ما بقي من رسم الشيء قال طرفة :

لخولة أطلال ببرقة تهمد تلوح كباقي الوشم في باطن اليد

أي أثره ، وأثر الشيء فيه أثراً ، والآثار الأعلام .

وفي الحديث : من سرّه أن يبسط الله في رزقه وينسأ في أثر فليصل رحمه . الأثر : الأجل ، وسمي به لأنه يتبع العمر ، قال زهير :

والمرء ما عاش ممدود له أمل لا ينتهي العمر حتىٰ ينتهي الأثر

وأصله من أثر مشيه في الأرض ، فإنه من مات لا يبقىٰ له أثر ، ولا يرىٰ لأقدامه في الأرض أثر .

والأثر الخبر ، والجمع آثار . قال تعالى ﴿ ونكتب ما قدّموا وآثارهم ﴾[1] أي نكتب ما أسلفوا من أعمالهم ، ونكتب آثارهم ، من سن سنّة حسنة كتب له ثوابها ، ومن سن سنة سيئة كتب عليه عقابها ، وسنة النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ .

والأثر بسكون الثاء المثلثة مصدر قولك أثرت الحديث آثره ، إذا ذكرته عن غيرك .

**تنقلات** : النقل تحويل الشيء من موضع إلى موضع ، والتنقل التحول ، والنقلة الإسم من إنتقال القوم من موضع إلى موضع ، والتنقيل ضرب من السبل وهو المداومة عليه ، والمنقل الطريق في الجبل ، والمنقل

(١) سورة يسٓ : الآية ، ١٢ .

طريق مختصر ، والنقيل الغريب في القوم إن رافقهم أوجاورهم ، والأنثىٰ نقيلة ونقيل ، ويروىٰ أن الخنساء قالت :

تـركـتـنـي بيـن بـنـي عـلة          كـأنـي بعـدك فيـهـم نـقيـل

وزعم بعضهم أن النقل بفتح القاف هو حضور المنطق والجواب .

**الأطوار** : الطور التارة ، تقول طوراً بعد طور ، أي تارة بعـد تارة . قال النابغة الذبياني :

تناذرها الراقون من سوء سمها          مطلقة طوراً وطوراً تراجع

وجمع الطور أطوار ، والناس أطوار على حالات شتىٰ ، والطور الحال وجمعه أطوار . قال تعالى ﴿ **وقد خلقكم أطواراً** ﴾[٢] قيل في معناه ضروباً وأحوالاً مختلفة ، وقيل أطواراً أي خلقاً مختلفة ، كل واحد على حدة . قال الفَرّاء : خلقكم أطواراً : أي نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظماً وقال الأخفش : طوراً علقة وطوراً مضغة . وقال آخر ، أراد اختلاف المناظرة والأخلاق قال الشاعر :

والمرء يخلق طوراً بعد أطوار

## البيان

مرة أخرى يداعب خياله ـ عليه السلام ـ كغيره من الطالبين المتعطشين لهذا اللطف ذلك اللطف إلى جانب ذلك تصاغر لا حدود له بالإعتراف على نفسه بالجهل ، وليس هو مجرد الجهل ، ولكنه الجهل العظيم الذي إعتبره الحسين ـ عليه السلام ـ تفريطاً ، أو إعتبر التفريط جهلاً عظيماً في جنب الله ، يقول ـ عليه السلام ـ ( إلٰهي ما ألطفك بي مع عظيم

---

(٢) سورة نوح : الآية ، ١٤ .

جهلي ) ولقد تقدم الحديث حول معنىٰ اللطف ، ولكن هنا جاء به مقابلاً للجهل ، بل مع عظيم الجهل ، والسؤال المحير هو : كيف يكون اللطف مقابلاً للجهل ؟ لأن المعروف أن المقابلة تكون بين الجهل والعلم .

وفي محاولة الجواب نقول : إن اللطف في معناه اللغوي هو الدقة ، والأشياء الدقيقة يعبر عنها باللطيفة ، فإن الروح مثلاً يعبر عنها باللطيف ، وذلك لدقتها ورقتها ، وعدم رؤيتها . فاللطيف من بعض معانيه الشيء الخفي الذي يعجز الإنسان عن إدراكه ومعرفته ، وهذا هو منتهىٰ المعرفة ، فاللطف هو من لوازم العلم ، فالمقابلة بين الجهل وبين العلم بلا زمة دون ذاته ، وذلك كثير في كلام العرب ، وقد تعرض القرآن المجيد بهذا النوع من الإسلوب ، فقال ـ سبحانه ـ : ﴿ **لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا** ﴾[٣] قال الطوسي في التبيان : يعني لا يرون في الجنة شمساً يتأذون بحرّها ، ولا زمهريراً يتأذون ببرده فالزمهرير أشد ما يكون من البرد ، وقال مجاهد : الزمهرير البرد الشديد[٤] .

قال المؤلف : وبذلك تعتبر كلمة ( الزمهرير ) صفة زائدة على البرد ؛ لأن البرد هو مجرد إرتفاع الحر الذي تسببه الشمس ، فهو قد ذكر الصفة الزائدة على البرد لأنها هي التي تسبب الأذىٰ ، أي أن الزمهرير هو زيادة في البرد قاسية تسبب الإنزعاج والأذىٰ ، وأهل الجنة بعيدون كل البعد عن ذلك .

وبعبارة أخرىٰ أن المقابلة أو الطباق ـ كما يقول علماء البلاغة ـ هو ما بين اللازم والملزوم ، أو بين السبب والمسبب . بالشمس سبب للحر ، والحر مسبب عنها ، والبرد سبب للزمهرير ، لأنه صفة ، والصفة لا تقوم إلّا بالموصوف وهو البرد ، وهذا لا يخفىٰ على المتأمل .

---

(٣) سورة الإنسان : الاية ، ١٣ .
(٤) التبيان ج ١٠ ، ص ٢١٣ وأيضاً في الميزان ج ٢٠ ، ص ١٣٩ .

وبنظرة تأمل أخرىٰ في هذه العبارة نجد أنه ـ عليه السلام ـ قد جاء بصيغة التعجب وفيها تفضيل ، والتفضيل فيه زيادة عن الصفة ، ولكنه جاء بالمقابل ( بعظيم الجهل ) ومعنىٰ ذلك أن الإنسان كلما زاد في جهله وتماديه في معاصيه زاد الله من لطفه ورحمته ورأفته بالعبد ، لأنه ليس له راحم يرحمه ، ولا لطيف يلطف به ، ولا رؤوف يرأف به إلّا الله سبحانه وتعالى ، وقد أشاء سبحانه إلى ظاهرة التبري وابتعاد البعض عن البعض خصوصا في ذلك اليوم الذي يحشر فيه الناس لرب العالمين . قال تعالى ﴿ **الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدوٌ إلّا المتقين** ﴾[٥]

قال الطبرسي في مجمع البيان : معناه أن الذين تخالوّا وتواصلوا في الدنيا يكون بعضهم أعداءً لبعض ذلك اليوم يعني يوم القيامة ، وهم الذين تخالّوا على الكفر والمعصية ومخالفة النبي لما يرىٰ كل واحد منهم من العذاب بسبب تلك المصادقة ، ثم إستثنىٰ من جملة الإخلاء المتقين . فقال : ﴿ **إلّا المتقين** ﴾ من المؤمنين الموحدين الذين خالّ بعضهم بعضاً على الإيمان والتقوىٰ ، فإن تلك تتأكد بينهم يوم القيامة ولا تنقلب عداوة[٦] .

ومما تقدم ندرك ما قاله ـ عليه السلام ـ من المقارنة بين اللطف والجهل في العبارة الماثلة أمامنا ، وهو أن متعلق اللطف وهو العلم وصيغة التفضيل يدلان على أن هذا اللطف ليس له نهاية بالنظر إلى متعلقه وهو العلم ، وصيغة التفضيل تدلان على أن هذا اللطف ليس له نهاية بالنظر إلى متعلقه وهو العلم ؛ لأنْ الجهل العظيم يأتي بكل ذنب ، ولا يأتي عليه إلّا ذلك اللطف الذي لا حدود له .

---

(٥) سورة الزخرف : الآية ، ٦٧ .

(٦) مجمع البيان ج ٩ ، ص ٨٤ .

ثم انتقل ـ عليه السلام ـ إلى معنىً آخر ربما استشف منه تخصيص لذلك الكلام المتقدم فقال : ( وما أرحمك بي مع قبيح فعلي ) والرحمة يجري الكلام فيها كما جرىٰ في اللطف ، ويجري في قبيح الفعل كما يجري في عظيم الجهل . فالرحمة المنسوبة إلى الله سبحانه وتعالىٰ قد وسعت كل شيء كما نطق بذلك الكتاب في قوله تعالى : ﴿ **قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء** ﴾[7] قال في الميزان : قيد الله سبحانه إصابة عذابه بقوله ﴿ **من أشاء** ﴾ دون سعة رحمته ؛ لأن العذاب ينشأ من إقتضار من قبل المذنبين لا من قبله سبحانه ، فلا يعذب الله سبحانه باقتضاء من ربوبيته ، ولو كان كذلك لعذب كل أحد بل إنما يعذب بعض من تعلقت به مشيئته ، فلا تتعلق مشيئته إلّا بعذاب من كفروا نعمه ، فالعذاب إنما هو باقتضاء من قبل المعذبين لكفرهم لا من قبله .

وأما سعة الرحمة وإفاضة النعمة فمن المعلوم أنه من مقتضيات الألوهية ، ولوازم صفة الربوبية ، فما من موجود مخلوق إلّا ووجوده نعمة لنفسه ، ولكثير ممن دونه لارتباط أجزاء الخلقة ، وكل ما عنده من خير أو شر إما لنفسه أو لغيره كالقوة والثروة وغيرهما التي يستفيد منها الإنسان وغيره ، وإما لغيره إذا كانت نقمة بالنسبة إليه كالعاهات والآفات والبلايا يستضر بها شيء ويندفع أشياء ، وعلى هذا فالرحمة الإلٰهية واسعة كل شيء فعلاً لا شأناً ، ولا يختص بمؤمن ولا كافر ، ولاذي شعور ولا غيره ، ولا دنيا ولا آخرة ، والمشيئة لازمة لها .

فالآية بيان لخصوص العذاب وعموم الرحمة ، وإنما قابل بين

(٧) سورة الإعراف : الآية ، ١٥٦ .

العذاب والرحمة العامة مع عدم تقابلهما ؛ لأن ذكر الرحمة العامة توطئة وتمهيدٌ لما سيذكره من صيرورتها رحمة خاصة في حق المتقين من المؤمنين[٨] .

وعبارة الدعاء التي بين أيدينا ذكر فيها الرحمة بأوسع معانيها ، بل بأفضل نواحيها كما يستفاد من اسلوب التعجب : لأن الفعل القبيح لا يأتي عليه ويمحوه الآ تلك الرحمة التي وصفها بالزيادة كما هو ظاهر من ( أفعل ) التفضيل في العبادة .

وبكلمة أخيرة إنه كلما قبح الفعل من العبد زادت الرحمة وعظمت وتعلقت به أكثر فأكثر . وهذا لا يعارض قوله ـ تعالى ـ ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾[٩] فإن معنى الآية إن الرحمة مصدرٌ يستوي فيه الوجهان ، وقيل : لأن المراد بالرحمة الإحسان . وقيل إن قريب ( فعيل ) بمعنىٰ المفعول ويستوي فيه المذكر والمؤنث ونظيره قوله تعالى :( لعلّ الساعة قريب )[١٠] وبشر المجيبن ، لدعوته بأنهم يكونون حينئذٍ محسنين فتقرب منهم رحمته .

## القرب والبعد من الله

ثم إنتقل ـ عليه السلام ـ إلى لهجة إنكسار واستعطاف كما يقتضيه حال الإنسان في ذلك الموقف الرهيب فقال ـ عليه السلام ـ ( إلهي ما أقربك مني وأبعدني عنك ) وهذا القر والبعد لا يشير بهما إلى القرب والبعد المكانيين ؛ لأن ذلك من لوازم الإنتقال ، والإنتقال من لوازم المادة ، والله سبحانه وتعالى منزه عن ذلك . وقد أفاض علماء الكلام في الحديث عن

---

(٨) تفسير الميزان ج ٨ ، ص ٢٧٣ .
(٩) سورة الأعراف : الآية ، ٥٦ .
(١٠) سورة الشورىٰ : الآية ، ١٧ .

هذا المعنىٰ ، ونحن بدورنا أيضاً قد أفضنا في الحديث عن ذلك في كثير من مناسبات الكلام في الأجزاء السابقة من الكتاب ، إلّا أنّا هنا سنتناول هذا المعنىٰ بشيء من التفصيل فنقول :

إن مثل هذه المعاني قد وردت في كثير من كلام أهل البيت الطاهر ـ عليهم السلام ـ سواءً كان في أحاديثهم وأخبارهم ، أو إن ذلك قد ورد في أدعيتهم .

ونحن لا يمكننا الخوض في هذا الموضوع إلّا بما قالوه فيه لأنهم الراسخون في العلم ، كلامهم نور ، وقولهم حكم فصل وما هو بالهزل .

إن مسألة القرب والبعد لا تنطبق عليه ـ سبحانه ـ إلّا بما هو أهله ، والقرب والبعد المكاني لا يردان في حقه ـ سبحانه ـ لأن ذلك من شان الممكنات المحتاجة إلى المكان وليس هو كذلك .

فقد ورد في كتاب التوحيد قال : حدّثنا أحمد لن محمد بن يحيىٰ العطار ـ رحمه الله ـ ، عن أبيه ، عن أحمد بن محمد بن عيسىٰ ، عن الحسين بن سعيد ، عن القاسم بن محمد ، عن علي بن أبي حمزة ، عن أبي بصير ، قال : جاء رجل إلى أبي جعفر ـ عليه السلام ـ فقال له : يا أبا جعفر أخبرني عن ربك متىٰ كان ؟ فقال : ويلك ، إنما يقال لشي لم يكن فكان : متىٰ كان ، إن ربي تبارك وتعالى كان لم يزل حياً بلا كيف ، ولم يكن له كان ، ولا كان لكونه كيف ، ولا كان له أين ، ولا كان في شيء ، ولا كان على شيء ، ولا إبتدع لكونه مكاناً ولا قوي بعد ما كوّن شيئاً ، ولا كان ضعيفاً قبل أن يكوّن شيئاً ، ولا كان مستوحشاً قبل أن يبتدع شيئاً ، ولا يشبه شيئاً مكوّناً ، ولا كان خلوّاً من القدرة على الملك قبل إنشائه ، ولا يكون منه خلوّاً بعد ذهابه ، ولم يزل حياً بلا حياة ، وملكاً قادراً قبل أن ينشىء شيئاً ، وملكاً جباراً بعد إنشائه للكون ، فليس لكونه كيف ، ولا له أين ، ولا له حد ، ولا يعرف بشيء يشبهه ، ولا يهرم لطول البقاء ولا

يصعق لشيء ، ولا يخوفه شيء تصعق الأشياء كلها من خيفته ، كان حياً بلا حياة عارية ، ولا كون موصوف ، ولا كيف محدود ، ولا أثر مقفو ، ولا مكان جاور شيئاً ، بل حي يعرف ، وملك لم يزل له القدرة والملك ، أنشأ ما شاء كيف شاء بمشيئته ، لا يحدّ ولا يبعض ، ولا يفنىٰ ، كان أولاً بلا كيف ، ويكون آخراً بلا أين ، وكل شيء هالك إلّا وجهه ، له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ، ويلك أيها السائل ، إن ربي لا تغشّاه الأوهام ، ولا تنزل به الشبهات ، ولا يجار من شيء ولا يجاوره شيء ، ولا تنزل به الأحداث ، ولا يسأل عن شيء يفعله ، ولا يقع على شيء ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرىٰ[١١] .

وفيه أيضاً حدثنا محمد بن موسىٰ بن المتوكل ـ رحمه الله ـ قال : حدثنا علي بن الحسين السعد أبادي ، عن أحمد بن أبي عبد الله البرقي ، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر ، عن أبي الحسن الموصلي ، عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال : جاء حبر من الأحبار إلى أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فقال له : يا أمير المؤمنين متىٰ كان ربك ؟ فقال له : ثكلتك أمك ، ومتىٰ لم يكن حتىٰ يقال : متىٰ كان ، كان ربي قبل القبل بلا قبل ، ويكون بعد البعد بلا بعد ، ولا غاية ولا منتهىٰ لغايته ، انقطعت الغايات عنه ، فهو منتهىٰ كل غاية فقال : يا أمير المؤمنين فنبيٌّ أنت ؟ فقال : ويلك ، إنما أنا عبد من عبيد محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ[١٢] .

هذا ما جاء من طريق أهل البيت عليهم السلام . أما ما ورد في الكتاب العزيز فمنه قوله تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم**

---

(١١) كتاب توحيد الصدوق ص ١٧٣ .

(١٢) توحيد الصدوق ص ١٧٣ .

يرشدون ﴾[١٣] قالوا في تفسيرها ، قال : قريب ولم يقل فقل إني قريب ، لأنه قد حذف الواسطة في الجواب، ثم التأكيد بان ، ثم الإتيان بالصفة دون الفعل الدال على القرب ليدل على ثبوت القرب ودوامه ثم الدلالة على تجدد الإجابة واستمرارها حيث أتى بالفعل المضارع الدال عليهما، ثم تقييده الجواب أعني قوله : أجيب دعوة الداع بقوله: إذا دعانِ. وفيه دلالة على أن دعوة الداع مجابة من غير شرط وقيد[١٤] .

والعبارة المطروحة للحديث عنها يلوح في أفقها أن الله تعالى قريب إلى الإنسان ، ومعنىٰ هذا القرب كما قدمنا ليس هو القرب المكاني ، وإنما المقصود بذلك لازمه ، وهو أن القريب يسمع ويرىٰ بخلاف البعيد ، وقد عبّر بهذا التعبير السهل البسيط لكي تدركه جميع الأفهام . فكأنما هو يقول : إنك تسمع كلامي ، وتراني في مكاني أينما كنت ، وتسمع مناجاتي ؛ لأنك قريب مني ، فكل ما طلبت منك فهو حاصل ، وكلما أردت فهو موجود ، وبقدر ما أنت قريب مني فأنا بعيد عنك ،لأني كثيراً ما أعرض عن طاعتك وبذلك يحدث البعد .

وبذلك نستطيع أيضاً أن نفسّر قربه سبحانه من العبد بسماعه الدعاء واستجابته وتلبيته حاجات الإنسان ، وهذا ما نلتمسه أيضاً من سياق الآية الكريمة السابقة ﴿ **وإذا سألك عبادي عني . . الآية** ﴾ .

أما البعد الذي ذكرته العبارة فهو إن تحقق من الإنسان فهو ليس بعداً مكانياً أيضاً ، ولكنه إبتعاد عن الطاعة ـ إن صحّ التعبير مراعاة لمنزلة العصمة المتمثلة فيه ـ عليه السلام ـ لأن ذلك البعد ينسب إلى الإنسان بما هو إنسان يخطىء ويصيب، فقوله ـ عليه السلام ـ (وأبعدني عنك) يعني

---

(١٣) سورة البقرة : الآية ، ١٨٦ .
(١٤) تفسير الميزان ج ٢ ، ص ٣٠ .

الطبيعة الإنسانية المفطورة على رفض الأوامر والإنصياع بالإمتثال، مع عدم مراعاة العصمة بهذا الخصوص؛ لأنها صفة زائدة عن الصفات الإنسانية.

ثم أخذ ـ عليه السلام ـ يتعجب من الرأفة التي هي أخص من الرحمة مع كل ما يحدث من الإنسان من المعاصي والذنوب حيث قال ( وما أرأفك بي فما الذي يحجبني عنك ) وهذا التعجب الممزوج بالتساؤل الذي هو على غير حقيقته إذا تأملت فيه بقيت مشدوهاً . فتعجبه ـ عليه السلام ـ من هذه الرأفة بلحاظ العبارة السابقة يكون المعنىٰ : إن هذا القرب منك هو سبب التفضل عليّ بالجود والكرم ، وهذا البعد مني ـ وهوإعتراف بالتقصير لم يمنعك من الرأفة بي والإحسان إلي .

فالحواجب بيني وبينك مرفوعة ، وإذا سألتك وأنت بهذا القرب مني ، وبهذه الرأفة بي كنت أنا كالمتناول حاجتي بيدي ، وبعد كل ذلك فإنه لو حاول الإنسان أن يوجد الحواجز بينه وبين الله فإنه يعمل على إيجاد المستحيل ؛ لأن الله تبارك وتعالى لا يريد بينه وبين عبده المطيع شيئاً من تلك الحواجز والعقبات

## إختلاف الأثار دليل على الصانع

ثم بدأ ـ عليه السلام ـ في طرح جديد فقال : ( إلٰهي علمت باختلاف الآثار ، وتنقلات الأطوار ) أما إختلاف الآثار فهي تقلبها بن ضيق وسعة ، وحياة وموت وليل ونهار ، وبرد وحر ، وغير ذلك من الآثار الدالة على أن هذا التدبير المحكم بقدرة قادر .

والسؤال المطروح هو لماذا هذا الإختلاف الذي يجري في هذا الكون في الزمان والمكان ؟

وفي محاولة للإجابة يجب أن نتعرف على كيفية هذه الإختلافات المتعاقبة والمستمرة ، والمنتظمة إنتظاماً دقيقاً مذهلاً حيّر الألباب وأخرس

الألسن ، وإذا ذكرنا هذا الإختلاف في الآثار ينبغي أن نحدق في ما يتركه من أثـر سلـبـي أو إيجابي . ولا نبتعد عن ذلك في النظر ، ولننظر إلى هذا التأثير والإختلاف في أنفسنا ، فإن أجسامنا تحس بهذا التأثر قبل أن تدركه عقولنا ؛ لأنه تأثير مادي ، فمثلاً نرىٰ أنـه كل مـا إنسلخ فصل من فصـول السنة إعترت الإنسان وعكة صحية من حيث لا يعلم أسبابها ، وذلك لكي يكسب الجسم مناعة واستعداداً لفصل جديد وطقس جديد ، هذا ما نحسّه في أجسـامنا . وأمـا ما نـراه بأعيننـا فإن المـظاهـر الـطبيعيـة تختلف تبعـاً للفصـول . فالأجسـام تنكمش ـ بما في ذلـك أجسامنـا ـ بالبـرودة وتتمدد بالحرارة وكذلك بقية الجمادات . أما الأشجار فإنها تكون جرداء من بداية فصل الخريف إلى نهاية فضل الشتاء ، حتىٰ إذا بدأ فصل الربيع بـدأ فيها الإنتعاش ، ودبت فيها الحياة ، وتجددت الأوراق ، وأخذت تنعقد الثمار ، وأما بالنسبة إلى الجو فهو من غائم إلى صحو . . وغير ذلك . وكلها بتقدير من السميع العليم .

ولـو سرّحنـا النظر في جـو السماء لـرأينا مـا هو أعجب ، نـرىٰ من الكواكب السيارة التي تنجـذب إلى غيرهـا بفعل غيـرها ، وينجـذب إليها غيرها بفعلها ، وينجذب كل منهما بالفعلين معاً ، ومرة أخرىٰ نعود فنسأل لماذا هذه الحركة الدائبة التي تترك آثاراً عجيبة من ورائها ، وتغيرات ضمن نظام كوني منسق ؟

ويجيب ـ عيله السـلام ـ على هذا التسـاؤل المحتمـل الـذي يـراود العقل حتماً ، وكأنه يعلم بما يختمر في قرارة الإنسان من جرّاء هذه الآثار التي تطرأ على الحياة عامة من حين إلى آخر فيقول : ( أن مرادك مني أن تتعرف لي في كل شيء ، حتىٰ لا أجهلك في شيء ) وهذا الكلام متعلق بقوله : ( علمت ) ، نعم إن جميع هذه الحركات والسكنات المتناسقة في إيقاعها تدل على وجود منظم لها ، وإن تغير الأحوال في زمن معين ، وفي

حال منظم يدل على أن هناك منظم لا يتحول ولا يتبدل . فمراده سبحانه من كل ذلك هو أن يعلم العبد بأن الله قادر على أن يحيي ويميت كما هو الحال في النبات ، ويفقر ويغني ، ويضحك ويبكي ، وكل ذلك تنقلات أطوار ، وتغير أحوال ، تدل على تصرفه المطلق في عباده . ومعنىٰ ذلك أنه سبحانه بتغييره الأشياء بحسب إرادته دليل على عدم تغيره بتلك الأشياء ؛ لأنه لو تغير لما استطاع التغيير في ما نشاهده وكما نشاهده . ويظهر من هذا أن الله يريد للإنسان السعادة بمعرفته وعبادته ؛ لأن معرفته ـ سبحانه ـ يترتب عليها العبادة الخالصة ، وهذه يترتب عليها الجزاء الأوفىٰ الذي هو حصيلة عمل الإنسان والهدف من وجوده .

وفي حياتنا العملية العادية نجد أن من يعرف الملك يحظىٰ بشيء كثير ، فهو يستطيع الدخول عليه في أي وقت ، والملك بدوره لا يمنعه من الدخول عليه في أي وقت ، وتلبىٰ حاجاته مهما كانت وعظمت .

ويتلخص مما تقدم عدة أمور .

١ ـ ان الله يريد أن يعرف نفسه لعبده ؛ لأنه ليس بإمكان العبد معرفته .

٢ ـ ان المعرفة من صنع الله وليست من صنع العبد ، وهذا ما أشرنا إليه في أبحاث الكتاب السابقة خصوصاً الجزء الأول .

٣ ـ ان الجهل نقيض العلم الذي هو المعرفة بالله ـ سبحانه ـ بأي وسيلة من الوسائل على إختلاف الآراء في ذلك ، وقد سميت الفترة التي سبقت الإسلام بالزمان الجاهلي في مقابل الإسلام وهو معرفة الله سبحانه وتعالىٰ وعبادته .

٤ ـ ان العبادة على جهل هي عبادة على حرف ، وذلك يقتضي بطلان العمل ؛ لأن العبد لا يأتي بالعبادة على وجهها الأتم ـ كما أراد الله ـ

إذا كان غير عالم بأجزائها ومبطلاتها ومصححاتها .

وهذه أبيات سنحت حال البحث :

العلم للدين عنوان وبرهان — والعقل للمرء بين الناس عنوان
فالعقل والعلم إن حلّا بذي خلق — أضحى الفتى في المعالي وهو سلطان
وكلما زاد علم المرء زاد علاً — وعقله من وراء العلم ميزان
لا يفخر المرء بالصفراء في يده — يقلب الطرف فيها وهو وسنان
لكن بإيمانه إن كان مفتخراً — وقربه من إلٰه الحق يزدان

قال عليه السلام :

( اِلٰهي كُلَّما اَخْرَسَني لُؤْمي اَنْطَقَني كَرَمُكَ ، وَكُلَّما آيَسَتْني اَوْصافي اَطْمَعَتْني مِنَنُكَ ، اِلٰهي مَنْ كانَتْ مَحاسِنُهُ مَساوِيَ ، فَكَيْفَ لا تَكوُنُ مَساويهِ مَساوِيَ ، وَمَنْ كانَتْ حَقائِقُهُ دَعاوِيَ ، فَكَيْفَ لا تَكُونُ دَعاويهِ دَعاوِيَ ) .

## اللغة

أخرسني : الخرس ذهاب الكلام عياً أو خلقة والخرس بالتحريك المصدر ، وأخرسه الله . وجمل أخرس لا ثقب لشقشقته يخرج منه هديره ، وناقة خرساء لا يسمع لها رغاء ، وكتيبة خرساء إذا صمتت من كثرة الدروع ، أي لم يكن لها قعاقع ، ولبن أخرس أي خاثر لا يسمع له في الإناء صوت لغلظه . وسحابة خرساء لا رعد فيها ولا برد ، والخرساء الداهية ، والخرساء من الصخور الصماء ، وأنشد الأخفش قول النابغة :

أواضع البيت في خرساء مظلمة تقيد العير لا يرى بها الساري

آيستني : يئست منه أيئس يأساً ، وآيسني منه فلان مثل أيأسني وكذلك التأييس . وقال ابن سيده آيست من الشيء مقلوب عن يئست . وليس بلغة فيه . وأيّسه لينة ، وأيّس الرجل وأيّس به قصّر به واحتقره .

وتأيس الشيء تصاغر قال المتلمس :

ألم تـر أن الجـون أصبـح راكـداً    تـطيـف بـه الأيـام مـا يتـأيس

وقيل التأيس التأثير في الشيء .

**أطمعتني** : الطمع ضد اليأس وطمع فيه وبه طمعاً وطماعة .

**وطماعية** : حرص عليه ورجاه . ورجل طـامع وطميـع ، وطمُع من قوم طمعين، والطمع رزق الجند ، وأطماع الجند أرزاقهم ، يقال أمر لهم الأمير بأطماعهم أي بأرزاقهم . قـال تعالى : ﴿**والـذي أطمع أن يغفـر لي خطيئتي يوم الدين**﴾[1] .

**حقائقه** : الحقيقة ما يصير إليه حق الأمر ووجوبه ، وفي الحديث: لا يبلغ المؤمن حقيقـة الإيمان حتىٰ لا يعيب مسلمـاً بعيب هو فيـه . وحقيقة الرجل ما يلزمه حفظه ومنعه ويحق عليه الدفاع عنه من أهل بيته . والحقيقة ما يحق عليه أن يحميه ، وجمعها حقائق . والحقيقة في اللغـة ما أقـرّ في الإستعمال على أصل وضعه ، والمجاز ما كان بضد ذلك . وفي الحديث: ما حق القول علىٰ بني إسرائيل حتى استغنىٰ الـرجال بـالرجـال ، والنساء بالنساء ، أي وجب ولزم . وفي التنزيل : ﴿ **ولـكـن حـق القـول مني**﴾[2] وتحقق عنده الخبر أي صحّ . وحقق قوله وظنه تحقيقاً أي صدّق . وكـلام محقق أي رصين . قال الراجز :

دع ذا وحبّر منطقاً محققا

والحق صدق الحديث . والحق : اليقين بعد الشك .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية : ٨٢ .

## البيان

بدأ هنا ـ عليه السلام ـ في مناجاة اشتملت على مقابلة بين العبد وربه ، فهو بمقدار ما يعترف على نفسه كعبد مذنب بالذنب ـ بغض النظر عن صفة العصمة الزائدة عن صفات الإنسان ـ يصف ربّه بما يقابلها من الصفات التي تنسب إليه تعالى فهو يقول:

## الخرس

( إلٰهي كلما أخرسني لؤمي أنطقني كرمك ) والخرس هو عدم الكلام ، أو عدم الإفصاح في الكلام . وهو اما أن يكون عن عيٍّ في الإنسان يرتج عليه في المواقف الصعبة ، فيسكن لسانه عن الحركة ويتسبب هذا في السكوت عن الكلام . وإما أن يكون عن عاهة خلقية ، بمعنىٰ أن يكون في المواقف الصعبة أو غيرها على السواء ـ كما ورد ذلك في بحث اللغة ـ .

والمقصود بذلك في العبارة المطروحة في البحث هو المعنىٰ الأول ، وهو يشير بهذا إلى أن موقفه بين يدي ربه كإنسان والإنسان بما يقترف من الذنوب يستحيي أن يتكلم أمام ربه سبحانه بشيء من الاعذار بعد أن جاء يحمل أوزاره على ظهره ، ولا سبيل إلى إنكار شيء منها ، وبذلك يصيبه الحرج ، وهذا يتسبب عنه الإرتباك في الكلام والتصرف في مثل ذلك الموقف ، وهذا ما يتسبب عنه الخرس بالمعنىٰ المقصود . وقد يتسبب أيضاً الخرس عن نواحي عدّة منها .

١ ـ أن يكون هذا الخرس ناشئاً عن خجل محض من الله ـ سبحانه ـ، لأنه لم يقابل ربّه الذي أنعم عليه بالنعم الكثيرة ، ومنها نعمة الإيجاد فالمعاصي التي يقترفها الإنسان لا تصلح أن تكون جزاءً لذلك الإحسان الذي أحسنه إليه ربّه ، فوفر له وسائل المعاش والرياش .

٢ ـ أن هذا الخرس وعدم استطاعة الكلام ناشئاً عن الخوف من العقاب كجزاء علىٰ المعاصي التي ارتكبها وقد نهي عنها من الله سبحانه ، وفي هذه الحال ليس مجرد الخوف يؤدي بالإنسان إلى الخرس وعدم الكلام ، ولكن شدّة الخوف هي تؤدي إلى ذلك .

٣ ـ أن هذا الخرس قد يكون ناشئاً من خوف الإنسان من الفضيحة عند انكشاف الستر عن المعاصي ؛ لأن الله يسترها على العبد لكي يتدارك الإنسان نفسه ، ويتراجع عن خطيئته ؛ لأنه سبحانه لا فائدة له في هتك الستر عن العبد ، ولكن إذا أفرط الإنسان في الخطيئة وارتكب الموبقات المهلكات فإن الله سبحانه يفضحه بين خلقه .

أما اللؤم فهو بحسب ما ورد في بحث اللغة مقابل للكرم مقابلة الضدين ، وقد اخترنا هذا المعنىٰ من بين تلك المعاني المذكورة ؛ لأنه الوحيد الذي يلائم سياق العبارة ، ويظهر لك بذلك الطباق بين قوله : ( أخرسني ) وقوله : ( أنطقني ) ، وطباق آخر بين قوله ـ عليه السلام ـ ( لؤمي ) وبين قوله : ( كرمك ) . وقد ورد في دعاء الإفتتاح المروي عن خاتم الأئمة قوله ـ عليه السلام ـ : فلم أر مولىً كريماً أصبر على عبد لئيم منك عليّ يا رب . . الدعاء .

وقد بيّنا أن الإنسان كيف يخرسه ذنبه عن مخاطبة ربّه . وبقي أن نتساءل : كيف ينطق الإنسان كرم الله ؟

وبمقدار ما يخرس الإنسان الذنب ويسكته ، وإن كان صغيراً ولكنه بالنسبة إلى الله المنعم على الإنسان يكون كبيراً . وقد ورد في المأثور عن أهل البيت الطاهر ما معناه : لا تنظر إلى معصيتك ولكن أنظر إلى من عصيت .

وبالمقابل ينطق الإنسان كرم الله ؛ لأنه يطمعه ويشجعه على النطق ، وينفتح على المناجاة والدعاء ، ويسيل لعابه لطلب المزيد من النعم .

ومرة أخرىٰ يعاودنا الإشكال وهو : كيف ينطق الإنسان بكرم الله ؟

ومرة أخرىٰ نعود فنجيب بعبارة أخرىٰ فنقول: إن الله هو الذي أطمع الإنسان في هذا الكرم اللاّ محدود ، وفتح لـه باب الأمل على مصراعيه ليأخذ ما يعطيه من وافر نعمه ، لأنه سبحانه لا يرد سائلاً ، ولا يخيب نائلاً ، ولأنه قد سمّىٰ نفسه بالجواد الكريم ، وهذه الأسماء لا شك أنها مغرية للإنسان ، وهي من الصفات الجميلة لله سبحانه والتي تهش إليها النفس ويرتاح لها القلب ، ويلهج اللسان بذكرها طمعاً في الحصول على نتيجة الثناء لله سبحانه .

## اليأس والطمع مرة أخرى

تحت هذا العنوان يأتي كلامه ـ عليه السلام ـ ( وكلما آيستني أوصافي أطمعتني مننك ) اليأس يقابل الطمع تقابل الضدين لوجود الواسطة بينهما وهو ( الأمل ) بلسان علماء الميزان ، وعند علماء البلاغة يسمىٰ ذلك طباقاً بين قوله ( آيستني ) وبين قوله: ( أطمعتني ) وذلك من المحسنات البديعية عندهم ، وذلك كقولنا:

غاية الليل في الزمان النهار      فالدياجي تذيبها الأنوار

والأوصاف التي توصل الإنسان إلى اليأس هي المعاصي التي تمنع السماء من القطر ، وتقطع الرزق وتخيب الأمل . وفي دعاء كميل بن زياد يقول أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : ( أللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم ، أللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم ، أللهم اغفر لي الذنوب التي تغير النعم ، أللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء ، أللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء ، أللهم اغفر لي الذنوب التي تقطع

الرجاء . . . الدعاء ) .

وفي غير هذا الدعاء ( أللهم اغفر لي الذنوب التي تمنع قطر السماء ) .

ويظهر من سياق العبارة أن هذا اليأس هو من خير الدنيا دون خير الآخرة ، أي : أن الإنسان ييأس من خير الدنيا بسبب ما أجرم واقترف من الذنوب ، فليس له يدٌ تمتد للسؤال من الله ؛ لأنها مقطوعة بالخطايا .

واننا لنقول ذلك بقرينة ( المنن ) المذكورة في العبارة ، وهي النعم التي يتقلب فيها الإنسان والتي هي بدون المقابل . فالطمع الذي يراود الإنسان ناتج عن هذه المنن التي تعطي له بدون جزاء ، بل إن الله سبحانه يبتدىء الإنسان بها ، وهي بلا شك تولد عند الإنسان الإغراء ؛ لأنه وإن لم يحصل منه ما يقابلها إلاّ أنها لا تتوقف عن وصولها إليه بحال ، فهو في فرح دائم ، وطمع دائم بسبب ذلك ، وإلى هذا أشار قوله تعالى: **﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾**[3] نقل السيد الطباطبائي في الميزان كلام الراغب الأصفهاني في معنى المن: إنه بمعنى الثقل ومنه تسمية ما يوزن به ( مناً ) والمنّة النعمة الثقيلة ، ومنّ عليه منّاً أي أثقله بالنعمة ، قال: ويقال ذلك على وجهين أحدهما بالفعل كقوله: **﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا﴾** أي نعطيهم من النعمة ما يثقلهم . والثاني بالقول كقوله : **﴿يمنون عليك أن أسلموا﴾**[4] وهو مستقبح إلاّ عند كفران النعمة . إنتهى الأصفهاني من كلامه .

ثم قال السيد ـ رحمه الله ـ : وتمكينهم في الأرض إعطاؤهم فيه

---

(٢) سورة السجدة : الآية ، ١٣ .

(٣) سورة القصص : الآية ، ٥ .

(٤) سورة الحجرات : الآية ، ١٧ .

مكاناً يملكونه ويستقرون فيه .

ثم قال : والآية تصور ما في باطن هذا الظرف الهائل الذي قضىٰ على بني إسرائيل ألّا جيش منهم متنفس ، ولا يبقىٰ منهم نافخ نار ، وقد أحاطت بهم قدرة فرعون الطاغية ، وملأ أقطار وجودهم رعبه ، وهو يستضعفهم حتىٰ يقضي عليهم بالبيد . هذا ظاهر الأمر . وفي باطنه الإرادة الإلٰهية تعلقت بأن تنجيهم منهم ، وتحول ثقل النعمة من آل فرعون الأقوياء العالين إلى بني إسرائيل الأذلاء المستضعفين وتبدلّ من الأسباب ما كان على بني إسرائيل لهم وما كان لآل فرعون عليهم ، والله يحكم لا معقب لحكمه .

وروىٰ السيد البحراني في تفسير البرهان عن السيد الرضي في الخصائص بإسناده عن سهل بن كهيل عن أبيه في قول الله ـ عزّ وجلّ ـ: **﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً﴾**[٥] ، قال : أحد الوالدين علي بن أبي طالب ، وقال: قال أبو عبدالله جعفر بن محمد الصادق ـ عليه السلام ـ: قال أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ : لتعطفن علينا الدنيا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها ثم قرأ: **﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض . . .﴾** الآية[٦] .

وروىٰ فيه أيضاً عن ابن بابويه قال حدثنا أحمد بن محمد بن الهيثم العجلي ، قال: حدثنا أبو العباس أحمد بن يحيى بن زكريا القطان ، قال: حدثنا بكر بن عبدالله بن حبيب ، قال: حدثنا تميم بن بهلول ، عن أبيه عن محمد بن سنان ، عن المفضل بن عمر ، قال: سمعت أبا عبدالله ـ عليه

---

(٥) سورة العنكبوت : الآية ، ٨ .

(٦) البرهان ج ٣ ، ص ٢١٨ .

السلام ـ يقول: إن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ نظر إلى علي والحسن والحسين ـ عليهم السلام ـ فبكى وقال: أنتم المستضعفون بعدي. قال المفضل قلت له ما معنى ذلك يا بن رسول الله؟ قال: معناه أنتم الأئمة بعدي، إن الله ـ عزّ وجلّ ـ ليقول: ﴿**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين**﴾ فهذه الآية فينا جارية إلى يوم القيامة(٧).

وفيه أيضاً عن أبي جعفر محمد بن جرير الطبري في مسند فاطمة ـ عليها السلام ـ قال: حدثنا أبو المفضل: قال حدّثني علي بن الحسين المنقري الكوفي، قال: حدثني أحمد بن زيد الدهان، عن المحول بن إبراهيم، عن رشدم بن عبدالله بن خالد المخزومي، عن سليمان الأعمش، عن محمد بن خلف الطاهري، عن زذان، عن سلمان، قال: قال لي رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ أن الله تبارك وتعالى لم يبعث نبياً ولا رسولاً إلّا جعل له اثني عشر نقيباً، فقلت يا رسول الله، لقد عرفت هذا من أهل الكتابيين. فقال: يا سلمان هل علمت من نقبائي، ومن الاثني عشر الذين اختارهم الله للإمامة من بعدي، فقلت الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ خلقني الله من صفوة نوره، ودعاني فأطعته، وخلق من نوري علياً ودعاه فأطاعه، وخلق من نور علي ـ عليه السلام ـ فاطمة ـ عليها السلام ـ فدعاها فأطاعته، وخلق مني ومن علي وفاطمة الحسن ـ عليه السلام ـ فدعاه فأطاعه، وخلق مني ومن علي وفاطمة الحسين ـ عليه السلام ـ فدعاه فأطاعه، ثم سمّانا الله بخمسة أسماء من أسمائه، فالله المحمود، وأنا محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ، والله الأعلى، فهذا علي ـ عليه السلام ـ والله الفاطر فهذه فاطمة ـ عليها السلام ـ، والله (قديم) الإحسان وهذا الحسن ـ عليه السلام ـ والله المحسن وهذا

(٧) تفسير البرهان للسيد البحراني ج ٣، ص ٣١٧.

الحسين ـ عليه السلام ـ ثم خلق منا ومن نور الحسين ـ عليه السلام ـ تسعة أئمة فدعاهم فأطاعوه قبل أن خلق الله سماء مبنية ، ولا أرضاً مدحية ، ولا هواء ولا أرى ملكاً ولا بشراً دوننا ولا نوراً نسبح الله ونسمع له ونطيع قال سلمان : فقلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي فما لمن عرف هؤلاء ؟ فقال يا سلمان من عرفهم حق معرفتهم واقتدىٰ بهم ووالىٰ وليهم وتبرأ من عدوهم فهو والله منّا يرد حيث نرد ، ويسكن حيث نسكن ، فقلت يا رسول الله فهل يكون إيمان بهم بغير أسمائهم وأنسابهم ؟ فقال سلمان : فقلت يا رسول الله فإني لهم بهم قد عرفت إلى الحسين ـ عليه السلام ـ قال : ثم سيد العابدين علي بن الحسين ـ عليهم السلام ـ ثم ابنه محمد بن علي باقر علم الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين ـ عليه السلام ـ ثم جعفر بن محمد ـ عليه السلام ـ لسان الله الصادق ، ثم موسى بن جعفر الكاظم غيظه ـ عليه السلام ـ ، صبراً في الله ـ عز وجل ـ ثم علي بن موسى الرضا لأمر الله ـ عليه السلام ـ ، ثم محمد بن علي المختار من خلق الله ـ عليه السلام ـ ثم علي بن محمد الهادي إلى الله ـ عليه السلام ـ ثم الحسن بن علي الصامت الأمين لسر الله ـ عليه السلام ـ ثم محمد بن الحسن الهادي المهدي الناطق القائم بحق الله ـ عليه السلام ـ .

ثم قال يا سلمان إنك مدركه ، ومن كان مثلك ، ومن تولاه بحقيقة المعرفة ، قال سلمان : فشكرت الله كثيراً ، ثم قلت : يا رسول الله : وإني مؤجل إلى عهده ؟ قال يا سلمان : إقرأ ﴿**فإذا جاء وعد أولهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً . ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً**﴾(٨) قال سلمان فاشتد بكائي وشوقي ثم قلت يا رسول الله بعهد منك ؟ فقال : أي والله الذي أرسل محمداً بالحق مني ومن علي وفاطمة والحسن والحسين

(٨) سورة الإسراء : الآية ، ٦ .

والتسعة ـ عليهم السلام ـ وكل من هو منا ومضام فينا ، أي والله يا سلمان ! وليحضرن إبليس وجنوده ، وكل من محض الإيمان محضاً ، ومحض الكفر محضاً ، حتىٰ يؤخذ بالقصاص والأوتار والأثوار **﴿ولا يظلم ربّك أحداً﴾** وتحقق تأويل هذه الآية **﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾** قال سلمان فقمت بين يدي رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ وما يبالي سلمان متىٰ لقى الموت أو الموت لقيه .

ومرة أخرىٰ نقول إنه إذا نظر الإنسان إلى نفسه وما يتصف به كإنسان له نفس ، وله ميول وغرائز ، كلما نظر إلى ذلك وما تجره عليه هذه الجبهات مجتمعة يئس من الخير قليله وكثيره ، وإذا ذكر المنن التي عند الله يعطيها الإنسان بغير مقابل طمع في ذلك الخير ، فيكون بين أوصافه وبين المنن أخذ وردّ ، ولا شك أن ما يتعلق بالله سبحانه وهي المنن تغلب على ما يتعلق بالإنسان وهي الأوصاف المذكورة ، وبذلك يغلب عليه الطمع في هذه المنن .

فإقحام هذه الكلمة ( مننك ) في العبارة الماثلة أمام البحث جاءت في موضعها من حيث المعنىٰ الرقيق المناسب ، والذي يظهر الكرم الإلٰهي اللاّ محدود ، والتفضل على العبد ، كما يُظهر حاجة الإنسان إلى هذه المنن ، وفقره إلى الله سبحانه على كل حال .

## المحاسن والمساويء مرة أخرى

ثم أخذ ـ عليه السلام ـ يبالغ في الإعتراف بالتقصير فقال : ( إلٰهي من كانت محاسنه مساويء ، فكيف لا تكون مساويه مساوي ؟ ) وفي العبارة طباق ظاهر ـ كما يقول ذلك علماء البلاغة ـ بين المحاسن والمساوي ، وهو من الحسنات البديعية في الكلام .

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف تكون المحاسن مساويء ، وهل يكون الصحيح خطأ ؟ وهل أن هناك عبارات متعددة للحقائق ؟

وأخيراً هل يكون العكس . وذلك بأن تصبح المساويء محاسن عند العقلاء ؟

وفي محاولة للإجابة على هذه الأسئلة المتواردة والمزدحمة في الذهن نطرح الآية الكريمة ضمن البحث في هذا الموضوع ، لنجعلها وسيلة لبلوغ الغاية ، وهي قوله ـ تعالى ـ: **﴿الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾**(٩) .

قال في مجمع البيان: أي يظنون أنهم بفعلهم محسنون ، وأن أفعالهم طاعة وقربىٰ .

وروىٰ العياشي بإسناده قال: قام ابن الكواء لأمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فسأله عن أهل هذه الآية فقال: أولئك أهل الكتاب كفروا بربهم وابتدعوا في دينهم فحبطت أعمالهم ، وما أهل النهر منهم ببعيد ، يعني الخوارج(١٠) .

وقال في الميزان: هذا إنباءٌ بالأخسرين أعمالاً ، وهم الذين عرض في الآية السابقة على المشركين أن ينبئهم بهم ، ويعرفهم إياهم ، فعرفهم بأنهم الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا ، وضلال السعي خسران. ثم عقّب بقوله: **﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾** وبذلك تم كونهم أخسرين .

بيان ذلك: أن الخسران والخسار في المكاسب والمساعي المأخوذة لغاية الإسترباح إنما يتحقق إذا لم يصب الكسب والسعي غرضه ، وانتهىٰ إلى نقص في رأس المال ، أو ضيعة السعي ، وهو المعبّر عنه في الآية

(٩) سورة الكهف : الآية ، ١٠٤ .

(١٠) مجمع البيان ج ٦ ، ص ٧٦٧ .

( بضلال السعي ) كأنه ضل الطريق فانتهىٰ به السير إلى خلاف غرضه .

والإنسان ربما يخسر في كسبه وسعيه لعدم تدرب في العمل ، أو جهل بالطريق أو لعوامل اخر أتفاقية وهي أن يرجي زواله فإن من المرجو أن يتنبه به صاحبه ثم يستأنف العمل فيتدارك ماضاع منه ، ويقضي ما فات ، وربما يخسر وهو يذعن بأنه يربح ، ويتضرر وهو يعتقد أنه ينتفع لا يرىٰ غير ذلك وهو أشد الخسران لارجاء لزواله .

ثم الإنسان في حياته الدنيا لا شأن له إلا السعي لسعادته ولا همّ له فيما وراء ذلك ، فإن ركب طريق الحق وأصاب الغرض وهو حق السعادة ، فهو وإن أخطأ الطريق وهو لا يعلم بخطأه فهو خاسر سعياً لكنه مرجو النجاة ، وإن أخطأ الطريق وأصاب غير الحق وسكن إليه فصار كلما لاح له لائح من الحق ضربت عليه نفسه بحجاب الإعراض وزينت له ما هو فيه من الإستكبار وعصبية الجاهلية فهو أخسر عملاً وأخيب سعياً لأنه خسران لا يرجىٰ زواله ولا مطمع في أن يتبدل يوماً سعادة ، وهو قوله ـ تعالى ـ في تفسير الأخرين أعمالا : ﴿ **الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً** ﴾ .

وحسابهم عملهم حسناً مع ظهور الحق وتبين بطلان أعمالهم لهم ، إنما هو من جهة انجذاب نفوسهم إلى زينات الدنيا وزخارفها وانغمارهم في الشهوات فيحبسهم ذلك عن الميل إلى اتباع الحق والإصغاء إلى داعي الحق ومنادي الفطرة . قال تعالى : ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم**[11] ﴾ . وقال : ﴿ **وإذا قيل له إتق الله أخذته العزة بالإثم** ﴾[12] فاتباعهم هوىٰ أنفسهم ومضيهم على ما هم عليه من الإعراض عن الحق عناداً واستكباراً ، والإنغمار في شهوات النفس ليس إلاّ رضا منهم بما هم

(١١) سورة النمل : الآية ، ١٤ .

(١٢) سورة البقرة : الآية ، ٢٠٦ .

عليه واستحساناً منهم لصنعهم .

قال المؤلف : من تأمل فيما جاء في الآية وتفسيرها ظهرت له فوارق بينها وبين العبارة المطروحة أمام هذا البحث . وهي أن الحسين ـ عليه السلام ـ يأتي كلامه في مقام الإعتراف بالتقصير في عبادة الله سبحانه فيعدّ ذلك التقصير من المساوي التي ينبغي أن لا تتكرر منه ، وهي في حد ذاتها من المحاسن لمجيئها كاستراحة بعد العبادة لاستعادة النشاط واستئنافها .

ونرىٰ أن الآية قد عرضت أعمال قوم كانوا يدّعون ويغترون بعبادتهم التي جاءت بحسب رغباتهم وأضاعوا فيها المقاييس الشرعية التي ينبغي أن تكون حاكمة على أعمال الإنسان .

ونرىٰ شيئاً آخر يلوح كفرق ما بين الآية وعبارة الدعاء وهو أن الآية قد وصفت عمل هؤلاء بالإحباط والفساد ؛ لأنهم قد اغتروا بأعمالهم بينما أن العبارة قد ذكرت العكس من ذلك وهو أن الحسين ـ عليه السلام ـ كان مشفقاً من عمله هذا بعدم القبول ؛ لأنه يصفه بالتقصير ـ والتقصير ـ إن تحقق فهو سيئة ـ وهذا هو مبلغ التواضح والخضوع لله . ولكن أولئك يرون أن عملهم خير من عمل غيرهم ؛ لأنهم قد سوّلت لهم أنفسهم أمراً فأفسدوا ما أصلحوا فعاد عليهم وبالاً وضلالا .

وهناك فرق آخر وهو فارق جوهري ذلك أن الحسين ـ عليه السلام ـ واثق من قبول عمله ، لا من حيث عصمته فقط ؛ ولأن العمل جاء صحيحاً كما أراد الله ، بل لأن ثقته بالله لا تساوىٰ بغيرها ؛ لأنه قد عرف الله معرفة تختلف عن معرفة سائر البشر ؛ لأنه لا يساوىٰ بالبشر ، وإلّا يكن كذلك فلا فضل له على غيره ، ولذلك فقد جاءت عبادته مختلفة عن عبادة غيره من الناس ، لأن المعرفة هي أساس الطاعة ، وبها يتفاضل الناس على بعضهم البعض .

فإذا كانت هذه المحاسن ، من معرفة وعبادة وتواضع هي مساوي كما قلنا ، لأنها ـ كما يـراها عليه السلام ـ لم تبلغ إلى الحد الأقصىٰ ، فكيف لا تكون المساوىء التي تصدر عنه مساوىء فعلاً .

ومن المحتمل قوياً أن هذا الكلام يعني به الإنسان بما هو إنسان عندما يعمل الشر ويراه خيراً ، ويغتر به ، بل ويرىٰ كل عمل دون عمله باطلاً ، ويصل بذلك إلى مرحلة الغرور وفرض الرأي ، فهو إذا عمل الشر من باب الأولىٰ أن يعتبر شراً .

## الحسن والقبح العقليين

وفي حديث الحسن والقبح العقليين قال علماء الكلام : إعلم إن الفعل من المتصورات الضرورية ، وقد حدّه أبو الحسين بأنه ما حدث عن قادر مع أنه حدّ القادر بأنه الذي يصح أن يفعل وأن لا يفعل فلزم الدور ، على أن الفعل أعم من الصادر عن قادر أو غيره .

إذا عرفت هذا فالفعل الحادث إما أن لا يوصف بأمر زائد على حدوثه ، وهو مثل حركة الساهي والنائم ، وإما أن يوصف وهو قسمان : حسن وقبح :

١ ـ فالحسن مالا يتعلق بفعله ذنب .

٢ ـ والقبح بخلافه .

والحسن إما أن لا يكون له وصف زائد على حسنه وهو المباح ، ويرسم بأنه ما لا مدح فيه على الفعل والترك ، وإما أن يكون له وصف زائد على حسنه ، فإما أن يستحق المدح بفعله والذنب بتركه وهو الواجب ، أو يستحق المدح بفعله ولا يتعلق بتركه ذنب وهو المندوب ، أو يستحق المدح بتركه ولا يتعلق بفعله ذنب وهو المكروه . فقد انقسم الحسن إلى الأحكام الأربعة : الواجب والمندوب والمباح والمكروه . ومع الحرام تصير الأحكام

الحسنة القبيحة خمسة .

وقد استدل على أن الحسن والقبح أمران عقليان بوجوه .

**أولها** : إنا نعلم بالضرورة حسن بعض الأشياء وقبح بعضها من غير نظر إلى شرع . فإن كل عاقل يجزم بحسن الإحسان ويمدح عليه ، ويقبح الإساءة والظلم ويذم عليهما ، وهـذا حكم ضروري لا يقبـل الشك وليس مستفـاداً من الشرع لحكم البـراهمة والمـلاحدة بـه من غير اعتـراف منهـم بالشرايع .

**ثانيها** : يدل على أن القبح والحسن عقليات أنهما لـو ثبتا شـرعاً لم يثبتـا لا شرعـاً ولا عقلاً ، والتـالي باطـل إجماعـاً ، فالمقـدم مثله . بيان الشرطية : إنا لو لم نعلم حسن الأشياء وقبحها عقلاً لم نحكم بقبح الكذب مجاز وقوعه من الله تعالى عن ذلك علواً كبيرا ، إذا أخبرنا في شيء أنه قبيح لم نجزم بقبحه ، وإذا أخبرنا في شيء أنه حسن لم نجزم بحسنـة لتجويـز الكذب لجوّزنا أن يأمرنا بـالقبيح ، وأن ينهـانا عن الحسن لانتفـاء حكمته تعالى على هذا التقدير(١٣) .

ولقد أطال العلماء في هذا الموضوع فتعرضوا إلى وجـوه أخرىٰ في مسألة الحسن والقبح العقليين آثرنا عدم التعرض لها رغبة في الإختصار .

ثم واصل ـ عليه السلام ـ كلامه على هذا النسق فقـال ( ومن كانت حقائقه دعاوي ، فكيف لا تكون دعاويه دعاوي ؟ ) والحقائق جمع حقيقة والحقيقـة بحسب ما ورد في بحث اللغـة عند أهـل اللغة هـو مـا أقـر في الإستعمال بأصل وضعه ، وبعكسه المجاز الذي يستعمل فيه اللفظ في غير ما وضع له ، أما ما أشارت إليه العبارة المطروحة أمامنا ، فهي وإن كانت لا تبعد كثيراً عن المعنىٰ اللغوي إلاّ أنها تشيـر إلى ما هـو أخص من ذلك ،

---

(١٣) شرح التجريد ص ٢٨٠ .

فالحقيقة هنا هي الصدق في القـول والفعل . على أن هـذه الحقائق التي ذكرها في العبارة ، ومقابلتها بالـدعاوي تشيـر إلى أن هذه الحقـائق ـ وإن كانت عنده بهذا الإعتبار ـ إلاّ أنه لا يرضاها لنفسه كحقائق ثابتة في مقـــام ثبوت الحق المشتق منها ، وهذا هو منتهىٰ التواضع منه ـ عليه السلام ـ فإذا كانت الحقائق هي دعاوي فمن البديهي أن الدعاوي تكون على ما هي عليه من عدم ثبوتها في مقام الإحتجاج أو صلوحها لإثبات الحق .

ومن المعقول جداً أنه ـ عليه السلام ـ يشير بهذا الكلام إلى الإنسان بمصداقه العام ، وبذلك ينطبق الكلام عليه وعلى غيره ، بغض النظر عن صفات الإمامة الزائدة .

قال عليه السلام :

( اِلٰهي حُكْمُـكَ النّافِـذُ ، وَمَشِيَّتُكَ الْقـاهِرَةُ ، لَمْ يَتْـرُكا لِـذي مَقالٍ مَقالاً ، وَلا لِذي حالٍ حالاً ، اِلٰهي كَمْ مِنْ طاعَةٍ بَنَيْتُها ، وَحالَةٍ شَيَّدْتُها ، هَدَمَ اعْتِمادي عَلَيْها عَدْلُكَ ، بَلْ اَقالَني مِنْها فَضْلُكَ ) .

## اللُّغَةُ

**النافذ** : النفاذ الجواز ، ورجل نافذ في أمره ونفوذ ونفّاذ ماضي في جميع أمره ، وأمرنا نافذ أي مطاع . وفي الحديث : بر الوالدين الإستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، أي إمضاء وصيتها ، وما عهدا به ، ورجل نافذ في أمره أي ماضي .

ونفذ السهم الرمية ونفذ فيها ينفذها نفذاً ونفاذاً : خالط جوفها ثم خرج طلرفه من الشق الآخر ، وطعنة نافذة منتظمة الشقين قال قيس بن الحطيم :

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر　　لها نفد لولا الشعاع أضاءها

والشعاع ما تطاير من الدم .

**مشيئتك** : المشيئة مصدر شاء يشاء مشيئة ، والمشيئة الإرادة . شئت

الشيء أشاؤه ، ومشاءة ، أردته ، وقالوا : كل شيء يشيئة الله بكسر الشين مثل شيعة أي بمشيئة .

ومنه الشيء وهو معلوم والجمع أشياء غير مصروف لمشابهة ألفه بألف المؤنث العلم مثل أسماء قال الله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدُ لكم تسؤكم** ﴾(١) .

**هدم** : الهدم نقيض البناء ، هدمه يهدمه هدماً وهدّمه بالتشديد ، ودهدمه بمعنى واحد ، قال العجاج :

وما سؤال طلل وأرسم والنؤى بعد عهده المدهدم

والهدم بفتح الدال ما تهدم من نواحي البئر فسقط في جوفها ، قال يصف إمرأة فاجرة .

تمضي إذا زجرت من سوأةٍ قدماً كأنها هدم في الجفر مفقاض

وقال ابن الأثير هو أن ينهار عليه بناء ، أو يقع في بئر أو هوية . وفي الحديث أن أبا الهيثم ابن التيهان قال الرسول ـ صلى الله عليه وآله ـ ان بيننا وبين القوم حبالاً ، ونحن قاطعوها فنخشى أن الله أعزك وأظهرك أن ترجع إلى قومك ، فتبسم النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ ثم قال : بل الدم الدمُ ، والهدم الهدمُ ( بالتحريك ) أنا منكم وأنتم مني ، ويروىٰ بسكون الدال .

**إعتمادي** : إعتمد علىٰ الشيء توكأ . والعمدة ما يعتمد ، عليه ، واعتمدت عليه في كذا أي اتكلت عليه ، والعمود العصا . قال أبو بكير الهذلي :

يهدي العمود له الطريق إذا هموا طعنوا ويعمد للطريق الأسهل

واعتمد عليه في الأمر ترك على المثل . والإعتماد إسم لكل سبب

---

(١) سورة المائدة : الآية ، ١٠١ .

راحفته والعمود الخشبة القائمة في وسط الخباء ، والعمد : بسكون الميم ضد الخطأ في القتل وسائر الجنايات وقوله ـ تعالى ـ ﴿ إرم ذات العماد ﴾(*) قيل معناه أي ذات الطول، وقيل أي ذات البناء الرفيع المعمد، والعميد المريض لا يستطيع الجلوس حتى يعمد من جانبه بالوسائد أي يقام .

## البيان

بدأ في هذه الفقرة يصف الباري سبحانه وتعالى بنفاذ الحكم وهو عدم التردد ، وهو قوله ـ عليه السلام ـ ( إلٰهي حكمك النافذ ) ونفاذ الحكم ـ كما سبق في بحث اللغة ـ بمعنىً ماض ، أو بمعنىً المطاع ، وهذان المعنيان كلاهما يصلح مع سياق العبارة في الدعاء . ويتميز حكمه ـ سبحانه ـ عن حكم غيره بكثير من الإمتيازات منها :

١ ـ ان حكمه ـ سبحانه ـ على شيء من الأشياء لا تردد فيه ، وذلك لأنه عالم بنتائج هذا الحكم قبل وقوعها ، بخلاف الإنسان الذي يحكم على شيء لا يعلم عن نتائجه شيئاً .

٢ ـ أن التردد الذي يعتري الإنسان في حكمه يكون مصدره الشك في فائدة المحكوم به من حيث صحة النتائج وعدمها ، أما الشك فإنه لا يرد في حكمه سبحانه .

٣ ـ إن الحكم الصادر من المولىٰ ـ سبحانه ـ لا شك أنه يكون في مصلحة العبد ، وإن تضرر بعضهم من بعض الأحكام ، إلا أن هذه الأحكام قد نراها نظرت في تشريعها وراعت المصلحة العامة للبشر جميعاً .

## مصلحة التشريع

وإذا نظرنا بتأمل إلى هذه الأحكام نراها أنها تصادر المنفعة الفردية في سبيل المصلحة العامة . فالحكم على السارق بأن تقطع يده بعد ثبوت

(*) سورة الفجر الآية (٧).

الجريمة يعني قطع دابر الشر من التعدي على أموال الناس وأعراضهم ، مع العلم بأن السارق عندما يقطع يده يحصل له الضرر ـ بلا شك ـ ولكن تحصل الفائدة من ذلك لجميع الناس ، وإلى هذا أشار قوله ـ تعالى ـ ﴿ **ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون** ﴾[٢] وهذه إشارة إلى حكم التشريع ، ودفع ما ربما يتوهم من تشريع العفو والدية ، وبيان المزية والمصلحة التي في العفو ، وهو نشر الرحمة وإيثار الرأفة أن العفو أقرب إلى مصلحة الناس . وحاصله : إن العفو ولو كان فيه ما فيه من التخفيف والرحمة ، لكن المصلحة قائمة بالقصاص فإن الحياة لا يضمنها إلّا القصاص دون العفو والدية ، ولا كل شيء مما عداهما ، يحكم بذلك الإنسان إذا كان ذا لب . وقوله ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ أي القتل وهو بمنزلة التعليل لتشريع القصاص .

وقد ذكروا أن هذه الآية على إختصارها وإيجازها وقلة حروفها وسلاسة لفظها وصفاء تركيبها من أبلغ آيات القرآن في بيانها ، وأسماها في بلاغتها فهي جامعة بين قوة الإستدلال وجمال المعنىٰ ولطفه ورقة الدلالة وظهور المدلول ، وقد كان للبلغاء قبلها كلمات في القتل والقصاص وتعجبهم بلاغتها وجزالة أسلوبها ونظمها كقولهم : قتل البعض إحياء للجميع . وقولهم اكثروا القتل ليقل القتل ، واعجب من الجميع عندهم قولهم : القتل أنفىٰ للقتل . غير أن الآية أنست الجميع ونفت الكل : ﴿ **ولكم في القصاص حياة** ﴾ فإن الآية أقل حروفا وأسهل في التلفظ ، وفيها تعريف القصاص وتنكير الحياة ، ليدل على أن النتيجة وعلى بيان حقيقة المصلحة هي الحياة ، وهي تضمن حقيقة المعنىٰ المفيد للغاية فإن القصاص هو المؤدي إلى الحياة دون القتل ، فإن من القتل ما يقع عدواناً ليس يؤدي إلى الحياة ، وهي مشتملة على أشياء أخر غير أن القتل يؤدي

---

(٢) سورة البقرة : الآية ، ١٧٩ .

إلى الحياة وهي أقسام القصاص في غير القتـل ، وهي مشتملة على معنىً زائـد آخر وهـو معنىٰ المتابعـة التي تدل عليهـا كلمـة القصـاص بخـلاف قولهم : القتل أنفىٰ للقتل ، وهي مع ذلك متضمنة للحث والترغيب فإنهـا تدل على حياة مذخورة للناس مقفول عنها يملكونها ، فعليهم أن يأخذوا بها نظير ما تقول : لك في كل مكان كذا أو عند فلان مال وثروة[٣] .

ولقـد جاء على لسـان الشاعـر الجاهلي الـذي يضرب بـه المثـل ، ويستشهد بكلامه وأشعاره ، وهو أمرؤ القيس قوله :

أيا جارتا سفك الـدما يحقن الـدما      وبالقتل تنجـو كل نفس من القتـل

فنظر إلى هذا المعنىٰ المتهـاوي أمام الآيـة . فإن سفـك الدمـاء لا يحقن الدماء في كل مجال ، والقتل لا ينجي من القتل في كل حال . ولكن ( القصاص ) كلمة لا تصرف إلى مطلق القتل ، بل إلى الجـزاء فقط على القتل عمداً .

وكـانت اليهـود تعتقـد ( القصـاص ) كمـا ورد في الفصـل الحـادي والعشـرين والثاني والعشـرين من ( الخـروج ) ، والخـامس والثـلاثين من العدد ، وقد حكاه القرآن حيث قال ـ تعالى ـ ﴿ **وكتبنا لهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص** ﴾[٤] .

وكـانت النصارىٰ على مـا يحكىٰ لا ترىٰ في مـورد القتل إلاّ العفـو والدية ، وسائر الشعوب والأمم على إختلاف طبقاتهم ما كـانت تخلوا من القتل في القتل في الجملة وإن لم يضبطه ضابط تام حتىٰ القرن الأخيرة .

والإسلام سلك في ذلك مسلكـاً وسطاً بين الالغـاء والإثبات فـأثبت

---

(٣) الميزان ج ١ ، ص ٤٣٤ .

(٤) سورة المائدة : الآية ، ٤٨ .

القصاص والغنىٰ بعينيه ، بل أجاز العفو والدية ثم عدّل القصاص بالمعادلة بين القاتل والمقتول ، فالحر بالحر ، والعبد بالعبد والأنثىٰ بالأنثىٰ(٥) .

وهناك آراء بين الأخذ والنقض والإبرام في مجال القتل بالقتل طويناها خوف الإطالة لعدم فائدتها بعد ما قرره ديننا الحنيف .

## المشيئة

ثم تحدث ـ عليه السلام ـ في كلامه عن المشيئة فوصفها بالقهر في قوله ( ومشيئتك القاهرة ) وهي كما ذكرت المعاجم اللغوية بمعنىٰ الإرادة ؛ وبذلك تنسجم هذه العبارة مع ما قبلها إنسجاماً كبيراً ، وتتعلق بها تعلقاً واضحاً .

فنحن إذا أخذنا ( الحكم ) ثم أخذنا ( نفاذ الحكم ) ظهر لنا معنى المشيئة القاهرة ، أو الإمضاء .

ويراود العقل معنىٰ آخر للمشيئة ذكر كثيراً في كثير من روايات أهل البيت ـ عليه السلام ـ .

فقد جاء في الكافي عن العدّة عن أحمد بن محمد بن محمد بن خالد عن أبيه ومحمد بن يحيىٰ عن أحمد بن محمد بن عيسى عن الحسين بن سعيد ، ومحمد بن خالد جميعاً عن فضالة بن أيوب ، عن محمد بن عمار عن حريز بن عبد الله وعبد الله بن مكان جميعاً عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ أنه قال : لا يكون شيء في الأرض ولا في السماء إلاّ بهذه الخصال السبع بمشيئة وإرادة ، وقضاء وقدر ، وإذن وكتاب وأجل ، فمن زعم أنه يقدر على نقص واحدة فقد كفر ، قال : ورواة علي بن إبراهيم عن أبيه عن محمد بن حفص ، عن محمد بن عمارة بن حريز بن عبد الله وابن

---

(٥) الميزان ج ١ ، ص ٤٣٥ .

مسكان مثله ، ورواه أيضاً عن أبيه عن محمد بن خالد . عن زكريا بن عمران عن أبي الحسن موسى بن جعفر ـ عليه السلام ـ قال : لا يكون شيء في السماوات ولا في الأرض إلا بسبع : قضاء وقدر ، وإرادة ومشية ، وكتاب وأجل وإذن ، فمن زعم غير هذا فقد كذب على الله ، أو ردّ على الله .

فالمشيئة من معاينها العزم ، والإرادة هي تأكيد العزم والثبوت عليه ، والقدر تقرير الأمور طولاً وعرضاً وكيلاً ووزناً ونحوها ، والقضاء في أفعاله تعالى هو الحكم بالوجود في أفعالنا والحكم عليها بالثواب والعقاب ، والإذن العلم كما في قوله تعالى ﴿ **فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾[٦] أي كونوا على علم ، وقد يطلق على الأمر ، والكتاب اللوح ، والإجل الأمد المعين ، وظاهر الحديث ينطبق على مذهب الأشاعرة والجبرية القائلين بأن الإرادة موافقة العلم بمعنىٰ أن كل ما علم الله وقوعه فهو مراد الوقوع ، وكل ما علم الله عدم وقوعه فهو مراد العدم ، وإن جميع أفعال العباد التي صدرت منهم من الطاعات والمعاصي والكفر والزندقة مراد له تعالى ، وبقضائه وقدره وإذنه وكتابته ، وأما تطبيقه على مذهب العدلية القائلين بأنه تعالى يريد من أفعال العباد الطاعات ولا يريد المعاصي والشرور وأنه تعالى لم يأمر بالمعاصي والشرور فيحتاج إنطباقه إلى توجيه إما من حيث الإرادة فمن وجوه .

**الأول** : ان مشيئته تعالى وإرادته متعلقة بجميع الموجودات بمعنىٰ أراد أن لا يكون شيء إلا بعلمه .

**الثاني** : أن الإرادة متعلقة بالأشياء كلها ولكن تعلقها بها على وجوه مختلفة إذ تعلقها بأفعال نفسه سبحانه بمعنىٰ إيجادها والرضا بها لكونها كلها

---

(٦) سورة البقرة : الآية ، ٢٧٩ .

حسنة واقعة على وجه الحكمة ، والشر القليل تابع لخيرات كثيرة فيه ، وليس مراداً بالذات ، وتعلقها بأفعال العباد إمّا بالطاعات فهو إرادة وجودها والرضا بها والأمر بها ، وإما بالمباحات فهو الرخصة بها وإمّا بالمعاصي فهو إرادة أن لا يمنع منها بالجبر والقهر ، كما صرح به الصدوق في كتاب الإعتقادات أو إرادة عدمها كما فسر به قوله تعالى : ﴿ **ولو شاء الله ما أشركوا** ﴾(٧) أي ولو شاء الله عدم شركهم على سبيل الإجبار ما أشركوا ، ولكن لم يشأ على هذا الوجه لمنافاته غرض التكليف ، وإنما شاء على سبيل الإختيار ليكون لهم القدرة على الفعل والترك ، ويدل على هذا المعنىٰ ما رواه الطبرسي في احتجاجه عن الرضا ـ عليه السلام ـ قال : إرادة الله ومشيئته في الطاعات الأمر بها والرضا لها والمعونة عليها وإرادته ومشيته في المعاصي النهي عنها والسخط لها والخذلان عليها ، قال السائل : فلله فيه قضاء ؟ قال : نعم ما من فعل يفعله العباد من خير أو شر إلّا ولله فيه قضاء ، قال السائل : ما معنىٰ هذا القضاء ؟ قال : الحكم عليهم بما يستحقونه من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة . . الحديث نقل بالمعنىٰ .

**الثالث** : ان تعلقها بأفعاله تعالى ما مرّ وتعلقها بأفعال عباده على سبيل التجوز ، لأنه تعالى حيث كان هو الموجد لآلاتها والقدرة عليها ، ولم يمنع منها مع قدرته على المنع فكأنه أرادها .

**الرابع** : ان إرادته تعالى عبارة عن العلم بما في الفعل من المصلحة .

**الخامس** : ان إرادة العبد لأفعاله مخلوقة لله تعالى كما تقدم نقله عن السيد الراماد في تفسير قوله ـ عليه السلام ـ : خلق الله المشية بنفسها ، ثم

(٧) سورة الإنعام : الآية ، ١٠٧ .

خلق الأشياء بالمشية ، فحيث كانت مخلوقة له تعالىٰ فكأنه فاعلها مجازاً وفيه من البعد ما لا يخفىٰ ، وأما رفع الإشكال من حيث القضاء والقدر ، فالمراد بالقدر العلم أو تقدير الموجودات ، والمراد بالقضاء في أفعالنا الحكم عليها بالثواب والعقاب كما مرّ عن الرضا ـ عليه السلام ـ وحكي عن العلّامة ـ رضي الله عنه ـ في شرحه على التجريد أنه قال : يطلق القضاء على الخلق والإتمام قال الله ـ تعالى ـ ﴿ **فقضاهن سبع سماوات في يومين** ﴾[8] أي خلقهن وأتمهن . وعلى الحكم والإيجاب لقوله تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألّا تعبدوا إلا إياه** ﴾[9] أي أوجب وألزم على الإعلام والإخبار كقوله ـ تعالى ـ ﴿ **وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب** ﴾[10] أي أعلمناهم وأخبرناهم ، ويطلق القدر على الخلق كقوله تعالى : ﴿ **وقدر فيها أقواتها** ﴾[11] والكتابة كقول الشاعر :

واعلم بأن ذا الجلال قد قدر ... في الصحف الأولىٰ التي كان سطر

والبيان كقوله تعالى : ﴿ **إلّا أمرأته قدرناها من الغابرين** ﴾[12] أي بينا وأخبرنا بذلك ، إذا ظهر هذا فنقول للأشعري : ما تعني بقولك أنه تعالى قضى أعمال العباد وقدرها إن أردت به الخلق والإيجاد ، فقد بينا بطلانه وأن الأفعال مستندة إلينا وإن عني به الإلزام لم يصح إلا في الواجب خاصة وإن عني به أنه تعالى بينها وكتبها وعلم أنهم سيفعلوا فهو صحيح لأنه تعالى قد كتب ذلك أجمع في اللوح المحفوظ وبينه لملائكته ، وهذا المعنى الأخير هو المتعين للإجماع على وجوب الرضا بقضاء الله تعالى

---

(٨) سورة فصلت : الآية ، ١٢ .
(٩) سورة الإسراء : الآية ، ٢٢ .
(١٠) سورة الإسراء : الآية ، ٤ .
(١١) سورة فصلت : الآية ، ١٠ .
(١٢) سورة النمل : الآية ، ٥٧ .

وقـدره ، ولا يجوز الـرضا بـالكفر وغيـره من القبائـح ولا ينفعهم الإعتذار بوجوب الرضا به من حيث أنه فعله وعدم الرضا من حيث الكسب لبطلان الكسب أولاً ، وثانياً نقول : إن كان الكفر كسباً بقضائه تعالى وقدره وجب الرضا به من حيث هو كسب وهو خلاف قـولكم وإن لم يكن بقضاء وقـدر بطل إسناد الكائنات بأجمعها إلى القضاء والقدر . إنتهى .

وأما من حيث الأذن فقد عرفت أنه معناه العلم والكتاب ما كتب في اللوح فلا إشكال ، أو المراد بالأذن الأمر بالطاعات أو رفع الموانع وبالكتاب الكتابة في الألواح السماوية وقيل المراد بالمشية القدرة وهي كون الفاعـل بحيث إن شاء فعل ، وإن لم يشأ لم يفعل ، والمراد بالقدرة تعلق الإرادة ، وبالقضاء الإيجاد ، وبالأذن رفع المانع . وبالكتـاب العلم وبالاجـل وقت حـدوث الحوادث والتـرتيب غير مقصـود إذ العلم مقدم على الكـل ، بـل المقصـود أن هذه الأمـور مما تتـوقف عليها الحـوادث ويمكن حمل هـذه الخصال السبع على إختلاف مراتب التقدير في الألواح السماوية والأرضية أو يكون بعضها في الأمور التكوينية ، وبعضها في الأحكام التكليفية أو كلها في الأمور التكوينية والله العالم بحقيقة الحال وإليه المرجع في المرجع في المبدأ والكمال(١٣) .

وهناك روايات أخرىٰ ذكرهـا أرباب الحـديث منها مـا روي عن ثقة الإسـلام في الكافي ،.عن علي بن إبـراهيم ، عن محمد بن عيسىٰ ، عن يونس بن عبد الرحمٰن ، عن أبان عن أبيْ بصير ، قال : قلت لأبي عبد الله ـ عليه السلام ـ شاء الله وأراد وقدّر وقضىٰ ؟ قال : نعم . قلت : وأحب ؟ قال : لا . قلت : وكيف شاء وأراد ، وقدّر وقضىٰ ولم يحب ؟ قال : هكذا خرج إلينا(١٤) .

---

(١٣) مصابيح الأنوار للسيد عبد الله شبر ج ١ ، ص ٨٢ .

(١٤) مصابيح الأنوار ج ١ ، ص ٨٦ .

ومنهـا عن ثقة الإسـلام أيضاً عن علي بن إبـراهيم ، عن أبيه ، عن علي بن معبد ، عن واصل بن سليمان ، عن أبي عبد الله ـ عليـه السلام ـ قال : سمعته يقـول : أمر الله ولم يشـأ ، وشاء ولم يـأمر ، أمـر إبليس أن يسجد لآدم ، وشاء أن لا يسجـد ، ولو شـاء لسجد . ونهىٰ آدم عن أكـل الشجرة وشاء أن يأكل منها ولو لم يشأ لم يأكل[١٥] .

وما روي أيضاً عن ثقة الإسلام الكليني ، عن علي بن إبراهيم ، عن المختار بن محمد الهمـداني ، ومحمد بن الحسن ، وعبـد الله بن الحسن العلوي جميعـاً ، عن الفتـح بن يـزيـد الجـرجـاني عن أبي الحسن ـ عليـه السلام ـ قـال : إن لله إرادتين ومشيئتين ، إرادة حتم وإرادة عزم ، ينهىٰ وهو يشأ ، ويأمر وهو لا يشاء ، أو مـا رأيت أنه نهىٰ آدم وزوجتـه أن يأكلا من الشجرة وشاء ذلك ، ولو لـم يشـأ أن يأكلا لما غلبت مشيئتهمـا مشيئة الله تعالى ، وأمر إبراهيم أن يذبح إسحاق ولم يشأ أن يذبحه ، ولـو شـاء أن يذبحـه لما غلبت مشيئـة إبراهيم مشيئـة الله ، ورواه الصدوق في التوحيد . إلّا أنه قال : وأمر إبراهيم بذبح ابنه وشاء أن لا يذبحه[١٦] .

قال المؤلف هكذا وردت الرواية وهي تشير إلى أن الذبيح هو إسحاق وقد ذكرنا في الجزء الثالث من الكتاب أن الذبيح هو إسماعيل إعتماداً على نصوص أخرىٰ وردت عن أهل البيت الطاهر ، وإنما أطلق لفظ الذبيح على إسحاق لأنه كان قد تمنىٰ أنه هو الذبيح وعلم الله بذلك فأعطاه تلك المنزلة الرفيعة .

ومما تقدم يـظهر لـك أن المشيئة ـ كمـا أسلفنـا ـ متعلقـة بـالحكم النافذ ، ولذلك عقب بقوله ـ عليه السلام ـ ( لم يتركا لذي مقال مقالا ، ولا

---

(١٥) مصابيح الأنوار ج ١ ، ص ٨٨ .
(١٦) مصابيح الأنوار ج ١ ، ص ٩٤ .

لذي حال حالا ) أي أن الإنسان ليس له حيلة في ما أراد الله وحكم وحتم وعـزم ؛ لأن ذلك كله قـد سبق رصده قبـل أن يخلق الإنسان ، فليس لـه اعتراض على الله ، وقوله ـ عليه السـلام ـ ( ولا لذي حـال حالا ) أي أن تقلب الأحوال لا تنفع مهما حاول الإنسان أن يغير أو يبدل ، لأنه سبحانه قد حكم وحكمه نافذ ، وشاء ومشيئته قاهرة .

ثم بدأ ـ عليه السلام ـ يعترف بأن الطاعة وحدها لا تكفي لأن يحصل الإنسان على صك الأمان ؛ لأن الطاعة تكون معـرضة للبـطلان في بعض الحـالات فهو يقـول ـ عليه السـلام ـ : ( إلهي كم من طاعـة بنيتها وحـالة شيّدتها . . . ) وبناء الطاعة يعين محاولة إتقانها وتصحيحها ؛ لئلاّ يقع فيها غيب فلا تقبل .

أمـا تشييد الحـالة الـذي ذكره النص فهـو عقد الآمـال على أن هذه الطاعة التي أتقنها الإنسان كافية في إنقاذه من أن يتردىٰ في مهـاوي الردىٰ والوقوع في النـار . يقول ـ عليـه السلام ـ إن هـذه الآمال التي أمّلتهـا من الطاعة ( هدم إعتمادي عليها عدلك ) لأنه سبحانه لو عامل الإنسان بعـدله لما بقي له شيء من أعماله يوصله إلى النجاة ؛ لأن العبـادات كلها والتي يمارسها الإنسان منذ تمييزه إلى يوم موته لا تسـاوي كلها نعمـة واحدة من نعم الله سبحانه وما أكثرها .

ومهما حاول الإنسان أن يبلغ إلى درجة الشكـر لا يستطيـع ، فكلما أحدث شكراً لله تجددت نعمه عليه للتوفيق لهذا الشكر ، وبهذا يظهر معنىٰ قوله تعالى ﴿ **وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾[17] فليس على الإنسان إلاّ أن يسلم بالأمر الـواقع ، ولـو لا أن تداركـه رحمة من ربـه ليئس من ذلك الشكر ، فإن الله سبحانه قد رضي من عبده بهذا اليسير من الشكر في مقابلة

(١٧) سورة إبراهيم : الآية ، ٣٤ .

الكثير من النعم ، وقد ورد في المـأثور عنهم ـ عليهم السـلام ـ في بعض الأدعية ( يا من يقبل اليسير ويعفو عن الكثير . . الدعاء ) وزيادة على ذلك فإن الله سبحانـه وتعالى لم يؤاخـذ الإنسان بـالتقصير في العبـادة ـ إن كان التقصير جريمة يعاقب عليها ـ ولكنه يقبل العثرات ويغفر الزلات .

فقـوله( بـل أقـالني منهـا فضلك ) يعني أنـك تفضلت علي بغفـران ذنوبي ؛ لأن الإقالة لا تكون إلّا من العثرة ، والعثرة هي الزلة أو الخطيئة أو الذنب ، كلها أسماء لمسمىً واحد، فمعنىً قوله هذا مع مراعاة مـا تقدم : هو أنك لا تنفعك عبادتي حتى تعطيني عوض هذه المنفعة منفعة أخرىٰ ، فكل الفائدة منها تُرجع إليّ إذا أطعتك ، فأنت تعـطي من سألـك ومن لم يسألك ، بل تتفضل على من عصاك بالإقالة والمغفرة ، وهذه من الصفات الملازمة والتي يستفيد منها العبد فائدة مباشرة .

قال عليه السلام :

( اِلٰهي اِنَّكَ تَعْلَمُ أَنّي وَاِنْ لَمْ تَدُمِ الطّاعَةُ مِنِّي فِعْلاً جَزْماً فَقَدْ دٰامَتْ مَحَبَّةً وَعَزْماً ، اِلٰهي كَيْفَ اَعْزِمُ وَاَنْتَ الْقٰاهِرُ ، وَكَيْفَ لاٰ اَعْزِمُ وَاَنْتَ الآمِرُ ، اِلٰهي تَرَدُّدي في الآثٰارِ يُوجِبُ بُعْدَ الْمَزٰارِ ، فَاجْمَعْني عَلَيْكَ بِخِدْمَةٍ تُوصِلُني اِلَيْكَ ، كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمٰا هُوَ في وُجوُدِهِ مُفْتَقِرٌ اِلَيْكَ ، اَيَكوُنُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مٰا لَيْسَ لَكَ ، حَتّىٰ يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ ؟) .

## اللُّغَةُ

جزماً : الجزم القطع ، وجزمت اليمين جزماً أمضيتها ، وحلف يميناً حتماً جزماً ، وكل أمر قطعته قطعاً لا عودة فيه فقد جزمته .

ومنه جزم الحرف ، وهو في الإعراب كالسكون في البناء ، وجزم على الأمر سكت ، وجزمت القربة ملأتها ، وسقاء جازم ومجزم ممتلىء وقد جزمه جزماً قال صخر الغي :

فلما جزمت بها قربتى تيحمت أطرقةً أو خليفا

**عزماً** : العزم الجد ، عزم على الأمر عزماً ، وفي الحديث : لا خير في عزم بغير حزم . وعزم الأمر عُزِمَ عليه . وفي التنزيل ﴿ فإذا عزم

**الأمر** ﴾ وقد يكون أراد عزم أرباب الأمر .

وتقول ما لفلان عزيمة ، أي لا يثبت على أمرٍ يعزم عليه . وفي الحديث عنه ـ صلى الله عليه وآله ـ قال : خير الأمور عوازمها ، أي فرائضهاالتي عزم الله عليك بفعلها .

**المزار** : موضع الزيارة ، وفي الحديث : إن لزورك عليك حقاً ، الزائر هو في الأصل مصدر وضع موضع الإسم ، كصوم ونوم بمعنىٰ صائم ونائم ، والزورة البعد . والتزوير أن يكرم المزور زائرة ، ويعرف له حقّ زيارته ، وقد زوّر القوم صاحبهم تزويراً إذا أحسنوا إليه ، والمزار الزيارة ، ويقال للعدو زائر ، وهم الزائرون قال عنترة :

حلت بأرض الزائرين فأصبحت     عسراً علي طلابك ابنة محزم

## البيَان

بدأ في هذه الفقرة يعترف بما يعتريه من حالات التقصير ، ثم يشفعها بعد ذلك بعزمه على مداومة الطاعة ، فهو وإن كان مقصراً في ذلك إلاّ أن نيته وتصحيحه على ذلك العزم . يقول ـ عليه السلام ـ ( إلٰهي إنك تعلم أني وإن لم تدم الطاعة مني فعلاً جزما ) والطاعة في أول معانيها البسيطة هي الإمتثال لأوامر المولىٰ والإنتهاء بنواهيه وهي من الإنسان تحقق لها لما هو متلبس بها ، أما إذا فارقها فإنها تفارقه ، بمعنىٰ أنه لم يكن من أحد مصاديق المطيعين .

فالصلوات الخمس مثلاً فرضها الله على المكلف ، فهو يأتي بها في أوقاتها ، أو يتداركها فيقضيها في غير وقتها إذا ما فات وقتها لسبب شرعي ، فهو مطيع لأمر الله سبحانه وتعالى المتعلق بالصلاة طالما كان مصلياً ، أما إذا ترك الصلاة فأنه يعد عاصياً ، ثم إذا عاد وصلىٰ سمي مطيعاً . . وهكذا .

ثم من الناس من يأتي بالطاعة وهو غير ناو لدوام الإستمرار عليها ، ربما يكون ذلك عن قصد أو غير قصد ، ومنهم يأتي بالطاعة المفروضة عليه في الحال مع أنه ينوي أن يستمر ويدوم عليها ، ويعزم على ذلك مهما بلغت الظروف .

وبهذا فسّر علماؤنا الخلود في الجنة ، والخلود في النار على ضوء الآيات الكريمة ﴿ **فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلاّ ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلاّ ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ** ﴾[1] . قال المفسرون : هذا بيان لمكث أهل النار فيها ، كما أن الآية التالية ﴿ **وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض** . . الآية ﴾ بيان لمكث أهل الجنة فيها ، وتأييد لاستقرارهم في مأواهم قال الراغب في المفردات : الخلود هو تبري الشيء من إعتراض الفساد وبقاؤه على الحالة التي هو عليها ، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد يصفه العرب بالخلود . ويقال خلد يخلد خلوداً .

والخلود في الجنة بقاء الأشياء على الحالة التي هو عليها من غير إعتراض الفساد عليها[2] . قاله في الميزان .

وفي تفسير البرهان عن الحسن بن سعيد في كتاب الزهد بإسناده عن حمران قال : قلت لأبي عبد الله ـ عليه السلام ـ : إنه بلغنا أنه يأتي على جهنم حين يصفق أبوابها . فقال : لا والله إنه الخلود . قلت ﴿ **خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلاّ ما شاء ربك** ﴾ فقال : هذه في الذين يخرجون من النار .

---

(١) سورة هود : الآيات ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٢) الميزان ج ١١ ، ص ٢٢ .

وقد ورد في الأثر أن المؤمن يخلد في الجنة لأنه بنيته لو خلّد في الدنيا لأقام على طاعة الله . ويخلد الكافر في النار ، لأنه لو خلّد في الدنيا لأقام على كفره .

## الحب

ثم يقول ـ عليه السلام ـ : ( فقد دامت محبة وعزماً ) الفاعل ضمير يعود على الطاعة ، وهذه الجملة هي جواب الشرط المتقدم . ومعنىٰ ذلك أنه يقول : إن الطاعة وإن لم يظهر مصداقها مني لأمر أو لآخر لتقصير أو قصور ، عن عمد أو عن غير عمد فإن نيتي على محبة الإتيان بالطاعة لا تبارحني لأني فطرت على هذه الطاعة ، ولأنك قد هديتني إليها بفضلك .

والحب قالوا في تعريفه الأدبي : إنه بداية ونهاية ؛ وذلك لأن الحب يكون من حرفين يخرج أولهما من أصل الحلق وهو الحاء ، والثاني الباء ويخرج من الشفتين .

وقالوا عنه أيضاً : بأنه أمر وجداني ، ولما كان كذلك فهل هو يتعلق بالله سبحانه ؟ وصريح العبارة المطروحة بين يدي هذا البحث جعلت المحبة من متعلقات الطاعة لله سبحانه والطاعة بدورها متعلقة بالله تعالى إذن فالمحبة متعلقة بالله وإن كانت بواسطة .

والسؤال المطروح هل أن الحب يتعلق بالله ـ تعالى ـ بعد أن قلنا بأن الحب أمر وجداني ؟

الجواب نعم . وفي مقام البيان نقول : إن لفظ الحب مما قد اشتهر في الكتاب والسنة وعلى ألسنة الناس ، وقد وصف الله ـ تعالى ـ به نفسه فقال : ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾[3] ، وقد جعل رسول الله ـ صلى الله

---

(٣) سورة المائدة : الآية ، ٥٤ .

عليه وآله ـ الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة ، إذ قال أبو رزين العقيلي : يا رسول الله ما الإيمان ؟ قال : ان يكون الله ورسول الله احب إليك مما سواهما .

وفي حديث آخر : لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وقال رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ : أحبّوا الله كما يغذوكم به من نعمة ، واحبوني لحب الله .

والحب هو ميل الطبع إلى الشيء الملتذ ، فإن تأكد ذلك الميل وقوي سمي عشقاً . والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب ، فإذا قوي سمي مقتاً . وحيث أن الحب مقول بالإشتراك بين حب الله ـ سبحانه ـ وبين حب الناس لمحبوبهم مع أن محلهما واحد وهو القلب فلا بأس بالإشارة إلى بيان مراتبه وتطبيق كل مرتبة من مراتب حب الناس على مراتب حب الله ـ تعالى ـ ، لما اشتهر من قولهم : المجاز قنطرة الحقيقة ؛ ولأن الألفة بهذه المراتب مألوفة لأكثر الناس بخلاف مراتب حبه تعالى فإنها ليست مأنوسة إلا لمن ارتضاه الله ـ تعالى ـ :

أولاً : إن الحب على ما عرّفه بعضهم هو ايثار المحبوب على سائر المصحوب ، وقيل : هو ميلك إليه بكليتك ، وايثارك له على نفسك ، وموافقتك سراً وجهراً . وقيل : المحبة محو المحب بصفاته وايثار المحبوب بذاته . وقيل : هو هتك الأستار وكشف الأسرار . وقيل : هو محو الأشباح وذوب الأرواح .

وفي بعض الكتب القديمة : الحب سرّ روحاني يهوي من عالم الغيب إلى القلب ؛ ولذلك سمي هوى ، من هوى يهوي إذا سقط ، ويسمى ( بالحب ) ؛ لوصوله إلى حبة القلب التي هي منبع الحياة ، وإذا

اتصل بها سرىٰ مع الحياة في جميع أجزاء البدن وأثبت في كل جزء صورة المحبوب .

وقد حكي عن زليخا أنها افتصدت فارتسم من دمها على الأرض ( يوسف يوسف ) .

وأما ما اشتهر من قولهم :المجاز قنطرة الحقيقة فقد أشار إليه الشيخ كمال الدين عبد الرزاق في شرح منازل السائرين حيث قال : العشق النظيف أقوى في تلطيف السرّ والإعداد للعشق الحقيقي ، فانه يجعل الهموم هماً واحداً ويقطع توزع الخاطر وتفرقه ، ويلذذ خدمة المحبوب ويسهل التعب والمشقة في طاعته ، بخلاف العشق المنبعث من غلبة سلطان الشهوة ، فانه وسواس وسعي في تحصيل لذات النفس ، وعلى هذين النوعين يبنىٰ مدح العشق الصوري وذمه في كلام بعض العرفاء من الحكماء .

وهذه التعاريف كلها حق وتكثرها انما جاء من جهة تعدد مراتبه ودرجاته ، وهي على تكثرها قد حصرت في خمسة :

**أولها** : الإستحسان ، وهو يتولد من النظر والسماع ، ولا يزال يقوى بطول التفكر في محاسن المحبوب وصفاته الجميلة .

**وثانيها** : المودة وهي الميل إليه والألفة بشخصه والإئتلاف الروحاني معه .

**وثالثها** : الخلة وهي تمكن محبة المحبوب من قلب المحب واستكشاف سرائره .

**رابعها** : العشق وهو الإفراط في المحبة حتىٰ لا يخلو العاشق من تخيل المعشوق وذكره لا يغيب عن خاطره فعند ذلك تشتغل النفس عن استخدام القوة الشهوانية والنفسانية فتمتنع عن الطعام والشراب لعدم

الشهوة ، ومن النوم لاستضرار الدماغ .

**وخامسها** : الوله وهو أن لا يوجد في قلب العاشق غير صورة المعشوق ، ولا ترضىٰ نفسه إلّا به .

أما المرتبة الأولىٰ فأهلها كثيرون وهي أكثر .

وأما الدرجة الثانية فهي مشتملة على الإئتلاف الروحاني ، وهذا هو الذي أراده ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ من قوله : ( الأرواح جنود مجندة فما تعارف ائتلف ، وما تناكر منها اختلف ) .

وهذه المرتبة إن وقعت في محبات الناس ، أو محبات أهل الله يرىٰ الإنسان نفسه غير مختار في تحصيلها وذلك أنها تحصّل نفسها قبل تحصيلك إيّاها ؛ نعم زيادتها قوة وضعفا ربما كان للإنسان فيه اختيار بسبب طول المعاشرة والإطلاع على ما يوجب مزيد الإلفة والوداد .

ومن هذه محبة الإمامية لأهل البيت ـ عليهم السلام ـ فإن الإنسان إذا أعطىٰ الإنصاف من نفسه وفكر علم أن حبهم مما تداخل القلوب والعروق ؛ وامتزج باللحم حتىٰ لم يبق فيه اختيار لا حد منهم ، فإنك ترىٰ الطفل إذا نشأ وعرف نفسه ألهم من جانب الله سبحانه الميل إلى أهل البيت وحبهم ولعن مبغضهم وإن لم يذكر له أبوه وأمه مثل هذا .

وأما الدرجة الثالثة وهي الخلة فإنما يحصل التمكن الذي فيها من مصادفته الخالي ؛ وذلك إن القلب حصن البدن فمن دخله ملك ممالك البدن ، وجرت على أوامره ونواهيه جميع جنوده وعساكره ، وهي الأعضاء والدواعي والإرادات ، فإذا كان ذلك الحصن خاليا ودخله سلطان من غير احتياج إلى معركة وحرب ، كان تمكنه فيه أكثر ، ومال إلى إحداث الآثار فيه لظنه أنه بيته ومنزله ، ولا يدخل إليه ويعارضه وينازعه فيه ، ومن ذلك ترىٰ الحب إذا وقع في أيام الشباب ، ووقت الطفولية يكون تمكنه في

القلوب أشد وأعظم مما وقع في وقتْ آخر . قال الشاعر :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوىٰ وصادف قلباً خالياً فتمكنا
وأخرسني لغز هناك محير وصار لساني بعد نطقي ألكنا
عشقتك ليلى والليالي جمة وما كان لي عشق الليالي ديدنا(٤)

وذلك ان القلب مكان ضيق لا يسع الأغيار والأضداد ؛ ولأنه لرقته ولطافته لا تتعارض فيه المتعاندات ، وقال الشاعر :

قد صيغ قلبي على مقدار حبكم فما لغير هواكم فيه متسع
بل ضاق ذرعاً بمحبوب ألم به كأنه قفص والطير مجتمع
فليت لي معه قلب فأفتحه لكم فقلب الفتى بالحب منطبع(٥)

وهذه الدرجة في الحب الحقيقي هي درجة الخليل ـ عليه السلام ـ وبه سمي الخليل مأخوذ من الخلال ، كأن المحبوب قد تداخل في خلال الحبيب وأعماق بدنه . قال ـ تعالى ـ ﴿ **واتخذ الله إبراهيم خليلا** ﴾(٦) .

وأما المرتبة الرابعة : وهي العشق : فاشتقاقه من العشقة ، وهو نبت يلتف على الشجرة من أصلها إلى فرعها ، فهو محيط بها ، كما أن العشق محيط بمجامع القلب ، وأما اشتغال النفس بهذه المرتبة عن قواها الشهوانية وعن النوم . فإنما جاء من فرط نار المحبة الكامنة في القلب الشاغلة له عما عداه ، حتىٰ أنه في هذه الحالة ربما اشتغل قلبه وحسّه عن آلام البدن وأوجاعها(٧) .

وهناك درجات أخرىٰ تأتي بعد هذه الدرجات متعالية عليها مثل الهيام

---

(٤) البيتان الأخيران من تذييل المؤلف .
(٥) البيتان الأخيران من تذييل المؤلف .
(٦) سورة النساء : الآية ، ١٢٥ .
(٧) الأنوار النعمانية ج ٣ ، ص ١٦٠ وما بعدها بتصرف .

والجنون وغيرهما من المراحل التي تمر بالإنسان أو يمر بها آثرنا الإختصار فطوينا ذكرها خوف الإطالة .

ونعود مرة ثانية إلى السؤال المطروح في صدر هذا البحث ، وهو أن هل يتعلق بالله تعالى مع أنه أمر وجداني ـ كما قلنا ـ ؟ وقد أجبنا هناك بنعم . وإكمالاً لهذا الشوط نورد قوله تعالى ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** ﴾[٨] قالوا بأنه يتعلق بحقيقة معناه بالله سبحانه كما يتعلق بغيره ، ولا ريب أن الله ـ على ما ينادي به كلامه ـ إنما يدعوا عباده إلى الإيمان به وعبادته بالإخلاص له والإجتناب عن الشرك . ولا شك أن الإخلاص في الدين إنما يتم على الحقيقة إذا لم يتعلق قلب الإنسان ـ الذي لا يريد شيئاً ولا يقصد أمراً إلاّ عن حب نفسي وتعلق قلبي ـ بغيره تعالى من معبود أو مطلوب كصنم أو ندٍ أو غاية دنيوية بل ولا مطلوب أخروي كفوز بالجنة أو خلاص من النار ، وإنما يكون متعلق قلبه هو الله ـ تعالى ـ في معبوديته ، فالاخلاص لله في دينه إنما يكون بحبه تعالى .

ثم الحب الذي هو بحسب الحقيقة الوسيلة الوحيدة لارتباط كل طالب بمطلوبه ، وكل مريد بمراده ، إنما يجذب المحب إلى محبوبه ليجده ويتم بالمحبوب ما للمحب من النقص ، ولا بشرىٰ للمحب أعظم من أن يبشر أن محبوبه يحبه ، وعند ذلك يتلاقىٰ حبان .

فالإنسان إنما يحب الغذاء وينجذب ليجده ويتم به ما يجده في نفسه من النقص الذي آتيه الجوع ، وكذا يريد لقاء الصديق ليجده ويملك لنفسه الأنس ، وغير ذلك من مكملات الحياة .

فالعبد المخلص لله لا بغية له إلاّ أن يحبه الله سبحانه كما أنه

(٨) سورة آل عمران : الآية ، ٣١ .

يحب الله ، ويكون الله له كما يكون هو لله ـ عز إسمه ـ فهذا هو حقيقة الأمر ، غير أن الله سبحانه لا يعد في كلامه كل حب له حباً ﴿ **والحب في الحقيقة هو العلقة الرابطة التي تربط أحد الشيئين بالآخر** ﴾[٩] على ما يقضي به ناموس الحب الحاكم في الوجوب فإن حب الشيء يقتضي حب جميع ما يتعلق به ، ويوجب الخضوع والتسليم لكل هو في جانبه ، والله سبحانه هو الله الواحد الأحد الذي يعتمد عليه كل شيء في جميع شؤون وجوده ويبتغي إليه الوسيلة ويصير إليه كل ما دق وجل[١٠] .

ومن هذا البيان المفصل في معنىٰ الحب ندرك ما قاله ـ عليه السلام ـ في عبارة الدعاء الماثلة أمام هذا البحث ( فقد دامت محبة وعزما ) .

## العَزْمُ

ثم قال ـ عليه السلام ـ ( إلٰهي كيف أعزم وأنت القاهر ؟ وكيف لا أعزم وأنت الآمر ؟ ) يقول ـ عليه السلام ـ : إني أعزم على الأمر الذي أريد أن أعمله ، ولكنك تريد مني شيئاً آخر غير الذي عزمت عليه أنا ،وليس لي إلاّ ما تريد أنت ، فأنت تصرفني عما أريد إلى ما تريد ، وهذا ما يفسره القول المأثورة ( عرفت الله بنقض العزائم ) .

ومما تقدم ندرك أن العبد لا خيار له في أمره إلاّ ما شاء الله ، وقد قال تعالى في ذلك ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضىٰ الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** ﴾[١١]قال المفسرون : إن المعنىٰ ليس لأحد من المؤمنين والمؤمنات إذا قضىٰ الله ورسوله بالتصرف في أمر من أمورهم أن يثبت لهم الإختيار من جهته لانتسابه إليهم وكونه أمراً من أمورهم

---

(٩) هذا تعريف آخر للحب إضافة إلى ما تقدم .

(١٠) تفسير الميزان ج ٣ ، ص ١٥٧ .

(١١) سورة الأحزاب : الآية ، ٣٦ .

فيختاروا منه غير ما قضىٰ الله ورسوله بل عليهم أن يتبعوا إرادة الله ورسوله .

وسياق الآية يشهد على أن المراد بالقضاء هو القضاء التشريعي دون التكويني ، فقضاء الله ـ تعالى ـ حكمه التشريعي في شيء مما يرجع إلى أعمال العباد أو تصرفه شأن من شؤونهم بواسطة رسول من رسله ، وقضاء رسوله هو الثاني من القسمين ، وهو التصرف في شأن من شؤون الناس بالولاية التي جعلها الله له بمثل قوله : ﴿ **النبي أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾[١٢] .

فقضاؤه ـ صلى الله عليه وآله ـ قضاء منه بولايته وقضاء من الله ـ سبحانه ـ ؛ لأنه الجاعل لولايته المنفذ أمره[١٣] .

ثم يقول ـ عليه السلام ـ بناءاً على ما تقدم ( وكيف لا أعزم وأنت الآمر ) أي إني لا بد وأن أنوي الطاعة وإن لم أعملها ؛ لأنك أنت الذي أمرت فيجب أن تطاع ، لأنك أن المنعم وطاعة المنعم واجبة ، ومن القبيح أن يعصىٰ لك أمر بعد هذه النعم ، بل من أنكر المنكرات عند العقل .

وعلى ذلك نستطيع أن نقول : بأن العزم هو أمر عدمي ، فلا يكلف المرء شيئاً . وغاية ما فيه أن يصمم الإنسان على ما يفعله ، أو بعبارة أخرىٰ هو أن ينوي الفعل وإن لم يفعل . غير أن الطاعة تتركب منه ومن الفعل أيضاً . وبذلك نقول : إن العزم وإن كان عدمياً إلاّ أنه طاعة بذاته ، وليس هو كالصوم ـ مثلاً ـ لأن الصوم واجب عدمي وهو امتناع عن المفطرات مع النية ، إلاّ أنه يتركب من العزم على الترك إضافة إلى الترك نفسه .

أما ما هو وارد في النص فإنه عزم على الفعل ، وليس عزماً على الترك ، وهو يأتي مستقلاً عن الفعل نفسه ، فهو وإن كان عدماً إلا أن

---

(١٢) سورة الأحزاب : الآية ، ٦ .

(١٣) تفسير الميزان للسيد الطبطبائي ج ١٦ ، ص ٣٢١ .

المقصود به أمر وجودي ، وهو إيجاد الفعل ، فالعزم على إيجاد الصلاة مثلاً يختلف عن إيجادها وتحققها ، وتحقق أفعالها في الخارج ، وهذا من باب ما جاء في المأثور ( نية المؤمن خير من عمله ) إذا أخذنا ( من ) بمعنىٰ التبعيض ، أي أن نيته جزء من الخير من ذلك الكل . وهذا ما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم فنسي ولم نجد له عزما** ﴾[١٤] . قال السيد الطباطبائي في الميزان : المراد بالعهد الوصية ، وبهذا المعنىٰ يطلق على الفرامين والدساتير والعهود ، والنسيان معروف وربما يكنىٰ به عن الترك ؛ لأنه لازمه إذ الشيء إذا نسي ترك ، والعزم القصد الجازم إلى الشيء ، قال ـ تعالى ـ ﴿ **فإذا عزمت فتوكل على الله** ﴾[١٥] وربما أطلق على الصبر ، ولعلّه لكون الصبر أمراً شاقاً على النفوس فيحتاج إلى قصد أرسخ وأثبت فسمي الصبر باسم لازمه ، قال تعالى : ﴿ **إن ذلك لمن عزم الأمور** ﴾[١٦] .

فالمعنىٰ : وأقسم لقد وصينا آدم من قبل فترك الوصية ولم نجد له قصداً جازماً إلى حفظها أو صبراً عليها والعهد المذكور على ما يظهر من قصته ـ عليه السلام ـ في مواضع من كلامه ـ تعالى ـ هو النهي عن أكل الشجرة بمثل قوله ﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة** ﴾[١٧] .

ومما ورد في هذا المعنىٰ ما روي في الكافي والعلل ، مسنداً عن جابر بن يزيد ، عن أبي جعفر في قول الله ـ تعالى ـ ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما** ﴾ قال : عهد إليه في محمد ـ صلىٰ الله عليه وآله ـ والأئمة من ولده فترك ولم يكن له عزم فيهم أنه هكذا ، وإنما

---

(١٤) سورة طه : الآية ، ١١٥ .

(١٥) سورة آل عمران : الآية ، ١٥٩ .

(١٦) سورة الشورى : الآية ، ٤٣ .

(١٧) سورة البقرة : الآية ، ٣٥ .

سموا أولي العزم لأنهم عهد إليهم في محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ والأوصياء من بعده ، والمهدي وسيرته ، فأجمع عزمهم على أن ذلك كذلك والإقرار به .

## أثر الآثار

ثم انتقل ـ عليه السلام ـ إلى شيء آخر يذكر فيه القرب والبعد والأسباب التي تجر إلى ذلك ضمن هذه المناجاة الغارقة في التذلل والخشوع فقال : ( إلٰهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار ) والتردد في الآثار هو تسريح النظر في آلاء الله وآياته الدالة على حكمته ووجوده ، وبنظرة بسيطة أن التردد في الآثار ، والتأمل فيها يؤدي إلى تجلّي هيبة الخالق أمام المخلوق فتزيد عظمته -سبحانه- في قلب الإنسان ، بذلك يعرف أن تصوره بعد التفكير والتأمل يختلف عن التفكير الساذج فقوله ـ عليه السلام ـ ( يوجب بعد المزار ) يعني يبعد الإنسان عن التفكير في الله ـ سبحانه ـ طالما قد انشغل بالتفكير في آلاء الله وآياته ؛ لأن الإنسان يتصور بذلك القرب ونعني به القرب المكاني ـ بحسب سذاجة الإنسان ـ وهو لا يتأتىٰ بل ولا يرد أو يحتمل في حقه ـ سبحانه ـ ، وفي معنىٰ ذلك جاء القول العرفاني المشهور :

فيك يا أعجوبة الكون غدىٰ الفكر كيلا كلما أقدم فكري فيك شبراً فرّ ميلا
ناكصاً يخبط في عشواء لا يهدي السبيلا

وقول الآخر :

ما بال عيسك لا يقر قرارها وإلى م ظلّك لا يني متنقلاً
فلسوف تعلم أن سيرك لم يكن إلّا إليك إذا بلغت المنزلا

فالمزار الذي أشار إليه هو الحضيرة الإلهية المقدسة ، البعيدة القريبة ، البعيدة عن إدراك الأفهام وتصورها بالعقول ، والقريبة من العبد

عند المسألة والتضرع ، وهذا ما تعرض له الكتاب العزيز في قوله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع . . الآية ﴾[١٨] .

ويظهر من النص أن هذا البعد المشار إليه هو البعد المعنوي بقرينة ما يأتي وهو قوله ـ عليه السلام ـ ( فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك ) أي إجعل جميع قوتي وحركاتي وسكناتي في خدمتك حتىٰ أصل إليك الوصول المطلوب ، وهو بلوغ غاية رضاك ، لأن المتنافسين في الطاعة يتسابقون إلى هذه الدرجة العالية . فالمقصود بالوصول هو بلوغ الرضا من الله . وسوف يوافينا في بحث لاحق مزيد من التفصيل من هذا المعنىٰ .

## بماذا يستدل على وجوده تعالى ؟

ويتحدث الحسين في ذلك بإسلوب استفهامي مشوب بالتعجب بشكل غريب ـ كعادته في دعائه هذا ـ فيقول ( كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك ؟ ) وذلك لتحقق الدور الباطل ؛ لأن الإستدلال عليه بما خلق يستلزم وجود المخلوق قبل الخالق .

وقد عرّفوا الدورة بأنه : هو وجود الشيء قبل وجوده ، أو توقف الشيء على نفسه ، أو يكون الشيء معلوماً قبل أن يكون معلوماً ، وهو يقع تارة بمرتبة واحدة ويسمىٰ ( دوراً مصرحاً ) . ويقع أخرى بمرتبتين أو أكثر ، ويسمى ( دوراً مضمراً ) وهذا من نوع المحال ، وضرب من ضروب المستحيل .

وتوضيح ذلك : إن وجود الأشياء حادثة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وكذلك كل شيء حادث لا بد وأن يسبق بفاعله بالضرورة وذلك من باب ربط الأسباب بمسبباتها ، إذ لا يمكن أن يتساوىٰ في الوجود من حيث الزمن

---

(١٨) سورة البقرة : الآية ، ١٨٦ .

الصانع والمصنوع ـ وإن كان كلاهما حادث ـ هذه بالنسبة إلى المخلوقات . أما بالنسبة إلى الخالق فإنه لا شك في قدمه ؛ لأنه هو علّة العلل ، وهو مسبب الأسباب .

فالإستدلال على وجوده يوجود الأشياء مع القول بحدوثها ينقطع لخلو الزمان منها حيناً من الأحيان ، وهذا ما أشار إليه تعالى ﴿ **هل أتىٰ على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا** ﴾[19] قال في الميزان : لقد أتىٰ على الإنسان قطعة محدودة من هذا الزمان الممتد غير المحدود والحال أنه لم يكن موجوداً بالفعل مذكوراً في عداد المذكورات وهذه القطعة من الزمان محدودة قصيرة كانت أو طويلة ، والدهر الزمان الممتد من دون تحديد ببداية أو نهاية[20] .

أما إفتقار الأشياء إليه سبحانه ـ كما صرحت بذلك العبارة المطروحة للبحث ـ فهو أمر لا ريب فيه ؛ لأنه هو الذي أوجدها ، فافتقارها إليه لوجودها ، وحاجتها إليه لخلقها دليل على أنها لا تصلح دليلاً مستمراً لإنقطاعها وعدم دوامها ، بل إن ذلك يقتضي العكس ، وهو أن وجودها محتاج إلى موجد . وقد مرّ في ابحاث الكتاب كثير في هذا المعنىٰ ، وقد بحثنا ذلك ما فيه الكفاية .

ثم يواصل ـ عليه السلام ـ الكلام على هذا النحو فيقول ( أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتىٰ يكون هو المظهر لك ) وهذا مواصلة للكلام السابق ، إذ يخرج علينا ـ عليه السلام ـ بصيغة الإستفهام التي تقتضي التعجب ، فهو يستغرب أن يكون لشيء من مخلوقاته ظهور لا يكون له ، في حين أن جميع الأشياء تستمد ظهورها منه ، لأنه ـ سبحانه ـ قد وصف نفسه بأنه نور السماوات والأرض ، والنور هو المظهر للأشياء حتىٰ

(١٩) سورة الدهر : الآية ، ١ .

(٢٠) تفسير الميزان ج ٢٠ .

يراها الإنسان ـ كما تقتضيه طبيعة هذا الكون ـ ولأنه هو الـذي أوجدهـا ، وأفـاض عليها كـل ما تحتـاج إليه من حيـاة وغذاء وظهـور ؛ فكيف يكون المحتاج في الظهور إلى غيره مظهراً لغيره ، بل ومـظهراً لمن أظهـره ، أو موجداً لمن أوجده ، وهذا مما يستحيل في منطق العقل ويمجه العقل .

وفي ضمير الفصل ( هو ) معاني بلاغية ، وهي أنه من حق الجمل إذا ترادفت ووقع بعضها اثر بعض في معان متقاربة أن تربط لتكون على نسق واحـد ، ولكن قد يعـرض لها مـا يوجب تـرك الرابط فيهـا ، ويسمىٰ هذا فصلاً . فأحياناً تتقارب الجمل في معناها تقارباً تاماً ، حتىٰ تكـون الجملة الثانية كأنها الجملة الأولىٰ ، وقد تنقطع الصلة بينهما ، أما لإختلافهما في الصورة ، كأن تكـون إحدىٰ الجملتين انشـائية ، والأخـرىٰ خبريـة ، وإما لتباعد معناهما بحيث لا يكـون بين المعنيين مناسبـة ، وفي هذه الأحـوال يجب الفصل في كل موضع من مواضع الفصل . وضمير الفصل في العبارة المطروحة ما بعده يعني ما قبله ؛ ولذلك أقحم هذا الضمير بين الجملتين المتقاربتين في المعنىٰ .

وفي ختام هذا البحث جرت هذه الأبيات :

| | |
|---|---|
| بـك أستـدل عليـك حين أبـرهن | أنـت العـليم بـمـا أسـر وأعـلنُ |
| يـا أيهـا الـرب الجليـل أعـزني | أنـا في الثناء عليـك عبد ألكنُ |
| إن قلت خلقــك دلني فـكـأنمـا | شـطـطاً أقـول وقـولتى لا تحسن |
| دور صـريـح وهـو قـول بـاطـل | بين الأنـام وفي النهى مستـهجـنُ |
| يـا رب أنت خلقـتني وبـرأتني | قـد كنت في الـدنيا وأنت مكـونُ |
| فـارحم ضعيفـاً يـا قـويـاً قـاهـراً | والطف فانت على الـوجود مهيمن |
| خـذ بي إلى درب الصواب فـإنني | لـولاك مـا بـين البـريـة ألعـنُ |

قال عليه السلام :

( مَتىٰ غِبْتَ حَتّىٰ تَحْتاجَ إلىٰ دَليلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ ؟ وَمَتىٰ بَعُدْتَ حَتّىٰ تَكوُنَ الآثارِ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إلَيْك ؟ عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَراكَ عَلَيْها رَقِيباً ، وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيباً . إلهِي أَمَرْتَ بِالرُّجُوعِ إلى الآثارِ فَارْجِعْني إلَيْكَ بِكِسْوَةِ الأَنْوارِ ، وَهِدايَةِ الإِسْتِبْصارِ ، حَتّىٰ أرْجِعَ إلَيْكَ مِنْها ، كَما دَخَلْتُ إلَيْكَ مِنْها ، مَصُونَ السِّرِ عَنِ النَّظَرِ إلَيْها ، وَمَرْفُوعَ الْهِمَّةِ عَنِ الإعْتِمادِ عَلَيْها ، إنَّكَ عَلىٰ كُلِّ شيْءٍ قَديرٌ ) .

## اللُّغَةُ

غبت : الغيب : كل ما غاب عنك ، ويقال : سمعت صوتاً من وراء الغيب ، أي من موضع لا أراه ، وغاب عنّي الأمر غيباً وغياباً وغيبة .

وقوم غيب ، وغياب غائبون ، وامرأة مغيب ومغيبة غاب بعلها أو أحد من أهلها ، والغيب من الأرض ما غيبك وجمعه غيوب ، وأنشد على ذلك ابن الإعرابي :

إذا كره الجميع وحل فيهم ... اراهط بالغيوب وبالتلاع

**والغيبة** : ان تذكر أخاك المؤمن بما يكره ، واغتاب الرجل صاحبه اغتياباً إذا وقع فيه ، وهو أن يتكلم خلف إنسان مستور بسوء ، أو بما يغمه لو سمعه ، وإن كان فيه ، فإن كان صدقاً فهو غيبة ، وإن كان كذباً فهو البهت والبهتان . كذلك جاء عن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ .

الغابة : الأجمة التي طالت ولها أطراف مرتفعة باسقة . الغابة من الرماح ما طال منها وكان لها أطراف ترى كأطراف الأجمة .

**دليل** : الدليل ما يستدل به ، وقد دله على الطريق دلالة ، ودللت بهذا الطريق عرفته . والدليلة : المحجة البيضاء ، وقوله تعالى : ﴿ **ثم جعلنا الشمس عليه دليلا** ﴾[1] قيل : معناه تنقصه قليلاً قليلاً .

**والدلال** : الذي بجمع بين البيعين . وقال الجوهري : والدل : ( بفتح الدال ) الغنج والشكل ، وقد دلت المرأة تدل ، وتدللت ، وهي حسنة الدل ، والدلال . والدل قريب المعنى من الهدى ، وهما من السكينة والوقار في الهيئة والمنظر والشمائل .

**رقيباً** : الرقيب من أسماء الله ، وهو الحفاظ الذي لا يغيب عنه شيء ، والترقب الإنتظار ، وكذلك الإرتقاب ، ورقيب الجيش طليعتهم ، ورقيب الرجل خلفه من ولده أو عشيرته .

والرقيب النجم الذي في المشرق ، يراقب الغارب . ومنازل القمر كل واحدمنها رقيب لصاحبه ، كلما طلع منها واحدٌ سقط آخر ، مثل الثريا رقيبها الأكليل . إذا طلعت الثريا، عشاءً غاب الإكليل ، وإذا غاب الإكليل عشاءً طلعت الثريا ، ورقيب النجم الذي يغيب بطلوعه وأنشد الفرّاء :

**أحقاً عباد الله أن لست لا قياً بثينة أو يلقىٰ الثريا رقيبها**

(١) سورة الفرقان : الآية ، ٤٥ .

وقال أبو الهيثم : الاكليل رأس العقرب ، كما أن الغفر رقيب الشرطين لا يطلع الغفر حتىٰ يغيب الشرطين .

**صفقة** : أصل الصفق الضرب الذي يسمع له صوت ، وكذلك التصفيق . ويقال بيديه ، وصفّح سواء . واصطفق القوم اضطرابوا ، وتصافقوا تبايعوا ، وصّفق يده بالبيعة والبيع ، وعلى يده صفقاً : ضرب بيده على يده ، وذلك عند وجوب البيع .

ويقال ربحت صفقتك ، للشراء ، وصفقة رابحة ، وصفقة خاسرة ، وإنما قيل للبيعة صفقة لأنهم كانوا إذا تبايعوا تصافقوا بالأيدي ، والصفقة تكون للبائع والمشتري ، ويقال إنه لمبارك الصفقة أي لا يشتري شيئاً إلاّ ربح فيه ، وأصفقت يده بكذا وافقته ، قال النمر ابن نولب يصف جزاراً :

حتى إذا طرِح النصيب واصطفقت يده بجلدة ضرعها وحوارها

**كسوة** : الكسوة اللباس ، واحدة الكساء ولها معان مختلفة يقال : كسوت فلاناً أكسوه كسوة إذا البسته ثوباً أو ثياباً ، واكتسىٰ فلان إذا لبس الكسوة ، ويقال اكتست الأرض بالنبات إذا تغطت به ويقال : فلان أكسىٰ من بصلة إذا لبس الثياب الكثيرة قال : وهذا من النوادر أن يقال للمكتسي كاس ، ويقال فلان أكسىٰ من فلان ، أي أكثر إعطاءً للكسوة ، وقال في قول الحطيئة :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

أي المكتسي وقال الفرّاء يعني المكسو كقولك ماء دافق وعيشة راضية .

**مصون** : الصون أن تقي شيئاً أو ثوباً ، وصان الشيء صوناً وصيانة ، ويقال قد جعلت الثوب في صوانه وصوانه بالضم والكسر وهو وعاؤه الذي يصان فيه . صُوانه وصِوانه صيانة وصوناً على المثل قال أوس ابن حجر :

فإنا رأينا العرض أحوج ساعة　　إلى الصون من ربط يمان مسهم

والحر يصون عرضه كما يصون الإنسان ثوبه ، وصان الفرس عدوه وجريه صوناً ذخر منه ذخيرة لأوان الحاجة إليه .

وقال أبو عبيد : الصائن من الخيل القائم على طرف حافره من الحفاء والوجى ، وأما الصائم فهو القائم على قوائمه الأربع من حفاء .

**الهمة** : الهم الحزن وجمعه هموم ، وهمه الأمر هماً وأهمه فاهتم به ، وهم بالشيء يهم هماً نواه وأراده وعزم عليه ، والهمام الملك العظيم الهمة لأنه إذا هم بأمر أمضاه لا يرد عنه وقيل : الهمام السيد الشجاع السخي ، ولا يكون ذلك في النساء . والهم : الشيخ البالي ، وهميمها دبيبها ، قال ساعدة بن جؤية الهذلي يصف سيفاً :

ترىٰ أثره في صفحتيه كأنه　　مدارج شبثان لهن هميم

**الإعتماد** : الإعتماد إسم لكل سبب زاحفته ، والعمود الخشبة القائمة في وسط الخباء ، والجمع أعمدة ، والعمد أساطين الرخام ، وأما قوله تعالى : ﴿ **إنها عليهم مؤصدة . في عمد ممددة** ﴾[٢] قرأت في عمد بالضم وهو جمع عماد ، والعمود الوتين ، وقال أبو عمر : عمود بطنه ظهره ؛ لأنه يمسك البطن ويقويه فصار كالعمود له .

## البيان

في بداية هذه الفقرة أخذ يتساءل ـ عليه السلام ـ عما يعتري الإنسان من الجهل والتجاهل نتيجة الإنغماس في الماديات والمحسوسات فقال : ( متىٰ غبت حتىٰ تحتاج إلى دليل يدل عليك ) لأنه من لوازم الغيبة

---

(٢) سورة الهمزة : الآية ، ٨و٩ .

الإنكار ، وقد جعل الله الحواس الخمس عند الإنسان وسائر بقية الأحياء ، وهي العين والأذن ، والأنف واللسان واليد لإستخدامها عند الحاجة ، ومن الحاجة إليها معرفة الأشياء وإدراكها والحكم عليها ، ولكن هذا كله في حدود حضورها ، أما في حال غيبتها ، فإنه لا يستطيع ادراكها بالحواس .

ولما كانت الأشياء تنقسم إلى قسمين حاضرة وغائبة ، ومحسوسة وغير محسوسة ، فقد جعل الله للإنسان إضافة إلى هذه الحواس عقلاً يدرك به اللامحسوسات ، ويتخطىٰ به حواجز المادة .

وفي العبارة المطروحة تساؤل لا يعرف الإنسان من أي جهة من جهاته يبدأ .

والسؤال المصدر به هذه العبارة يوحي بأنه ـ عليه السلام ـ يشير إلى حضور دائم . فقوله ـ عليه السلام ـ ( متىٰ غبت حتىٰ تحتاج إلى دليل يدل عليك ) هو في قوة النفي الدائم من قولك لم تغب حتىٰ تحتاج إلى دليل يدل عليك ، وبذلك ينفي الغيبة منه ـ سبحانه ـ نفياً قاطعاً . وإلى هذا يشير قوله ـ تعالى ـ ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾[٣] .

ومرة أخرى نعود فنقول : ان معنىٰ الغيبة هنا ليس هو كما يتبادر إلى الذهن ، وهو المقابل للحضور المادي الذي يملأ فراغاً في حضوره ، ويترك فراغاً في غيبته ، وإنما الحضور هنا بمعنىٰ أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ـ كما أشارت إليه الآية السابقة ـ ، وكما أشار إليه قوله تعالى ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً** ﴾[٤] فإن معنىٰ ذلك هو عالم كل غيب علماً يختص به فلا يطلع على الغيب ـ وهو مختص به ـ أحداً

---

(٣) سورة ق : الآية ، ١٦ .

(٤) سورة الجن : الآية ، ٢٦ .

من الناس ، فالمفاد سلب كلي ، وإن أصرّ بعض على كـونه سلبـاً جزئيـاً محصل معناه : لا يظهر على كل غيبه أحد .

والدليل المشار إليه في العبارة هو ما يدل على الأشيـاء ويشير إليهـا ويعرفها ، وهذا الدليل هو الدليل المـادي الذي يـدل على الأشياء الغـائبة ويقوي وجودها عند غيبتها فتطمئن النفس إلى أنها موجودة ، لأن الدليل إذا قام على وجود الشيء تطمئن إليه النفس وتذعن بالإعتراف بوجوده فيكونبعد ذلـك في قوة الحـاضر وإن كـان غـائبـاً . ومعنىٰ ذلـك إن وجـوده الـدائم ـ سبحانه ـ وتجليه بآياته وآثار ملكه تنفي الحاجة إلى دليل آخر يدل عليه ؛ لأن الإنسان أينما يفتح عينيه على الأشياء يراها تصلح أن تكون دليلاً على وجـوده سبحانـة ، لأنها مخلوقـاته . إلاّ أنـا نقول ـ كمـا تقـدم في البحث السابق ـ إن هذه الآثار لا تصلح أن تكون دليلاً على وجوده ـ سبحانه ـ وإلاّ لزم الدور الباطل الذي يتجلىٰ وجود الأشياء قبل وجودها ؛ لأننا لو قلنا بأن الدليل أو الأثر يدل على المؤثر ونجعل ذلك قاعدة كلية للزم أن يكون الدليل قديماً كقدمه سبحانه ، وهذا شرك . إلاّ أنا نقول أيضاً إن قوله سبحانه في الحديث القدسي « كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف » إنه لا يلزم من خفائه سبحانه أنه غير معروف البتة .

فقـد ورد في كتاب التـوحيـد للصـدوق القمي بحـذف الإسنـاد عن منصور بن حازم قال : قلت لأبي عبد الله ـ عليه السلام ـ إني ناظرت قـوماً فقلت لهم : إن الله أجل وأكرم من أن يعرف بخلقه ، بل العباد يعرفون بالله قال : رحمك الله(٥) .

وفيه أيضاً بحذف الإسناد عن علي بن عقبـة ابن قيس بن سمعان بن أبي ربيعـة مولىٰ رسـول الله ـ صلى الله عليـه وآلـه ـ رفعـه ، قـال : سئـل

---

(٥) توحيد الصدوق ص ٢٨٥ .

أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ بم عرفت ربك ؟ فقال : بما عرّفني نفسه ، قيل : وكيف عرّفك نفسك ؟ فقال : لا تشبهه صورة ، ولا يحس بالحواس ، ولا يقاس بالناس ، قريب في بعده ، بعيد في قربه ، فوق كل شيء ولا يقال : شيء فوقه ، أمام كل شيء ولا يقال : له أمام ، داخل في الأشياء لا كشيء في شيء داخل ، وخارج من الأشياء لا كشيء من شيء خارج ، سبحان من هو هكذا غيره ، ولكل شيء مبتدأ[٦] .

وفيه أيضاً عن سلمان الفارسي في حديث طويل يذكر فيه قدوم الجاثليق المدينة مع مائة من النصارىٰ ، وما سأل عنه أبا بكر فلم يجبه ، ثم أرشد إلى أمير المؤمنين عليابن أبي طالب فسأله عن مسائل فأجابه عنها ، وكان فيما سأله أن قال له : أخبرني عرفت الله بمحمد ام عرفت محمداً بالله ـ عز وجل ـ ؟ فقال علي ابن أبي طالب ـ عليه السلام ـ : ما عرفت الله بمحمد ـ صلى الله عليه وآله ـ : ولكن عرفت محمداً بالله ـ عز وجل ـ حين خلقه وأحدث فيه الحدود من طول وعرض فعرفت أنه مدبر مصنوع باستدلال وإلهام منه وإرادة ، كما ألهم الملائكة طاعته وعرّفهم نفسه بلا شبه ولا كيف[٧] .

ولهذا فإنه عقب ـ عليه السلام ـ بقوله ( ومتىٰ بعدت حتىٰ تكون الآثار هي التي تدل عليك ) لأن البعد إما أن يورث النسيان للشيء ثم يتذكره الإنسان بآثاره وعلاماته وذلك كما قال الشاعر :

مر على الديار ديار ليلىٰ ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار أطار ( شغفن ) قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا
فعيني كلما نظرت حماها ... تناثر ماء مدمعي إنتثارا

(٦) توحيد الصدوق ص ٢٨٥ .

(٧) توحيد الصدوق ، ص ٢٨٦ .

وقلبي كلما حاولت جهدي أهدؤه عن الآثار طارا

فلو أن ليلىٰ موجودة في الديار لما قبل الجدران ؛ لأن تقبيل الجدران من شغف وشوق إلى من يسكن بينها ، فلوْ وجدت ليلىٰ بداخلها لقبلها بنفسها ، ولو قبل الجدران مع وجود ليلىٰ لكان حبه لها كذباً وزورا .

فالآثار مهما بلغت في دلالتها فإنها لا تصعد إلى مستوىٰ المدلول عليه ؛ ولأنه ـ سبحانه ـ أوضح من الدليل الذي يدل عليه ، وأعرف من المعرف الذي يعرفه ، وقد نقلنا في الجزء الأول من الكتاب ما قاله سيبويه بأن لفظه الجلالة هو أعرف المعارف .

وعلى كل حال فإن الآثار التي تعتبر دليلاً على المؤثر كقاعدة كلية لا نحتاج إليها كل الحاجة في الدلالة على وجوده سبحانه لأنه قائم بذاته .

نقول هذا حتماً ، وإلاّ لزم من ذلك الحاجة إلى الدليل ، وهو سبحانه في غير حاجة إلى ذلك إذا تلونا قوله ـ تعالى ـ ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** ﴾[٨] .

وطالما أن العبارة في الدعاء قد نفت البعد باستفهام التعجب فإنه قد ثبت القرب مكان ذلك ، وإذا ثبت القرب إستغنينا عن الدليل .

وتقريب المقصود بجملة ساذجة في قوله ـ تعالى ـ ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾[٩] يسهل تلقيها لعامة الأفهام ، وإلاّ فأمر قربه ـ تعالى ـ إليه ( أي إلى الإنسان ) أعظم من ذلك وأعظم ، فهو ـ سبحانه ـ الذي جعلها نفساً ، ورتب عليها آثارها ، فهو الواسطة بينها وبين نفسها ، وبينها وبين آثارها وأفعالها ، فهو أقرب إلى الإنسان من كل أمر مفروض

---

(٨) سورة الروم : الآية ، ٣٠ .

(٩) سورة ق : الآية ، ١٦ .

حتىٰ في نفسه ، ولكون هـذا المعنىٰ دقيقاً يشق تصـوره على أكثر الأفهـام عدل ـ سبحانه ـ إلى بيانه بنحو ما تقدم من مقطع الآية .

وقريب منه بوجه قوله ﴿ **إن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾[10] .

ومما تقدم ندرك ما يريده في العبارة المطروحـة ، فإنـه بعد أن نفىٰ البعد إطمأن إلى أنه قريب من العباد يسمع دعواتهم فيستجيب لهم ، وهذا ما يريده في مثل ذلك الموقف العظيم ، فإنه قد صور خطابه مع مولاه كمن يخاطب حاضراً وفي ذلك أقصىٰ مراتب الثقة في قضاء الحاجات ، فكأنـه قد تناول حاجته يداً بيد ـ كما تقتضيه حالة البعد في سهولة التناول ـ ومن ثم ظن الخير .

ثم إن خـطاب القريب أسهـل من خطاب البعيـد ، والتصـرف معـه أخص من التصرف مع البعيد ، والطلب إليه أسرع مما يصل إلى البعيد . والتنزيل بمنزلة القريب ليس معناه صار قريباً ، وإنما يكون ذلك لمبلغ الثقة ـ كما مرّ آنفاً ـ وهناك اعتبارات أخرىٰ لا تخفىٰ على الإنسان اللبيب .

## العمىٰ وأنواعه

ثم شرع ـ عليه السلام ـ في التعرض لموضوع آخر وهو أن كل من لا يرىٰ الباري مهيمناً عليه فهو أعمىٰ ، وذلك قـوله ـ عليـه السلام ـ ( عميَت عين لا تراك عليها رقيبا ) والعمىٰ هو عدم البصر ، وانعدام الرؤيـة لوجـود عطل في تلك الحاسة المخصصة لهذه المهمة وهي العين . ومن أسبـاب العمىٰ هـو عدم إستعـداد الشبكية المـوجودة في مؤخـرة العين لتلقي صور الأشياء المرئية ، والقيام بعمليات التعديل في هذه الصور فور وصولها إلى العين ، واستلامها بواسطة الضوء المنبعث عبر الحـدقة التي تعـطي صوراً

---

(١٠) سورة الأنفال : الآية ، ٢٤ .

حقيقية مقلوبة للأشياء ، ثم تقوم العين بقلبها مرة أخرىٰ لتكون معتدلة .

وحاسة البصر هي من أهم الحواس الخمس التي أنعم الله بها على الإنسان يستعرض بها زينة الحياة الدنيا وبهجتها ، فمن فقدها فقد افتقد الكثير في هذه الحياة .

وبين الحين والآخر يطلعنا الله ـ تعالى ـ على نعمه العظيمة ، وهذه النعم يشعر بها الإنسان وبأهميتها عندما يفقدها والعمىٰ بهذه الإعتبار ينقسم إلى عدة أقسام منها :

١ ـ العمىٰ الكلي الذي يفقد فيه الإنسان حاسة البصر كلية . ومن أسباب ذلك المياه البيضار أو ( الكتاركت ) وهي منه أهم أسباب العمىٰ في العالم ، وهي عبارة عن عتامة في عدسة العين تحجب مرور النور اللازم للإبصار بدون أي ألم ، فتفقد العين الإبصار تدريجياً .

ويعتقد البعض أن ( الكتاركت ) جلد ينمو على العين ، وهذا خطأ ، كما أن ( الكتاركت ) بإحدىٰ العينين لا تعدي العين الأخرىٰ مثل العدوىٰ ( بالأفلونزا ) أو ( الحصبة ) .

( فالكتاركت ) تغير في طبيعة عدسة العين نتيجة للزيادة في العمر ، وليس من المستغرب أن يحدث هذا التغير في العينين[11] .

٢ ـ وهناك الأمراض التي تصيب العين بعمىٰ الألوان مثل مرض ( دالتون ) حيث لا يميز المصاب اللون الأحمر واللون الأخضر بشكل أضعف ، والمرض المسمىٰ ( دي تانوبيا ) حيث يحدث عكس مرض ( دالتون ) أي عدم تمييز اللون الأخضر واللون الأحمر بشكل أخف ، وهناك المرض المسمىٰ ( تري تانوبيا ) حيث لا يميز المصاب ولا يتعرف

---

(١١) أمراض العيون ص ٣٠ ، ٣١ .

على اللونين الأزرق والبنفسجي ، وهناك العمىٰ اللوني الكامل حيث يفقد تمييز الألوان كلها ، فيرى مثل رؤية الماشية والقطط ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾[١٢] .

والجدير بالذكر أن من جملة أسباب عمىٰ الألوان التسمم المزمن بالتبغ والخمر ! ولقد وجد أن الألوان الأساسية هي ثلاثة : الأحمر والأخضر والأزرق أو البنفسجي ، كما وجد أن الألوان الضوئية إذا مزجت مع بعضها بنسبة معينة أعطت النور الأبيض مثل مزج الأحمر مع الأخضر المائل للزرقة ، وكذلك مزج الأصفر البرتقالي والأزرق الخفيف .

ويجب أن نفرق بين هذه الظاهرة والتي تسمىٰ بظاهرة إنصهار الألوان ، وبين ظاهرة مزج المواد الصناعية ، حيث يؤدي مزج اللون الأصفر والأزرق إلى أخضر ، بينما يؤدي على مستوىٰ الضوء إلى اللون الأبيض ، إن هذه الظاهرة إعتمد عليها في كيفية رؤية الألوان في العين ، فالمخاريط على ما يبدو حساسة للألوان الثلاثة الأحمر والأخضر والأزرق وتأثر أحد هذه الألوان يتبعه تأثر بشكل أخف للونين الباقيين ، أي أن موجات لون معين يؤثر على بعض المخاريط بشكل مكثف ، وعلى المخاريط التي تتلقىٰ بقية الألوان بشكل أخف ، وإذا إنتهت المجموعات الثلاثة سوياً وبالتساوي حصل الإحساس باللون الأبيض ، ولكن إذا فسرت هذه النظرية عمىٰ الألوان وبعض المشاكل الأخرىٰ فعهل إنتهىٰ الموضوع ؟ إن قشر المخ يشترك أيضاً في تحليل الألوان حسب ما تنقل الألياف العصبية من تأثرات بالألوان المحيطة ، وقشر المخ يحللها ويركبها ويفهمها على النحو المناسب ، وكأن قشر المخ لوحة فنان للألوان ، ومختبر تحليل للألوان ،

(١٢) سورة الإسراء : الآية ، ٧٠ .

ونفسية شاعر متأثرة بالألوان ، ومعمل فذ لإنتاج كافة الألوان المختلفة لتحصيل لون جديد[١٣] .

٣ ـ عمىٰ النهر : مرض في العين ينجم عن ديدان تنقلها ذبابة سوداء ضئيلة معروفه باسم ( سميوليوم ) وتعيش هذه الحشرة بين الحشائش القريبة من الأنهر سريعة التدفق ، ويبدأ المرض بكتل صغيرة تحت الجلد وبأكلان . وتحمر العينان ويؤلمهما إشعاع الشمس[١٤] .

بعد هذا نقول : إن ما أشارت إليه العبارة من ذكر العمىٰ يحتمل أمرين هما :

**الأول** : ان العبارة قد جاءت بإسلوب الإنشاء ، ومعنىٰ ذلك أنه يدعو على كل من لا يخاف مقام ربه ولا يعترف بأنه مضطلع على سريرته بعدم الهداية .

**الثاني** : ان الأسلوب في العبارة خبري ، ومعنىٰ ذلك أن كل من لا يرىٰ أن الله عليه رقيب فهو أعمىٰ ، لأنه سبحانه أظهر الموجودات ، فمن كان لا يدرك بعينه الآثار الدالة عليه ـ سبحانه ـ مع كثرتها فهو أعمىٰ .

بقي أن نقول ما معنىٰ هذه الرؤية التي ذكرتها العبارة ؟

ولقد تطرقنا بصورة مفصلة إلى موضوع الرؤية في الجزء الثاني من الكتاب ، وبذلك آثرنا الإختصار وإغلاق باب الحديث عن ذلك خوفاً من التكرار .

إلّا أنه بقي أن نقول : ان قرينة كاف الخطاب الموجه إليه تعالى تدل على أن الرؤية ليست بحاسة البصر ، وإلّا لما أنسجمت العبارة بكلماتها مع

---

(١٣) الطب محراب للإيمان ص ٢٢٠ .

(١٤) مجلة الطب الوقائي عدد ١٤٧ .

بعضها البعض . والحسين ـ عليه السلام ـ أعرف بما يقول من أن الرؤية البصرية مستحيلة قطعاً ، وبذلك يرجح الرؤية القلبيه . ولكن ربما ورد إشكال على هذا المعنىٰ ، وهو كيف يستعمل لفظ العمىٰ لغير الرؤية البصرية ؟ مع أن هذا اللفظ لا يستعمل عند انعدام الرؤية من حاسة البصر ؟!

وإشكال آخر يصطدم مع هذا الإشكال مباشرة وهو أن العمىٰ قد نسب إلى العين في العبارة ، فما هو التوفيق بين الرؤية المنسوبة إلى العين ، مع أن الرؤية البصرية قد ذكرنا إستحالتها ؟

وينبغي أن نعلم مسبقاً بأن الإستعمال المجازي وارد على كل لفظ في اللغة مع وجود القرينة لصرفه عن المعنىٰ الحقيقي عادة . وكثير من هذا ورد في الكتاب العزيز مثل قوله ـ تعالى ـ ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمىٰ الأبصار ولكن تعمىٰ القلوب التي في الصدور** ﴾[١٥] .

ويظهر وجه الترديد بين القلب والأذن من غير تعرض للبصر ، وذلك لأن الترديد في الحقيقة بين الإستقلال في التعقل وتمييز الخير من الشر والنافع من الضار وبين الإتباع لمن يجوز إتباعه وهذا شأن القلب والأذن .

ثم لما كان المعنيان جميعاً ـ التعقل والسمع ـ في الحقيقة من شأن القلب أي النفس المدركة فهو الذي يبعث الإنسان في متابعة ما يعقله سمعه من ناصح مشفق عدّ إدراك القلب لذلك رؤية له ومشاهدة منه ولذلك عدّ من لا يعقل ولا يسمع أعمىٰ القلب ، ثم بُولغ فيه بأن حقيقة العمىٰ هو عمىٰ القلب دون عمىٰ العين لأن الذي يعمىٰ بصره يمكنه أن يتدارك بعض منافعه الفائتة بعصا يتخذها أو بهاد يأخذه بيده ، وأما القلب فلا بدل له يتسلىٰ به ، وهو قوله : ﴿ **فإنها لا تعمىٰ الأبصار ولكن تعمىٰ القلوب التي في**

---

(١٥) سورة الحج : الآية ، ٤٦ .

الصدور ﴾ .

وجعل الصدر ظرفاً للقلب من المجاز في النسبة ، وفي الكلام مجاز آخر ثان من هذا القبيل وهو نسبة العقل إلى القلب وهو النفس[١٦] .

وفي العبارة إشارة إلىٰ أن الإنسان ينبغي أن يراقب الله في أفعاله فإنه رقيب عليه ؛ لأن الرقابة بمعناها العام هي متابعة الفعل وما يصدر من الإنسان من خير أو شر من حيث يشعر المراقب ( بفتح القاف ) أو لا يشعر .

وقد أشار إلى هذا المعنىٰ قوله تعالى ﴿ **ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد** ﴾[١٧] . وقال تعالى ﴿ **إن الله كان عليكم رقيبا** ﴾[١٨] قال المفسرون : الرقيب الحسيب ، والمراقبة المحافظة ، وكأنه مأخوذ من الرقبة بعناية ، إنهم كانوا يحفظون رقاب عبيدهم ، أو أن الرقيب كان يتطلع على من كان برفع رقبته ومدّ عنقه ، وليس الرقوب مطلق الحفظ ، بل هو الحفظ على أعمال المرقوب من حركاته وسكناته لإصلاح موارد الخلل والفساد أو ضبطها ، فكأنه حفظ الشيء مع العناية به ، علماً وشهوداً ، ولذا يستعمل بمعنىٰ الحراسة والإنتظار والمحاذرة والرصد ، والله سبحانه رقيب لأنه يحفظ على العباد أعمالهم ليجزيهم بها .

فالرقابة إما أن تكون لمنفعة تعود على المراقب لحفظ أعماله وضبطها ليجازىٰ عليها ، وإما أن يكون العكس .

ثم إنتقل ـ عليه السلام ـ إلى قوله : ( وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبا ) الخسارة تأتي مقابل الربح ، وهي فيما إذا قلّ الدخل عن رأس المال ، أما إذا زاد الدخل عن رأس المال فهو يسمى ربحاً ، وإما إذا

---

(١٦) الميزان ج ١٤ ، ص٣٨٨ .
(١٧) سورة ق : الآية ، ١٨ .
(١٨) سورة النساء : الآية ، ١ .

تساويا فإنه لا ربح ولا خسارة ، والعبارة بمحتواها تشير إلى أن كل عمل لابن آدم إذا لم يذكر اسم الله عليه فهو أبتر وقد بينا في البحث السابق الحب المتعلق به سبحانه .

ومسألة الخسارة وما يقابلها من الربح في الصفقات التجارية حالتان تتعاقبان على سير التجارة ، وتقابلهما تقابل الضدّين لوجود الواسطة بينهما عند انعدامهما معاً عند تساوي رأس المال مع الدخل .

إلّا أن العبارة ربما تكون بعيدة عن هذا المفهوم المادي البحت ، وذلك لأن الأمر المتعلق به ـ سبحانه ـ بعيد كل البعد عن الأمور المادية .

ولكن العبارة تعني أن عمل العبد إذا لم يكن مربوطاً بحبه ـ سبحانه ـ، ومعنىٰ ذلك أن يكون العمل خالصاً لوجهه الكريم دون غيره فهو عمل باطل ـ كما أشرنا لذلك تواً ـ .

ومعنىٰ حبّه ـ سبحانه ـ الايشرك في العمل غير الله ، لأن المحب ـ كما أشرنا لذلك سباقاً ـ لا يهمه إلا رضىٰ محبوبه . وهذا من العوامل المهمة التي تعرض العمل للقبول .

ثم أخذ ـ عليه السلام ـ يناجي ربه فقال ( إلٰهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فأرجعني إليك بكسوة الأنوار ، وهداية الإستبصار ) والرجوع إلى الآثار هو أن ينظر الإنسان إلى ما حوله في هذا الكون الرحيب من آثار رحمة الله ، فأينما فتح عينيه رأىٰ ما يرد إليه طرفه خاسئاً وهو حسير ، ومتىٰ فتح عينيه رأىٰ آثار تلك الرحمة والآيات الدالة المزدحمة . فالزمان لا يخلو من ليل أو نهار ، فإن فتح عينيه ليلاً رأي النجوم السائرة قد ملأت السماء ، وفي غمرات الظلام يحس بحاجته إلى النور ، فيفتقد الشمس عندما يكون القمر غائباً . وان فتحها نهاراً رأى الشمس وقد غمرت الكون بنورها ، ورأى الأشياء واضحة ، وكلها تتجلىٰ فيها الرحمة ، فالشمس تبعث الحياة

في الكائنات جميعاً لأنها طاقة ، والطاقة هي الحرارة ، والحرارة يتبخر بها جزء كبير من مياه البحار والأنهار ويتصاعد إلى الطبقات العاليا من الجو ، ثم تتكثف وترجع قطرات من المطر تسوقها الريح إلى البلد الميت فينبت به الزرع وتحيا به الأرض بعد موتها ، وفي تلك الحركات والسكنات عبرة لأولي الألباب .

فالرجوع إلىٰ هذه الآثار كما ذكرت العبارة يجعل الإنسان في حالة حيرة بما يتجلىٰ فيها من آيات ، وهذا هو عين ما ورد عن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ ( اللهم زدني فيك تحيّراً ) .

فأمره ـ سبحانه ـ بالرجوع إلىٰ الآثار كي يرىٰ الإنسان بعد التأمل عجائب صنع الله ، وتتجلىٰ عظمة الخالق في عين المخلوق ، فيطمئن لذلك قلبه ويرجع بعد ذلك بثقة تامة من قدرة الله ـ سبحانة ـ .

وما موضوع الإسراء والمعراج والهدف فيه إلاّ اطلاع النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ علىٰ تلك العجائب التي رأها في الملأ الأعلىٰ ، وإلىٰ هذا اشار قوله ـ تعالى ـ ﴿ **لقد رأىٰ من آيات ربه الكبرىٰ** ﴾[١٩] لأنه قد وصل إلى ما لا يصل إليه نبي مرسل ولا ملك مقرّب .

## كسوة الأنوار

أما قوله ـ عليه السلام ـ ( فأرجعني إليك بكسوة الأنوار ) يعني أعود بعد هذا التأمل في هذه الآيات وشعاري المعرفة قد أنارت ـ أي هذه الآيات ـ لي الطريق إلىٰ الهداية ؛ لأن الإنسان لا يمكنه أن يهتدي طريقاً بغير نور لأن النور هو الذي يكون واسطة الرؤية ، فلا إبصار إلا بنور ، وإلى هذا أشار قوله تعالى ﴿ **يوم ترىٰ المؤمنين والمؤمنات يسعىٰ نورهم بين**

(١٩) سورة النجم : الآية ، ١٨ .

**أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ﴾**[٢٠] .

قال الطبرسي في مجمع البيان : أي أن النور دليلهم إلىٰ الجنة ، ويريد بالنور الضياء الذي يرونه ويمرون فيه ، عن قتادة وقيل : نورهم هداهم ، عن الضحاك . وقال قتادة : إن المؤمن يضيىء له نور كما بين عدن إلى صنعاء ، ودون ذلك حتىٰ أن من المؤمنين من لا يضيىء له نوره إلا بين قدميه . وقال عبد الله بن مسعود : ويؤتون نورهم علىٰ قدر أعمالهم ، فمنهم من نوره مثل الجبل ، وأدناهم نوراً نوره علىٰ إبهامه يطفىٰ مرة ويوقد اخرىٰ . وقال الضحاك ايضاً : وبأيمانهم يعني كتبهم التي أعطوها ونورهم بين أيديهم[٢١] . ولذلك عقب ـ عليه السلام ـ مسترسلاً في هذا المعنىٰ بقوله ( وهداية الإستبصار ) أي أن من حصل علىٰ هذا التأمل في مثل هذه الآيات ورجع منغمساً في المعرفة اهتدىٰ إلىٰ الطريق السوي واستبصر بهذه الأنوار التي اكتسبها من هذه الآيات الدالة على عظمة الله ـ سبحانه ـ .

وبنظرة أخرىٰ أن قوله ( فأرجعني ) يعني أجعلني أنظر إليك من خلال هذه الآثار والآيات بالمعرفة التامة التي لا شبهة فيها ولا عوج ، فإذا نظرت إلى آثارك بهذا الإعتبار الفطري أعود مرة ثانية كما دخلت بتلك الفطرة ، لا يعتريني وهم ، ولا ينالني لبس في ديني ، وهٰذا ما أشار إليه بقوله ـ عليه السلام ـ ( حتىٰ أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها ) والرجوع إليه ( منها ) يقتضي في حرف الجر ( من ) في المكان ؛ لأن هذا الحرف كما يأتي لابتداء الغاية في المكان نحو قوله

---

(٢٠) سورة الحديد : الآية ، ١٢ .

(٢١) مجمع البيان ج ٩ ، ص ٣٥٤ .

تعالىٰ ﴿ **من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى** ﴾[٢٢] ياتي لابتداء الغاية في الـزمان نحـو قولـه ـ تعـالى ـ ﴿ **لمسجـد أسس على التقـوىٰ من أول يوم . . الآية** ﴾[٢٣] ، ونحو قول الشاعر :

تخبـرن من أزمـان يـوم حليمـة          إلىٰ اليوم قد جـربن كل التجـارب

وإلى هذا أشار ابن مالك في الفيته النحويه بقوله :

بعِّض وبيِّن وابتـدىء بـالأمكنـة          بمن وقـد تـأتي لبـدء الازمنـة

أما قول ـ عليـه السلام ـ ( كمـا دخلت منها . . ) أي بسببهـا ؛ لأن حرف الجر هذا ( من ) يأتي للتعليل أيضاً نحو قولـه ـ تعالى ـ ﴿ **من أجـل ذلك كتبنا علىٰ بني إسرائيل** ﴾[٢٤] ، ونحو قول الفـرزدق في مدح الإمـام زين العابدين ـ عليه السلام ـ :

يغضي حيـاءً ويغضىٰ من مهـابتـه          فـلا يـكـلم إلا حـيـن يـبـتـسـمُ

ومحصـل المعنىٰ : يقـول ـ عليـه السـلام ـ إن رجـوعي إلى الآثـار بهدايتك إلىٰ معرفتك ، يرجعني إليك مرة ثانية وأنا في طمأنينة بسبب هذا التأمل في آثار حكمتك ، وعجائب ملكك مصون السر ، يعني لم أتأثر لما رأيت من العجائب أثراً سلبياً بما لـدي من عقائـد قد فـطرت عليها ، لأن نفسي مطمئنة إلى قضائك وقدرك ، لأن الفطرة التي فطر الله الناس عليهـا من حبه وتوحيده تعتبر من الأسرار الخفية المحفوظة ما بين الله والعبد ؛ لأن مقـرها القلب الـذي لا يتأثـر بالمؤثـرات الخارجيـة مهما بلغ الإنسـان من الحرج ، فأنا أعود بزيادة في يقيني وقوة في ديني بعد كل ما رأيت من تلك العجائب ؛ ولهذا عقّب بهذا الوصف فقال : ( ومرفوع الهمة عن الإعتماد

---

(٢٢) سورة الإسراء : الآية ، ١ .

(٢٣) سورة الأسراء : الآية ، ١ .

(٢٤) سورة المائدة : الآية ، ٣٢ .

عليها ) أي إني غير محتاج إليها ـ أي إلى تلك الآثـار ـ بعد تسـديدك إليّ وغناك لي بفضل فطرتي الإسلامية ذات القاعدة الصلبة . ( إنـك على كل شيء قدير ) أي إنك قديـر علىٰ أن تفعل بي كـل ذلك فتغنيني عن العنـاء والتعب والإضطراب العقائدي الذي تتعـرض له النفـوس الضعيفة ، والتي تعبد الله على حرف .

قال عليه السلام :

( اِلٰهي هٰذا ذُلِّي ظاهِـرٌ بَيْنَ يَدَيْـكَ ، وَهٰذَا حـالي لا يَخْفىٰ عَلَيْكَ ، مِنْكَ اَطْلُبُ الْوُصولَ اِلَيْكَ ، وَبِكَ اَسْتَدِلُّ عَلَيْكَ ، فَاهْدِني بِنُورِكَ اِلَيْـكَ ، وَاَقِمْني بِصِدْقِ الْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْـكَ ، اِلٰهي عَلِّمْني مِنْ عِلْمِكَ الْمَخْـزوُنِ ، وَصُنّي بِسِرِّكَ الْمَصوُنِ ، اِلٰهي حَقِّقْني بِحَقـائِقِ اَهْلِ الْقُـرْبِ ، وَاسْلُكْ بي مَسْلَكَ اَهْلِ الْجَذْبِ ) .

## اللُّغَةُ

ذلي : الذل نقيض العز ، وذلَّ يذل وذلةً ومذلةً ، فهو ذليل بيِّن الذل ومن قوم اذلاء وأذلة ، واستذلوه رأوه ذليلاً ، وبجمع الذليل من اناس أذلة ، قـال تعـالى : ﴿ولقـد نصـركم الله ببـدرٍ وأنتم أذلـة﴾(١) وفي أسمـاء الله تعـالى المذل ، وهو الـذي يلحق الذل بمن شـاء من عباده وينفي عنه أنـواع العز جميعها ، والذل بالكسر اللين وهو ضد الصعوبة ، وذل يـذل فهو ذلـول ، يكون في الإنسان والدابة ، قال الشاعر :

وما يك من عسري ويسري فـانني ذلــول بـحــاج المـعـتـفيـن أريب

---

(١) سورة آل عمران : الآية ، ١٢٣ .

وفي الحديث ( اللهم اسقنا ذلل السحاب ) هو الذي لا رعد فيه ولا برق وهو جمع ذلول من الذل بالكسر ضد الصعب ومنه حديث ذي القرنين أنه خير في ركوبه بين ذلل السحاب وصعابه فاختار ذلله . والذل بالضم والفتح الرفق والرحمة . وفي التنزيل العزيز ﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** ﴾(٢) وطريق مذلل إذا كان موطوءاً سهلاً .

**أقمني** : القيام مقابل الجلوس ، قام يقوم قوماً وقياماً ، والقامة جمع قائم ، ومعنى القيام العزم ، قال النابغة الذبياني :

نبئت حسناً وحياً من بني أسدٍ    قاموا فقالوا حمانا غير مقروب

ومنه قوله تعالى : ﴿ **إذْ قاموا فقالوا ربنا ربُّ السماوات والأرض** ﴾(٣) . وقد يجيء القيام بمعنى المحافظة والإصلاح ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **الرجال قوَّامون على النساء** ﴾(٤) . ويجيء القيام بمعنى الوقوف والثبات ، يقال للماشي : قفْ لي ، أي تحبس مكانك حتى آتيك .

**المخزون** : خزن الشيء يخزنه خزناً واختزنه : احرزه وجعله في خزانة لنفسه ، والخزانة اسم الموضع الذي يخزن فيه الشيء . وفي التنزيل العزيز : ﴿ **وانْ من شيء إلاّ عندنا خزائنه** ﴾(٥) ، والخزانة عمل الخازن . والمخزن ما يخزن فيه الشيء . وقيل للغيوب خزائن ؛ لغموضها على الناس واستتارها .

وقال لقمان لابنه : إذا كان خازنك حفيظاً ، وخزانتك أمينة رشدت في امريك ، دنياك وآ رتك ، يعني اللسان والقلب . قال الشاعر :

---

(٢) سورة الإسراء : الآية ، ٢٤ .
(٣) سورة الكهف : الآية ، ١٤ .
(٤) سورة النساء : الآية ، ٣٤ .
(٥) سورة الحجر : الآية ، ٢١ .

إذا المـرء لم يخـزن عليـه لسـانـه فليس على شـيء سـواه بخـازن

**صنّي** : صان الشيء صوناً وصيانة إذا وقاه شيئاً ، قال امية بن أبي عائذ الهذلي :

أبلغ أياساً أن عرض ابن اختكم ردائـك فسطاً حسنـة أو تبـذلي

وجعلت الثوب في صوانه ( بالضم والكسر ) ، وصيانة أيضاً ، وهو وعاؤه الذي يصان فيه الصائن من الخيل القائم على طرف حافره . قال النابغة :

ومـا حـاولـتمـا بـقيـاد خـيـلٍ يصـون الـورد فيهـا والكـميـت

**مسلك** : السلوك مصدر سلك طريقاً ، وسلك المكان ، يسلكه وسلكه غيره وفيه ، وأسلكه أياه . قال ساعدة بن العجلان :

وهم منعـوا الـطريق وأسلكـوهم عـلى شمّـاء مـهـواهـا بـعـيـد

وفي التنزيل العزيز : ﴿ **كذلك سلكناه في قلوب المجرمين** ﴾(٦) . وسلكت الطريق ، ويجوز : أسلكته غيري .

**والسلكة** : الخيط الذي يخاط به الثوب ، وجمعه سلك وأسلاك ، والمسلك الطريق ، ورجل سلك : نحيف ، وكذلك الفرس .

**الجذب** : من كل شيء ، والجذب : لغة تميم . وقال سيبويه : جذبه : حوله عن موضعه ، واجتذبه : استلبه ، والتجاذب التنازع . ويقال : بيني وبين المنزل جذبة ، أي قطعة ، يعني بعد .

وجاذبت المرأة الرجل ، خطبها فردته ، كأنه بان منها مغلوباً . والإنجذاب سرعة السير ، وسير جذب سريع . قال الراجز :

---

(٦) سورة الشعراء : الآية ، ٢٠٠ .

قطعت أحشاه بسير جذب

**والجذب** : انقطاع الريق ، وقال اللحياني : جذبت الأم ولدها تجذبه فطمته ، ولم يخص من أي نوع هو ، إنسان أو غيره .

**والجذب** : ( بفتح الذال ) الشحمة التي تكون في رأس النخلة ، يكشط عنها الليف فتأكل ، كأنها جذبت عن النخلة .

## البيَان

بدأ في هذه الفقرة يبين ما كان عليه من مناجاة وتضرع فقال : ( إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك ، وهذا حالى لا يخفى عليك ) . فالذل امام العزيز الجبار هو عز وشرف ؛ لأنه قرب من الله وهو عزيز ، والقرب من العزيز عز . وقد اوصى ـ سبحانه ـ بأن يتذلل الإنسان إلى والديه مهما استطاع فقال تعالى : ﴿ **واخفض لهما جناح الذّل من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيراً** ﴾[٧] . قال في الميزان : خفض الجناح كناية عن المبالغة في التواضع والخضوع قولاً وفعلاً ، وهو مأخوذ من خفض فرخ الطائر جناحه ؛ ليستعطف أمه لتغذيته ، ولذا قيده بالذل فهو دأب افراخ الطيور إذا أرادت الغذاء من امهاتها . فالمعنى : واجههما في معاشرتك ومحاورتك محاورة يلوح منها تواضعك وخضوعك لهما ، وتذلك قبالهما رحمة بهما .

هذا إذا كان الذل بمعنى المسكنة ، وإن كان بمعنى المطاوعة فهو مأخوذ من خفض الطائر جناحه ليجمع تحته افراخه رحمة بها وحفظاً لها[٨] .

---

(٧) سورة الإسراء : الآية ، ٢٤ .

(٨) تفسير الميزان ج ١٣ ، ص ٨٠ .

فالذل بين يدي الله ، أو بين يدي من يستحق الذل كالوالدين هو عز في حدّ ذاته ، وقد ورد في شأنهما في الكتاب والسنة من الإلحاح على طاعتهما ومحبتهما ما لا مزيد عليه ، حتى أن بعض الأحاديث قد ذكرت أن النظر إليهما حباً لهما عبادة .

أما الذّل بين يدي الله فهو عز ؛ لا نه قرب من الله ـ كما أسلفنا ـ والقرب من الله القوي العزيز قوة وعز . واما بالنسبة إلى الوالدين فالذل لهما عز ؛ لأن الله قد أمر بذلك ، فالتواضع والخضوع لهما تنفيذ لأوامر اللهوخضوع له .

ثم يقول عليه السلام : ( وهذا حالي لا يخفى عليك ) وهذا لا شك فيه أنه لا يخفى على الله خافية في الأرض ولا في السماء ، فهو مقلب الأحوال ومغيرها ، ومدبر الأمور وكلها بيده .

ولقد تعرضنا لذكر الحال ، وبحث موضوعه في الجزء الثاني من الكتاب ؛ ولذلك طوينا الحديث عنه خوف الإطالة .

إلا أنه قد بقيت إشارة خفيفة إلىٰ معنىٰ إسم الإشارة والمقصود من ذلك في العبارة . والإشارة لهذا المعنىٰ تفيد التأكيد على الطلب والإلحاح فيه ، فكأنه كان ـ عليه السلام ـ يقول : إن حالي هذه التي لا تخفىٰ عليك لا يخلو إما أن تكون بخير فاني اطلب البقاء في هذا الخير ، وان كانت شراً فاني أطلب تغييرها إلىٰ خير وإزالة هذا الشر ، وفي كلا الحالتين كما نرىٰ طلب جميل واستعطاف يليق بأن يصدر من العبد إلى مولاه .

أما قوله ـ عليه السلام ـ ( منك أطلب الوصول إليك ) فهو مطلب ليس فيه صعوبة ؛ لأن الذي خلق الإنسان وعلمه البيان وتعهد برعايته ، وحفظه ورزقه منذ كان جنيناً في بطن أمه حتىٰ يغمض عينيه في قبره قادر علىٰ أن يحقق هذا المطلب ، فهو من صميم حياة الإنسان ومن أهدافها

النبيلة التي من أجلّها القرب من الله ـ سبحانه ـ .

والقرب هذا الذي تحدثنا عنه في كثير من المواطن في ابحاث الكتاب ولا زلنا نتحدث عنه في ابحاثنا اللاحقة هو الذي ركز عليه الحسين ـ عليه السلام ـ في مطاوي كلامه ، ونظراً لأنا قد طرقنا أبواب هذا الموضوع من نواحي عدة وولجنا فيه فيما أسلفنا فانا قد آثرنا إغلاق هذا الباب معتمدين على ما تقدم .

## الإستدلال عليه سبحانه

ثم يقول ـ عليه السلام ـ ( وبك أستدل عليك فاهدني بنورك إليك ) والإستدلال عليه ـ سبحانه ـ يأخذ ناحيتين مهمتين :

**الناحية الأولىٰ** : الإستدلال علىٰ وجوده ـ سبحانه ـ وهذا من أهم ما بحثه علماء الكلام في هذا الموضوع .

قال في شرح التجريد : الدليل علىٰ وجوده أن نقول : هنا موجود بالضرورة . فان كان واجباً فهو المطلوب ، وان كان ممكناً افتقر إلى مؤثر موجود بالضرورة ، فذلك المؤثر إن كان واجباً فهو المطلوب ، وان كان ممكناً افتقر إلى مؤثر ، فان كان واجباً فالمطلوب ، وان كان ممكناً تسلسل أو دار ، وقد تقدم بطلانهما . وهذا برهان قاطع أشار إليه في الكتاب العزيز بقوله : ﴿ **أو لم يكف بربك أنه علىٰ كل شيء شهيد** ﴾[9] وهو استدلال لمي ، والمتكلمون سلكوا طريقاً آخر فقالوا : العالم حادث فلا بد له من محدث ، فلو كان محدثا تسلسل أو دار ، وإن كان قديماً ثبت المطلوب ؛ لأن القدم يستلزم الوجوب[10] .

وقد أسهب الكتاب العزيز في عرض هذا الموضوع وتحدث فيه حديثاً

---

(٩) سورة فصلت : الآية ، ٥٣ .

(١٠) شرح التجريد ص ٢٥٨ .

مطولاً ، وبسطه في كثير من الآيات ، وربط إلي حد كبير بين وجوده ـ سبحانه ـ ووحدانيته ، فمن ذلك قوله تعالىٰ **﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمٰن الرحيم . ان في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾**[١١] . فقد أطبقت البراهين على أن وجود الواجب ـ تعالى ـ بما أنه واجب لذاته مطلق غير محدود بحد ، ولا مقيد بقيد ، ولا مشروط بشرط ، وإلا انعدم فيما وراء حد ، وبطل على تقدير عدم قيده أو شرطه ، وقد فرض واجباً لذاته ، فهو واحد وحده لا يتصور لها ثان ، ومطلق إطلاقاً لا يحتمل تقييداً .

وقد ثبت أيضاً أن وجود ما سواه أثر مجهول له ، وأن الفعل ضروري المسانخة لفاعله ، فالأثر الصادر منه واحد بوحدة حقة ظلية ، مطلق غير محدود ، وإلا تركبت ذاته من حد ومحدود ، وتألفت من وجود وعدم ، وسرت هذه المناقضة الذاتية إلى ذات فاعله بمكان المسانخة بين الفاعل وفعله ، وقد فرض أنه واحد مطلق ، فالوجود الذي هو فعله وأثره المجعول واحد غير كثير ، ومطلق غير محدود وهو المطلوب . فما يترائىٰ في الممكنات من جهات الإختلاف التي تقضى بالتحديد من النقض والكمال ، والوجدان والفقدان عائدة إلى أنفسها دون جاعلها .

ولقد مر بنا كثير من هذه الأبحاث في تضاعيف الكتاب في جملة من أبحاثه ، وخصوصاً هذه النقطة التي يترتب عليها كل كلام علماء هذا الفن فلا نطيل بذلك .

**الناحية الثانية** : هو أنه واحد لا شريك له ، وهذه أيضاً نقطة لا تقل

---

(١١) سورة البقرة : الأيتان ، ١٦٣ ، ١٦٤ .

أهمية عن النقطة السابقة ، فقد اتفقت الأديان السماوية جميعاً على أنه واحد لا شريك له . قال في شرح التجريد : إن أكثر العقلاء اتفقوا على أنه تعالى واحد . والدليل على ذلك النقل والعقل . أما العقل فما تقدم من وجوب وجوده ـ تعالى ـ فإنه يدل على وحدته ؛ لأنه لو كان هناك واجب وجود آخر لتشاركا في مفهوم كون كل واحد منهما واجب الوجود ، فإما أن يتميزا أولا ، والثاني يستلزم المطلوب ، وهو انتفاء الشركة والأول يستلزم التركيب وهو باطل ، وإلا لكان كل واحد منهما ممكناً ، وقد فرضناه واجباً . هذا خلف . وأما النقل فظاهر(١٢)..

وقد أتينا على هذا البحث في ما تقدم من أبحاث الكتاب .

## النّور والهداية

ثم عقّب ـ عليه السلام ـ بقوله : ( فاهدني بنورك إليك ) ؛ لأن مجرد النور لا يكفي في الهداية إلى الله إذا لم يكن منبعثاً منه ـ سبحانه ـ ، فإضافة النور إليه ـ تعالى ـ يعني الأخذ بيد العبد إلى طريق الحق ؛ لأن الحق نور . فالهداية المقصودة في قوله ـ عليه السلام ـ هذا بالنور المنسوب إليه ـ سبحانه ـ يعني السير على الصراط المستقيم وطريق الحق ، والله ـ سبحانه ـ هو الحق ، وقد أشار الكتاب العزيز إلى ذلك النور في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **الله وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النّور إلى الظلمات أولئك اصحاب النّار هم فيها خالدون** ﴾(١٣) . فإن هذا الإخراج وما يشاكله من المعاني امور حقيقية غير مجازية ، وقد توهم كثير من المفسرين وسائر الباحثين انها معانٍ مجازية يراد بها الأعمال الظاهرية من الحركات

---

(١٢) شرح التجريد ص ٢٦٩ .

(١٣) سورة البقرة : الآية ، ٢٥٧ .

والسكنات البدنية ، وما يترتب عليها من الغايات الحسنة والسيئة ، فالنور مثلاً هو الإعتقاد الحق بما يرتفع به ظلمة الجهل ، وحيرة الشك ، واضطراب القلب ، والنور هو صالح العمل من حيث أن رشده بيّن ، واثره في السعادة جلي ، كما أن النور الحقيقي على هذه الصفات . والظلمة هو الجهل في الإعتقاد والشبهة والريبة وصالح العمل ، كل ذلك بالإستعارة .

والإخراج من الظلمة إلى النور الذي ينسب إلى الله ـ تعالى ـ كالإخراج من النور إلى الظلمات الذي ينسب إلى الطاغوت نفس هذه الأعمال والعقائد ، فليس وراء هذه الإعمال والعقائد ، لا فعل من الله ـ تعالى ـ وغيره كالإخراج ـ مثلاً ـ ولا أثر لفعل الله وغيره كالنور والظلمة وغيرهما .

وذكر آخرون : ان الله يفعل فعلاً كالإخراج من الظلمات إلى النور واعطاء الحياة والسعة والرحمة وما يشاكلها ، ويترتب على فعله ـ تعالى ـ آثار كالنور والظلمة والروح والرحمة ونزول الملائكة ، لا ينالها افهامنا ولا يسعها مشاعرنا ، وقد أطالوا في الحديث عن ذلك بما لا طائل فيه بعد أن اشرنا إلى ذلك في أول الكلام بان النور والظلمة من الأمور الحقيقية وسوف يأتي مزيد من التفصيل في الكلام اللاحق(١٤) .

وفي كلام آخر أن النور في كلامه ـ تعالى ـ قد استعمل في النور الحسّي كثيراً ، وأطلق أيضاً على الإيمان ، وعلى القرآن بعناية أن كلاً منهما يظهر للملتبس به .

وقد اختلفوا في معنىٰ إشراق الأرض بنور ربها في قوله تعالى ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها** ﴾(١٥) فقيل إنها تضيء بنور يخلقه الله بلا

---

(١٤) تفسير الميزان ج ١ ، ص ٣٤٥ بتصرف .

(١٥) سورة الزمر : الآية ، ٦٩ .

واسطة أجسام مضيئة كالشمس والقمر ، وإضافته إليه تعالى من قبيل ( روحي ) و ( ناقة الله ) . وهذا ما يمكن أن يطبق على عبارة الدعاء المطروحة للبحث . وقيل : المراد به تجلي الرب تعالىٰ لفصل القضاء كما ورد في بعض الأخبار من الطريق الآخر ، وهذا لا يدل على المدعىٰ مع تقدير صحة الرواية .

وقيل المراد إضاءة الأرض بعدل ربها يوم القيامة لأن نور الأرض بالعدل ، كما أن نور العلم بالعمل . وهذا لا يستلزم كون المراد بالنور في الآية هو العدل إلّا بدليل ولم يأت .

وفي الكشاف قد استعار إليه ـ عز وجل ـ النور للحق والبرهان في مواضع من التنزيل ، وهذا من ذاك . والمعنىٰ : وأشرقت الأرض بما يقيمه فيها من الحق والعدل ، ويبسطه من القسط من الحساب ووزن الحسنات والسيئات[١٦] .

وقد أخذ المفسرون في تتبع هذه الأقوال في النقض والإبرام ، والتأييد والتفنيد بما لا طائل فيه ، وقد طوينا عن ذلك كله كشحاً .

وعلى ضوء ما تقدم من معنىٰ الآيتين الكريمتين نلتمس من وجوههما ما ورد في العبارة المطروحة ( فاهدني بنورك إليك ) فإن المقصود بالنور بناءً على النظرة المادية الأخذ بيده إلى طريق الدين الحق للوصول إلى رضاه تعالىٰ ، لأنه لا يمكن إلّا بذلك . وتلك هي الغاية الأسمىٰ للعاملين الذين يتنافسون لنيل الدرجات العالية .

## العبودية المخلصة وشرفنا الرفيع

ثم واصل كلامه ـ عليه السلام ـ بهذا المعنىٰ فقال : ( وأقمني بصدق

(١٦) تفسير الميزان ج ١٧ ، ص ٢٩٤ .

العبودية بين يديك ) ولقد تحدثنا عن العبودية في الجزء الثاني من الكتاب ، وقلنا بأنها ظاهرة طبيعية بين الناس أن يستعبد بعضهم بعضا في تصرف مشروع أو غير مشروع في حدود معين . أما الحديث عنها ها هنا فيختلف اختلافاً كبيراً ، بل يتباين تبايناً كلياً لأن الحديث هناك جرىٰ عن إستعباد الإنسان للإنسان بشكل أو بآخر . ويجري هنا عن العبودية الخالصة لله وشرفها الرفيع ، وما ينتج عنها من حرية واسعة من جميع ما تمليه الأهواء سلباً وإيجاباً .

إن العبودية بمعناها المطروح في العبارة يقتضي أن تنفي جميع الشوائب المادية الهزيلة التي تطوق الإنسان من جميع جهاته فتحاصره بما تمليه عليه من نزعات وشهوات . فالعبودية لله حرية واسعة لا حدود لها ؛ لأنها لا تعترف بالخضوع إلاّ إلى مهيمن واحد هو الله سبحانه وتعالى .

وعلى القول بأن العبودية بهذا اللحاظ من المعاني المشككة التي تصدق على مصاديقها بتفاوت مختلف ، فإن طلبه ـ عليه السلام ـ الإقامة أو الإستقامة بصدق العبودية يعني استمرار هذه الطاعة التي يقوم بها ـ كما أمر الله ـ، خصوصاً إذا قلنا : بأن العبودية هي نعمة كبيرة يوفق الله من أحبه من عباده لها. فالإستقامة بصدق العبودية بين يدي الله سبحانه ، معناه : ألاّ يراه الله حيث نهاه ، ولا يفتقده حيث أمره . وبذلك يتحقق الصدق في العبودية في السر والعلن. حتىٰ أن العبد ليرىٰ في جميع الحالات أن الله أحق منه في ما يملك . وفي هذا المعنىٰ وردت عن أهل البيت الطاهر كثير من الأحاديث التي تشير إلى عظمة هذه الصفة عند الله إذا اتصف بها العبد .

فقد ورد عنهم ـ عليهم السلام ـ ( العبودية جوهرة كنهها الربوبية فما فقد في العبودية وجد في الربوبية ، وما خفي في الربوبية أصيب في العبودية ) .

وروي أن الله تعالى يقول في بعض كتبه : ﴿ ياابن آدم أنا حي لا

أموت ، أطعني في ما أمرتك حتى أجعلك حياً لا تموت . يا بن آدم أنا أقول للشيء كن فيكون ، أطعني في ما أمرتك ، أجعلك تقول للشيء كن فيكون ﴾ .

وفي حديث آخر ( من قام بشرائط العبودية أهل للعتق )

وفي حديث عنوان البصري عن الصادق ـ عايه السلام ـ : ( قلت يا أبا عبد الله : ما حقيقة العبودية ؟ قال : ثلاثة أشياء : ألّا يرى العبد لنفسه في ما خوله ملكاً ؛ لأن العبيد لا يكون لهم ملك ، يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله به ، ولا يدبر العبد لنفسه تدبيراً ، وجملة اشتغاله في ما أمره ـ تعالى ـ به ونهاه عنه ، فهذا أول درجات التقىٰ .

وفي ما أشرنا إلى أن العبودية المطروحة في العبارة من المعاني المشككة نقول : بأنها قابلة لأن تختلف شدّة وضعفاً ، بناءً على نفسيات العابدين ، ومدىٰ انصهارهم في محبة الله سبحانه فقد ورد عنهم ـ عليهم السلام ـ : ( ان قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار ، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد ، وان قوماً عبدوه شكراً فتلك عبادة الأحرار ) .

وفي حديث آخر : إن العباد وثلاثة : قوم عبدوا الله عز وجل خوفاً فتلك عبادة العبيد ، وقوم عبدوا الله ـ تبارك وتعالى ـ طلب الثواب فتلك عبادة التجار ، وقوم عبدوا الله ـ عز وجل ـ حباً له فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة(١٧) .

وروي عنهم أيضاً : ان الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه : فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه ، فتلك عبادة الحرصاء وهو الطمع ، وآخرون يعبدونه خوفاً من النار فتلك عبادة العبيد وهي رهبة ، ولكن أعبده حباً له ـ عز

---

(١٧) ميزان الحكمة ج ٦ ، ص ١٧ .

وجل ـ فتلك عبادة الكرام ، وهو الأمن لقوله ـ عز وجل ـ : ﴿ **وهم من فزع يومئذٍ آمنون** ﴾[١٨] ولقوله ـ عز وجل ـ ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله** . . الآية ﴾ فمن أحب الله أحبه الله ، ومن أحبه الله ـ عز وجل ـ كان من الآمنين[١٩] .

وفيه عن مولانا زين العابدين ـ عليه السلام ـ أنه قال : إني أكره أن أعبد الله ولا غرض لي إلاّ ثوابه ، فاكون كالعبد الطمع المطمع ، إن طمع عمل ، وإلاّ لم يعمل ، أكره أن (لا) أعبده إلاّ لخوف عقابه فأكون كالعبد السوء ، إن لم يخف لم يعمل . قيل : فلم تعبده ؟ قال : لما هو أهله بأياديه علي وإنعامه[٢٠] .

ومما تقدم من الأخبار عن المعصومين الأبرار ـ عليهم سلام الله جميعاً ـ يظهر معنى قوله ـ عليه السلام ـ : ( وأقمني بصدق العبودية بين يديك ) . فإن الصدق في العبارة ليس في مقابلة الكذب ، وانما المقصود بذلك هو الإخلاص في العمل لوجهه الكريم ، والإخلاص يأتي أيضاً بتفاوت ، وإلاّ يكن كذلك لم تتفاوت درجات المؤمنين وطبقاتهم ، حتى يبلغوا إلى درجة التقوى ، وهي القمة العالية في العبودية .

ويشكّل مفهوم العبودية لله ـ سبحانه ـ حجر الزاوية في بناء التفكير الإنساني ، وصياغة المحتوى الذاتي للإنسان ، وفي تخطيط السلوك ، وتنظيم النشاط البشري العام ؛ لأن العبودية في نظر الإسلام هي القاعدة والأساس الذي ينطلق منه الإنسان المسلم لبناء افكاره وتصوراته ، ونسج محيط الحياة من حوله ، وإشادة الرابطة مع عالمه وخالقه ، بحيث تكون العبودية لله منهج حياة ، وطريقة تعامل ، واسلوب تفكير يميّز الفرد المسلم ، والمجتمع المسلم عن الأفراد والمجموعات الجاهلية بمختلف

---

(١٨) سورة النمل : الآية ، ٨٧ .
(١٩) بحار الأنوار ج ٧٠ . ص ٢١٠ .
(٢٠) بحار الأنوار ج ٧٠ ، ص ٢١٠ .

انتماآتها ومذاهبها العقائدية والسلوكية على مرّ العصور وتعاقب الأجيال .

والعبودية بهذا المعنى حقيقة جارية على كل مخلوقات الله ، فالكون وما فيه من عوالم المادة والأحياء وسائر المخلوقات يتجه بتكوينه وابداعه اتجاهاً مرتبطاً بارادة الله ومشيئته ، بصورة تنطق بالسجود وبالتسليم والخضوع الكامل والمطلق لله ـ سبحانه ـ .

والمخلوقات بأسرها تحقق بهذا الخضوع افضل صور الكمال والأداء الوظيفي المرسوم لها ، وهو كمال الوجود ، وحفظ النظام الكوني العام .

ولو قدّر لشيء من هذا الوجود أن يخرج على نظام الخلق والإبداع لتعرّض للفناء والدمار .

فلو خرجت الكواكب عن مداراتها ، أو الأرض عن موقعها ، والشمس عن مجموعتها ، لتعرّض النظام الكوني العام للعدم .

فكل المخلوقات إذاً ! الجماد والنبات والحيوان والإنسان خاضعة خضوعاً تكوينياً ، أي خضوعاً للنظام والقانون العام الذي جعل الله العالم يسير بمقتضاه ويشق طريقه نحو الكمال التكويني .

## علم الله المخزون

بدأ عليه السلام يستعطى ويستجدي ربّه أن يعلّمه من العلوم الخاصة التي لم تظهر للوجود ، ولم يطلع عليها البشر فقال : ( الهي علّمني من علمك المخزون ) . وهنا يراود العقل بعد الإشكالات التي تحوم حول هذه العبارة وهي : هل أن الحسين يطلب العلم لرفع الجهل ؟ وهل إن العلم المخزون يعني علم الغيب الذي استأثر الله به لنفسه ؟ واخيراً ما هو نوع العلم الذي يطلبه الحسين ـ عليه السلام ـ في هذا الإبتهال ؟

هذه جملة من الإشكالات التي تتبع بعضها بعضا ، وكثير غيرها التي

تتردد في العقل . ونحاول أن نستجلي الجواب عنها في ما يأتي من النقاط :

**الأولى** : إنه ـ عليه السلام ـ عندما يقول : ( علّمني ) فإن الله ـ تعالى ـ لا ريب أنه هو المعلم الأول ؛ لأنه بكل شيء عليم ، صحيح أن الحسين ـ عليه السلام ـ هو عيبة علم رسول الله ، مدينة العلم ، وقد ورث ذلك عنه ، ولكن هذا كله لا ينافي طلب المزيد من الله ـ سبحانه وتعالى ـ . اما العلم الذي يحتاجه البشر في امور دينهم ودنياهم فهو موجود عند الحسين ـ عليه السلام ـ ضرورة . ولو سار الناس على نهجه لأكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم ، وهذه حقائق ثابتة لا مناص عن الإعتراف بها .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى أن العلم من الله يُعدّ تفضلاً ونعمة ، فهو يسأل الله من فضله ، وسوابغ نعمه ، فهو يعتبر هذا المطلب من المطالب التي يسأل الله ويدعوه أن يستجيب له بتلبيتها في ذلك الموقف العظيم .

**الثانية** : ان العلم الذي يريده الحسين ـ عليه السلام ـ ليس من العلوم المبتذلة ، فإن كلمة ( المخزون ) صفة لذلك العلم المطلوب افادت التخصيص ، ومعنى ذلك أن هذا العلم لم يكن معروفاً ؛ لأن كل علم معروف فالأنبياء والأوصياء أولىٰ بمعرفته ، فالتخصيص بالوصف يقتضي خروج الموصوف عن سنخية العلم المألوف لدىٰ المخلوقات ؛ لأننا لو قلنا بغير ذلك لدار الأمر بين أن يطلب الحسين ـ عليه السلام ـ علماً موجوداً عنده ، وهذا تحصيل الحاصل وهو محال ، كما يقتضي بذلك العبث في السؤال وتضييع الوقت في ما لا جدوىٰ فيه وهو ـ عليه السلام ـ أجل من ذلك وأعظم . وإما أن يكون الحسين ـ عليه السلام ـ قد سأل ربه شيئاً مستحيلاً ، والدعاء لا يحقق الأمور المستحيلة ، ويخرجها عن طبيعتها عن حالة الإمكان ؛ لأن القدرة الإلٰهية لا تتعلق بالمستحيلات ، لا لنقص في

القدرة ، ولكنه نقص في المستحيل نفسه .

إذاً فطلبه ـ عليه السلام ـ طلب يـريد بـه تحقيق شيءٍ جديـد ، وهو زيادة من الخير وهو العلم الذي لم يحصل عليه هو ولا غيره من النـاس ؛ لأنه مخزون عند الله ، وهو أقرب إلى الله من غيره وقربه هذا يقتضي إجابة الدعوة إليه قبل غيره .

**الثالثة** : أما نوع العلم فهو لا شك من الأنواع السائغة التي تعود على النـاس بمردود إيجـابي ؛ لأن من العلوم ما هـو ضار ، بـل ما هـو محـرم كالسحر وعلم النجوم إلاّ ما يقصـد به رد كيـد السحرة ومـا يهتدى بـه في ظلمات البر والبحر ، وكل علم يقصد به إيذاء البشر فهو محرم قطعاً ، وهذا لا شك منفي عن ما يطلبه الحسين بالضرورة .

ثم إن الله ـ تبـارك وتعـالى ـ لا يستجيب للسؤال الـذي يقصـد منـه الضرر لأنه يحرم الضرر ، ويحرم الأسباب التي تجر إليه ولا يلزم من كـل هـذا أن الحسين ـ عليـه السـلام ـ لا يعلم بتلك العلوم التي تجـر إلى المعصيـة . فـإن علمهم ـ عليهم السـلام ـ كمـا ورد عن الصـادق ـ عليـه السلام ـ ( نقر في الأسماع ونكت في القلوب ) ومعنىٰ ذلك أن أحدهـم إن أراد أن يعلم يعلم ، وإن أراد أن لا يعلم لا يعلم .

هذا ولا يزال الإشكال حول العبارة يحتاج إلى توضيح آخر باسلوب آخر ربما يجرنا إلى التعرف إلى علم الإمام .

ولما كان الإمام من مستلزمات حياة الإنسان على وجه الأرض ؛ لئلا تكون للناس على الله حجة ، ولما كان علم الإمام هو المائز عن غيره وبه يعـرف الإمام من غيـره ، لاضير أن نبحث ولـو بصورة إجمـالية علم هـذا الإنسان الذي فضله الله على غيره واحتج به على خلقه وسلم إليه أمور خلقه فنقول .

# علم الإمام

إن علم الإمام من أمهات المسائل التي يبحثها علماء الكلام ؛ لأن علمه ـ عليه السلام ـ هو الذي يعتبر ركيزة الحياة ، ومنه يفيض على سائر البشر ، وبه يحتج الله على خلقه ، وذلك لأن جميع أفعال الإمام وأفعاله وتقريراته حجة لا جدال فيها ، لأنها لا بد أن تستند إلى البراهين الساطعة التي لا تقبل النقاش ولا تناهضها حجة ، وقد أشار إلى ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **إنا نحن نحي الموتىٰ ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء احصيناه في إمام مبين** ﴾[٢١] . فقد ذكر الشيخ في كتاب مصابيح الأنوار باسناده عن رجاله مرفوعاً إلى المفضل بن عمر ، قال : دخلت على الصادق ـ عليه السلام ـ ذات يوم فقال لي : يا مفضل عرفت محمداً وعلياً وفاطمة والحسن والحسين ـ عليهم السلام ـ كنه معرفتهم ؟ قلت : يا سيدي ما كنه معرفتهم ؟ قال : يا مفضل عـرفت تعلم أنهم في طير عن الخلائق بجنب الروضة الخضر فمن عرفهم كان معنا في السنام الأعلىٰ قال : قلت : عرفني ذلك يا سيدي ؟ قال : يا مفضل تعلم أنهم علموا ما خلق الله ـ عز وجل ـ وذراه وبراه ، وانهم كلمة التقوى ، وخزناء السماوات والأرضين ، والجبال والرمال ، والبحار ، وعرفوا كم في السماء نجم ، وملك ، ووزن الجبال ، وكيل ماء البحار ، وأنهارها ، وعيونها ، وما تسقط من ورقة إلا علموها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ، وهو في علمهم وقد علموا ذلك فقلت : يا سيدي قد علمت ذلك واقررت به وآمنت قال : نعم يا مفضل نعم يا مكرم نعم يا طيب نعم يا محبوب طبت وطابت لك الجنة ولكل مؤمن بها[٢٢] .

---

(٢١) سورة يس : الآية ، ١٤ .

(٢١) تفسير البرهان ج ٤ ، ص ٦ .

وفيه أيضاً عنه عن أبي ذر في كتاب مصباح الأنوار، قال: كنت سائراً في أغراض أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ إذ مررنا بواد ونمله كالسيل سار، فذهلت مما رأيت، فقلت الله أكبر، جل محصيه، فقال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ: ولا تقل ذلك يا أبا ذر، ولكن قل جل باريه! فوالذي صورك إني أحصى عددهم، وأعلم الذكر من الأنثى بإذن الله عز وجل[٢٣].

وفيه عن عمار ابن ياسر، قال: كنت مع أمير المؤمنين في بعض غزواته، فمررنا بواد مملوء نملاً، فقلت: يا أمير المؤمنين، ترى يكون أحد من خلق الله يعلم كم عدد هذا النمل؟ قال: نعم يا عمار، أنا أعرف رجلاً يعرف كم عدده، وكم فيه ذكر، وكم فيه أنثى، فقلت: من ذلك يا مولاي الرجل؟ فقال: يا عمار ما قرأت في سورة ياسين ﴿ **وكل شيء أحصيناه في إمام مبين** ﴾ فقلت: بلى يا مولاي. قال: أنا ذلك الإمام المبين[٢٤].

ومما تقدم من الروايات ندرك أن علم الإمام يحوي كل ما يحتاجه الناس جيمعاً، بل وما لا يحتاجونه، بل ليس الناس فقط، وإنما يتعدى ذلك إلى جميع من خلق من إنس وجن وحيوان بل وحتى الملائكة ـ كما تشهد بذلك بعض الحوادث التي جرت بمثابة كرامات لهم ـ سلام الله عليهم ـ، وإن هذه الحاجات إليه في الدنيا والآخرة، وإن قوله تعالى: ﴿ **وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً** ﴾[٢٥] يعني ذلك. فقد ورد في تفسيرها أن المراد بالطريقة طريقة الإسلام، والإستقامة عليها لزومها، والثبات على ما تقضيه من الإيمان بالله وآياته.

---

(٢٣) نفس المصدر ص ٧.

(٢٤) نفس المصدر ص ٧.

(٢٥) سورة الجن: الآية، ١٦.

والمعنى بصورة شاملة : وإنه لو استقاموا أي الجن والإنس على طريقة الإسلام لله لرزقناهم رزقاً كثيراً لنمتحنهم في رزقهم ، فالآية في معنى قوله : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** ﴾[٢٦] .

وقد ورد في بعض الروايات من طريق أهل البيت ـ عليهم السلام ـ تطبيق ما في الآيات من الهدىٰ والطريقة على ولاية علي ـ عليه السلام ـ قال السيد البحراني في تفسير البرهان بحذف الإسناد عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ في قوله ـ تعالى ـ ﴿ **وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقا** ﴾ يقول : لأشربنا قلوبهم الإيمان ، والطريقة هي ولاية علي ابن أبي طالب ـ عليه السلام ـ والأوصياء ـ عليهم السلام ـ[٢٧] .

وفيه أيضاً بحذف الإسناد ، عن سماعة قال : سمعت أبا عبد الله يقول في قول الله ـ عز وجل ـ ﴿ **وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقا . لنفتنهم فيه** ﴾ قال : يعني إستقاموا على الولاية في الأصل عند الأظلة ، حين أخذ الله الميثاق على ذرية آدم ، لأسقيناهم ماءً غدقاً يعني لكنا أسقيناهم من الماء الفرات العذب[٢٨] .

وفيه عن أبي بصير ، عن أبي عبد الله ـ عليه السلام ـ قال : سألته عن قول الله ـ عز وجل ـ ﴿ **وأن لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماءً غدقا** ﴾ يعني لأمددناهم علما كي يتعلموه من الأئمة ـ عليهم السلام ـ[٢٩] .

ومما تقدم يظهر لك غرضه ـ عليه السلام ـ من طلبه هذا ، وهو العلم ، وذلك لكي ينتفع به غيره ، وينقاد إلى السعادة الأبدية ، والسعادة

---

(٢٦) سورة الإعراف : الآية ، ٩٦ .
(٢٧) تفسير البرهان للسيد البحراني ج ٤ ص ٣٩٢ .
(٢٨) البرهان ج ٤ ، ص ٣٩٢ .
(٢٩) تفسير البرهان للسيد البحراني ج ٤ ، ص ٣٩٢ .

المادية ، وقد ذكرنا ذلك كثيراً من المرات .

## السر المصون

ثم يواصل كلامه على هذا المستوىٰ من التضرع والخشوع بقوله : ( وصنّي بسرّك المصون ) والصون والصيانة ـ كما ورد في بحث اللغة ـ الحفظ والوقاية ، وقد أقام اسم المفعول بدل الفاعل ، كما استعمل ذلك في كلمة المختار ، والمجتاز ، وغير ذلك من الأسماء التي يقام اسم مفعولها مقام إسم فاعلها ، وهذا المطلب الذي طرحه . ـ عليه السلام ـ تراود الفكر حوله علامة إستفهام عما هو المقصود من السر المصون ؟

فإن كان المقصود هو أن يكفيه حوادث المستقبل ، والبوائق التي لا يعلم بها إلّا الله ، فذلك وارد كل الورود ، صحيح كل الصحة ، ولكن قد يراود الإنسان إشكال آخر وهو أن الله ـ سبحانه ـ قد تكفل للإنسان برزقه ، وتكفل بأن لا يكله إلى نفسه طرفة عين . فيكون سؤاله بهذا المعنىٰ تحصيل الحاصل .

وفي محاولة لرفع هذا الإيهام نقول : إن الإنسان قد يوجد عنده الخير الكثير ، ولكن ذلك لا يمنعه من الدعاء والمسألة ، بل من الإلحاح في الدعاء والمسألة ، ولربما يكون ذلك لا لطمع مادي ، ولكن لأن ذلك دعاء ، والدعاء هو عبادة ، بل هو العبادة كلها ـ كما مر الكثير من ذلك ـ ولا يضر في ذلك نوع المسألة ، ولكن المهم في الأمر هو الإرتباط بالله عن هذا الطريق . وإلى هذا أشار قوله تعالى : ﴿ **وأسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما** ﴾[٣٠] . قال المفسرون : النهي عن تمني هذه المزية التي اختص بها صاحبها ـ وهي في صدر الآية زيادة الميراث للبعض على البعض الآخر ـ انما هو لقطع شجرة الشر والفساد من أصلها ، فإن هذه

(٣٠) سورة النساء : الآية ، ٣٢ .

المزايا مما تتعلق به النفس الإنسانية لما أودعه الله في النفوس من حبها والسعي لها لعمارة هذه الدار فيظهر الأمر أولاً في صورة التمني ، فإذا تكرر تبدل جسداً مستبطنا ، فإذا أديم عليه فاستقر في القلب سرّي إلى مقام العمل والفعل الخارجي .

ثم يقول في ذيل الآية المذكورة : الإنعام على الغير بشيء مما عند المنعم لما كان غائباً بما هو زائد لا حاجة للمنعم إليه سمي فضلاً ، ولما صرف الله ـ تعالى ـ وجوه الناس عن العناية بما أوتي ارباب الفضل من الفضل والرغبة فيه ، وكان حب المزايا الحيوية بل التفرد بها والتقدم فيها والإستعلاء من فطريات الإنسان .

والأليق بالإنسان المبني على الجهل بما ينفعه ويضره بحسب الواقع إذا سأل ربه العالم بحقيقة ما ينفع خلقه وما يضرهم ، القادر على كل شيء أن يسأله الخير في ما تتوق نفسه إليه ، ولا يطنب في تشخيص ما يسأله منه ، وتعيين الطريق إلى وصوله . قاله في الميزان .

وهذا ما يطبق على الدعاء والمسألة في الصيانة ـ كما ورد في العبارة المطروحة امام هذا البحث ـ لأن طلب الصيانة بسر الله ـ سبحانه ـ يعني أن يكفى الإنسان ما لا يعلم .

وقد ورد عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ أن الدعاء يرد القضاء وقد أبرم ، وهذا يعني ما كان في علم الله ، وربما لا يكون مكتوباً في اللوح المحفوظ ، فإن العبارة كلها خصوصاً قوله ـ عليه السلام ـ ( بسرك ) لها همس خافت في هذا المعنىٰ ، فإن السر المضاف إليه ـ سبحانه ـ يعني لم يضطلع عليه ، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ، وإلّا لم يكن سر الله المصون . الذي لم يطلع عليه أحداً من خلقه ، ومن تأمل العبارة ظهر له ما ذكرنا .

## تحقيق الحقائق

ثم توجه عليه السلام إلى مناجاة اخرى ، ولكن بذلك الإسلوب ، وفي مثل ذلك السياق فقال : ( إلهي حققني بحقائق أهل القرب ) . والحقائق هي التي يبلغ بها الإنسان الغاية الاسمىٰ في المعرفة ، وهي بخلاف الأكاذيب ، ومن ذلك ( الحق ) وهو الذي لا لبس فيه ولا اشكال ، ومن ذلك ايضاً ( حق اليقين ) إذا بلغ الإنسان في معرفة الحق معرفة لا يعتريها شك ولا يساوره فيها شيء من الريب . والعبارة المطروحة تشير إلى هذا المعنى ، أو إلى ما يقرب منه .

ويبقى معرفة السر في قوله عليه السلام ( بحقائق أهل القرب ) ؛ لأن أهل القرب يعرفون الأشياء على حقيقتها بواسطة الحواس ، ثم العقل ، دون أهل البعد الذين لا يعرفون ذلك إلّا بعد التأمل ، وربما لم يصلوا إلى حقائق تلك الأشياء التي تأملوها عن بعد .

فلو نظر الإنسان إلى شخص يمشي ، وهو بعيد عنه ، فإنه لا بد أن يحدّق فيه ، وينظر إلى مشيته ، ويتأمل في حركاته وسكناته ، وطوله وضخامته ؛ لكي يعرف أنه فلان أو فلان آخر ، ولكنه ربما عرفه بعلاماته هذه انه فلان ، ولكن ربما انطبق هذا الوصف على فلان آخر ، فلو أخبره ثالث بان هذا ليس فلاناً ـ كما تظن ـ فانه يعتريه الشك ، ويصيبه الوهم ؛ لأنه لم يعرفه بحقيقته وإنما بعلاماته ، لأنه بعيد عنه ، ولكنه عندما يكون إلى جانبه يراه وجهاً لوجه ، أو يصافحه يداً بيد ، أو يسمعه مشافهة فإن جميع الشكوك والأوهام تتلاشىٰ أمام الحقيقة الناصعة التي نتجت عن هذا القرب .

وربما ألمح إلى ذلك قوله ـ تعالى ـ ﴿ ويريد الله أن يحق الحق

**بكلماته ويقطع دابر الكافرين ﴾**[٣١] .

إذا فمعرفة القريب من الأشياء هي معرفه حقيقية ، لأنها معرفة للشيء بعينه ، لا تحتاج إلى علامات تدل عليها . وأما معرفة الأشياء البعيدة فهي معرفة بعلاماتها ، ومع ذلك فإنها في معرض الشك والتأمل ، وهو أن الله قريب لا يأتي في حقه هذا التفاوت من القرب والبعد ، لأنه لا يحويه مكان ولا يخلو منه مكان ، ولا يحد بجهة ، ولا يكون أقرب إلى شيء دون شيء ، وقد مرّ الكلام حول هذا الموضوع في كثير من مناسبات الكلام خصوصاً عندما تعرضنا إلى قوله تعالى ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فأني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعاني** . . الآية ﴾[٣٢] فإنه سبحانه عبّر عن القرب فيها بمعنىٰ أنه يسمع الدعاء فيجيبه إجابة القريب للقريب التي لا تستهلك وقتاً ، لأن البعيد وإن أجاب الدعوة بعد وصولها إليه لكن ذلك بعد التأمل فيها ومعرفة مصدرها وذلك ما يبطىء بالإجابة .

وخلاصة القول : إنما يتأتىٰ للقريب لا يتأتىٰ للبعيد ، وإلى هذا أشار أمير المؤمنين في إحدىٰ خطبه من نهج البلاغة وقد سأله ذعلب اليماني فقال : هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين ؟ فقال ـ عليه السلام ـ أفأعبد مالا أرىٰ ؟ وكيف تراه ؟ فقال : لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان ، قريب من الأشياء غير ملابس ، بعيد منها غير مباين ، متكلم لا بروية ، مريد لا بهمّة ، صانع لا بجارحه . لطيف لا يوصف بالخفاء ، كبير لا يوصف بالجفاء ، بصير لا يوصف بالحاسة ، رحيم لا يوصف بالرقة . تعنو الوجوه لعظمته ، وتجب القلوب من مخافته .

---

(٣١) سورة الأنفال : الآية ، ٧ .

(٣٢) سورة البقرة : الآية ، ١٨٦ .

# الجاذبية في الحب

ثم انتقل ـ عليه السلام ـ : إلى مطلب آخر فقال ( واسلك بي مسلك أهل الجذب ) . والمسلك هو الطريق الذي يسلكه الإنسان ـ كما ورد في بحث اللغة ـ إلّا أنه في هذه العبارة قد استعير لسبيل الحق الذي يهدي الله إليه أهل محبته الذين يجتذبهم إليه ، أي يقربهم إليه .

والتخصيص بالإضافة يدل على أن المراد من هذا المسلك هو ما أراده الله لعباده . وأمرهم به وهداهم إليه . وفي وقفة تأمل في معنى ( أهل الجذب ) ترد إحتمالات نذكر منها .

١ ـ ان المقصود بأهل الجذب هم الذين يردهم الله ويحبهم فيوفقهم لطاعته ، فإذا بلغوا إلى درجة المحبة من الله أحبوا الله هم أيضاً كما أحبهم ، فيحدث هذا الجذب بواسطة الإقبال على العبادة والطاعة ، وقد مرّ هذا المعنىٰ في الحديث عن الحب في بحث سابق من هذا الجزء من الكتاب .

٢ ـ ويمكن أن يقال : ان معنىٰ ( أهل الجذب ) الذين يتقربون إلى الله بكثرة العبادة ، فهم يؤدون الواجب ، ثم يأتون بما لم يفرض عليهم ، رغبة في القرب من الله ، وبذلك يتحقق مرادهم بأن يقربهم الله إليه ، وتلك هي الغاية الأسمىٰ التي لا يصل إليها الإنسان إلّا بذلك .

٣ ـ ويمكن أن يكون المعنىٰ أن ( أهل الجذب ) هم الذين يعبدون الله خوفاً فينجذبون إليه لا عن إختيار ، ويعبدونه ـ سبحانه ـ وهم خائفون مشفقون من سوء المنقلب ، لا لسوء ظن بربهم ، ولكن خوفاً من تقصيرهم في عبادة الله ، وخوفهم هذا يدفعهم إلى التفاني في الطاعة ، وبذلك يصلون إلى المراتب العالية من حيث يشعرون أولا يشعرون ، وربما تنافىٰ هذا في بعض مصاديقه مع منزلة العصمة العالية ، ولكنه ربما يلتئم

مـع مـا سـوف يـأتي في الفقـرة التـاليـة ، وهـذا مـا يـدل على أن دعـاءه ـ عليه السلام ـ فيه تشريك لأهل الموقف .

قال عليه السلام :

( اِلٰهي إغْنِني بِتَدْبيرِكَ لي عَنْ تَدْبيري ، وَبِاخْتِيارِكَ لِي عَن اِخْتِيٰاري ، وَاَوْقِفْني عَلىٰ مَراكِزِ اضْطِرٰاري ، اِلٰهي اَخْرِجْني مِنْ ذُلِّ نَفْسي ، وَطَهِّـرْني مِنْ شَكّي وَشِرْكي قَبْلَ حُلُولِ رَمْسي ، بِكَ اَنْتَصِرُ فَانْصُرْني ، وَعَلَيْكَ اَتوَكَّلُ فَلا تَكِلْني ، وَاِيٰاكَ اَسْـأَلُ فَلٰا تُخَيِّبْني ، وَفي فَضْلِكَ اَرْغَبُ فَـلا تَحْرُمْني ، وَبِجَنٰابِكَ اَنْتَسِبُ فَلٰا تُبْعِدْني ، وَبِبٰابِكَ اَقِفُ فَلٰا تَطْرُدْني ) .

## اللُّغَةُ

مراكز : الركز غرزك شيئاً منتصباً كالـرمح ونحـوه ، تركـزه ركزاً في مركزه ، والمراكز منابت الأسنان ، ومركز الجنـد الموضـع الذي أمـروا أن يلزموه ، وأمروا ألا يبرحوه . ومركز الرجل موضعه . يقال أخلّ فلان بمركزه إذا بارحه أي تركه . ومركز الدائرة وسطها ، وهو نقطة تتساوىٰ أبعادها من جميع الجهات من المحيط . والركاز قـطع من الذهب والفضـة تخرج من الأرض أو المعدن . وفي الحديث ( وفي الركاز الخمس ) .

رمسي : الرمس الصوت الخفي . ورمسي الشيء يرمسه رمساً طمس أثره . ورمسه رمساً فهو رميس ومرموس دفنه وسوىٰ عليه الأرض . وكل ما هيل عليه التراب فقد رمس ، وكل شيء نثر عليه التراب فهو مرموس . قال

لقيط ابن زراره :

يـا ليت شعـري اليــوم دختنـوس إذا أتـاهـا الخبـر الـمـرمـوس
أتــحـلق الـقـرون أم تـمـيس لا بـل تـمـيس أنـهـا عـروس

وإذا كان القبر مـدرماً مـع الأرض فهو رمس ، أي مستـوياً مـع وجه الأرض وإذا رفع القبر في السماء عن وجه الأرض لا يقال له رمس ، وفي حديث ابن مغفل : إرمسوا قبري رمساً أي سووه بالأرض ولا تجعلوه مسنماً مرتفعاً . وأصل الرمس الستر والتغطية ، والرمس نفس القبر قال الشاعر :

وبينمـا المـرء في الأحيـاء مغتبط إذا هـو الـرمس تعفـوه الأعـاصيـر

**تطردني** : الطرد الشل ، طرده يطرده طرداً ، والـطريد المـطرود من الناس ، والأنثىٰ طريد وطريده ، وناقة طريـد بغيرهـا طردت فـذهب بها ، ويقال : طردت فلاناً فذهب ، والطرد الإبعاد . وفي حديث قيام الليل : هو قربة إلى الله ـ تعالى ـ ومطردة الداء والطريد الرجل يولد بعد أخيه فالثـاني طريد الأول . والليل والنهار طريدان كـل واحد منهمـا طريـد صاحبـه قال الشاعر :

يعيـدان لي مـا أمضيـاوهمـا معـاً طـريــدان لا يستلهيـان قـراري

## البيَان

في هذه الفقرة جمع ـ عليه السـلام ـ صنوفـاً من المباحث الكـلامية التي كانت محل أخذ ورد عند علماء هذا الفن .

ويطالعنا في أولها قوله ـ عليه السلام ـ ( إلهي أغنني بتدبيرك لي عن تدبيري ) وفي هذه العبارة يأتي معنى قولهم : الإنسان مسير لا مخير ، وفي هذه الوقفة من التأمل نرى أن العبارة الماثلة أمامنا تشير إلى أن الإنسان مهما بلغ في علمه وقداسته فهو لا يستغنى عن إمداد السماء فـالتدبيـر في معناه

الأوّلى المتبادر إلى الذهن ، هو تصريف أمور العبد في الله ـ سبحانه وتعالى فأنت إذا تأملت العبارة وجدت فيها أنه ـ عليه السلام ـ قد ألقى بمقاليد أمره إلى خالقه وتوكل عليه توكل واثق به ، لا يساوره شك في ذلك ـ كما سوف نتعرض إليه في مطاوى شرح هذه الفقرة من الدعاء ـ إن شاء الله ـ تعالى .

إن التدبير الإلهي المحكم يجعل الإنسان مطمئناً إلى خالقه ، وتجعله يستغنى بتدبير ربه له عن تدبيره لنفسه ـ كما نصّت على ذلك العبارة .

إن تعلق الجار والمجرور أعني ( بتدبيرك ) بالفعل المتقدم بهذه الكلمة أعني ( أغنني ) ، وتعلق الجار والمجرور مرة أخرىٰ أعني ( لي ) بالمصدر أعني ( بتدبيرك ) كل ذلك يدل على علاقة غير عادية بين السائل والمسؤول ، والعبد ومولاه ، فأنت ترىٰ كل كلمة آخذة بعنق الأخرىٰ ، قد رصت رصاً ، ورصفت رصفاً ، كل ذلك يكون إعترافاً واضحاً بعجز الإنسان عن معرفة كنه المستقبل ، وخوف المجهول . فليس إمام الإنسان إلاّ الإلتجاء إلى الله والإعتراف بالعجز عن إستطاعته لتدبير أموره .

وفي كلمة( اغنني ) يلوح لنا الإعتراف بأجلىٰ معانيه ؛ لأنه قد عوّل على ربه في كل الأمور ؛ لأنه في كلها فقير ، فأراد الغنىٰ فيها جميعاً في معاشة ، وفي عبادته ، وفي صحته ، وفي جميع حركاته وسكناته ، كل ذلك يحتمله نص العنبارة ، بل يحويه .

ونعود مرة ثانية إلى معنىٰ التسيير والتخيير فنجده يلتئم كل الملاءمة مع قوله ـ عليه السلام ـ ( وباختيارك لى عن إختياري ) وهذا الكلام يشير بوضوح إلى منىٰ كلامي يبحثه العلماء في موضوع العدل الإلهي ، وهو مسألة الجبر والتفويض ، وقد أشرنا في ما مضىٰ في أبحاث الكتاب إلى إرجاء الموضوع لبحثه في محله ، وقد آن لنا أن نطرحه للحديث فنقول :

# الجبر والتفويض

إن خير ما نستهل به هذا الحديث ما جاء عن المفضل بن عمر، عن الصادق ـ عليه السلام ـ : لاجبر ولا تفويض ، ولا تفويض ، ولكن أمر بين أمرين ، قلت : ما أمر بين أمرين ؟ قال : مثل ذلك مثل رجل رأيته على معصيته فنهيته فلم ينته فتركته ففعل تلك المعصية ، فليس حيث لم يقبل منك فتركته كنت أنت الذي أمرته بالمعصية[1] .

وفيه أيضاً سأل رجل الصادق ـ عليه السلام ـ فقال : أجبر الله العباد على المعاصي ؟ قال : لا . فقال : فوض إليهم أمرهم ؟ قال : لا . قال : فماذا ؟ قال : لطف من ربك بين ذلك[2] .

وفي الحديث القدسي قال الله ـ تعالى ـ يا بن آدم بمشيئتي كنت أن الذي تشاء ، وبنعمتي أديت إليّ فرائضي ، وبقدرتي قويت على معصيتي ، خلقتك سميعاً بصيراً ، أنا أولىٰ بحسناتك منك وأنت أولىٰ بسيئاتك مني[3] .

وفي التوراة مكتوب يا موسىٰ ! إني خلقتك واصطفيتك وقويتك وأمرتك بطاعتي ، ونهيتك عن معصيتي ، فإن أطعتني أعنتك على طاعتي ، وإن عصيتني لم أعنك على معصيتي ولي المنّة عليك في طاعتك ، ولي الحجة عليك في معصيتك[4] .

بعد ذلك نقول أن أفعال العباد الصادرة عن القصور والدواعي مما تعلق بها الأمر والنهي عنه قد اختلف أهل الملك في أنها هل هي منسوبة

---

(١) بحار الأنوار ج ٥ ، ص ١٧ .
(٢) بحار الأنوار ج ٥ ، ص ٨٣ .
(٣) بحار الأنوار ج ٥ ، ص ٥ .
(٤) بحار الأنوار ج ٥ ، ص ٩ .

إليهم ؟ بمعنىٰ أنهم هم الفاعلون لها الله ـ تعالى ـ فالاشاعرة قالوا إنه لا تؤثر في الوجود إلّا الله وليس شيء منها مؤثراً في شيء أصلاً بل المؤثر والأثر صادران عن الله ـ تعالى ـ وبالغوا في ذلك غاية المبالغة فقالوا ما نرىٰ من حصول المسببات عقيب الأسباب إنما هو بإجراء العادة بمعنىٰ أن الله ـ تعالى ـ أجرىٰ عادته بخلق هذه المسببات عند حصول هذه الأسباب فالأكل لا يؤثر الشبع والماء لا يؤثر الري والنار لا تؤثر الإحراق وإنما أجرىٰ الله العادة بخلق الشبع عقيب الأكل وخلق الري عقيب الماء وخلق الإحراق عقيب ملاقاة النار .

والإمامية والمعتزلة الموسومون بالعدلية على أن الأفعال الواقعة من المكلفين بحسب قصورهم ودواعيهم منسوبة إليهم وهم الفاعلون لها إلّا أن المعتزلة قالوا ( نسخة ـ على أن ) لا تأثير لله والإمامية على أن لله فيها تأثيراً باعتبار أسبابها وآلاتها وإنكار ذلك مكابرة لمقتضىٰ العقل وسوفسطائيه لا تستحق المجادلة عليها لأنا نرىٰ تأثيرات الأسباب في مسبباتها ونشاهده ونحكم به حكماً ضرورياً .

وبعض الإشاعرة اعتذر عن مقالتهم الفاسدة بما لا يسمن ولا يغني من جوع ، وهو أن القول بقطع النظر عن تأثيرات الأسباب في مسبباتها ونسبة ذلك لله تعالى خالصاً إنما هو زهد وإخلاص في التوحيد بأن لا نجعل مع الله في العالم خالقاً آخر وهو كما ترىٰ إعتذار كاسد واعتقاد رديء فاسد يترتب عليه عدم العدل ولسنا مكلفين بهذا الإعتقاد ، فإن خلق الأسباب وتفويض المسببات إليها دليل على قدرة الفاعل لذلك وإتقانه لأفعالها وبيان أحكامها وعجيب صنعها فإنه يكون في كل واحدة منها دلالة واضحة على قدرتين وحكمتين في خلقها وخلق تأثيرها وحصول الأحكام في خلقها وفي ترتيب هذه المسببات عليها وكونها أسباباً لها وجعل تلك الأسباب مؤثرات في مسبباتها وذلك ترتيب لطيف وتأليف طريف لا ينكره من ذوي الألباب إلّا

مكابر مرتاب ولهذا عدل متأخروهم عن هذا القول المستنكر وفروا عنه ولم ينفعهم المفر .

وقال أبو الحسن الأشعري وأتباعه : ان أصل الفعل من الله ، والعبد له الكسب فلم يفهم المراد منه ، واختلفوا في تفسيره .

فقال أبو الحسن : معناه ان الله أجرىٰ العادة بأن العبد ان اختار الطاعة فعلها ، وان اختار المعصية فعلها ، فالعبد له الإختيار .

وقال فريق من أصحابه : إن معناه كون الفعل طاعة أو معصية ، ومثّل له بلطم اليتيم ، فأصل اللطمة من الله ، وكونها واقعة علىٰ سبيل التأديب طاعة ، وعلىٰ وجه الظلم معصية .

وآخرون منهم قالوا : معنىٰ المكسب هو أن للقدرة أثراً ما ، لكنه غير معلوم ، وهذه الاعذار في الحقيقة من الهذيان بمكان ، وإذا تحقق ذلك علم أن مذهب الأشاعرة يسمىٰ بالجبر؛ لأنهم يقولون إن العبد مجبور على أفعاله مسلوب الإختيار .

ومذهب المعتزلة يسمىٰ بالتفويض بمعنىٰ أن العبد مفوض إليه في أفعاله يختار فيها ، وإن الله تعالى قد فرضه في اختيار نفسه ، فانتفت قدرة الله ـ تعالى ـ بعد ذلك التفويض ، فلا مدخل له فيه .

والمذهبان ـ كما ترىٰ ـ قد خرجا عن طريق الصواب ، وخالفا ما في الكتاب . فلا جبر ولا تفويض ، وانما هو امر بين أمرين . فلا يلزم خروج الله عن سلطانه ـ كما عليه المعتزلة ـ ولا جبرهم على المعصية ـ كما عليه الأشعرية ـ .

وقد جاءت الأخبار برد هذين المذهبين ، وإنّ ما وقع في الخبر النبوي المستفيض بين الفريقين من قوله ـ صلى الله عليه وآله ـ إنّ القدرية مجوس هذه الأمة ، وكل من الفريقين قد فسر مذهب الآخر به ، إلا ان

انطباقه على مذهب الاشعري أوضح ؛ لأن القدري منسوب إلى القدر وهم المثبتون له(٥) .

لم تخل افعالنا اللاتي نذم بها — احدى ثلاث معان حين نأتيها
اما تفرد بارينا بصنعتها — فيسقط اللوم عنا حين ننشيها
أو كان يشركنا فيها فيلحقه — ما سوف يلحقنا من لايم فيها
أو لم يكن لالهي في جنايتها — ذنبٌ فما الذنب الاذنب جانيها

وروى الثقة الجليل أحمد بن أبي طالب الطبرسي وغيره في كتاب الاحتجاج أنه دخل أبو حنيفة المدينة ومعه عبد الله بن مسلم فقال له : يا أبا حنيفة أن ههنا جعفر ابن محمد (ع) من علماء آل محمد (ص) فاذهب بنا نقتبس منه علما فلما أتيا إذا هما بجماعة من شيعته ينتظرون خروجه أو دخولهم عليه فبينماهم كذلك إذا خرج غلام حدث فقام الناس هيبة له فالتفت أبو حنيفة وقال يا ابن مسلم من هذا ؟ قال : هذا موسى ابنه قال : والله لا جبهنه بين يدي شيعته قال مه لن تقدر على ذلك قال : والله لا فعلنه ، ثم التفت إلى موسى (ع) فقال يا غلام أين يضع الغريب حاجته في بلدتكم هذه ؟ قال : يتوارى خلف الجدار ويتوقى أعين الجار وشطوط الأنهار ومسقط الثمار ولا يستقبل القبلة ولا يستدبرها فحينئذ يضع حيث شاء ؛ ثم قال يا غلام ممن المعصية ؟ قال يا شيخ لا تخلو من ثلاث : اما ان تكون من الله وليس للعبد شيء فليس للحكيم أن يأخذ عبده بما لم يفعله ، واما أن تكون من العبد ومن الله ، والله اقوى الشريكين فليس للشريك الأكبر أن يأخذ الشريك الأصغر بذنبه ، واما أن تكون من العبد وليس من الله شيء فان شاء عفى وان شاء عاقب ، قال : فاصابت أبا حنيفة سكتة كأنما ألقم فوه الحجر ، قال : فقلت الم أقل لك لا تتعرض لأولاد

(٥) محاسن الإعتقاد لجمال الملة الشيخ حسين آل عصفور الدرازي .

رسول الله (ص)[٦] .

وهناك رسالة كتبها أبو الحسن الثالث[٧] ـ صلوات الله عليه ـ في الرد على أهل الجبر والتفويض وإثبات العدل والمنزلة بين المنزلتين ذكرها في تحف العقول ، قال : من علي بن محمد ، سلام عليكم وعلى من اتبع الهدىٰ ورحمة الله وبركاته ، فإنه ورد علي كتابكم وفهمت ما ذكرتم من إختلافكم في دينكم ، وخوضكم في القدر ، ومقالة من يقول منكم بالجبر ، ومن يقول بالتفويض ، وتفرقكم في ذلك ، وتقاطعكم ، وما ظهر من العداوة بينكم ، ثم سألتموني عنه وبيانه لكم ، وفهمت ذلك كله ، إعلموا رحمكم الله أنا نظرنا في الآثار ، وكثرة ما جاءت به الأخبار فوجدناها عند جميع من ينتحل الإسلام ممن يعقل عن الله ـ عز وجل ـ لا تخلو من معنيين : أما حق فيتبع ، وإما باطل فيجتنب، وقد اجتمعت الأمة قاطبة لا اختلاف بينهم أن القرآن لا ريب فيه عند جميع أهل الفرق ، وفي حال اجتماعهم مقرّون بتصديق الكتاب وتحقيقه مصيبون مهتدون ، وذلك بقول رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ: ( لا تجتمع أمتي على ضلالة ) فأخبر أن جميع ما اجتمعت عليه الأمة كلها حق ، هذا إذا لم يخالف بعضها ، والقرآن حق لا اختلاف بينهم في تنزيله وتصديقه ، فإذا شهد القرآن بتصديق خبر وتحقيقه وأنكار الخبر طائفة من الأمة لزمهم الإقرار به ضرورة ، حين اجتمعت في الأصل على تصديق الكتاب ، فإن هي جحدت وأنكرت لزمها الخروج من الملّة ، فأول خبر يعرف تحقيقه من الكتاب وتصديقه وإلتماس شهادته عليه خبر ورد عن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ ، ووجد بموافقة الكتاب وتصديقه . بحيث لا تخالفه أقاويلهم حيث قال : ( إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي لن

---

(٦) مصابيح الأنوار لسيد عبد الله شبر .

(٧) أبو الحسن الثالث الأمام الهادي(ع) .

تضلوا ما تمسكتم بهما وإنهما لن يفترقا حتىٰ يردا علي الحوض ) . فلما وجدنا شواهد هذا الحديث في كتاب الله مثل قوله ـ عز وجل ـ : ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتولىَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾(٨) وروت العامّة أخباراً لأمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ أنه تصدّق بخاتمه وهو راكع فشكر الله ذلك له وأنزل الآية فيه ، فوجدنا رسول الله صلى الله عليه وآله ـ قد أتىٰ بقوله : ( من كنت مولاه فعلي مولاه ) . وبقوله : ( أنت مني بمنزلة هارون من موسىٰ إلاّ أنه لا نبي بعدي ) ، ووجدناه يقول : ( علي يقضي ديني وينجز موعدي وهو خليفتي عليكم من بعدي ) . فالخبر الأول الذي استنبط منه هذه الأخبار خبر صحيح مجمع عليه لا اختلاف فيه عندهم ، وهم أيضاً موافق للكتاب ، فلما شهد الكتاب بتصديق الخبر وهذه الشواهد الأخر لزم على الأمة الإقرار بها ضرورة ، إذ كانت هذه الأخبار شواهدها من القرآن ناطقة ، وافقت القرآن وافقها ، ثم وردت حقائق الأخبار عن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ عن الصادق ـ عليه السلام ـ نقلها قوم ثقاة معروفون فصار الإقتداء بهذه الأخبار فرضاً واجباً على كل مؤمن ومؤمنة لا يتعداه إلاّ أهل العناد . وذلك أن أقاويل آل رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ متصلة بقول الله ، وذلك مثل قوله في محكم كتابه ﴿ **إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدّلهم عذاباً مهيناً** ﴾(*) ووجدنا نظير هذه الآية قول رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ ( من آذىٰ علياً فقد آذاني ، ومن آذاني فقد أذىٰ الله ، ومن آذىٰ الله يوشك أن ينتقم منه ) وكذلك قوله ـ صلى الله عليه وآله ـ : ( من أحب علياً فقد أحبني ، ومن أحبني فقد أحب الله ) ومثل قوله ـ صلى الله عليه وآله ـ في بني وليعة ( لأبعثن إليهم رجلاً كنفسي يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله قم يا علي فسر إليهم ) وقوله ـ صلى الله عليه وآله ـ يوم

---

(٨) سورة المائدة الآية ٥٥ ـ ٥٦ .     (*) سورة الأحزاب الآية ٥٧ .

خيبر : ( لأبعثن إليهم غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، كراراً غير فرار ، لا يرجع حتىٰ يفتح الله عليه ) فقضى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ بالفتح قبل التوجيه فاستشرف بكلامه أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ فلما كان من الغد دعا علياً ـ عليه السلام ـ فبعثه إليهم فاصطفاه بهذه الصفة وسمّاه كرار غير فرار ، فسمّاه الله محبّاً لله ولرسوله ، فأخبر أن الله ورسوله يحبانه ، وإنما قدمنا هذا الشرح والبيان دليلاً على ما أردنا وقوة لما نحن مبينوه من أمر الجبر والتفويض ، والمنزلة بين المنزلتين ، وبالله العون والقوة وعليه نتوكل في جميع أمورنا ، فإنا نبدأ من ذلك بقول الصادق ـ عليه السلام ـ : ( لا جبر ولا تفويض ولكن منزلة بين المنزلتين ، وهي صحة الخلقة ، وتخلية السرب ، والمهلة في الوقت ، والزاد مثل الراحلة ، والسبب المهيج للفاعل على فعله ؛ فهذه خمسة أشياء جمع بها الصادق ـ عليه السلام ـ بأصل ما يجب على الناس من طلب معرفته ، ونطق الكتاب بتصديقه ، فشهد بذلك محكمات آيات رسوله ، لأن الرسول ـ صلى الله عليه وآله ـ لا يعدو شيئاً من قوله وأقاويلهم حدود القرآن فإذا وردت حقائق الأخبار والتمست شواهدها من التنزيل فوجد لها موافقاً وعليها دليلاً كان الإقتداء بها فرضاً لا يتعداه أهل العناد كما ذكرنا في أول الكتاب ، ولما التمسنا تحقيق ما قاله الصادق ـ عليه السلام ـ عن المنزلة بين المنزلتين ، وإنكاره الجبر والتفويض وجدنا الكتاب قد شهد له وصدق مقالته في هذا وخبرٌ عنه أيضاً موافقاً لهذا أن الصادق ـ عليه السلام ـ سئل : هل أجبر الله العباد على المعاصي ؟ فقال الصادق ـ عليه السلام ـ : هو أعدل من ذلك ، فقيل له : فهل فوض إليهم ؟ فقال ـ عليه السلام ـ : هو أعز وأقهر لهم من ذلك[٩] .

وروي عن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ حين أتاه نجدة يسأله عن

(٩) بحار الأنوار ج ٥ ، ص ٦٨ .

معرفة الله قال : يا أمير المؤمنين بماذا عرفت ربك ؟ قال ـ عليه السلام ـ : بالتمييز الذي خولني ، والعقل الذي دلني . قال : آفمجبول أنت عليه ؟ قال : لو كنت مجبولاً ما كنت محموداً على احسان ، ولا مذموماً على اساءة ، وكان المحسن أولى باللائمة من المسيء ، فعلمت أن الله قائم باق ، وما دونه حدث زائل ، وليس القديم الباقي كالحدث الزائل . قال نجدة : أجدك اصبحت حكيماً يا أمير المؤمنين ! قال : أصبحت مخيراً فإن اتيت السيئة بمكان الحسنة فأنا المعاقب عليها[١٠] .

بعد كل ما تقدم من الروايات التي جلت مسألة الجبر والتفويض في أنصع صورة ، وبعد كل ما أفاض فيه العلماء من آراء واقوال حول هذه المسألة لا نجد انفسنا بحاجة اكثر مما ذكرنا في هذا الموضوع ، ومن أراد المزيد فله أن يطلع على الكتب الكلامية التي تتعرض لهذه المسألة بصورة مفصلة .

## مراكز الاضطرار

ثم قال ـ عليه السلام ـ بلهجة المعترف بالحاجة إلى الله : ( وأوقفني على مراكز اضطراري ) . ومراكز الإضطرار يعني مواضع الحاجة الملحة . وفي هذا الكلام المركز ترد احتمالات معنوية نذكر منها :

١ ـ ان معنى كلمة ( أوقفني ) يعني عرّفني على موضع حاجاتي ـ وما أكثرها في هذه الحياة ـ فإن الإنسان خلق وكله حاجة واضطرار إلى غيره ، فهو يحتاج إلى الناس في التعامل والتعايش معهم ، والإستئناس بهم في الأخذ والعطاء ، وهو اجتماعي بطبعه لا يمكن له العيش بدون ابناء جنسه ، بل وحتى غيرهم . فانه كما يحتاج إلى الإنسان هو محتاج إلى الحيوان للتنقل من بلد إلى بلد ، وللغذاء والكساء ، ومحتاج إلى النبات في

(١٠) بحار الأنوار ج ٥ ، ص ٧٥ .

غذائه من الحبوب كالحنطة والشعير والفاكهة ، ومحتاج إليه في لباسه كالقطن وسائر لحاء الشجر ، وما يستخلص منه من المواد القابلة للتطوير والتعديل ، وكل ذلك حاجات اضطرارية ملحة ، بمعنى انه لا يستغني عنها . فاذا ما عرف الإنسان حاجاته واضطراره إليها ، وعرف المراكز التي تقضى منها ، وتنجز فيها ، استطاع أن يستغني بهذه المعرفة ، وذلك من قبيل معرفة الطبيب للداء والدواء .

٢ ـ وربما كان المقصود من قوله ـ عليه السلام ـ ( أوقفني ) يعني نبهني عليها بعد الغفلة عنها ، فإن الإنسانه عرضة للسهو والنسيان قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما** ﴾[١١] ذكروا في تفسيرها أنه ربما يكنىٰ بالنسيان عن الترك ، لأنه لازمه إذ الشيء إذا نسي ترك . والعزم القصد اللازم إلى الشيء[١٢] .

وفي تفسير القمي في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **ولقد عهدنا إلىٰ آدم فنسي ولم نجد له عزما** ﴾ قال: في ما نهاه عنه من أكل الشجرة .

وفي تفسير العياشي عن جميل بن دراج ، عن بعض أصحابنا ، عن أحدهما ـ عليهما السلام ـ قال : سألته كيف أخذ الله آدم بالنسيان ؟ فقال : إنه لم ينسى . وكيف ينسىٰ وهو يذكره ويقول له إبليس: ﴿ **ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين** ﴾[١٣] .

بعد هذا نقول إنه ـ عليه السلام ـ قد سأل الله ذلك ، إما لأن هذه الحاجات نواقص يريد من الله أن ينبهه ويعرفه عليها حتىٰ يستطيع أن يكملها بصورة أو بأخرىٰ . أو أنه يسأل الله ـ سبحانه ـ بصورة غير مباشرة أن

---

(١١) سورة طه : الآية ، ١١٥ .

(١٢) الميزان ج ١٤ ، ص ٢١٩ .

(١٣) سورة الأعراف : الآية ، ٢٠ .

يقضي له حاجاته التي لا يعلمها غيره سبحانه ، وذلك من باب التلويح لا التصريح ، ومن باب الكناية وهي أبلغ ؛ لأن المخاطب بذلك أحكم الحكماء .

## ذُلُّ النّفس

ثم أخذ ـ عليه السلام ـ في الإستغاثة بقوله : ( إلهي أخرجني من ذل نفسي ) . وذل النفس ينصرف إلى الإسباب التي ينتج عنها ذل الإنسان فيسبب بذلك احتقاره بين الناس . اما ذل النفس المعروف الذي أمر الإنسان به فانه لا شك شيء ممدوح ؛ لأن الإنسان إذا أذل نفسه فقد روضها ، وإذا روضها فإن ذلك ينتج عنه الإنضباط الشرعي ، وهذا لا يقابله عزة النفس التي يكون بها الإنسان عزيزاً فقد ذكروا بأن أحد الحكماء سألوه : كم المسافة ما بين الإنسان وبين الله ؟ فأجاب : قدم واحد تضعها على نفسك فتصل بذلك إلى الله .

وقد يتوجه هذا بنحو آخر ، وهو أن إخراجه من ذلّ نفسه يعني إبعاده عمّا يسبب له الإحتقار بين الناس ، وذلك بسبب العيوب التي لا يشعر بها الإنسان ، ولكن الله ـ سبحانه ـ يعلمها ، فإذا أراد بالإنسان خيراً أبعده عنها قبل أن تصدر عنه ، وبذلك يتجرد عن العيوب ، بلطف الله وعنايته ويخرج من ذلّ النفس .

وفي توجيه آخر لمعنىٰ العبارة هو أن النفس إذا الحّت على الإنسان بارتكاب المعاصي سببت له عدم المبالاة ، وبذلك يرتطم الإنسان في هذا الخضم من الذنوب التي ارتكبها ، فيصاب بين الناس بالذلّ والهوان ، وفي هذا المعنىٰ ورد في المتواتر من الأخبار عن أهل البيت الطاهر ـ عليهم السلام ـ : ( من أراد عزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان ، فليخرج من ذلّ معصية الله إلى عز طاعته ) .

والحديث عن النفس وما تجره على صاحبها من ذلّ وهوان ، أو خير أو شر حديث سهل وصعب في آن واحد ، فهو سهل لأن الإنسان يتحدث بذلك عن نفسه . وهي أقرب ما كان إليه من الأشياء ، فهو يعرف ما تسوله إليه وما تأمره به من خير أو شرح .

وصعب إذا كان هذا الحديث عن النفس الإنسانية عامّة ؛ لأن الإنسان يصعب عليه أنه يعلم ما في نفس غيره من الناس ، فالحديث عنها حديث عن سر غامض .

ولذلك فانه ـ عليه السلام ـ التجأ إلى ربه بقوله ( أخرجني ) لأنه لا يمكن لأحدٍ أن يتصرف في النفس وميولها وغرائزها وصرفها عن السوء الذي تأمر به إلّا الله ـ سبحانه ـ لأنه هو مقلب القلوب والأبصار ، ولأن ذلك من علم الغيب .

وقد تحدثنا عن ذلك في الجزء الأول من الكتاب عن أقسام النفس وما تجره من خير أو شر ( صفحة ٣٧٧ ) .

## الطّهارة من الشك والشرك

تحت هذا العنوان يأتي قوله ـ عليه السلام ـ ( وطهرني من شكي وشركي قبل حلول رمسي ) وسنحاول أن نستجلي هذه العبارة بشكل مبسط ، وبمعنىً لا يخرج عن الإدراك المألوف . وقد مرّ معنا في مطاوي الأبحاث السابقة تفسير معنىٰ الشك ، وقلنا بأنه ( هو تردد العقل بين طرفي النقيض ) .

وقبل أن نتوغل في شرح هاتين الكلمتين بصورة عامة ونسبتهما إلى الإمام ينبغي أن ننبه على أن في العبارة المطروحة للبحث طباقاً بين قوله ( وطهرني ) وقوله ( وشركي ) ، وذلك لأن الشرك بخس ، ونظير هذا ما جاء عن الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء ـ عليها السلام ـ في خطبتها الشهيرة

وهو قولها : ( فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك ) فجعلت الإيمان طهارة في مقابلة نجاسة الشرك ، وإلى هذا أشار الكتاب العزيز في قوله تعالى ﴿ **إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا** ﴾(١٤) جاء في تفسيرها : كل مستقذر نجس . يقال : رجل نجس ، وامرأة نجس وقوم نجس : لأنه مصدر ، وإذا استعملت هذه اللفظة مع الرجس قيل : رجس نجس ـ بكسر النون ـ قاله الطبرسي .

والنهي عن دخول المشركين المسجد الحرام بحسب التفاهم العرفي يفيد أمر المؤمنين بمنعهم عن دخول المسجد الحرم ، وفي تعليله ـ تعالى ـ منع دخولهم المسجد بكونهم نجساً اعتبار نوع من القذارة لهم ، كاعتبار نوع من الطهارة والنزاهة للمسجد الحرام ، وهي كيف كانت أمر آخر وراء الحكم باجتناب ملاقاتهم بالرطوبة وغير ذلك(١٥) .

بعد هذا التمهيد نعود إلى نص العبارة في تأمل فنراها تحتمل عدة وجوه منها :

**الوجه الأول** : إن قوله ـ عليه السلام ـ ( وطهرني من شكي وشركي ) هو مبالغة في التواضع ، وذلك لأنه قد تجاهل صفة الإيمان العالية التي كان عليها ، وليس من الغريب أن يحدث ذلك من الإنسان العاقل إذا بالغ في الطاعة والتخشع ، فإن تجاهل الإنسان لصفة حسنة من صفاته يريد أن يحقق المزيد من هذه الصفة ، وإن كان قد بلغ فيها الغاية فإن تجاهله لذلك لا يعدو كونه تواضعاً .

**الوجه الثاني** : هو أن قوله ـ عليه السلام ـ ( وطهرني من شكي وشركي ) لا يعدو كونه إشارة إلى أنه من الجنس الذين كانوا يعتريهم ذلك ،

---

(١٤) سورة التوبة : الآية ، ٢٨ .

(١٥) تفسير الميزان ج ٩ ، ص ٢٢٩ .

من شك وشرك ، وغير ذلك من الوساوس التي تعتري الإنسان وتخطر بباله . وقد مرّ بنا في الجزء الثاني من أحوال يونس قوله ـ تعالى ـ ﴿ **لا إله إلاّ أنت سبحانك اني كنت من الظالمين** ﴾[16] وما ذكره في ذلك السيد المرتضىٰ علم الهدىٰ ـ رضوان الله عليه ـ من أنه من الجنس الذي من طبيعتهم ممارسة الظلم أو من شأنهم أن تعتريهم نزعة الظلم ، ولكن يونس لم يقل : إني ظالم . وقد أشار إلى هذه الطبيعة البشرية الشاعر بقوله :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد     ذا عفة فلعلّةٍ لا يظلم

**الوجه الثالث** : هو أن قوله هذا نيابة عن أهل الموقف الذين ليس لهم ما كان له ، وليس عندهم ما عنده ، ولا يتصفون بما يتصف به من العلم والمعرفة والعصمة ، فكأنه يدعو بلسانهم ويتوسل لهم عند الله ، ويشركهم في دعائه خوفاً من تبعض الصفقة . فوجوده ـ عليه السلام ـ في ذلك الموقف يختلف عن وجود غيره لأن الناس في ذلك المكان ينتفعون بوجوده إذ يدعو لهم ، ودعاؤه مستجاب لعدم وجود الموانع من الإستجابة ، بل وجوده في كل مكان خير لأهله ، فأينما حل فقد حلت البركة ونزلت الرحمة .

**الوجه الرابع** : إن قوله هذا لم يخرج عن كونه دعاء ، فهو على حد الإستعاذة من الشك والشرك ، وعلى حد الإستعاذة من الشيطان الرجيم المأمور بها عند قراءة القرآن ، وغير ذلك من العبادات . فقوله ـ عليه السلام ـ : ( وطهرني من شكي وشركي ) هو في قوة قوله : أبعدني عن الشيطان الرجيم ؛ لأنه هو السبب في الإغواء والإبعاد عن طريق الحق .

بقي أن نقول : إن اضافة الشك والشرك إليه ، أو نسبتهما إليه هل

---

(١٦) سورة الأنبياء : الآية ، ٨٧ .

هما من الحقيقة في شيء ؟ ! هذا لا يمكن أن يكون ، وإلاّ لاجتمع النقيضان كإمام معصوم ، ومشرك بالله . ولكن ربما يقال في ذلك أن الشك والشرك هما اللذان يتورط فيهما الإنسان كانسان ، وأنا أحد أفراد الإنسان ، وهذا ما أشرنا إليه من قبل بانه مبالغة في التواضع ، والخضوع لله ـ تعالى ـ إذ قد تناسى صفة العصمة العالية ، وساوى نفسه بالناس ، واغمض الطرف عن ذلك .

ثم نقول أيضاً : إن ذلك ليس غريباً ان يسأل الله النجاة من عثرات الزمان ، ويلتجيء إليه في كل حال ، وان كان معصوماً ، فإن الشرف والرفعة ، والعصمة والمعرفة ، كل ذلك لا يأتي إلاّ من عند الله ـ سبحانه ـ ، فهو متفضل على الإنسان ، معصوماً كان أو غير معصوم ، والمعصوم هو أعرف بمقام ربه من غيره .

وهذا كله من مطالب الدنيا التي تؤهل للسعادة الأبدية ، ويرسم بذلك مستقبله في الدار الأخرة ، وبذلك ذيّل العبارة بما يشعر بهذا في قوله : ( قبل حلول رمسي ) . وتأخذك الرهبة من هذا الإسلوب العجيب الذي يهزّ المشاعر ، فحلول الرمس يعني : ( الموت ) أي قبل أن اموت ، ولكنه لم يعبّر بهذا ؛ لأنها كلمة قد تداولتها الألسن ، ولاكتها كثيراً ، وسمعتها الآذان حتى مجتّها فوصلت فيها إلى التخمة ، فصارت كلمة سمجة عادية ، لا تنفعل منها النفس ، ولا تهتز لها .

ولكن العبارة المطروحة بين يدي البحث صوّرت القبر مكاناً يحلّه الإنسان ، وليس معه احد إلاّ عمله ، فإضافة الرمس إلى ياء المتكلم دليل على اختصاصه بذلك وتفرده به ، وهذا من أروع ما يعبر به عن تلك الوحدة الموحشة .

ثم نعود فنقول : إن العمل اما أن يكون مقبولاً أو غير مقبول ، وهو لا يكون مقبولاً مع الشك والشرك حتماً ؛ ولذلك استبعدهما الحسين

ـ عليه السلام ـ في كلامه ، وطلب الطهارة ، ومعناه النجاة منهما ، وما عدا ذلك فإنه يغفر .

## الإنتصار بالله

ثم انتقل إلى مطالب اخرى وعلى رأسها الإنتصار ؛ لأن النصر لا يأتي إلاّ من عنده فقال ـ عليه السلام ـ : ( بك انتصر فانصرني ) . والإنتصار بالله هو في معنى الإلتجاء إليه ، غير أن في كلمة ( انتصر ) من الدقة في الإختيار ما يأخذ باللب ، فهو لم يقل ( استنصر ) بمعنى أطلب النصر ، وفي كلمة العبارة ( انتصر ) يعني ان النصر حليفي إذا ما تدخل عنصر المدد الإلهي الخفي . وفي هذا الكلام تلويح بأن نصرته ـ عليه السلام ـ لله معدة ، فلا يمكن أن ينتصر الإنسان بالله ، أو يطلب النصر منه إلاّ إذا كان ذلك في مرضاته ؛ لكي يترتب عليه مضاعفة الأجر والثواب في الدنيا والآخرة . وهذا ما أشار إليه قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت اقدامكم** ﴾[١٧] . فقد ورد في تفسيرها : أي إن تنصروا دين الله ونبي الله بالقتال والجهاد ( ينصركم ) على عدوكم ( ويثبت اقدامكم ) أي يشجعكم ويقوّي قلوبكم ؛ لتثبتوا . وقيل : ينصركم في الآخرة ، ويثبّت اقدامكم في الدارين . قال قتادة : حق على الله أن ينصر من نصره ؛ لقوله : ﴿ **إن تنصروا الله ينصركم** ﴾ ، وان يزيد من شكره ؛ لقوله : ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾[١٨] ، وان يذكر من ذكره ؛ لقوله : ﴿ **فاذكروني اذكركم** ﴾[١٩] ، وان يوفي بعهد من اقام على عهده ؛ لقوله : ﴿ **وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم** ﴾[٢٠] هكذا ذكره في

---

(١٧) سورة محمد : الآية ، ٧ .
(١٨) سورة إبراهيم : الآية ، ٧ .
(١٩) سورة البقرة : الآية ، ١٥٢ .
(٢٠) سورة البقرة : الآية ، ٤٠ .

مجمع البيان[21] .

إذا فالفعل المضارع ( أنتصر ) يكفي في طلب النصرة من الله دون فعل الأمر ( فانصرني ) ، وعليه فإن الإتيان به من باب التركيز والتأكيد على الطلب .

والمعنى العام للعبارة : ان النصر لا يأتي إلاّ من عندك فانصري ؛ لأني أسعى في مرضاتك ، والنصر على عدوّي هو النصر على عدوك ؛ لأن لا أحب إلاّ من أحببت ، ولا أبغض إلاّ من أبغضت .

## مطالب متفرقة

ثم انتقل ـ عليه السلام ـ إلى مطلب آخر وهو ( وعليك أتوكل فلا تكلني ) . وقد ذكرنا في الجزء الثاني ص ١٧٤ وص ١٨٠ من الكتاب معنى التوكل والتواكل ، وقلنا : بأن التوكل هو تفويض الأمور إلى الله ـ سبحانه ـ والتواكل هوان يلقي الإنسان كلّه على غيره ، ويعتمد على الناس ، ويؤمل من الله مالا يكون .

ثم قال ـ عليه السلام ـ : ( واياك أسأل فلا تخيبني ) . قدم الضمير المنصوب المنفصل ؛ لكي يخص الله بالسؤال دون غيره ، وبذلك يظهر أنه ـ عليه السلام ـ غير محتاج إلى أحد ، أو أنه لا يريد أن يسأل احداً غير الله في مثل ذلك الموقف العظيم . وبذلك يتجلى الإخلاص في المسألة ، والرغبة في ما عند الله ، ولذلك فانه اردف بقوله : ( فلا تخيبني ) ؛ لأن الإخلاص في الدعاء والمسألة وتخصيصه بالله دون غيره لا يمكن أن يخيب فيه ظن السائل ؛ لأن الخيبة في مثل ذلك اليوم ، وفي مثل ذلك الموقف ، وفي مثل ذلك الإخلاص خيبة كبيرة ، وخسران مبين . فإذا لم يستجيب

---

(٢١) مجمع البيان ج٩ ص١٤٩ .

سؤال الإنسان في مثل ذلك الوقت فليس له أمل بعد ذلك في استجابة أي دعاء في أي وقت .

ثم قال ـ عليه السلام ـ : ( وفي فضلك أرغب فلا تحرمني ) . والحرمان من فضل الله يعني حرمان من الخير كله ؛ وذلك لأنه لا ينال الفضل إلّا من عنده . وفي اضافة الفضل إليه ـ تعالى ـ دليل على أنه لا يرغب في فضل غير الله ؛ لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ يؤتي الفضل من يشاء ، وهذه ما نطق به الكتاب العزيز بقوله : ﴿ **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾[٢٢] . قال في مجمع البيان : ذو المن العظيم على خلقه ببعث محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ .

وروى محمد بن أبي عمير عن هشام بن سالم يرفعه ، قال : جاء الفقراء إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ ، فقالوا : يا رسول الله إن للأغنياء ما يتصدقون ، وليس لنا ما نتصدق ، ولهم ما يحجون ، وليس لنا ما نحج ، ولهم ما يعتقون ، وليس لنا ما نعتق . فقال ـ صلى الله عليه وآله ـ : من كبّر الله مائة مرة كان افضل من عتق رقبة ، ومن سبّح الله مائة مرة كان افضل من مائة فرس في سبيل الله يسرجها ويلجمها ، ومن هلل الله مائة مرة كان افضل الناس عملاً في ذلك اليوم إلّا من زاد . فبلغ ذلك الأغنياء فقالوه ، فرجع الفقراء إلى النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ فقالوا : يا رسول الله قد بلغ الأغنياء ما قلت فصنعوه ، فقال ـ صلى الله عليه وآله ـ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء[٢٣] .

ويظهر من ذلك أن الفضل المشار إليه ، والذي ذكره في العبارة المطروحة ليس في متناول يد الإنسان ، ولكنه بيد الله ، وهو المتصرف في شؤون خلقه ، وما يصلحهم ، فإن شاء تفضل وإن شاء منع ؛ ولذلك فإنه

(٢٢) سورة الجمعة : الآية ، ٤ .

(٢٣) مجمع البيان (ج١٠ ص٤٢٩) .

ـ عليه السلام ـ أشفق من أن يحرم من هذا الفضل فقال : ( فلا تحرمني ) .

ثم قال ـ عليه السلام ـ ( وبجنابك أنتسب فلا تبعدني ) والإنتساب هو العلاقة التي تكون بين شيئين ، أو بين شخصين فعندما ينتسب أحدهما إلى الآخر يكونان علاقة لا يمكن أن تنقطع ومن ذلك ( ياء النسبة ) مثل قولك : عراقي ، أو بحراني ، فإنه لا يمكن أن تقطع علاقة العراقي بالعراق ، أو علاقة البحراني بالبحرين في مثل تلك الحال ، وكذلك قولك : ربّاني أي منسوب إلى ربه ، وعلاقته به لا تنقطع ، وعلى ضوء ذلك فانتسابه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ يجتمع فيها كثير من الأمور فمنها :

١ ـ الأمان ؛ لأنه مأوىٰ الخائفين وعصمة اللاجئين .

٢ ـ ومنها الغني ؛ لأنه إذا انتسب إلى الله قرب منه ، وإذا قرب منه صار محبوباً ، فإذا سأل أعطي ، وإذا دعا أجيب . هذا هو شأن القريب وقد تقدم بحث ذلك في كلام سابق من هذا الجزء ؛ ولهذا فإنه عقب بقوله ـ عليه السلام ـ ( فلا تبعدني ) لأن البعد مباين للقرب ، فهو مباين أيضاً لأحواله .

٣ ـ ومنها راحة البال والضمير فلا تساوره أوهام أو شكوك بسبب البعد ، وذلك لأن الضمير الحي ، والنفس اللوامة لا يتركان صاحبهما من العتاب ، ولكن بقربه من الله وانتسابه إليه بنتفي كل ذلك .

## طرد السائل

ثم صور نفسه ـ عليه السلام ـ بصورة السائل الفقير الذي يعتريه الذل من الوقوف بالباب فقال : ( وببابك أقف فلا تطردني ) . وهذا التصوير الرائع الذي رسم الحالة التي يكون عليها الناسك في ذلك اليوم الأغر ، فاوجد فيها من وجوه الشبه الكثيرة ما بين الحالتين هي أوضح صورة تترائىٰ

للإنسان في ذلك الموقف الرهيب ، فإنه بمقدار ما يتجلى ذل السائل عندما يقف على البـاب تتجلى عظمـة الخالق المسؤول ، إلّا أن البـاب إذا كان مفتوحاً مشرعاً فإن السائل ينبعث فيه الرجاء للإستجابة ، بل يعتريه الـطمع فيكثر من الإلحاح في المسألة ، ويذكر جميع حاجاته .

وقد تعرضت العبارة لعادة انسانية طبيعية ، ولكنها كريهة مستهجنة ، وهي طـرد السائـل بتصرف غيـر معقـول ؛ وذلـك لأن الـطرد هـو اعتـداء باللسان ؛ لأنـه جرح لكـرامة الإنسـان . وقد نهى البـاري ـ عز وجـل ـ : عن ذلك في كثير من الذكر الحكيم منها قولـه تعالى : ﴿وأمـا السائـل فلا تنهر﴾[٢٤] . فقد جـاء في تفسيرهـا : أي لا تنهر السـائل ولا تـرده إذا أتاك يسألك ف قـد كنت فقيراً، فـإما أن تـطعمه، وإمـا أن ترده رداً لينـاً . وفي الحديث عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ: إذا أتاك سائل على فرس باسط كفيه فقد وجب له الحق ولو بشق تمرة. قال أبو مسلم: يريد كما أعطاك الله ورحمك وأنت عائل، فاعط سائلك وارحمه. وقال الجبائي المراد بها جميع المكلفين وان كان الخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وآله ـ وقيل: ان المراد بالسائل طلب العلم.

فالله ـ سبحانه ـ اكرم من أن يـرد سائـلاً وقف ببابـه ؛ لأنه ينهى عن الطرد والردّ ؛ لأنه لؤم وبخل ، وذلـك يتنافىٰ مـع صفة الـرحمة والكـرم ، ولأجل هذا فإنه ـ عليه السلام ـ قد ذيّل العبارة بقوله : ( فلا تطردني ) وكله ثقة بالله ـ سبحانه ـ أن لا يطرده من بابه ، ولو لم تكن تلك الثقـة موجـودة مسبقاً لما وقف بالباب ، فطلبه عدم الطرد لا يعني خـوفه من الـطرد ولكنه دعاء ، والدعاء في ذاته عبادة ، والعبادة يحبها الحسين ـ عليه السـلام ـ ، ويعلم بان الله يحب أن يراه على هذه الحال من الخضوع والتضرع ـ كمـا سبق الحـديث عن ذلك في أبحـاث الكتاب وعلى الخصـوص في الجـزء الأول ـ .

---

(٢٤) سورة الضحى الآية ١٠ .

قال عليه السلام :

**( اِلٰهي تَقَدَّسَ رِضاكَ اَنْ تَكُونَ لَهُ عِلَّةٌ مِنْـكَ ، فَكَيْفَ تَكُونُ لَـهُ عِلَّةٌ مِنِّي . اِلٰهي اَنْتَ الْغَنِيُّ بِذاتِكَ اَنْ يَصِلَ اِلَيْكَ النَّفْعُ مِنْكَ ، فَكَيْفَ لا تَكُونُ غَنِيّاً عَنّي ) .**

## اللُّغَةُ

**تقـدس** : التقديس تنـزيه الله ـ عـز وجل ـ وهـو المتقدس القـدّوس المقـدس ، والقدس هـو الطهـارة ، والقدّوس الـطاهر المنـزه عن العيوب والنقائص .

والتقـديس التطهيـر والتبريـك ، وتقدس أي تـطهر ، وفي التنـزيـل العزيز : ﴿ **ونحن نسبّح بحمدك ونقدس لك** ﴾[1] . قال الزجـاج : معنى نقدس لك أي نطهر أنفسنا لك ، وكذلك نفعـل بمن أطاعـك نقدسـه أي نـطهره، وبيت المقـدس أي البيت المطهـر، أي المكـان الـذي يتـطهـر بـه من الذنوب ، والنسبة إليه مقدسي ومقدسي ـ بتشديد الدال ـ قال امرؤ القيس :

فـأدركنه يـأخذن بـالسـاق والنسـاء كما شبرق الولدان ثوب المقدسي

(١) سورة البقرة : الآية ، ٣٠ .

**وروى** : القدس جبرائيل ؛ لأنه خلق من طهارة . وفي الحديث : ( لا قدست أمة لا يؤخذ لضعيفها من قويها ) أي لا طهرت .

**رضاك** : الرضا ضد السخط . وفي حديث الدعاء : ( اللهم إني اعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، واعوذ بك منك ، لا احصي ثناء عليك ، أنت كما اثنيت على نفسك ) .

ورضيت عنك وعليك رضىً مصدر محض ، والاسم الرضاء ـ عن الاخفش ـ . قال العقيلي :

إذا رضيت عليّ بنوقشير لعمر الله اعجبني رضاها
ولا تنبو سيوف بني قشير ولا تمضي الأسنة في رضاها

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم** ﴾[٢] . قالوا في تأويله إن الله ـ تعالى ـ رضي عنهم افعالهم ، ورضوا عنه ما جازاهم به . وترضاه طلب رضاه . قال الشاعر :

إذا العجوز غضبت فطلّقِ ولا ترضاها ولا تملق

**النفع** : ضد الضر ، نفعه ينفعه نفعاً . ومن أسمائه ـ تعالى ـ النافع ، قال أبو ذؤيب :

قالت امية مالجسمك شاحباً منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع

ورجل نفوع ونفاع كثير النفع ، والنفيعة والمنفعة اسم ما انتفع به .

ونافع ونفاع ونفيع اسماء . قال ابن الإعرابي : نفيع شاعر من تميم . والنفعة العصا ، وانفع الرجل إذا اتجر في النفعات وهي العصي .

---

(٢) سورة المائدة : الآية ، ١١٩ .

استهـل هـذه الفقـرة بـالإبتهـال إلى ربـه بلون آخـر ، والأئمـة ـ عليهم السلام ـ عندما يقفون بين يدي رب الأرباب يعرفون من يخاطبون ، ويعلمون كيف يتكلمون ، وذلك عندما تتجلىٰ عظمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في قلوبهم فتطفح على ألسنتهم في أروع بيان في مثل قوله ـ عليه السلام ـ ( الهي تقدس رضاك أن تكون له علّة منك ) والتقديس هو التنزيه بحسب ما ورد في بحث اللغة .

وفي محاولة لرفع الإبهام والغموض في معنىٰ العبارة نقول :

## رِضَا الله

إن رضـا الله ـ سبحانـه وتعالى ـ ليس صفـة مكتسبـة ، أو بسبب من الأسبـاب التي تكون منـه ـ سبحـانـه ـ أو من غيـره ؛ لأن ذلـك صفـة من صفاته ، ولأننا قد قلنا في ما سبق من أبحاث الكتاب : إن صفـاته عين ذاته ، ووجوده أزلي ولا يمكن تخلف هذه الصفة عنه .

وقد قلنا في بحث اللغة أيضاً : ان صفة الرضا ضد السخط . وعلى هذا فإن قوله ـ تعالى ـ ﴿ **خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضـوا من الله والله بصير بالعباد** ﴾[3] يعني هو أن يلائم الأمر الواقع نفس صاحبه من غيـر أن يمتنع من شيء ، ويدافعـه ، ويقابله السخط . وقـد تكرر في القـرآن ذكر رضا الله ـ سبحانه ـ وهو منه ـ تعالى ـ كما يتصور بالنسبة إلى فعل عبادة في بـاب الطاعـة ، كذلـك يتصور بـالنسبة إلى غيـر باب الـطاعة كـالأوصاف والأحوال وغير ذلك ، إلا أن جلّ المـوارد التي ذكر فيهـا أو كلها من قبيـل الرضا بالطاعة ؛ ولذلك ربما قوبل بينه وبين رضا العبد ، فرضـاه عن عبده لطاعته ، ورضا العبد عنه لجزائـه الحسّي ، أو لحكمه ، كقـوله تعـالى :

(٣) سورة آل عمران : الآية ، ١٥ .

﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾[٤] قاله في الميزان .

ثم يواصل كلامه ـ عليه السلام ـ على هذا النسق فيقول : ( فكيف تكون له علّة مني ؟ ! ) . والإستفهام ليس على حقيقته ، ولكنه مشوب بالتعجب ، فكأنه ـ عليه السلام ـ يقول : إن رضاك لم تكن له علّة منك ، ومعناه لم يكن له سبب تخلقه عند الرضا ؛ لأنه صفة من صفاتك ، وهي عين ذاتك ، فكيف يكون رضاك ياالهي بسبب اخلقه أنا ؟ !

لانقول : ان العمل الصالح والطاعة من العبد سبب للرضا ، وهذا كاف في خلق السببية لرضا الله ـ سبحانه ـ .

لانا نقول : ان المشيئة التامة لله ـ سبحانه ـ ، وله التصرف في خلقه كما يشاء ، فيرضىٰ عمن يرضىٰ ، ويسخط على من يسخط ، فلو شاء ادخل الجنة العاصي لفعل ، ولو شاء ان يدخل النار المطيع لفعل ، ولا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ، غير ان عدله ـ سبحانه ـ يحول بين ذلك .

## الغنى المنسوب إليه تعالى

ثم يقول ـ عليه السلام ـ مواصلاً التضرع على هذا النهج : ( الهي أنت الغني بذاتك أن يصل إليك النفع منك ) . قال في مصباح الكفعمي : الغني هو الذي استغنى عن الخلق وهم إليه محتاجون ، فلا تعلق له بغيره ، لا في ذاته ولا في شيء من صفاته ، بل يكون منزها عن العلاقة عن الغير ، فمن تعلقت ذاته أو صفاته بأمر خارج عن ذاته يتوقف في وجوده أو كماله عليه فهو محتاج إلى ذلك الأمر ، ولا يتصور ذلك إلّا في الله ـ تعالى ـ .

ويقول علماء البلاغة : ان تقديم ضمير الخطاب وجعله مسندا إليه ( أنت ) ثم يؤتى بالمسند محلى بالألف واللام يدل على اختصاصه

(٤) سورة البينة : الآية ، ٨ .

ـ سبحانه ـ بصفة الغنى ، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ **وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء** . . الآية ﴾[٥] . قال في الميزان : هذا بيان لنفي الظلم عنه تعالى في الخلقة .

**وتوضيحه** : إن الظلم وهو وضع الشيء في غير موضعه الذي ينبغي أن يوضع عليه ، وبعبارة أخرى إبطال حق ، إنما يتحقق من الظلم بأخذ شيء أو تركه لأحد أمرين ، إما لحاجة منه إليه بوجه من الوجوه كأن يعود إليه أو إلى من يهواه منه نفع ، أو يندفع عنه أو عمّا يعود إليه بذلك ضرر ، وإما لا لحاجة منه إليه بل لشقوة باطنية ، وقسوة نفسانية ، لا يعبأ بها بما يقاسيه المظلوم من المصيبة ويكابده من المحنة ، وليس ذلك منه لحاجة بل من الملكة المشؤومة .

والله ـ سبحانه ـ منزه من هاتين الصفتين السيّئتين فهو الغني الذي لا تمسه حاجة ولا يعرضه فقر ، وذو الرحمة المطلقة التي ينعم بها على كل شيء بما يليق بحاله ، فلا يظلم ـ سبحانه ـ أحداً ، وهذا هو الذي يدل عليه قوله ﴿ **وربك الغني ذو الرحمة** . . الآية ﴾ .

ومعنىٰ الآية ، وربك هو الذي يوصف بالغنىٰ المطلق الذي لا فقر معه ولا حاجة ، وبالرحمة المطلقة التي وسعت كل شيء . ومقتضىٰ ذلك أنه قادر على أن يذهبكم بغناه ، ويستخلف بعدكم ما يشاء من الخلق برحمته[٦] .

ونعود بعد ذلك إلى العبارة لتأملها على ضوء الآية فنقول : إنه ـ عليه السلام ـ عندما خصصه بالغنىٰ كأنه كان يشير إلى التعريض بالرحمة التي وسعت كل شيء ، لأن الغني من شأنه عدم الحاجة إلى الظلم أو القهر

---

(٥) سورة الأنعام : الآية ، ١٣٣ .
(٦) تفسير الميزان ج ٧ ، ص ٣٥٦ .

وإنما من شأنه العطف والرأفة ، وهذا الغنىٰ الذي وصفه به لا يأتيه من جهة ، أو يصل إليه من أحد ليحصل له النفع بذلك ، فهو يقول : أنت الغني بذاتك ولكن غناك لا تنتفع به أنت لأنك غير محتاج إلى شيء بموجب الغنىٰ كما ذكرنا ، وإنما ينتفع به غيرك من عبادك بموجب رحمتك .

فإذاً غناك هو الذي يصل إلى غيرك ، ولا يصل إليك ، لأنه نفع وأنت منزه عن ذلك ، فكيف يصل إليك غنىٰ غيرك ، وتنتفع به أنت ، إن هذا إلّا محض خيال . وهذا ما أشار ـ عليه السلام ـ بقوله ( فكيف لا تكون غنياً عني ؟ ) لأن غناي أستمده منك ـ كما قدمنا ـ ، وأنا عالة عليك ، فكيف تحتاج إلي وأنت قاضي حاجاتي ؟ ! وهكذا نرىٰ التملق والإستعطاف فريداً من نوعه ، عجيباً في بابه ، وحيداً في معناه .

قال عليه السلام :

( اِلٰهي اِنَّ الْقَضٰاءَ وَالْقَدَرَ يُمَنّيني ، وَاِنَّ الْهَوىٰ بِوَثٰائِقِ الشَّهْوَةِ اَسَرَني ، فَكُنْ اَنْتَ النَّصيرَ لي ، حَتّىٰ تَنْصُرَني وَتُبَصِّرَني ، وَاغْنِني بِفَضْلِكَ حَتّىٰ اَسْتَغْنِيَ بِكَ عَنْ طَلَبي ) .

## اللُّغَة

**الهوى** : متصور هوى النفس ، وهوى النفس إرادتها ، والجمع الأهواء . قال اللغويون : الهوى محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه . قال الله تعالى : ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾[1] معناه هوى الضمير وهو الحب . ومتىٰ تكلم بالهوىٰ مطلقاً لم يكن إلّا مذموماً حتىٰ ينعت بما يخرج معناه ، كقولهم هوىٰ حسن ، وهوىٰ موافق للصواب قال أبو ذؤيب :

سبقوا هويّ واعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع

**وثائق** : الوثائق جمع الوثيقة وهو إحكام الأمر والأخذ بالثقة . وفي حديث الدعاء : ( واخلع وثائق أفئدتهم ) جمع وثاق أو وثيقة الوثيق الشيء المحكم . ووثقت الشيء توثيقاً فهو موثق والموثق والميثاق العهد صارت الواو ياءً لأنكسار ما قبلها .

---

(١) سورة النازعات : الآية ، ٤٠ .

والميثاق في الأصل الوثاق وهو حبل أو قيد يشد به الأسير والدابة قال ـ تعالى ـ ﴿ **فشدوا الوثاق** ﴾(٢) .

**الشهوة** : شهي الشيء وشهاه شهوة واشتهاه وتشهاه أحبه ورغب فيه ، والتشهّي إقتراح شهوة بعد شهوة ، وطعام شهي أي مشتهاً . وتشهيت على فلان كذا ، وهذا شيء يشهيّ الطعام أي يحمل على إشتهائه ، ورجل شهواني إذا كان شديد الشهوة والجمع شهاوىٰ كسكارىٰ . وفي الحديث ( **إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية** ) قالوا : ذهب بعض الناس إلى شهوة النساء وقيل الشهوة الخفية من الفواحش مالا يحل مما يستخفي به الإنسان ، إذا فعله أخفاه وكره أن يطلع عليه الناس . وقيل : الرياء ما كان ظاهراً من العمل ، والشهوة الخفية حب اطلاع الناس على العمل . قال ـ تعالى ـ ﴿ **وحيل بينهم وبين ما يشتهون** ﴾(٣) . وقال الشاعر :

وأشعث يشهىٰ النوم قلت له ارتحل      إذا ما النجوم أعرضت واسبكرت

**أسرني** : الإسار القيد ويكون حبل الكتاف ، ومنه سمي الأسير وكانوا يشدونه فسمي كل أخيذ اسيراً ، وإن لم يشد به ، يقال أسرت الرجل اسراً وإساراً فهو أسير ومأسور ، والجمع أسرىٰ وأسارىٰ . ويقول إستأسر أي كن أسيراً لي .

ويقال للأسير من العدو : أسير لأن أخذه يستوثق منه بالإسار وجمعه أسرىٰ مثل مريض ومرضىٰ ، ومن قرأ أسرىٰ وأسارىٰ فهو جمع الجمع .

وجاء القوم بأسرهم أي بجميعهم وخلقهم . والأسر في كلام العرب

---

(٢) سورة محمد : الآية ، ٤ .

(٣) سورة سبأ : الآية ، ٥٤ .

الخلق . قال ـ تعالى ـ ﴿ **نحن خلقناهم وشددنا أسرهم** ﴾[٤] أي شددنا خلقهم .

والأسر القوة والحبس ومنه حديث الدعاء ( فاصبح طليق عفوك من إسار غضبك ) .

## البَيَان

في هذه الفقرة تعرض لمسألة القضاء والقدر ، وهي مسألة من أهم مسائل علم الكلام ، وقد ركز عليها العلماء بصورة ملحوظة في بحوثهم الكلامية . وقد سبق لنا أن تعرضنا لهذا الموضوع عندما تعرض له ـ عليه السلام ـ في أول فقرة من فقرات الدعاء وذلك في أول الجزء الأول من الكتاب ( ص ٦٤ ) إلا أن في قوله ـ عليه السلام ـ : ( إلهي ان القضاء والقدر يمنيني ) والتمني في هذا السياق يعني ترغيب الإنسان فيما لا طمع فيه ، بمعنىٰ أنه لا يستطيع حصول ما يتمناه ، وهو بعكس الترجي .

فنسبة الفعل إلى القضاء والقدر يعني إطماع الإنسان في ما عند الله ـ سبحانه ـ ، فإذا طمع الإنسان في ما عند الله عمل من أجل ذلك العمل الصالح لكي يصل إلى الغاية السامية .

ولكن إلى جانب هذا فإن الهوىٰ يأسر الإنسان بوثائق الشهوة كما ذكر ـ عليه السلام ـ في قوله ( وإن الهوىٰ بوثائق الشهوة أسرني ) .

## أسر الهوى والشهوة

والهوى والشهوة هما من علائق الدنيا المادية البحتة ، فهما يصرفان الإنسان عن الطاعة التي توصله إلى المراتب العالية ، والتي يندفع الإنسان إليها بدافع القضاء والقدر ـ كما أسلفنا ـ والهوى والشهوة يمنعان الإنسان من

(٤) سورة الإنسان : الآية ، ٢٨ .

بلوغ المراتب بصرفه عن العمل بها فيحدث بـذلك التنـاقض بين اتجاهين مختلفين : العمل للدرجات العـالية ، ودافـع الهوى والشهـوة الذي يمنـع الإنسان من ذلك .

ونحن إذ نذكر الهوى والشهوة لا نعني بذلك الشهوات المحرمة ، أو الهـوى الذي يـردي الإنسان إلى مهـاوي الـردى ، ولكنـا نعني الشهـوات المباحة إذا تعلق الإنسان بها وأفرط في ممارستها فإنه ينصرف عن جدّيات الأمور ومعاليها في الحياة الدنيا . وقد أشار إلى ذلك الكتاب العزيز في قوله ـ تعـالى ـ : ﴿ **زين للناس حب الشهـوات من النسـاء والبنين والقنـاطيـر المقنطرة من الذهب والفضة** . . الآية ﴾[٥] فقـد ذكر العلمـاء وجوهـاً في تفسير هذه الآية منها :

١ ـ ان الله ـ سبحانه ـ خلق هذه النعم التي فصلها وفصل حملها في الدنيا ، وخلق عباده غير ممتنعين من حب الإستكثار منها والأنغمـاس فيها والإدّخار لها ، ثم تعبدهم ـ تعالى ـ في ذلك بخلاف مـا في طباعهم ومـا عليه فطرة خلقهم ، وأمرهم أن يأخذوا الأشياء من وجـوهها المبـاحة التي حلّلها ، ويعدل عن ما حظر عليهم منها ، ولم يأمرهم بشيء مما يحاربون فيه عواصي طباعهم ، ويجاهدون نوازع نفوسهم ، إلّا وقد جعل فيهم من القوىٰ والقدرة والإعتصام والجلل شككاً قويةً وأسلحة منيعة . يمتنعون بها في حرب الطبـاع علىٰ قراع الشيـطان ؛ لأنه تعـالى لم يأمـرهم بشيء إلّا وجعل لهم الطريق إلى تركه .

٢ ـ قال بعضهم : معنىٰ ( زين للناس حب الشهوات ) يكون : زين لهم الشيـطان حبها ؛ لأن الله ـ سبحـانه ـ قـد نهىٰ وزهدّ فيهـا ، وقد قـال الحسن البصـري : ما نعلم أحـداً اشدّ ذمـاً لها من الـذي خلقها ، فكـأن الشيـطان دعاهم إلى مـوافقة طبـاعهم ، فاتبعـوا أمره ، وخـالفـوا أمـر الله

---

(٥) سورة آل عمران : الآية ، ١٤ .

ـ سبحانه ـ ؛ وذلك كما يقول الرجل زيّنت فلاناً في عين الأمير ، إذا أثنىٰ عليه عنده ، وقرّبه من قلبه ، وأحسن من محضره في عينه وقد قال ـ سبحانه ـ : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ﴾(٦) . الأولى أن ينسب التزين إلى من عادته التزيين ، وهو الشيطان ، وينسب التزهيد إلى من عادته التزهيد ، وهو الله ـ تعالى ـ ، وأي تزهيد أعظم من قوله ـ سبحانه ـ عقيب هذا الكلام : ﴿ ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ وقوله ـ تعالى ـ في موضع آخر : ﴿ وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور ﴾(٧) وخبرّ ـ سبحانه ـ أن الحياة الدينا ظلٌ زائل ، وسنان مائل ، وخصاب ناصل .

٣ ـ وقول آخر . قال بعضهم : خلق الله هذه الأشياء إذ خلقها ، ليدل بما فيها من النعيم الفاني على ما في الآخرة من النعيم الباقي ، وجعل طباع الخلق منازعة إليها وراغبة فيها فهي مزينة من هذا الوجه الذي ذكرناه وإنما تزينيها المذموم وتحصين الإقدام عليها من الوجه المحظور ، والله ـ سبحانه ـ قد أمر عباده بالكف عنها والترك لها . لينالوا بترك الإقدام على شهواتهم العاجلة ما وعدهم به من النعم الآجلة ، والنعيم الدائم الذي لا شوب فيه ولا انقطاع له ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾(٨) ، وهذا ناطق بالغرض الذي ذكرناه كذلك خلق ـ سبحانه ـ المصائب والآلام بالدنيا ليدلّ بها على ما في الآخرة من مقادير العقاب ومآلم العذاب ، فيكون ذلك زاجراً عن مواقعة الخطيئات وارتكاب المحظورات ، وعلى هذا فسر قوله ـ سبحانه ـ في صفة النار : ﴿ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين ﴾(٩) وكأنه ـ سبحانه ـ قال : إنما

(٦) سورة الأنفال : الآية ، ٤٨ .
(٧) سورة آل عمران : الآية ، ١٨٥ .
(٨) سورة الكهف : الآية ، ٧ .
(٩) سورة الواقعة : الآية ، ٧٣ .

خلقنا النار في الدنيا وعرّفنا أليم وقعها ، ومضض لفحها ، تذكر بذلك نار الآخرة ، التي أوعدنا بها الكفار والعصاة ، فيكون الزجر أبلغ ، والإنزجار أكثر . و﴿ المقوّون ﴾ : ركّاب القواء . وهي : الأرض القفر . وإنما خص ـ سبحانه ـ المسافرين بأن لهم ـ وإن كانت أيضاً متاعاً للمقيمين ـ لأن الحاجة اليها في السفر أكثر ، وعدمها فيه أضر .

وحقيقة الشهوة أنها كالقدرة ؛ لأن متعلقها بالقبيح تردد الداعي بين الحسن والقبيح ، فيصح التكليف ، كما أن تعلق القدرة بالقبيح يصح إختياره على الحسن أو اختيار الحسن عليه ، فيجب أن يكون حسناً ؛ لاسيما وقد ثبت أنه لا نظير لها في الشاهد يعتبر حالها به في حسن أو قبيح ؛ فيجب أن يرجع في جنسها إلى أنها بفعله ـ تعالى ـ وقد ثبت أنه لا يفعل القبيح ، وإن كان وجه حسنها يعبر بما ذكرناه في أثناء هذا الكلام(١٠) .

والهوىٰ عندما يؤسر الإنسان بوثائق الشهوة يحتمل أن يكون :

١ ـ ان هذا الأسر قد يكون بزيادة تعلق الإنسان بزينة الدنيا وشهواتها ـ ونقصد المباح من ذلك ـ فهي وإن كانت غير محرمة إلاّ أنه بتتبعها يفرط في شيء كثير من أمور دنياه في جوانب أخرىٰ ، وكذلك في أمور الآخرة .

٢ ـ وإما أن تكون هذه الشهوة من المحرمات ، وهذا غير وارد بالنسبة إليه ـ عليه السلام ـ كمعصوم ؛ لأن الأشياء المحرمة لا تنسب إلاّ لمن كانت نسبتها إليه محتملة .

ثم طلب النصر من ربه بتلك الصيغة التي تخصص النصر والناصر ، ومعنىٰ ذلك أنه لا يأتي إلاّ من عنده ، فقال ـ عليه السلام ـ : ( فكن أنت النصير لي ، حتىٰ تنصرني ، وتبصرني ) .

(١٠) حقائق التأويل للشريف الرضى ج٥ ، ص ٤٨ .

قد ذكر في ما مضىٰ ما يقوله علماء البلاغة في أحوال المسند والمسند إليه ، وكلمة ( النصر ) تحصر طلب النصر منه ـ سبحانه ـ لأنه المخاطب بذلك وإلى هذا يشير قوله بعد ذلك ( حتىٰ تنصرني ) لأني لا أطلب النصر إلّا من عندك بموجب التخصيص المذكور في العبارة ، ومما يظهر من هذا النصر هو النصر المادي كقرينة قوله ـ عليه السلام ـ ( تبصرني ) ؛ لأن العطف بالواو يقتضي المغايرة ، والتبصير يعني الهداية من الداخل وإنارة القلب ، وهذا ما سوف يتعرض له في الفقرة اللاحقة ، وكأن النصر من عنده ـ تعالى ـ تثبيت للإنسان في عقيدته وإنارة له في بصيرته ؛ لأن اطمئنان القلب لا يأتي إلّا بعد اطمئنان الجوارح ، واطمئنان الجوارح لا يأتي إلّا بعد سلامتها ، وسلامتها لا تأتي إلّا بعد النصر من الله ـ سبحانه ـ الذي يطلبه الإنسان ويلح فيه ، فانظر بأم عينيك إلى هذا الأسلوب الذي رصت كلماته ، فأخذت كل واحدة للأخرىٰ وصارت جميعاً كالكلمة الواحدة لا تستطيع أن تحدث منها شيئاً ، وهذا من أروع ما يمكن أن يخاطب به الباري .

قال في حقائق التأويل : إن النصرة قد تكون بالحجة إذا ظهرت للمؤمن على عدوه عن المنازعة ، وقد تكون بما يحصل له من التعظيم والكرامة ، وللكافر من الإدالة والإهانة ، وقد تكون في الحرب بالظفر والغلبة ، وقد تكون تحمل المشقة بما يؤدي إلى الاجر والمثوبة فلذلك نقول : إن المؤمنين إذا غلبوا في الدنيا لم يخرج الكفار ـ مع ذلك من أن يكونوا مخذولين ، من حيث كان ما فعلوه مؤدياً إلى عظم النكال وأليم العقاب ، ولم يخرج المؤمنون من أن يكونوا منصورين ، من كانوا يستحقون من الله ـ تعالى ـ الثواب الجزيل والمقام الشريف ، والله ـ تعالى ـ يؤيد المؤمنين في حروب الأعداء ، وينصرهم بضروب من الألطاف ، فتارة ينصرهم بأن يمدهم بالملائكة ، وتارة ينصرهم بأن يخطر

ببالهم ما أعد لهم من نعيم الجنة ، فتقوى بذلك أنفسهم ، وتثبيت أقدامهم ، ويتضاعف إقدامهم ، وقد يؤيدهم أيضاً بإلقاء الخوف في قلوب أعدائهم ، فيكون سبباً لتمكين المؤمنين من نواصيهم ، وأنزل الكافرين من صياصيهم . وربما علم ـ تعالى ـ في بعض المواطن أن الصلاح في أن لا يؤيدهم بشيء من ذلك ، فيحملهم التكليف الصعب ، ويلزمهم الشاق من الأمر ، إذا علم تعالى أن فيه الصلاح لهم ، فلا يكون مؤيداً لهم في باب الظفر والغلبة وإن كان فاعلاً بهم الأولى في باب المصلحة[١١] .

أقول : إنما ذكره ـ رحمه الله ـ من أنواع النصر والظفر جرت له مصاديق كثيرة في كل نوع ، فمن استقرأ التاريخ الإسلامي وجد فيه كثيراً من هذه المصاديق خصوصاً أيام الرسول ـ صلى الله عيه وآله ـ وعلى الأخص في الأيام الأولىٰ من أيام الدعوة كواقعة بدر وأحد والأحزاب وغيرها من الحروب التي زلزل المسلمون فيها زلزالاً شديداً .

ثم بدأ ـ عليه السلام ـ يسأل الله السؤال الكثير ، لأنه ـ سبحانه ـ لا يعطي إلاّ الكثير قال ـ عليه السلام ـ : ( واغنني بفضلك حتىٰ أستغني بك عن طلبي ) فسؤاله ـ عليه السلام ـ ليس مجرد السؤال ، ولكنه سؤال فيه إلحاح على الله ـ سبحانه ـ إلى حدّ الغنىٰ ، فعدوله ـ عليه السلام ـ من قوله ( اعطني ) إلى قوله ( واغنني ) تشير بوضوح إلى أن العطاء لا لا يريده قليلاً ، ولكنه يريد العطاء من الله إلى حدّ الغنىٰ ، والغنى للعبد قليل عند الله كثير عند العبد ، ثم توسل ـ عليه السلام ـ لهذا السؤال بقوله : ( بفضلك ) .

## أنواع العطاء

فالعطاء بفضل الله سبحانه ـ لا شك أنه عطاء من رضي عنهم ؛ لأن

---

(١١) حقائق التأويل للشريف الرضي ج ٥ ص ٤٦ .

من العطاءات ما يكون غضباً من الله ، ومنها ما يكون استدراجاً ، قال تعالى : ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا أنّما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين** ﴾[12] .

فقد ورد في تفسيرها أنّه قد بين : إنه لا ينبغي لهم أن يفرحوا بما يجدونه من الإملاء ، والإمهال الإلهي ، فإن ذلك سوق لهم بالإستدراج إلى زيادة الإثم ، ووراء ذلك عذاب مهين ، ليس معه إلا الهوان ، كل ذلك بمقتضى سنة التكميل[13] . هذا وقد مر معنا في هذا الجزء بحيث حول هذا الموضوع ( الإستدراج ) ذكرنا فيه بعض الأخبار الدالة على ذلك .

ثم إن الإغناء بفضل الله ـ تعالى ـ يعني أن الله يبدأ العبد بالعطاء قبل السؤال ، وهذا هو معنى التفضل المشار إليه في العبارة ، كما قد يأتي معنى آخر لذلك وهو أن العطاء من الله يأتي على غير استحقاق للعبد ؛ ولهذا فقد ذيلها بقوله ـ عليه السلام ـ ( حتى أستغني بك عن طلبي ) فالإستغناء عن الطلب يعني التعويل على كرم الباري وفضله ، وذلك مبلغ الثقة بالله ـ سبحانه ـ ، وتسليم أزمة الأمور إليه يتصرف بها كيف يشاء ، وذلك مبلغ التواضع من العبد .

والسؤال المطروح كيف يستغني الإنسان عن الطلب من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو الذي يقول ﴿ **واسألوا الله من فضله** ﴾[14] والعبارة تحتمل وجهين :

**الوجه الأول** : ان الإستغناء بالله عن طلبه لما في أيدي الناس لأن من تفضل عليه وأعطاه عطاء الرضا فإن العطاء يكون جزيلاً لا يحتاج معه

(١٢) سورة آل عمران : الآية ، ١٧٨

(١٣) تفسير الميزان ج ٤ ، ص ٧٩ .

(١٤) سورة النساء : الآية ، ٣٢ .

إلى أحدٍ من الخلق بوجه من الوجوه ، وهذا ما أسلفنا الكلام فيه تواً .

**الوجه الثاني** : ان الإستغناء بالله أن الله ـ سبحانه ـ يبدأ بالتفضل على العبد قبل السؤال ، وذلك من شأنه ـ سبحانه ـ ، وإلى هذا أشار الدعاء المأثور ( يا من يعطي من سأله ، يامن يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة . . الدعاء ) .

وبهذا الإعتبار أن الغنىٰ لا يتحقق إلاّ من عند الله ، سواءً كان بسؤال أو بغير سؤال . على أن الغنىٰ المتعلق بالفضل هو من أحسن أنواع الغنى ، ونعمه من أهنىء النعم ؛ لأن ذلك مصاحباً لرضا الله وهو من أعظم النعم .

قال عليه السلام :

**( اَنْتَ الَّـذي اَشْـرَقْتَ الأَنْـوارَ في قُلُوبِ اَوْلِيـائِـكَ ، حَتّىٰ عَـرَفـوُكَ وَوَحَّدُوكَ ، وَاَنْتَ الَّذي اَزَلْتَ الأَغْيارَ عَنْ قُلوُبِ اَحِبّائِكَ ، حَتّىٰ لَمْ يُحِبُّوا سِـواكَ ، وَلَمْ يَلْجَـأوُا اِلىٰ غَيْـرِكَ ، اَنْتَ الْمُؤنِسُ لَهُمْ حَيْثُ اَوْحَشَتْهُـمُ الْعَوالِمُ ، وَاَنْتَ الَّذي هَدَيْتَهُم حَيْثُ اسْتَبانَتْ لَهُمُ الْمَعالِمُ ) .**

## اللُّغَةُ

**أشرقت** : شرقت الشمس تشرق شروقاً وشرقاً طلعت واسم الموضع المشرق ، ويقال : شرقت الشمس إذا طلعت ، وأشـرقت إذا أضـاءت . وقوله تعالى : ﴿ **يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين** ﴾[1] إنما أراد بعد المشرق والمغرب ، فلما جعل اثنين غلّب لفظ المشرق ؛ لأنه دال على الوجود ، والمغرب دال على العدم ، والوجود لا محالة أشرق ، كما يقال : القمران للشمس والقمر . والشرق المشرق والجمع اشراق . قال كثير عزة :

إذا ضربوا يوماً بها الآل زينوا      مساند اشراق بها ومغاربا

(١) سورة الزخرف : الآية ، ٣٨ .

والتشريق الأخذ في ناحية المشرق . وقال الشاعر :

سارت مشرقة وسرت مغربا شتان بين مشرِّق ومغرِّب

وفي الحديث : ( أناخت بكم الشرق الجون ) يعني الفتن التي تجيىء من جهة المشرق .

وتشريق اللحم تقطيعه وتقديده وبسطه ؛ وذلك لكي تشرق عليه الشمس ، ومنه سميت ايام التشريق .

وأيام التشريق : ثلاثة أيام بعد يوم النحر ؛ لأن لحم الأضاحي يشرق فيها للشمس ، وقيل : سميت بذلك ؛ لأنهم كانوا يقولون في الجاهلية : اشرق ثبير كيما نغير، وثبير جبل بمكة . قال الشاعر الأخطل :

وبالهدايا إذا احمرت مدارعها في يوم ذبح وتشريق وتنحار

**الاغيار** : قال في التهذيب : غير من حروف المعاني ، تكون نعتاً ، وتكون بمعنى لا . قال : ويجوز لا إله غيرك ( بالنصب ) أي لا إله إلا أنت ، قال : وكلما احللت ( غيراً ) محل ( إلا ) نصبتها .

وقيل : غير بمعنى سوى ، والجمع اغيار وهي كلمة يوصف بها ويستثنى ، فإن وصفت بها أتبعتها إعراب ما قبلها ، وإن استثنيت بها أعربتها بالإعراب الذي يجب للإسم الواقع بعد ( إلاّ ) ، وذلك أن اصل ( غير ) صفة والإستثناء عارض .

وتغير الشيء عن حاله تحول . وغيّره حوّله وبدّله ، كأنه جعله غير ما كان . وفي التنزيل العزيز : ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾(٢) أي حتىٰ يبدلوا ما أمرهم الله ، والغير

---

(٢) سورة الأنفال : الآية ، ٥٣ .

الإسم من التغير . وغير الدهر أحـواله المتغيـرة . وورد في الحديث ( من يكفر الله يلقىٰ الغير ) أي تغير الحال ، وانتقالها من الصلاح إلى الفساد . والغير جمع غيره ، وهي الدية ، قال بعض بني عذره :

لنجـذعـن بـأيـدينـا أنـوفكم   بني أميـة إن لم تـقبـلوا الغيـرا

**المؤنس** : الأنس خـلاف الوحشـة وهو مصـدر قـولـك أنست بـه ، والأنس والإستئناس هو التأنس ، وقد أنست بفلان . والأنسي منسوب الأنس كقولك جني وجن ، وسندي وسند، وهندي وهند .

والأنس البشر الواحد انسي . قال ابن جني : ويحكىٰ أن طائفة من الجن وافوا قوماً فاستأذنوا عليهم ، فقال لهم الناس من أنتم ؟ فقالوا : ناس من الجن ، وذلك أن المعهود من الكلام إذا قيل للناس من أنتم ؟ قالوا : ناس من بني فلان ، فلمـا كثر ذلـك استعملوه في الجن على المعهود في كلامهم مع الأنس ، والشيء يحمل على الشيء من وجه يجتمعان فيه وان تباين من وجه آخر .

**أوحشتهم** : هي ضد الكلمة السابقة ، وقد أشرنـا إليها ضمن ذلـك الشرح .

**المعالم** : جمع معلم ( بفتح الميم وسكون العين وفتح اللام ) الأثر يستدل به على الطريق ، ومعلم الطريق دلالته وكذلـك معلم الدين ومعلم كل شيء ، وفلان معلم للخير ، وكله راجع إلى الرسم والعلم ، والعالمون أصناف الخلق ، والعالم الخلق كله . وقيل : هو ما احتواه بطن الفلك . وقال الزجاج : معنىٰ العالمين كل ما خلق الله قال ـ تعالى ـ ﴿ **تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾[٣] .

(٣) سورة الفرقان : الآية ، ١

## البيَان

خاطب في هذه الفقرة ربه بقوله ـ عليه السلام ـ : ( أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك ) ، وإشراق الأنوار يعني بعثها من مصدرها حتى تصل أشعّتها إلى الجسم المرئي ، وهذا بدوره يعكس الأشعة الساقطة إلى عين الرائي فيحس بالإبصار ، وقد مر بنا كيفية ذلك فيما سبق من أبحاث الكتاب في معظم أجزائه في إسهاب مرة ، وفي اقتضاب مرة أخرى ؛ وذلك بحسب ما يقتضيه النص المطروح للشرح .

إلا أن العبارة المطروحة بين يدي هذا البحث قد تناولت شيئاً آخر فيما عرضته من أسلوب الإستعارة الحسية من إنارة قلوب الأولياء الصالحين الذين بعث الله في قلوبهم تلك الأنوار حتى أشرقت وأضاءت ، ويراودنا في المعنى سؤال ، وهو : لماذا هذه الإشراقة ؟ ولماذا في القلوب بالذات ؟ ولماذا لا تكون في العين فقط ؟ أو العين والقلب ؟

وحتى نأتي على جواب ذلك جميعاً نقول :

إن الله ـ سبحانه ـ قد هدىٰ الإنسان النجدين ، طريق الخير وطريق الشر ، وأمره باتباع طريق الخير وحببه إليه ، وردعه عن طريق الشر وبغضه إليه ، وقد مرّ بنا حديث مفصل في هذا الجزء عن مسألة الجبر والتفويض .

نقول ذلك علماً بأن الباري ـ تبارك وتعالى ـ عندما طرح المسؤولية على كاهل الإنسان تعهد له بالهداية ، وزوده بالعقل الذي تميز به عن سائر الموجودات ، وكانت العناية الخاصة به دون غيره وتكريمه لذلك وهداه إلى طريق السعادة ؛ ولذلك فقد جاءت هذه العبارة وهي تشير بوضوح إلى أن من أطاع الله فطاعته بتوفيق منه . فإن إشراقة الأنوار في قلوب الأولياء يكون الغرض منها هو المعرفة التي يتوصل بها العبد إلى توحيد الله ـ سبحانه ـ ومن ثم عبادته حق العبادة ؛ لأن العبادة إذا كانت عن معرفة جاءت مطابقة

لما أمر الله ، وإذا كانت كذلك تضاعف أجرها ، وهي بخلاف العبادة التي يدرج عليها الإنسان تقليداً لأبويه أو لأحد أقاربه ، أو لبعض أصدقائه . وكلما زادت المعرفة أخلص الإنسان في توحيده ـ كما هو نص العبارة ـ وكلما أخلص في توحيده أخلص في عبادته ، بناءً على أن العبادة من المعاني المشككة التي تختلف شدة وضعفاً في ضمير الإنسان ؛ لأن أسبابها كذلك مختلفة .

## فلسفة الإشراَقِيِّين

ومن هذا المعنى جاء القول والحديث عن مذهب الإشراقيين وفلسفتهم ، وهؤلاء قسم من تلاميذ إفلاطون ، وكان هؤلاء التلاميذ ينقسمون إلى ثلاث فرق :

**الفرقة الأولى** : وهم الإشراقيون ، وهم الذين جردوا ألواح عقولهم عن النقوش الكونية ، فأشرقت عليهم لمعات أنوار الحكمة من لوح النفس الإفلاطونية من غير توسط العبارات ، وتخلل الإشارات . وقال السهروردي :

إن الإشراق في الإصطلاح هو: ظهور الأنوار العقلية ، أي ان النور على نوعين : ظاهر كنور الشمس ، وباطن كنور العقل ، وهذا النور هو المراد بالإشراق . وهو الذي أشارت له العبارة المطروحة بين يدي هذا البحث .

والسهروردي الشهير بفلسفته الإشراقية يؤمن بفكرة التصوف ، ويكفر بما يصطدم مع العقل كقمع الشهوات من الأساس ، ولا يمنع البحث والدرس ، ولكنه يقول :

من الممكن والجائز أن يصبح العقل مجرد نور كنور الشمس والكهرباء عن طريق جهاد النفس ، وحملها على الفضائل ، وترويضها على

الحدّ من الأهواء ، وعنـدئذٍ يتم للعقـل الإستعداد لتلقي الغيب من الله في النوم أو اليقظة .

قـال في كتاب هيـاكل النـور ( ص ٨٥ ) : ( النفـوس العـاقلة إنمـا يشغلهـا عن عللها سلطان القـوىٰ البدنيـة ، فإذا قـويت النفس بالفضـائـل الروحانية ضعف سلطان القوىٰ البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر ، وعندئذٍ تتخلص أحيـانــاً إلى عــالم القــدس ، وتتصــل بــالله . وتتلقى منــه المعارف ) . ثم ضرب السهـروردي مثالا لـذلك بقـوله : إن الحـديدة إذا قربت من النار تصير حامية مثلها ، وتفعل فعلها ، وهكذا العقل الخالص إذا قرب من نور الأنوار ـ أي من الله ـ يستشرق ويستضيء بنور الله .

وباسلوب آخر : إن اكثر الصوفية أو الكثير منهم لا يقيمون أي وزن وشأن للعقل ونظره ، ويعتمدون على الرياضـة الروحيـة وتجربتهـا كطريق وحيـد للإتصـال بالله بـلا واسطة العقـل ، أما الإشـراقيون فيعتبـرون هـذه الـرياضـة وسيلة لصفاء العقـل وخلوصه من الشـوائب ، وعن طـريقـه يتم الإتصال به سبحانه . ومعنى هذا أن الإشراق ضـرب من التصوف ، والفـرق بين الإشراقي وغيره من الصوفية ، أن غيـر الإشراقي يتصـل بالله بـواسطة الرياضة فقط ، ولا حاجة به إلى العقل ، أما الإشراقي فيتصل به ـ تعالى ـ عن طـريق العقل الخـالص الـذي تم نقـاؤه وصفـاؤه مـن الهـوىٰ بعمليـة التدريب والترويض ، وبكلمة أخرىٰ الإشراق تصوف عقلي(٤) .

ومما تقدم ندرك شدة التقارب بين مذهب الإشراق ومذهب الصوفية ونقطة الإلتقاء بينهما هو الإعتمـاد على الجانب الـروحي مع اختـلاف في الواسطة من العقل إلى الرياضة .

**الفرقة الثانية** : الرواقيون : وهم الذين كانوا يجلسون في رواق بيت

---

(٤) مذاهب فلسفية وقاموس مصطلحات .

إفلاطون ، ويقتبسون الحكمة من عباراته وإشاراته ، ولهم مدرسة فلسفية تنسب إلى الفيلسوف اليوناني ( زينون ) وكان يعلم تلاميذه في رواق وهو سقف في مقدم البيت ، وربما قيل هذا بغض النظر عن تلاميذ أفلاطون ، الذين كانوا في رواق بيته ، وربما ظهر اسمهم ( الرواقية ) من عصر هذا العالم ( زينون حوالي ٤٩٠ ـ ٤٣٠ ق . م ) .

ومن تعاليم هذه المدرسة الفلسفية : إن الحكيم لا يحزن على ما فات ، ولا يفرح بما هو آت ، وإن السعادة هي الفضيلة ، وهذا المفهوم مأخوذ من قوله ـ تعالى ـ **﴿ لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾**[٥] فإنه قد أسند الفوت إلى نفس الأشياء والإيتاء إلى الله ـ سبحانه ـ بأن الفوات والعدم ذاتي للأشياء ، فلو خليت ونفسها لم تبق ، بخلاف حصولها وبقائها ، فإنه لا بد من إستنادهما إلى الله تعالى .

وفي تفسير القمي بإسناده عن حفص بن غياث قال : قلت لأبي عبد الله ـ عليه السلام ـ : جعلت فداك فما حد الزهد في الدنيا ؟ فقال : قد حدّه الله في كتابه فقال ـ عز وجل ـ : **﴿ لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾** .

وفي نهج البلاغة قال ـ عليه السلام ـ : الزهد كله بين كلمتين من القرآن ، قال الله تعالى : **﴿ لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾** ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه .

وفي هذا المعنىٰ جرت هذه الأبيات ضمن البحث :

الزهد من أعلى المراتب رتبة     طرفاه دين قائم الأركان

(٥) سورة الحديد : الآية ، ٢٣ .

لا تـأسفن لمـا مضـى من هـذه | الـدنيـا فكـل الخيـر في الإيمـان
أو تفـرحن بـمـا أتـاك فـإنمـا | هـو زائـل لـكـنـه بـزمـان
إن الأسى لـو قـد علمت مـزايـل | لـمـراتب الـتقـوى مـن الأديـان
فـأرح ضميـرك من عنـاء وسـاوس | فـالله خط مـصـايـر الإنسـان

**الفـرقة الثـالثة** : المشّـاؤون : وهم الذين كـانوا يمشـون في ركاب أفلاطون ، ويتلقون منه فرائد الحكمة في تلك الحالـة ، وكان أرسـطو من هؤلاء ، وربما يقال : إن المشائين هم الذين كانوا يمشون في ركاب أرسطو لا في ركاب إفلاطـون ؛ لأن المشهور عن أرسـطو أنه كـان يعلم تلاميـذه الفلسفة ماشياً .

ومما تقدم ندرك أن إشراقة القلوب وإنارتها ليس بالنور المادي الذي يكون مصدره المادة ، ولكن معنىٰ ذلك هو الأخذ بها إلى الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه ، وهدايتها إليه ، وتعريفها بما ينبغي أن تكون عليه ، وهو معـرفة الحق سبحـانه لكي تـوحده فتعبـده عبادة خـالصة لا يشـوبها كـدر الشرك ، وبعد هذا كله تحبيب جميع أنواع الطاعات لكي تأتي عن رغبة من العبد ، وبذلك يتضاعف ثوابها .

ولذلك فإنه ـ عليه السلام ـ وصل كلامه بقوله : ( وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتىٰ لم يحبوا سواك ) وإزالة الأغيار يعني نفي كل ما من شأنه أن يتعلق به القلب ، فإنه ـ سبحانه ـ عندما يصرف قلوب أحبائه عن محبة غيره ، ويجتذبها إليه فإن ذلك لخير يريده سبحانه بعبده .

وبنظرة تأمل أخرىٰ نقـول : إن إزالة الأغيـار عن قلوب الأحبة يعني تطهيرها وحصرها في محبته فقط بتوفيقهم إلى الطاعة وترغيبهم إليها ، وهذا من شأنه حصـر المحبة أيضـاً منهم لله ـ سبحانـه ـ دون سواه . فـإذا ثبتت محبته ـ تعالى ـ في قلوب أوليائه وأحبائه لم يعتمدوا على غيره ، ولم يلجأوا إلى أحد سواه ، وهذا ما أشارت له العبارة في قوله ـ عليه السـلام ـ ( ولم

يلجأوا إلى غيرك ) ؛ لأن اللجوء إلى غيره ـ سبحانه ـ يعني إيجاد العديل والبديل لله، وهذا ما لا يكون أبداً أن يعدل المحب بمحبوبه سواه ، لأن معنىٰ ذلك مساواة المحبوب بغيره ، وهو باطل بالضرورة .

## إختلاف العوالم

ثم بدأ ـ عليه السلام ـ بقوله ( أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم ) والأنس كما ورد في بحث اللغة هو المؤانسة ورفع الوحشة ، ومنه اشتقت كلمة ( الناس ) وهم الذين يأنس بعضهم ببعض ، وهي طبيعة بشرية وخلقية فطرية ، وجدت في جميع أجناس الحيوان ، فالإنسان يأنس بالإنسان ، والجان يأنس بالجان ، والطيور تأنس ببعضها وفصائلها ، والوحوش بمثلها ، والأسماك تسير أسراباً في البحار وغير ذلك ، وكلها عوالم .

وفي العبارة المطروحة أمام البحث التفاتة عجيبة وهو أن الأنس لا يأتي إلّا من عند الله بقرينة ضمير الخطاب مع الألف واللام في ( المؤنس)، هذا مع العلم أن الأنس يأتي من المعاشرة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ والمخالطة في الأجناس مع بعضهم البعض لكل جنس ، إلّا أنه قد تمر على الإنسان ـ وهو أقرب مثل إلى فهمنا دون غيره من سائر المخلوقات ـ قد تمر عليه فترات ينطوي فيها على نفسه ويشمئز من مخالطة أحد من أبناء جنسه وينعزل عنهم ، وذلك لسبب أو لآخر كالعداوات التي تنشأ بينهم ، ومن هذه النماذج يوجد الكثير من الناس الذين انطووا على أنفسهم وابتعدوا عن مجتمعهم ، وأهملوه وضربوا به عرض الجذار ، ناسين أو متناسين حاجتهم إلى غيرهم ، فألغاهم المجتمع ونسيهم ، وحذفهم من قائمة الأفراد العاملين .

أما الشريحة الأخرىٰ من المجتمع فهي وإن تراءت للناس هكذا في الإنعزال والإنطواء والوحشة من الناس ، إلّا أنهم يأنسون بذكر الله

ـ سبحانه ـ وهذا لا يكون إلّا للذين خالط حبّه ـ سبحانه ـ دمهم ولحمهم ؛ لأن المحب لا يأنس إلّا بحبيبه ، وهو يستوحش بمن سواه .

وبنظرة أخرىٰ إن العوالم التي أشار إليها في النص هي العوالم الكلية وهي منحصرة في عالمين :

١ ـ **عالم الخلق** : وهو ما يحس بإحدىٰ الحواس الخمس الظاهرة ، وهو العالم المادي البحت .

٢ ـ **عالم الأمر** : وهو ما لم يحس بها ـ أي بإحدىٰ الحواس ـ كالروح والعقل ، قال الله ـ تعالى ـ ﴿ **ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾[٦] يعني بالخلق هو التقدير بضم شيء إلى شيء ، وإن استقر ثانياً في عرف الدين وأهله في معنىٰ الإيجاد والإبداع على غير مثال سابق ، وأما الأمر فيستعمل في معنىٰ الشان وجمعه أمور ، ومصدراً بمعنىٰ يقرب من بعث الإنسان غيره نحو ما يريده ، يقال : أمرته بكذا أمراً ، وليس من البعيد أن يكون هذا هو الأصل في معنى اللفظ ، ثم يستعمل الأمر إسم مصدر بمعنى نتيجة الأمر وهو النظم المستقر في جميع أفعال المأمور المنبسط على مظاهر حياته ، فينطبق في الإنسان على شأنه في الحياة ، ثم يتوسع فيه فيستعمل بمعنى الشأن في كل شيء ، فأمر كل شيء هو الشأن الذي يصلح له وجوده ، وينضم إليه تفاريق حركاته وسكناته ، وشتى أعماله ، يقال : أمر العبد إلى مولاه ، أي هو يدبر حياته ومعاشه إلى مالكه ، وأمر الإنسان إلى ربه ، أي بيده تدبيره في سير حياته .

وربما يعبر عن هذين العالمين بعالم الملك والملكوت ، وعالم الشهادة والغيب ، والظاهر والباطن ، والبر والبحر ، وغير ذلك من العبارات .

---

(٦) سورة الأعراف : الآية ، ٥٤ .

وقد خلق الإنسان جامعاً بين هذين العالمين ، فجسده نموذج من عالم الخلق ، وروحه من عالم الأمر . قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي** ﴾[7] .

## بحث حول الروح

نتناول في هذا الكلام البحث عن الروح باعتبارها عالم آخر من العوالم التي نبحثها ـ كما ذكرت ذلك فقرة الدعاء ـ . فالروح على ما يعرف في اللغة هو مبدأ الحياة الذي به يقوىٰ الحيوان على الإحساس والحركة الإرادية ، ولفظه مذكر ومؤنث ، وربما يتجوز فيطلب على الأمور التي يظهر بها آثار حسنة مطلوبة .

وكيف كان فقد تكرر في كلامه ـ تعالى ـ ذكر الروح في آيات كثيرة مكية ومدنية ، ولم يرد في جميعها المعنىٰ الذي نجده في الحيوان ، وهو مبدأ الحياة الذي يتفرع عليه الإحساس والحركة الإرادية .

وللمفسرين في المراد من الروح المسؤول عنه والمجاب عنه أقوال ليس من اللازم ذكرها على التفصيل .

إلّا أن المراد به الروح الإنساني لأن ذلك هو المتبادر من الإطلاق . وقوله : ﴿ **قل الروح من أمر ربي** ﴾ ترك للبيان ونهي عن التوغل في فهم حقيقةٍ الروح فإنه من أمر الله الذي استأثر بعلمه ، ولم يطلع على حقيقته أحداً .

ثم اختلفوا في حقيقته بين قائل بأنه جسم هوائي متردد في مخارق البدن ، وقائل بأنه جسم هوائي في هيئة البدن حالٍّ فيه وخروجه موته . وقائل بأنه أجزاء أصلية في القلب ، وقائل بأنه عرض في البدن ، وقائل

(٧) سورة الإسراء : الآية ، ٨٥ .

بأنه نفس البدن . . إلى غير ذلك .

وقال بعضهم إن المراد به مطلق الروح الواقع في كلامه ، والسؤال إنما هو عن كونه قديماً أو محدثاً ، فأجيب بأنه يحدث عن أمره وفعله ـ تعالى ـ ، وفعله محدث لا قديم .

ثم إن لهم اختلافاً في معنى قوله : ﴿ **الروح من أمر ربي** ﴾ أهو جواب مثبت أو ترك للجواب وصرف للسؤال على قولين . والوجوه مختلفة في المناسبة مع هذين القولين . فالمتعين في بعضها القول الأول ، وفي بعضها الثاني[8] .

ويقول الحكماء إن روح الإنسان كانت سابحة في بحر الحقيقة قبل وجود سائر الموجودات ، وحاملها العناية الأزلية ، قال سبحانه : ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر** ﴾[9] . ثم أودعت هذه الروح في حجر ضئر الجسد ؛ لتكسب بعض الكمالات ، وتحصل بعض الإستعدادات التي لا تحصل بدون ذلك ، ثم تسير إلى أصلها أو تسبح إلى منشئها وتعود إلى بحر الحقيقة وقد حصل لها استعداد قبول الفيوض الجلالية والجمالية ، واستمدت الإشراق بالأنوار والبوارق السرمدية .

فالروح تيار كوني خفي يكاد يكون أقوىٰ العوالم التي تهيمن على الكائنات بما تتقوم به من لطف يخضع له كيان الوجود في الحياة ، يبدأ هذا التيار العاصف بالكون ، يبدأ تدفقه من لدن قوة أزلية جبارة لا نستطيع تصورها من حيث لا نستطيع الإحاطة بها والتحسس منها بأكثر من أنها تهيمن علينا وتبعث فينا الحياة .

وقد تجرؤا على القول بأن الروح العام تارة يكون كلاً وله أجزاء تهيمن

---

(٨) الميزان ج ١٣ ، ص ٢٠٠ .

(٩) سورة الإسراء : الآية ، ٧٠ .

على العوالم ، وتارة يكون كلياً له جزئيات تهيمن على الأفراد ، وقد يكون الروح العام كلاً بالنسبة للعوالم والأجرام الكونية ، وتكون أجزاؤه المسيطرة على العوالم كليات بالنسبة إلى أفراد تلك العوالم .

ففينا نحن أفراد الإنسان جزئيات من الروح الكلي في عالمنا الأرضي ، كما أن عالمنا هذا يهيمن عليه جزء من الروح العام الذي هو كلٌّ بالنسبة إلى عالم الوجود .

فكما أن كلي الماء على سطح هذا الكوكب الأرضي يتناثر بفعل الهواء المسيطر عليه جزئيات في كل منا ليقوم به ، وكما أن كلي الهواء على سطح هذا الكوكب يتناثر بفعل الكهرباء المسيطرة عليه جزئيات في كل منا ليتقوّم به ، كذلك نرىٰ أن كلي الروح على سطح هذا الكوكب يتناثر بفعل الروح الكوني العام جزئيات في كل منا لتتقوم به ، فكياننا الإنساني مركب تركيباً مزجياً متداخلاً من جزئيات بعثتها كليات متداخلة في كوننا الأزلي منذ كان الأزل المهيمن على الكون .

العلم الحديث يبحث الآن عن جزئيات الروح المنبثقة عنا في لوحة الأثير ليلتقطها بما التقط به جزئيات المادة كالصوت والنظر المنبثقة في هذه اللوحة ، بحيث نصبح بعد حين من الزمن طال أو قصر قادرين على توجيه الفكر لالتقاط جزئيات الروح الكلي في عالم الإنسان المنبثقة في تيار الأثير ، كما أصبحنا قادرين على توجيه السمع بواسطة الراديو لالتقاط جزئيات الصوت المنبثة في ذلك التيار .

ويبحث علم ( الميتافيزيقا ) المسمىٰ بعلم ما وراء الطبيعة في ما وراء هذه الحياة من أسرار وما يشاهد في الإنسان من غرائب كالإحساس بما سيقع والأحلام ، وقراءة الأفكار . وهو في الحقيقة علم له مكانته ما بين العلوم المعتبرة عند الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم ، وهو علم يعرف الإنسان بنفسه ( ومن عرف نفسه فقد عرف ربه ) .

ولقد ظل موضوع الروح الشغل الشاغل للعلم والعلماء، على اعتبار أنه عالم مستقل ، حتىٰ ثبت أن الإنسان جسم وروح ، بعد التجارب القاسية التي بدأت بصورة منتظمة قوامها العلم ، وتقدمت من جراء ذلك العلوم الروحية في العصر الحديث تقدماً مضطرداً ، وأصبحت من العلوم المعترف بها .

فأين مكان الروح من هذا كله بعد هذا كله ؟ إن الروح هي مصدر الحرارة في الدم ، ومصدر الإرادة في الأعصاب ، ثم هي مصدر الإلهام في القلب ، والحياة كلها هي هذه في الإنسان ، وبعضها في الحيوان. إذاً فالروح هو مصدر الحياة يتكون من تيار لطيف يهيمن على الوجود ويتغلغل في كل جزئي منه ، وذلك كما أسلفنا .

وبقي أن نقول في تساؤل ما هي الروح المقصودة في الحديث والبحث ؛ لأن الحكماء قد عدّوها إلى أقسام ، كروح النمو وروح اليقظة والروح الطبيعية وروح الحياة . إلاّ أن الباحثين عندما يبحثون ذلك لا يقصدون به إلاّ روح الحياة ، وذلك ما ينطبق عليه جميع ما تقدم .

ولسنا في حاجة بعد هذا إلى الحديث عن تناسخ الأرواح وغير ذلك مما تطرق إليه الفلاسفة في أبحاثهم .

وفي ختام هذا البحث نذيله بهذه الرواية المناسبة للموضوع فقد روىٰ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الشافعي الأصبهاني في كتاب ( حلية الأولياء ) عن الحارث بن عميرة قال : انطلقت حتىٰ أتيت المدائن ، فإذا أنا برجل عليه ثياب خلقان ومعه أديم أحمر يعركه ، فالتفت فنظر إلي فأومأ بيده مكانك ، يا عبد الله ، فقمت وقلت لمن كان عندي : من هذا الرجل ؟ قالوا : هذا سلمان .

قال : فدخل بيته ، فلبس ثياب بياض ، ثم أقبل وأخذ بيدي

وصافحني وسألني . قلت يا عبد الله ، ما رأيتني فيما مضى ولا رأيتك ، ولا عرفتني ولا عرفتك ! قال : بلىٰ والذي نفسي بيده ، لقد عرفت روحي روحك حين رأيتك ، ألست الحارث ابن عميرة ؟ فقلت بلىٰ ، قال : إني سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ يقول : ( الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها في الله ائتلف ، وما تناكر منها في الله اختلف )[١٠] .

ونعود للحديث عن العوالم فنقول :

إن أهل العرفان قد ضبطوا هذه العوالم في أربعة : عالم الجبروت ، وعالم الملكوت ، وعالم الغيب ، وعالم الشهادة .

١ ـ **أما عالم الجبروت** : فهو ما يعبر به عن الذات المقدسة ، وينسب إليها ، وهو من جبرته على كذا أو أجبرته ، إذا أكرهته ، أو من قولهم نخلة جبّارة إذا علت بحيث لا تنالها الأيدي ، لأنه تعالى ألزم الخلق بما حكم به وقضاه ، وتعالى عن إدراك العقول ، فلا تبلغ غايته ومعناه .

٢ ـ **وأما عالم الملكوت** : فهو ما يعبر به عن صفاته ـ تعالى ـ ، وينقسم إلى الملكوت الأعلىٰ ، وهو ما لا يتعلق منها بالمخلوقات ، والملكوت الأدنىٰ وهو ما يتعلق بها . فلله ـ تعالى ـ على كل شيء جبروت لاستيلائه على الكل ، وفي كل شيء ملكوت لتصرفه في الكل ، وإلى هذا أشار قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون** ﴾[١١] .

٣ ـ **وأما عالم الغيب** : فهو ما كان من المخلوقات غائباً عن إحساسنا ويدخل في هذا العالم عالم الروح الذي تحدثنا عنه تواً ، وكل مالا يدرك بالنظر والفكر .

---

(١٠) فلسفة الشهادة ، لعلي محمد البهادلي .
(١١) سورة يس : الآية ، ٨٣ .

٤ ـ **وعالم الشهادة** : هو ما كان منها محسوساً لنا وهو ما نشاهده ونحسه وندركه .

ثم قالوا : وموقع الأسماء هو عالم الجبروت ، ووجودها في ما تحته بطريق التنزلات ، فينزل إلى عالم الملكوت من جهة اتصافها بالصفات ، ثم إلى عالم الغيب من جهة إبداعها الروحانيات ، ثم إلى عالم الشهادة من جهة تكوينها للجسمانيات ، وليس تحته عالم تنزل إليه .

بعدما تقدم من الحديث عن العوالم نعود مرة أخرىٰ إلى النص الماثل بين يدي البحث ( أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم ) فنراه يشير بوضوح إلى أن الله ـ سبحانه ـ هو المؤنس للإنسان في وحشته ، وقد تناولت العبارة هذا المعنىٰ بصورة عامة في حالة حياتهم وموتهم ؛ لأنه ـ سبحانه ـ حي لا يموت .

أما الوحشة في حال الحياة فلأنهم لا يأنسون إلى أحد من الخلق كأنسهم بالله ـ سبحانه ـ ؛ لأنه أحب الموجودات لديهم ، والحبيب إذا خلى بحبيبه يأنس به بمقدار تلك المحبة .

لا يقال بأن معنىٰ ذلك هو تصويرهم مستوحشين لا يأنسون بأحد ، ولا يعاشرون أحداً ولا يحبون أحداً ؛ لأنا نقول : إن الأنس والوحشة يختلفان شدة وضعفاً ـ كما أشرنا إلى ذلك تواً ـ فكلما تعلق القلب بموجود أنس بذكره ، فلا يألف سواه ، فهو لا ينساه أبداً ، وإذا استحوذ ذكره على القلب انتفى غيره ، وهذا ما أشرنا إليه أيضاً في شرح هذا النص من إزالة الأغيار

أما الأنس والوحشة في الممات فهما لا يحتاجان إلى بيان ، فمن أنس بربه في الحياة الدنيا آنسه في حال الممات ، ومن استوحش من ذكر الله في حياته أوحشه الله في حال مماته ، إما بسبب بطلان العمل وهو

المؤنس للإنسان في وحشته ، وإما لسبب آخر .

## معنى الهداية

ثم إنتقل ـ عليه السلام ـ إلى خطاب آخر مليء بالتضرع وهو قوله ـ عليه السلام ـ ( وأنت الذي هديتهم حيث استبانت لهم المعالم ) والهداية بهذا الإعتبار يعني إظهار الحق لهم وتعريفهم بالحقائق .

وقد حصر الهداية به ـ سبحانه ـ لأن نهجه القويم لا يهتدىٰ إليه إلاّ به .

نعم : إن شأن المصلحين والمرشدين الذين يوجهون البشر على نهج الأنبياء هم سبب مباشر لهدايتهم ، ولكن السؤال الذي ينطرح في الذهن هو : من الذي وفق هؤلاء لعمليات الإصلاح والإرشاد بين البشر غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ ؟ وهكذا يأتي الجواب مفروضاً من السؤال .

أما استبانة المعالم فمعناه ظهور العلامات الدالة على عظمة الخالق ووجوده ـ تعالى ـ وهي من مشتقاتها ، ووجودها يدل بالإلتزام على الوجود والإيجاد ، ويظهر من العبارة الإكتفاء بالملزوم عن اللازم؛ لأن ظهور المعالم أو العلامات تشير إلى وجود خالقها وجاعلها ، وهذا من أروع ما يعبّر به في شانه ـ سبحانه ـ ، تنزيهاً له عن التجسيم والحيثيات .

ولنختم هذا البحث بهذه الأبيات التي سنحت حال الكلام :

هي المعالم قامت في شواهدها ... تكاد تنطق بالآلاء والنعم
قد استبانت فلم تترك لذي بصر ... عذراً كصبح تغشى داجي الظلم
دلائل كشفت ما ران من عمه ... عن كل قلب مريض عاش في سقم
فالله نور ـ كما نص الكتاب به ـ ... لكنه ليس من نار ومن حمم
بل ذلك الحق يهدي القاصدين له ... كأنما نوره نار على علم
يهدي له الله من يهدي لشرعته ... إن شاء ذلك من عرب ومن عجم

**قال عليه السلام :**

**( ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ ؟ وَمَا الَّذي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ ؟ لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ دونَكَ بَدَلا ، وَلَقَدْ خَسِرَ منْ بَغى عنْكَ مُتَحَوِّلاً ، كَيْفَ يُرْجى سِواكَ وَانْتَ ما قَطَعْتَ الإحْسانَ ؟! وَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْ غَيْرِكَ وَانْتَ ما بَدَّلْتَ عادَةَ الإمْتِنانِ ؟!) .**

## اللُّغَةُ

**خاب** : يخيب خيبة حرم ولم ينل ما طلب ، ومن كلام لأمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ ( من فاز بكم فقد فاز بالقدح الأخيب ) أي بالسهم الخائب الذي لا نصيب له في قداح الميسر ، وهي ثلاثة المنيح والسفيح والوغد . والخيبة : الحرمان والخسران ، وقد خاب يخيب ويخوب وخاب إذا خسر ، وخاب إذا كفر ، والخيبة : حرمان الجد .

وفي المثل : الهيبة خيبة ، قال تعالى : **﴿ وقد خاب من افترى ﴾**[1] .

**خسر** : خسر خسراناً وخسارة وخساراً فهو خاسر ، كل ذلك بمعنىٰ

(١) سورة طه : الآية ، ٦١ .

ضلّ ، والضلال بمعنى الهلال وفي التنزيل العزيز : ﴿ **والعصر إن الإنسان لفي خسر** ﴾(*) قال الفراء (لفي) عقوبة بذنبه، وأن يخسر أهله منزلة في الجنة .

وفي الحديث : ( ليس من مؤمن ولا كافر إلاّ وله منزل في الجنة ، وأهل وأزواج ، فمن أسلم سعد وصار إلى منزله ، ومن كفر صار إلى منزله وأزواجه إلى من أسلم وسعد وذلك قوله : ﴿ **الذين يرثون الفردوس** ﴾(٢) ، يقول : يرثون منازل الكفار ، وهو قوله تعالى : ﴿ **الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة** ﴾(٣) .

وقال ابن الإعرابي : الخاسر الذي ذهب ماله وعقله أي خسرهما وقال أيضاً : خسر إذا نقص ميزاناً أو غيره وخسرت الميزان وأخسرته أي نقصته قال تعالى : ﴿ **وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** ﴾(٤) وصفقة خاسرة غير رابحة ، وكرة خاسرة غير نافعة .

**بغى** : بغى الرجل حاجته أو ضالته يبغيها بغاءً أو وبغية وبغاية ( بضم الباء ) إذا طلبها قال أبو ذؤيب :

بغاية إنما تبغي الصحاب من الفتيان في مثله الشم الأناجيح

ويقال أبغي أبغني شيئاً أي اعطني ، وابغي لي شيئاً ، والبغية الحاجة نفسها قاله الأصمعي والباغي الطالب والجمع بغاة .

وبغت الأمة تبغي بغياً وبغاءً بالكسر والمد فهي بغي عهرت وزنت وقيل البغي الأمة ، فاجرة كانت أو غير فاجرة والجمع بغايا قال تعالى : ﴿ **ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء** ﴾(٥) .

---

(*) سورة العصر الآية ١ .

(٢) سورة المؤمنون : الآية ، ١١ .

(٣) سورة الزمر : الآية ، ١٥ .

(٤) سورة المطففين : الآية ، ٣ .

(٥) سورة النور : الآية ، ٣٣ .

**متحولا** : قال الأزهري : التحويل مصدر حقيقي من ( حوّلت ) والحول إسم يقوم مقام المصدر قال تعالى : ﴿ **لا يبغون عنها حولا** ﴾[٦] أي تحويلا وقال الزجاج : لا يريدون عنها تحولاً يقال : قد حال من مكانه حولا .

وحال الشيء حؤولاً وأحال كلاهما تحولاً ، وفي الحديث ( من أحال دخل الجنة ) يريد من أسلم ؛ لأنه تحوّل من الكفر عمّا كان يعبد إلى الإسلام .

وتحول تنقل من موضع إلى آخر .

وقالوا في قول : ( لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم ) الحول هو الحركة نقول : حال الشخص إذا تحرك ، فكأن القائل لها يعني لا حركة ولا استطاعة إلاّ بمشيئة الله .

## البَيَان

إستفهم في هذه الفقرة مستنكراً ومستغرباً حال الإنسان الذي يلجأ إلى غير الله ضارباً بما يرى من النعم والآثار عرض الجدار . قال ـ عليه السلام ـ ( ماذا وجد من فقدك ، وما الذي فقد من وجدك ) وفي هذا الأسلوب طي ونشر كما إصطلح على ذلك علماء البلاغة ، وربما كان الغرض من المحسنات البديعية هو شدّ السامع إلى المتكلم ، أو انشداد المتكلم إلى السامع ـ كما يلوح من أفق العبادة ـ .

والسامع في ذلك اليوم ـ بغض النظر عن الله سبحانه فإنه المشار إليه والمعني بهذا الخطاب ـ هو من حضر ذلك الموقف ، ومعنى ذلك إما أن يريد ـ سلام الله عليه ـ أن يشد هؤلاء الحجاج إليه في الدعاء ليرتفع الدعاء

---

(٦) سورة الكهف : الآية ، ١٠٨ .

صفقة واحدة إلى الله ، وإما أن يريد أن يشدهم إلى الله مباشرة ، فيختصر بذلك الطريق فيدعون كما يدعو ، ويتوجهون إلى الله مباشرة كما يتوجه هو .

أما التساؤل المطروح في العبارة التي لم تأت للإستفهام فهي أقرب للنفي من الإثبات ، فقوله ـ عليه السلام ـ ( ماذا وجد من فقدك ) يعني أنه لم يجد شيئاً ، ومعنىٰ ذلك : إن الذي أعرض عن ربه فقد أعرض عن كل شيء ، فخسر بذلك كل شيء ، أي أنه خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين .

ويترائىٰ في هذا المجال الذي تحوم فيه العبارة التوحيد الخالص الذي لا يشوبه كدر ؛ لأنه ـ عليه السلام ـ يقول : لا أجد أحداً يساويك في شيء ، فأينما أفتح عيني على هذه الموجودات أراها صغيرة وتتصاغر أمام عيني حتىٰ تتلاشىٰ ثم لا أراها ، لأنك قد ملأت سمعي وبصري ـ مع تسامح في التعبير ـ فلا أشعر بمن سواك .

## من وجدك وجد كل شيء

وبنظرة معاكسة أخرىٰ إنني إذا تأملت في عظمتك إمتلأ بها قلبي وانشغل بها فكري ، واندهش بها لبي ، فلا أجد أحداً غيرك أحبه كحبك ، أو أهابه كهيبتك ، أو أخافه كما أخافك ، وهذا ما أشار إليه في العبارة التالية :

( وما الذي فقد من وجدك ) فالخير لا يوجد إلاّ عندك ، والصحة لا توجد إلاّ عندك ، وكل شيء يحلم به الإنسان من أمر الدنيا والآخرة لا يمكن أن يحصله إلاّ من عندك

فإذا كان الأمر كذلك ، أزمّة الأمور بيدك تتصرف بها كيف تشاء تعطي من تشاء ، وتمنع من تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ـ وهذا من الأمور

المسلمة التي نص عليها الكتاب العزيز ـ فمن المعقول جداً ، بل من اللازم جداً أن يرتبط الإنسان بربه ارتباطاً يجعله يلقي بأزمة الأمور كلها إليه ، ويسلم له تسليما ، وهذا ما أشار إليه قوله ـ عليه السلام ـ :

( لقد خاب من رضي دونك بدلا ، ولقد خسر من بغىٰ عنك متحولا )
فالخيبة ملازمة بمن أعرض عن ذكر ربه ؛ لأن الله ـ تعالى ـ قد يعرض أيضاً عن العبد ، إذا أعرض عن ذكره العبد ، فيرسله إرسال من لا خير فيه ، فيخسر الإنسان بذلك الدنيا والآخرة .

أما خسارة الدنيا فإن العبد يحرم من لذة القرب من الله لبعده عنه بسبب معاصيه ، ويسلب البركة في رزقه ، فيبقى يلهث وراءه ليلاً ونهاراً في حالة اضطراب وعدم قناعة ، كما يحرم من لذة المناجاة والدعاء ، وقد تعرضنا في بحث سابق من هذا الجزء بموضوع الحب المتعلق به ـ سبحانه ـ ومعنىٰ محبة العبد لله ، ومعنىٰ محبة الله للعبد .

وإلى هذا أشار ـ تعالى ـ بقوله ﴿ **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمىٰ** ﴾(٧) قال الراغب : العيش الحياة المختصة بالحيوان ، وهو أخص من الحياة ؛ لأن الحياة يقال في الحيوان وفي الباري ـ تعالى ـ وفي الملك . ويشتق منه المعيشة لما يتعيش منه . قال ـ تعالى ـ : ﴿ **نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا** ﴾(٨) . والضنك هو الضيق من كل شيء ، ويستوي فيه المذكر والمؤنث ، يقال مكان ضنك ومعيشة ضنك . قال الشاعر :

ليث وليث في مكان ضنك ... كلاهما ذو قوة وفتك

---

(٧) سورة طٰه : الآية ، ١٣٤ .
(٨) سورة الزخرف : الآية ، ٣٢ .

والمراد بذكره ـ تعالى ـ قيل المعنىٰ المصدري ، وهو من باب إضافة المصدر إلى مفعوله ، أو القرآن ، أو مطلق الكتب السماوية .

أما المعيشة الضنك فهي الضيقة ـ بحسب ما ورد من المعنىٰ ـ وذلك أن من نسي ربه وانقطع عن ذكره لم يبق إلاّ أن يتعلق بالدنيا ، ويجعلها المطلوب الوحيد الذي يسعىٰ له ويهتم لإصلاح معيشته والتوسع فيها والتمتع منها ، والمعيشة التي أوتيها لا تسعه ، سواءً كانت قليلة أو كثيرة ، لأنه كلما حصل منها واقتناها لم يرض نفسه بها ، وانتزعت إلى تحصيل ما هو أزيد وأوسع من غير أن يقف منها على حدّ ، فهو دائماً في ضيق صدر وحنق مما وجد ، متعلق القلب بما وراءه مع ما يهجم عليه من الهم والغم والحزن والقلق والإضطراب والخوف ، ونزول النوازل وعروض العوارض من موت ومرض وعاهة وحسد حاسد ، وكيد كائد وخيبة سعي وفراق حبيب .

ولو أنه عرف مقام ربه ذاكراً غير ناس ، أيقن أن له حياة عند ربه لا يخالطها موت وملكاً لا يعتريه زوال ، وعزة لا يشوبها ذلة وفرحاً وسروراً ، ورفعة وكرامة لا تقدر بقدر ولا تنتهي إلى أمد ، وأن الدنيا دار مجاز وحياتها في الآخرة إلاّ متاع ، فلو عرف ذلك قنعت نفسه بما قدّر له من الدنيا ووسعه ما أوتيه من المعيشة من غير ضيق وضنك .

وأما حشر الإنسان يوم القيامة أعمىٰ فذلك بحيث لا يهتدي إلى ما فيه سعادته وهو الجنة ، والدليل على ذلك ما يأتي في الآيتين التاليتين لهذه الآية[٩] . وفي فجمع البيان في قوله ـ تعالى ـ ﴿ **فإن له معيشة ضنكا** ﴾ قيل هو عذاب القبر عن ابن مسعود وأبي سعيد الخدري والسدّي .

---

(٩) تفسير الميزان ج ١٤ ، ص ٢٢٤ .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير قال : سمعت أبا عبد الله ـ عليه السلام ـ يقول : من مات وهو صحيح موسر لم يحج فهو ممن قال الله ـ عز وجل ـ ﴿ **ونحشره يوم القيامة أعمىٰ** ﴾قال : قلت : سبحان الله أعمىٰ ؟ قال : نعم ، أعماه الله عن طريق الحق .

وخلاصة القول : إن العبد إذا تخيل بأنه غني عن الله وتحول عنه إلى غيره فإن الله غني عن العالمين .

ثم يتساءل ـ عليه السلام ـ في غرابة فيقول : ( كيف يرجىٰ سواك وأنت ما قطعت الإحسان ؟ ) فمن أسمائه ـ سبحانه ـ المحسن ، وهو من أسماء الصفات ، وصفاته عين ذاته ـ كما مر ـ فهي لا تنقطع عن الموصوف بحال ، فصفة الإحسان باقية لا تزول ؛ لأنه لا تمر عليه حالات رخاء وشدة حتىٰ يتغير الإحسان لينقطع في حال من الحالات ، ولكن إحسانه سبحانه بعبده باق ما دام العبد موجوداً سواءً أطاع أو عصىٰ ، وقد مرّ بنا في بعض عبارات الدعاء ( يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً ) والتعليق على هذا المعنىٰ .

فإذا كان إحسانه ومعروفه كذلك فكيف يرجو الإنسان سوىٰ ما عند الله ، والحال أن الإحسان لم ينقطع من الله حتىٰ يحول الإنسان نظره إلى محسن غير الله ويرجو سواه ؟ !

وفي هذا الأسلوب إستفهام ليس على حقيقته ، بل هو استفهام إنكاري ، ومعنىٰ ذلك أنه يقول ـ عليه السلام ـ إني أنكر على من يرجو ويؤمل نوالاً غير نوالك ؛ لأن عطاءك مستمر لم ينقطع ، فما هو عذر من أعرض عن أخذ عطائك وقد بذلته لمن سألك ، ومن لم يسألك ؟! .

ثم نراه يركز على هذا المعنىٰ ، ولكن بمعنىٰ أدق فيقول :( وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الإمتنان ) والطلب في هذه العبارة أعم

من ا لـرجاء في العبـارة السابقـة ( والإمتنان ) في هـذه العبـارة أخص من ( الإحسان ) في العبارة السابقة ، فكأن العبارتين بينهما لف ونشر مشـوش ـ كما اصطلح على ذلك علماء البلاغة ـ .

فمجرد الطلب من غير الله لا يعني بذلك المعارضة بالضرورة ، غير أن الطلب المقصود في العبارة هو أن يجعـل الإنسان لله بـديلاً في تحقيق طلبه . بمعنىٰ أن الإنسان قد أعرض عن ذكر الله وأنكر المعروف والإحسان من الله ـ سبحانه ـ كما مر .

وفي هذه العبارة التفاته عجيبة منه ـ عليه السلام ـ تفضـل بها علينـا وهي : إن الطلب كما قلنا هو أعم من الرجاء ، وهذا أعم من الأمر ، وهذا أعم أيضـاً من الإلحاح وغيـره . وقد سبق الحـديث عن معنىٰ الإمتنان في أبحاث مضت من الكتاب ، بأنه هو العطاء إبتداءً . وبهذا المعنىٰ ندرك ما كان يقصد ـ عليه السلام ـ . وكأنه يقول : إن الطالب لأي شيء من غيرك سواءً كان قليلاً أو كثيراً هو مخطىء خطأ فادحـاً ؛ وذلك لأن الله يمن على العبد فيبدؤه بالعطاء قبل السؤال ، وبذل تنقطع حجة من سأل غير الله ؛ لأن عطاءه ـ سبحانه ـ مستمر ، وعادة الإمتنان لم تتبدل ، فماذا يـريد الإنسـان بعد كل هذا ؟ ! ألا لله الحجة البالغة على جميع خلقه .

وقد جرت هذه الأبيات هذا المجرى :

أنت الغني الذي تعطي بـلا طلب ... يـا أيها الـواهب الـرزاق ذو المنن
لا عـذر للمرء والبـاري يجـود لـه ... بكـل خيـر وهـذي سنّـةُ السنن
تكفـل الخالق الـوهاب حين بـرى ... هذا الوجـود بأمـر في الوجـود بني
يـارافع السبـع إذ تبـدو بـلا عمـدٍ ... وملهم الـطيـر إذ يـأوى إلى فنن
يـا مـودع البحـر أحيـاء عمـالقـة ... لا تعـرف النوم أو شيئـاً من الوسن
أنلنى الخيـر إن الخيـر ليس لــه ... معط سواك فهب منه العـطاء سني

قال عليه السلام :

( يٰا مَنْ اَذٰاقَ اَحِبّٰاءهُ حَلاٰوَةَ الْمُؤانَسَـةِ فَقٰامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُتَمَلِّقينَ ، وَيٰا مَنْ اَلْبَسَ اَوْلِيٰاءَهُ مَلاٰبِسَ هَيْبَتِـهِ فَقٰامُوا بَيْنَ يَدَيْهِ مُسْتَغْفِرينَ ، اَنْتَ الـذّاكِرُ قَبْلَ الذّاكـرينَ وَاَنْتَ الْبٰادىءُ بِالإحْسٰانِ قَبْلَ تَوَجُّهِ الْعٰابِدينَ ، وَاَنْتَ الْجَوٰادُ بِـالْعَطٰاء قَبْـلَ طَلَبِ الطّالِبينَ ، وَاَنْتَ الْـوَهّـابُ ثُمَّ لِمٰا وَهَبْتَ لَنٰا مِنَ الْمُسْتَقْرِضينَ ) .

## اللُّغَةُ

أذاق : ذقت الشيء أذوقه ذوقاً ومذاقاً ومذاقة ، ومـا ذقت ذواقاً أي شيئاً . وذقت ما عند فلان أي خبرته . وذقت القوس إذا جذبت وترها لتنظر ما شدتها . واذاقه الله وبال أمره قال طفيل :

فـذوقـوا كمـا ذقنـا غـداة محجـر     من الغيظ في أكبـادنـا والتحـوب

وتذوقته أي ذقته شيئاً بعد شيء . هو أمر مستذاق أي مجرب معلوم . قال نهشل بن حري :

وعهـد الغـانيـات كعهـد قيـن     ونت عنـه الجعـائـل مسـتـذاق
كـبـرق لاح يـعـجـب مـن يـراه     ولا يشفـي الحـوائـم من لـمـاق

وفي التنزيل العزيز : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾[1] .

**حلاوة** : الحلاوة ضد المرارة . والحلو كل ما في طعمه حلاوة وحلي الشيء واستحلاه وتحلاه . قال ذو الرمة :

فلما تحلى قرعها القاع سمعه     وبان له وسط الإشاء انغلالها

وحلي بقلبي وعيني يحلى ، وحلا يحلو حلاوة وحلواناً إذا أعجبك . وقال بعضهم : حلا في عيني ، وحلا في فمي ، وحلي بصدري . والحلواء كل ما عولج بحلو من الطعام . والحلواء التي تؤكل تمد وتقصر .

والحلوى نقيض المرَّى . يقال : خذ الحلوى ، واعطه المرى . والحلوان ما اعطيت من رشوة ونحوها .

**متملقين** : الملق الود واللطف الشديد ، وأصله التليين ، وقيل : الملق شدة لطف الود ، وقيل : الترفق والمداراة ، والمعنيان متقاربان . ملق ملقاً وتملق ، وتملقه وتملق له أي تودد إليه وتلطف له . قال الشاعر :

ثلاثة أحباب فحب علاقة     وحب تملاق وحب هو القتل

ورجل ملق يعطي بلسانه ما ليس في قلبه ، والملق الدعاء والتضرع . قال الشاعر :

لا هم رب البيت والمشرق     إياك أدعو فتقبل ملقي

يعني دعائي وتضرعي .

والإملاق الإفتقار . قال الله تعالى : ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق** ﴾[2] وأصل الإملاق الإنفاق ، يقال : أملق ما معه إملاقاً ، وملقه

(١) سورة الدخان : الآية ، ٤٩ .
(٢) سورة الإسراء : الآية ، ٣١ .

ملقاً إذا أخرجه من يده ولم يحبسه ، والفقر تابع لـذلك ، فـاستعملوا لفظ السبب في موضع المسبب حتى صار به أشهر . وقيل : الإملاق كثرة إنفاق المال وتبذيره حتى يورث حاجة .

وفي الحديث أن امرأة سألت ابن عباس : أأنفق من مالي ماشئت ؟ قال : نعم ، أملقي من مالك ماشئت .

**الوهاب** : من أسمائه تعالى ، والهبة العطية الخـالية عن الأعـواض والأغراض ، فإذا كثرت سمي صاحبها وهّاباً ، وهو من أبنية المبالغة .

وكل ما وهب لك من ولد وغيره فهو موهوب . والوَهُوب الرجل الكثير الهبات . ورجل واهب ، ووهّاب ووهوب ، ووهّابَة أي كثير الهبة لأمواله ، والهاء للمبالغة كالعلاّمة والرحّالة والبحّاثة .

وحكى ابن الإعـرابي : وهبني الله فـداك ، أي جعلني الله فـداك . وأوهب الشيء إذا كان معداً عند الرجل فهو موهب قال الشاعر :

عظيم القفا ضخم الخواصر أوهبت ... لـه عجـوة مسمـونـة وضميـر

## البيَان

بـدأ ـ عليه السـلام ـ هنا يـذكر كيفيـة العلاقـة بين الإنسان وربـه ، والسبب المباشر لتلك المحبة التي يعيشها المؤمنون الراغبون إلى الله فقال: ( يا من أذاق أحباءه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين ) والإذاقة هنا ـ بحسب مـا ورد في بحث اللغـة ـ هـو إعـطاؤهم لـذة المؤانسـة ، يعني إعطاءهم الرغبة في العبادة والمناجاة وتـوفيقهم للطاعة . وكمـا أن اللسان يتذوق الطعوم ، وكما أن الأنف يتذوق الروايح العطرة الـزكية ، والـروايح العفنة النتنة ، وكما أن العين ترىٰ فتتذوق الألوان والمناظر الخلاّبة الجميلة والإغراء بها ، فكذلك القلوب تتذوق الطاعة وتستريح إليها إذا أراد الله لها ذلك ، ووفق أصحابها لها .

غير أن ذائقة القلوب تختلف في كثير من جوانبها عن أذواق الحواس التي يستخدمها الإنسان لمعرفة الآثار الضارة والنافعة من الخارج الواردة على جسم الإنسان .

وإذا تأملنا هذا الجزء اللحماني من الإنسان نراه يقوم بأدوار عدة في خدمة الجسم ، فهو يكشف عن الأسرار الخافية التي لم تطّلع عليها الحواس ، بل وتعجز عنها مشتركة ، كما يختزن أسراراً أخرىٰ تعجز عن الكشف عنها الحواس مجتمعة أيضاً .

وبذلك يعطى القلب منزلة السلطان المتربع على قمة الهرم من بين أعضاء الجسم العاملة .

وحلاوة المؤانسة هي الرغبة الجامحة إلى العبادة في الخلوات ، خصوصاً في أوقات السحر عندما تسكت الأصوات ويهدأ الناس وتنام العيون . فإن حالة الهدوء وعدم التشويش تلذ فيها مناجاة الحبيب لحبيبه . وقد نبه أهل البيت على ذلك من خلال أذكارهم .

فكأن هؤلاء الأحباء المشار إليهم على العكس من ذلك ، يأنسون بما يستوحش منه الناس ، وينتبهون حين ينام الناس ، قد اتخذوا الليل البهيم ستاراً وظلامه دثاراً عندما يناجون ربهم ويدعونه تضرعاً وخفية . وإلى هذه الحال أشار قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين** ﴾[٣] قال في الميزان . التضرع هو التذلل من الضراعة وهي الضعف والذلة . والخفية هي الإستتار وليس من البعيد أن يكون كناية عن التذلل جيء به لتأكيد التضرع فإن المتذلل يكاد يختفي من الصغار والهوان .

ومن الممكن أن يكون المراد بالتضرع والخفية الجهر والسر ، وإنما

(٣) سورة الأعراف : الآية ، ٥٥ .

وضع التضرع موضع الجهر لكون الجهر في الدعاء منافياً لأدب العبودية إلّا أن يصاحب التضرع .

ثم كرر الدعـوة إليه ـ تعـالى ـ وأعاد البعث إلى دعـائه بـالجمع بين الطريقين اللذين لم يزل البشر يعبد الرب أو الأرباب أحدهما ، وهما طريق الخوف وطريق الرجاء ، فإن قوماً كانوا يتخذون الأرباب خوفـاً فيعبدونهم ليسلموا من شرورهم ، وكان قوماً يتخذون الأرباب طمعاً فيعبدونهم لينالوا خيرهم وبركتهم ، لكن العبادة عن محض الخوف ربما ساق الإنسـان إلى اليأس والقنوط فدعاه إلى ترك العبادة ، وقد شوهد ذلك كثيراً ، والعبادة عن محض الطمع ربما قاد إلى استرسال الوقاحة وزوال زي العبودية فدعاه إلى ترك العبادة ، وقـد شوهـد أيضاً كثيـراً فجمع ـ سبحـانه ـ بينهمـا ودعا إلى الدعاء بـاستعمالهمـا معاً فقـال : ( وادعوه خـوفاً وطمعـاً ) ليصلح كل من الصفتين ما يمكن أن تفسده الأخرىٰ ، وفي ذلك وقوع في مجرىٰ الناموس العام الجاري في العالم أعني ناموس الجذب والدفع .

وقد مرّ بنـا في أبحاث الكتـاب السابقـة ما قـاله أميـر المؤمنين علي ـ عليـه السـلام ـ في صفـة أولئـك المتضـرعين : ( أمّـا الليـل فصـافـون اقدامهم . . الخطبة ) .

على أنا نقول : وقد ذكرنا ذلك في مـا مضى من هذا الجـزء ، بأن هؤلاء لم يستوحشوا من الناس في معاملاتهم وسيرتهم معهم ، إلّا أنهم لا يأنسون بهم كما يأنسون بربهم الذي شرح صدورهم للإيمان ، وبلّغهم هذه المراتب العالية ، فكانت محبته ـ سبحانه ـ قد خالطت دماءهم ولحومهم ، ولم يكن هـذا منهم بسائـر البشر ؛ لأنهم يعـطون المحبة للنـاس بـأقـدار متفـاوته ، ويـزنونهـا بحسب ما يستحق أولئـك ، أمّا محبـة الله فليس لهـا حدود ، ولو قتل الإنسان نفسه في هذه المحبـة فهو لا يستـطيع جـزاءً ولا شكوراً ، إلّا أنهم يحاولـون أن يرضـوا ربهم ليرضى عنهم ؛ ولـذلك قـال

ـ عليه السلام ـ مواصلاً هذا المعنى :

## الملقُ وَمعنَاه

( فقاموا بين يديه متملقين ) . والملق ـ كما قلنا في بحث اللغة ـ هو شدة التودد والتلطف في الطلب ، ومعنى ذلك أنهم قاموا بين يدي ربهم صافين أقدامهم يحاولون التقرب إلى الله بذلك ؛ لكي يرضى عنهم ، وبمعنى آخر ـ كما ذكرنا ايضاً في فصل اللغة ـ أنهم قاموا متملقين يعني مفتقرين إلى الله بادين حاجتهم إليه ، وكأنهم يقولون : أنت الغني ونحن الفقراء ، ولا شك أن الفقير محتاج إلى الغني . ويراودنا هذا الإفتقار والتملق ما هو ؟ هل هو لغرض الحصول على المال ؛ لكي يكونوا أغنياء ؟ إن مكانة مثل هؤلاء السامية تبعد عن الأذهان مراودة هذا الإشكال بهذا المعنى ، ولكن الإفتقار أو التملق هو للحصول على الرحمة والمغفرة ؛ لأن اصحاب الهمم العالية لا يرضون لأنفسهم الأشياء الدنيئة فلا يسألون إلاّ غفران الذنوب جميعاً ؛ لأنه لا يغفر الذنوب جميعاً إلا هو ، وهو الغفور الرحيم .

## لِبَاسُ الهَيْبَةِ

ثم يواصل ـ عليه السلام ـ كلامه بهذا المعنى فيقول : ( ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بين يديه مستغفرين) . وهذه الإستعارة التي طرحها ـ عليه السلام ـ في كلامه تدل على أشياء كثيرة . فمنها :

١ ـ ان اللباس يعد زينة للإنسان ، فكأن الله قد زينهم بهذه الهيبة التي ألبسهم إياها .

٢ ـ إن اللباس يعد ساتراً ، ومعنىٰ ذلك ان الله سترهم بهيبته عن أعين أعدائه ، فلا يرونهم إلاّ أقوياء أشداء .

٣ ـ إن اللباس يعد نعمة ، بل هو من أكبر النعم التي وفرها الله

لعباده ، فهم يرون أنفسهم مغمورين في هذه النعمة .

وهناك كثير من النقاط التي تنطوي تحت هذه العبارة بما حملت من أنواع البلاغة المركزة . ونتيجة لذلك فإن هؤلاء الأولياء بعد اعترافهم بكل ذلك لا يسعهم إلّا أن يشكروا ربهم بأي نوع من أنواع الشكر . وفي مقدمة ذلك الإستغفار ـ كما ذكر نص العبارة ـ ( فقاموا بين يديه مستغفرين ) لأن الإستغفار يشعر عن ذنب ، وقد تصوروا ـ والله أعلم ـ أنهم مقصرون في طاعة ربهم ، وقد أعطاهم من النعم فوق ما يستحقون ، فهم في حالة انكسار لكثرة النعم وقلة الشكر .

## ذكر الله لعبده

ثم خاطب الباري بقوله : ( أنت الذاكر قبل الذاكرين ) ويرد على هذه العبارة ـ كما يتوهم ـ قوله تعالى ﴿ **واذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾[٤] فإنه قد بدأ بهم فأمرهم أن يذكروه حتىٰ يذكرهم ـ كما يلوح ذلك في أفق الآية الكريمة ـ ، وهو على العكس من عبارة النص . قال في الميزان : إن الذكر ربما قابل الغفلة كقوله ـ تعالى ـ ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا** ﴾[٥] وهو انتفاء العلم بالعلم ، مع وجود أصل العلم ، فالذكر خلافه وهو العلم بالعلم ، وربما قابل النسيان وهو زوال صورة العلم عن خزانة الذهن ، فالذكر خلافة ومنه قوله تعالى ﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾[٦] وهو حينئذ كالنسيان معنىٰ ذو آثار وخواص تتفرع عليه ، ولذلك ربما أطلق الذكر كالنسيان في موارد تتحقق فيه آثارهما ، وإن لم تتحقق أنفسهما ، فإنك إذا لم تنصر صديقك ـ وأنت تعلم حاجته إلى نصرك ـ فقد نسيته والحال أنك تذكره ، وكذلك الذكر .

---

(٤) سورة البقرة : الآية ، ١٥٢ .

(٥) سورة الكهف : الآية ، ٢٨ .

(٦) سورة الكهف : الآية ، ٢٤ .

والظاهر أن إطلاق الذكر على الذكر اللفظي من هـذا القبيل ، فـإن التكلم عن الشيء من آثار ذكره قلباً ، قال تعالى : ﴿ **قل سأتلو عليكم منه ذكراً** ﴾[7] ولو كان الذكر اللفظي ذكراً حقيقة فهو من مراتب الـذكر ؛ لأنـه مقصور عليه ومنحصر فيه . فالذكر له مراتب ، وقد ذكرها الكتاب العزيز في كثير من الآيات ، ومن ثم فإنه يختلف شدة وضعفاً . ولو كان لقوله تعـالى ﴿ **فاذكروني** ﴾ وهو فعل متعلق بياء التكلم حقيقة من دون تجوز أفاد ذلك أن للإنسان سنخاً آخر من العلم غيـر هذا العلم المعهـود عندنـا الذي هـو حصول صورة المعلوم ومفهومه عند العالم ، إذ كلما فرض من هذا القبيل فهو تحديد وتوصيف للمعلوم من العالم ، وقد تقدست ساحته سبحانه عن توصيف الواصفين ، قـال تعالى : ﴿ **سبحـان الله عما يصفون. إلا عباد الله المخلصين** ﴾[8] .

بعد ما تقدم من تفسير الآية نقول : إن عبارة الدعاء هي نفس أسلوب الآية الكريمة ، فذكر الله للعبد ، هو ذكر العبـد لله ـ سبحانـه ـ لا فرق في التعبيرين من حيث المعنى . غير أننا نستطيع أن نوجه هذا التقديم والتأخير في الآية والنص بما يلي :

١ ـ إن تقديم ذكر العبد لربه في الآية الكريمة هـو في مقام الأمـر ، والأمر يقتضي الإلزام والوجوب إلّا ما دلّت على خلافه قرينة .

٢ ـ إن تقديمه سبحانه في النص الماثل أمـامنا هـو تقديم لـلأهم ، ولأن العبارة مبدوءة بالخطاب .

٣ ـ إن الآية الكريمة قد روعي فيها الإنسان المخاطب فأعطي بهذه الحيثية .

---

(٧) سورة الكهف : الآية ، ٨٣ .

(٨) سورة الصافات: الآيتان ، ١٥٩ ١٦٠

٤ ـ إن النص هو في مقام بيان التفضل على الإنسان ، وإن ذكر الله للعبد هو من أكبر الفضل والمن عليه ، ولذلك فإنه بدأ ـ عليه السلام ـ بذكر هذه النعمة .

وكثير من النقاط غير ذلك التي تراود العقل وتتوارد عليه وهي لا تخفى على كل ذي عقل أو ألقىٰ السمع وهو شهيد .

وقد ورد عن أهل البيت الطاهر ـ عليهم السلام ـ روايات لاحصر لها في فضل الذكر أحببنا أن نورد بعضها .

فمنها ما في عدة الداعي قال : وروي أن رسول الله قد خرج على أصحابه فقال : ارتعوا في رياض الجنة ، قالوا : يا رسول الله وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر اغدوا وروحوا واذكروا ، ومن كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فإن الله ـ تعالى ـ ينزل العبد حيث أنزل العبد الله من نفسه ، واعلموا : أن خير أعمالكم عند مليككم وأزكاها وأرفعها في درجاتكم ، وخير ما طلعت عليه الشمس ذكر الله ـ تعالى ـ فإنه ـ تعالى ـ أخبر عن نفسه فقال : أنا جليس من ذكرني ، وقال ـ تعالى ـ فاذكروني أذكركم بنعمتي ، واذكروني بالطاعة والعبادة أذكركم بالنعم والإحسان والراحة والرضوان .

وفي المحاسن ودعوات الراوندي عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال : إن الله ـ تبارك وتعالى ـ يقول : من شغل بذكري عن مسألتي أعطيه أفضل ما أعطي من سألني .

وفي المعاني عن الحسين البزاز قال : قال لي أبو عبد الله ـ عليه السلام ـ ألا أحدثك بأشد ما فرض الله على خلقه ؟ قلت بلىٰ قال : إنصاف الناس من نفسك ، ومواساتك لأخيك . وذكر الله في كل موطن ، إذا هجمت على طاعته أو معصيته .

وفي عدة الداعي ـ أيضاً ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ ، قال : قال ـ سبحانه ـ : إذا علمت أن الغالب على عبدي الإشتغال بي ، نقلت شهوته في مسألتي ومناجاتي ، فإذا كان عبدي كذلك وأراد أن يسهو حلت بينه وبين أن يسهو ، أولئك أوليائي حقاً ، أولئك الأبطال حقاً ، أولئك الذين إذا أردت أن أهلك أهل الأرض عقوبة ذويتها عنهم من أجل أولئك الأبطال .

وفي المحاسن عن الصادق ـ عليه السلام ـ قال : قال الله ـ تعالى ـ: ابن آدم اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي ، ابن آدم أذكرني في خلاء أذكرك في خلاء ، أذكرني في ملأ أذكرك في ملأ خير من ملأك ، وقال : ما من عبد يذكر الله في ملأ من الناس إلاّ ذكره الله في ملأ من الملائكة .

ومن طريق العامة قال في الدر المنثور أخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن إبن مسعود قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : من أعطىٰ أربعاً أعطي أربعاً ، وتفسير ذلك في كتاب الله ، من أعطي الذكر ذكره الله ؛ لأن الله يقول : اذكروني أذكركم ، ومن أعطىٰ الدعاء أعطي الإجابة ؛ لأن الله يقول : ادعوني أستجب لكم ، ومن أعطىٰ الشكر أعطى الزيادة ؛ لأن الله يقول : لئن شكرتم لأزيدنكم ، ومن أعطىٰ الإستغفار أعطي المغفرة ؛ لأن الله يقول : استغفروا ربكم إنه كان غفاراً .

وفي الدر المنثور أيضاً أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان عن خالد ابن أبي عمران ، قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ من أطاع الله فقد ذكرَ الله ، وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن ، ومن عصىٰ الله فقد نسي الله ، وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن .

والروايات من طرق الفريقين ـ كما نرىٰ ـ لاحصر لها في فضل الذكر .

# النِّسْيَان

وفي الحديث عن الذكر وما يترتب عليه من آثار يتبادر إلى الذهن الحديث عن النسيان وما يترتب عليه أيضاً .

وقد تعرض القرآن الكريم لهذه الظاهرة في كثير من الآيات مثل قوله ـ تعالى ـ ﴿ **وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين** ﴾[٩] . قال في الميزان : النسيان كناية عن الإعراب والترك ، فنسيانه ـ تعالى ـ لهم يوم القيامة إعراضه عنهم وتركه لهم في شدائده وأهواله ، ونسيانهم لقاء يومهم ذاك في الدنيا إعراضهم عن تذكره وتركهم التأهب للقائه[١٠] .

ومثل قوله ـ تعالى ـ ﴿ **قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسىٰ** ﴾[١١] قال في الميزان أيضاً هذا نفي للجهل الإبتدائي . والجهل بعد العلم على ما نقل عن بعضهم ، ولكن الظاهر أن الجملة مسوقة لنفي الجهل بعد العلم بقسميه فإن الضلال هو قصد الغاية بسلوك سبيل لا يؤدي إليها بل إلى غيرها فيكون الضلال في العلم هو أخذ الشيء مكان غيره ، وإنما يتحقق ذلك بتغير المعلوم من حيث هو معلوم عماً كان عليه في العلم أولاً ، والنسيان خروج الشيء من العلم بعد دخوله فيه فهما معاً من الجهل بعد العلم ، ونفيه لإثبات العلم أولاً فيفيد مجموع الآية أنه عالم بالقرون الأولىٰ ولا سبيل إليه للجهل بعد العلم فيجاريهم على ما علم[١٢] .

ومما تقدم يظهر لك المعنىٰ المقصود من النسيان في الآيتين وأنه

---

(٩) سورة الجاثية : الآية ، ٣٤ .

(١٠) تفسير الميزان ج ١٨ ، ص ٣٠٨ .

(١١) سورة طه : الآية ، ٥٢ .

(١٢) تفسير الميزان للسيد محمد حسين الطباطبائي .

ليس نسياناً كما هو حال البشر الذين ينسون ما يقرأون ويكتبون .

ثم إن هذا النسيان ليس أمراً غير مرغوب فيه دائماً ، ذلك لأننا لا نستطيع أن نحشو نفوسنا بكل الصغائر التي سبق أن خبرناها ، وما الفائدة في تذكر كل هذه الصغائر لو استطعنا ذلك ؟ .

ومع ذلك فإن واحدة من المشكلات الأساسية للإنسان هي مشكلة النسيان ، وذلك أنه بالرغم من ميل الإنسان إلي نسيان مالا يحتاجه ، وتذكر ما يحتاجه ، فإن كثيراً ما ينسىٰ أشياء يحتاج إليها أشد الحاجة ، ويلحق نسيانها به أشد الضرر .

إن تفسيرات التذكر والنسيان تتركز حول سؤالين مترابطين :

١ ـ ما الذي يحدث حين ننسىٰ ؟

٢ ـ كيف تخزن الذكريات في الدماغ ؟

إن الفرضيات عمّا يحدث في أثناء النسيان كثيرة ، وهناك نظريات متعددة تفسر ظاهرة النسيان أو تحاول أن تفسرها على الأقل فمنها :

**أولاً** : نظرية تلاشي الأثر : قالوا وفقاً لهذه النظرية تتلاشىٰ المعلومات التي كنا قد تعلمناها ، وكلما طال الزمن الذي لا تستعمل فيه هذه المعلومات زاد التلاشي . وفي رأي هذه النظرية أن مقدار المتذكر هو مقياس مضبوط بالتلاشي .

والحق أن معارفنا لا زالت قليلة جداً عن الإحساس العصبي للذاكرة البشرية بالرغم من إعتراف الجميع بوجود هذا الإحساس .

ومنذ ما يزيد على ثلاثمائة عام أشار ( ديكارت ) إلى وجوب البحث عن هذه الآثار في الوصلات العصبية . ولقد استعملت التجارب المتأخرة على الفيران بعض العقاقير لتغيير عملية النقل عبر الوصلات فلاحظت تغييراً

في القدرة على التذكر اثر تعاطي هذه العقاقير . كما ظهر أن العقاقير التي تعـرقل التلقي عنـد الخلايـا العصبية المتلقيـة تجعل أسـوء ، في حين أن العقاقير التي تمنع تخريب المادة المتلقية تجعل التذكر أحسن .

ومثل هذه الـدلائل تـوحي بأن التغييـر المادي المـوجود في أسـاس الحفظ والتعلم متصل بزيادة في القدرة على نقل الآثار عند الوصلات ، في حين أن تضرر الذاكرة قد يكون نتيجة نقص في كفاية النقل عند الوصلات لسبب أو آخـر ـ كما ظهر من بحوث دوتش عـام ١٩٦٦ ـ ومع ذلـك فإننـا مازلنا بعيدين عن اليوم الذي نستطيع فيه ابتلاع حبة للتـذكر ، تمكننـا من تذكر كل ما كنا قد حفظناه[١٣] .

**ثانياً** : نظرية التدخل : والمفهوم الأساسي لنـظرية التـدخل هـو أن المعلومات التي قد نكتسبهـا قد تتـدخل في معلومـاتنا السـابقة ، كمـا أن معلوماتنا السابقة قـد تتدخـل في معلوماتنـا التي اكتسبناهـا مجدداً ، وهـو بمعنىٰ هل يتدخل التعلم الماضي في التعلم الحاضر ؟ أو بتعبير أدق : هل تتدخل ـ في حالة الطالب ـ دروس الشهر المـاضي في الحساب مثـلاً في تعلمـه للجغرافيـا اليوم ؟ إن تـدخـل التعلم المـاضي في التعلم والتـذكـر الحاضرين يسمىٰ بـالتدخـل السابق ، ولقـد تساءل علمـاء النفس : لماذا يجب أن يكون ثمة آثار سابقة تتدخل في التعلم اللاحق وتعوقه وتجعله أكثر صعوبة ؟ .

إن تفسير ذلك يـرد إلى أمور من مثـل التمزيق والتحـريف والطمس والتعقيب وزيادة الصعوبة . وهكذا حين يكون حفظ قائمة مفردات أو قائمة أرقام أو غير ذلك متبوعاً بحفظ قائمـة من نوعهـا فإن النمط الكلي يضعف ويتمزق .

---

(١٣) ذكر الشيخ يوسف البحراني في الكشكول بأن جزيرة قبرص المعروفة وينقل ذلك عن التجار بأن من دخلها تذكر كل ما نسيه . والله أعلم .

**ثالثاً** : نظرية تحويل الأثر : وتفترض هذه النظرية أن التذكر عملية فاعلة تتحول على وفقها المعلومات المخزونة في الذاكرة ؛ لتصبح أكثر ثباتا ، أو اتزاناً ، أو مناسبة للمعلومات الأخرى التي تتذكرها . وكلنا نعلم كيف يغير تناقل قصة معالم هذه القصة .

إن واحدنا يطلق نكتة يرويها لشخص آخر ، ولكن هذا الشخص يغير بعض منها حين ينقلها إلى شخص ثالث . وهذا بدوره يغير فيها من جديد وهكذا . . حتى أن النكتة قد تعود لصاحبها بعد تطواف طويل فلا يكاد يعرفها .

والعالم الإنجليزي ( بارتلت ) كان يؤكد أن هذا التغيير في القصص أو سواها من الذكريات خاصة من خواص الذاكرة ، وقد درس العلماء هذه الخاصة فيما يتعلق بالتذكر اللفظي وتذكر الصور ، وهكذا فانك قد تبرز لإنسان صورة ، وتطلب إليه تذكرها ورسمها من الذاكرة بعد فترة زمنية . ثم إنك ترىٰ هذه الصورة الجديدة لشخص ثانٍ . . وهكذا فإن صورة بومة ـ مثلاً ـ تتحول بالنسبة لشخص عاشر إلى قطة ، ويعني تفسير ـ بارتلت ـ لهذه العملية هو أن الذاكرة فعّالة ومنتجة ، وإن تغييرها لمعالم الصورة يمكن التنبؤ به أحياناً . ومعلوم أن دارسي الإشاعات يهتمون بالتغييرات التي تطرأ على الإشاعة إذا ما تناقلتها أفواه الناس .

**رابعاً** : نظرية الكبت : وهذه نظرية تقدم بها ( أفرويد ) وهي تقول : إن الأشياء التي نتذكرها ، والأمور التي ننساها على صلة بقيمتها وأهميتها بالنسبة إلينا ، أي أنه على العكس من النظريات الثلاث الآلية السابقة . فإن الأشياء المزعجة إلينا نميل إلى نسيانها نسياناً مؤقتاً وذلك بطردها عن شعورنا . وهذا الكبت يهدف إلى حماية أنفسنا من المعلومات المؤلمة أو غير المقبولة التي تتعلق بحوادث مروعة ، وهو يعتبر الكبْت أساساً في احتفاظ الإنسان بصورة مقبولة من ذاته .

وقد ذهب بعض العلماء إلى القول بنظرية خلاصتها : إن الإنسان نزاع إلى كبت الأمور التي تهدد ( أناه ) ( أوذاته ) . إن الإنسان لا يحب أن يشعر بالذنب أو الخجل ، ولذلك فهو يميل إلى أن يزيل من شعوره كل ما يسبب له مثل هذا الإحساس . إنه يعمد إلى الكبت للتخلص من هذه المشاعر .

خامساً : النسيان عدم توصل : وترىٰ هذه النظرية أننا في الواقع لا ننسىٰ شيئاً أبداً ، وأن الأشياء التي تبدو لنا منسية ليست إلاّ أشياء لا نستطيع التوصل إليها لسبب أو لآخر . وفي رأي هذه النظرية تكون الإختبارات القديمة محملة بالخبرات الجديدة ، وفي بعض الحالات يبدو أن الذكريات لا تضيع ، وإنما ( تدفن ) ، وأن الأفكار الجديدة تتدخل في تذكرنا للذكريات القديمة من خلال آلية فاعلة ، أو كف إستجابي ، وحينما يحدث ذلك فإن الطرائق التي تحذف الكف قد توصلنا إلى الذكريات القديمة من جديد ، ولكن في معظم الأحيان نكون مشغولين بالإنتباه إلى الخبرات الجديدة لدرجة تمنعنا من التفكير في الخبرات القديمة .

يحدث لنا جميعاً أن نتذكر أموراً كنا نسيناها سنيناً طوالاً . ومن المعلوم أن الشيوخ يذكرون ذكريات الصبىٰ بكثير من الوضوح والتكرار .

ولعل أصدق دليل على خلود الذكريات تجارب ( بلفيلد ) التي أجراها عام ١٩٥٨ والتي لجأ فيها إلى إثارة الدماغ ، وسجل فيها ملاحظات مدهشة ونتائج إيجابية غريبة ، غير أننا لا نريد الدخول في تفاصيلها .

وبالرغم من أننا لا نعلم ما إذا كنا ننسىٰ تماماً ما كنا قد اختزناه في السابق ، فإنه من الواضح إن بعض الذكريات لا نستطيع التوصل إليها ، وأن بعضها يتغير حين يتذكر . ويبدو أن بعض الذكريات تسقط من وعينا ، وأن بعضها يتغير ليزيد معناه أو ثباته أو تمشيه مع معلوماتنا الحاضرة وإنّ بعضها مما هو مؤلم يختفي في اللاّشعور .

ونستطيع أن نقول إنه لا يوجد تضارب أساسي بين هذه النظريات ، وأنه ليس من الضروري أن تتبع كل ذكرياتنا ونسياننا مجرى واحداً . تلك هي أهم أسباب النسيان وأبرز النظريات الخاصة به[١٤] .

قال المؤلف : إن النسيان بجميع ما تقدم من مفاهيمه لا ينبغي أن نصوره من كل جوانبه بصورة سلبية ، ولكن هناك فوائد أودعها الله في حالة النسيان وهي إيجابية بحتة . فالحوادث المرعبة والمؤثرة في عواطف الإنسان لو بقيت تداعب فكره ولا ينساها فإن ذلك يؤول إلى إنهيار الإنسان معنوياً وجسدياً واجتماعياً ، لا يلتذ بطعام ولا شراب ، وتحولت حياته إلى شقاء دائم ، وفي ذلك اعتراض مباشر أو غير مباشر على قضاء الله وقدره ، وهناك نواحي عدة تركناها خوف الإطالة .

ويمكننا أن نذيل هذا البحث بهذه الأبيات التي سنحت ضمن كتابة هذا الحديث :

| | |
|---|---|
| أودع الله في الأنام خصالاً | هي للخير أودعت والشرور |
| غير أن الإله أوجدها للخير | والخير مودع في الصدور |
| رُب طبع يخاله المرء سخفاً | وهو في المرء ثابت ذو جذور |
| عاد للمرء حلة من جمال | تتحلى بالمنظر المسحور |
| ولذا فالنسيان طبع جميل | فبه راحة لكل شعور |
| لو تذكرت ما مضى من مصاب | كل يوم وساعة في الدهور |
| أو تذكرت سيعة من شباب | عشتها في غضارة وسرور |
| أو ذكرت الأتراب في كل حين | هم نشاوى وأنت كالمخمور |
| لأقمت العزا على سالف العيش | بدمع من الدماء غزير |

---

(١٤) من مقال للدكتور فاخر عاقل في مجلة العربى الكويتية( العدد ١٩٨ ، مايو ١٩٧٥ م ، ص ١٠٢ ) بتصرف واختصار .

# الإِحسَانُ المُستَمِرُّ

ثم يـواصل ـ عليه السلام ـ هـذا النهـج وبهـذا الأسلوب فيقـول : ( وأنت البادىء بالإحسان قبل توجه العابدين ) وقد مر بنا كثير من العبارات في مطاوي الدعاء بهذا المعنى ، وهو معنى الإمتنان ، أو البدء بالعطاء قبل الطلب . وفي العبارة معنى دقيق ينبغي التنبيه إليه . إذ أنه أعرض عن كلمة الطلب إلى ( توجه العابدين ) ؛ لأنه تعالى لم يهمل أحداً من عباده ، سواء في ذلك المطيع والعاصي ، والمؤمن والمنافق ، والمسلم والكافـر ، إنسـاً كان أو جناً أو حيـواناً ؛ إذ لـو توقف الإحسـان على العبادة لم يكن هنـاك إحسان إلا للقليل . وهذا من أروع ما يقال في هذا المقام ، فهو ـ سبحانه ـ يحسن إلى المحسن والمسيء .

وفي قـولـه ـ عليه السـلام ـ : ( وأنت الجـواد بـالعـطاء قبـل طلب الطالبين ) مشاكلة بين هذه العبارة وبين العبارة السابقة ، غير أن الإحسـان أعم من العطاء ؛ لأن الإحسان قد يكون عـطاءً ، وقد يكـون غير عـطاء ، خصوصاً إذا أخذنا العطاء بمعناه المادي ؛ ولهذا قرن العطاء ( بالجواد ) ، وذلك لأن الجواد لا يكون إلاّ في هذا المجال بحسب المعنى اللغوي الذي يتبادر إلى الذهن .

ثم إن العطاء قبل طلب الطالب هو تفضل محض على الإنسان، بمعنىٰ أنه قد يستحق هذا العطاء وقد لا يستحق .

والطالب لذلك العطاء عادة أنه قد يعطى قليلاً ، وقد يعـطىٰ كثيراً ، وذلـك بحسب ما يستحق من العـطاء . وهذا شيء بـديهي لا يحتـاج إلى جدل . غير أن العطاء قبل الطلب هذا مما تفرّد به سبحانه وتفضّل به على خلقه ، وذلك مبالغة منه في الرحمة لعباده في الدنيا قبل الآخرة والله عنده حسن الثواب .

وفي هذا المعنىٰ يقول ـ عليه السلام ـ ( وأنت الوهاب ثم لما وهبت لنا من المستقرضين ) وإلى هذا المعنىٰ أشار قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له** ﴾[١٥] .

أما معنىٰ الوهاب في العبارة فهي تعني المبالغة ، أي كثير الهبات ، كالغفار أي كثير المغفرة ، والمنان أي كثير المنة فهو يعطي ـ سبحانه ـ مبتدئاً بالعطاء وهو معنى الهبة فهو يعطي بغير عوض. ثم يطلب ما أعطى بعوض ، وهذا هو منتهى الكرم الذي لايمكن أن يتصور العقل فوقه كرم .

والآية الكريمة المطروحة إلى جانب النص الماثل تعطي هذا المعنى ، فقد ورد في تفسيرها أن المراد به الأمر ، وليس هذا بقرض حاجة على ما ظنه اليهود ، فقالوا : إنما يستقرض منّا ربنا عن عوز ، فإنما هو فقير ونحن أغنياء ، فأنزل الله ـ سبحانه ـ ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء** ﴾[١٦] ، بل سمّى ذلك الإنفاق قرضاً تلطفا للدعاء إلى فعله ، وتأكيداً للجزاء عليه ، فإن القرض يوجب الجزاء، والقرض الحسن أن ينفق من حلال ولا يفسده بمن ولا أذى ، وقيل : هو أن يكون محتسباً مطيباً به نفسه ـ عن الواقدي ـ ، وقيل : هو أن يكون حسن الموقع عند الإنفاق ، ولا يكون خسيساً . والأولىٰ أن يكون جامعاً لهذه الأمور كلها ، فلا تنافي بينها ، فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ، أي فيزيده له ، أي يعطيه ما لا يعلمه إلّا الله[١٧] .

وقال في الميزان : القرض معروف ، وقد عدّ الله ـ سبحانه ـ ما

(١٥) سورة البقرة : الآية ، ٢٤٥ .
(١٦) سورة آل عمران : الآية ، ١٨١ .
(١٧) مجمع البيان ج ٢ ، ص ٦٠٧ .

ينفقونه في سبيله قرضاً لنفسه ؛ لأنه للترغيب ؛ ولأنه إنفاق في سبيله ؛ ولأنه مما سيرد إليهم أضعافاً مضاعفة .

وقد غيّر سياق الخطاب من الأمر إلى الإستفهام بعد قوله في ما سبق : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله** . . الآية ﴾ ؛ لتنشط بذلك ذهن المخاطب بالخروج من حيّز الأمر غير الخالي من كلفة التكليف إلى حيز الدعوة والندب فتستريح بذلك وتتهيج(١٨) .

وبحسب ما تقدم من معنى الآية ندرك ما أراده في العبارة من أن الإستقراض الذي يشير إليه هو أن الله يريد من العباد أن يبذلوا المال في سبيله ، وهذا من أسمى المعاني الواردة لهذا اللفظ ؛ ولأنه ـ سبحانه ـ منزه عن الحاجة إلى عباده بل هم المحتاجون إليه جميعاً ، وهم الفقراء إليه ، وهو الغني عنهم ؛ ولأنه ـ سبحانه ـ يضاعف ذلك لهم أضعافاً كثيرة وبدون هذا لا يصدق عليه إقراض لله .

وقد جرت هذه الأبيات بهذا المعنى حال البحث :

آيات صدق أتت في الذكر محكمة ... من يقرض الله قرضاً مخلصاً حسناً
يضاعف الله أجر القرض من كرم ... إن الكريم يداه تسبق الزمنا
ولا تظن به فقراً كما فعلت ... تلك اليهود فقد قالوا به علناً
لكنه باب غفران ومرحمة ... فهل رأيت لقرض جنة ثمناً
يا ليت لي ملك قارون فأنفقه ... لكي أرى ملك قارونين مقترناً
عليك مني سلام الله نافلة ... أبا الحسين غداة القرض كان منى
تبقى ثلاثاً على جوع ومسغبةٍ ... يا سيدي بمديح الله ألف هنا

---

(١٨) تفسير الميزان ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

قال عليه السلام :

**( اِلٰهي اطْلُبْني بِرَحْمَتِكَ حَتّىٰ اَصِلَ اِلَيْكَ ، وَاجْذِبْني بِمَنِّكَ حَتّىٰ اُقْبِلَ عَلَيْكَ ، اِلٰهي اِنَّ رَجائي لا يَنْقَطِعُ عَنْكَ وَاِنْ عَصَيْتُكَ ، كَما اَنَّ خَوْفي لا يُزايِلُني وَاِنْ اَطَعْتُكَ ، فَقَدْ دَفَعَتْني الْعَوالِمُ اِلَيْكَ ، وَقَدْ اَوْقَعَني عِلْمي بِكَرَمِكَ عَلَيْكَ )** .

## اللُّغَةُ

**يزايلني** : زلت الشيء من مكانه وأزيله زيلاً . زال الشيء زيلاً ، وأزاله إزالة ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ **فزيلنا بينهم** ﴾[1] وقرأ بعضهم فزايلنا بينهم ، وهو مثل قولك : لا تصعّر ولا تصاعر . وقال ـ تعالى ـ : ﴿ **لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا** ﴾[2] وتزيّل القوم تزيلاً وتزييلاً تفرقوا ، والمزايلة المفارقة .

والمتزايلة من النساء التي تزايلك بوجهها ، تستره عنك . قال أبو ذؤيب :

---

(١) سورة يونس : الآية ، ٢٨ .

(٢) سورة الفتح : الآية ، ٢٥ .

إلى ظعن كالدوم فيها تزايل وهزّت أعمال لهن وشيج

## البَيان

في هذه الفقرة تسليم إلى الله في جميع الأمور ، وثقة به في كل شيء ، فقوله ـ عليه السلام ـ : ( إلهي اطلبني برحمتك حتىٰ أصل إليك ) ونتسائل عن كيفية هذا الطلب ، فهو طلب ليس مجرداً ، إنه طلب بالرحمة ، والطلب هنا من الله ـ سبحانه ـ ليس كالطلب منا ، فإن طلبه للعبد يعني إرادته إياه وقصده له ؛ لأن الطلب بمعناه العام هو محاولة إدراك الشيء والحصول عليه ، أما بالنسبة إلى الله فهو الطالب الغالب لا يراودنا غير هذا المعنىٰ فهو مدرك كل شيء ، وكل شيء يصدر عن إرادته في جميع حركاته وسكناته ، لكن الطلب كما أشرنا آنفاً مخصص بالرحمة ، وإذا طلب الرحمٰن الرحيم العبد برحمته فقد لطف به ، وإذا لطف به فقد أدخله الجنة ، ولذلك فإنه قد علّق الوصول إليه ـ سبحانه ـ بهذا الطلب ، وبدون هذا الطلب من المولىٰ للعبد وتقريبه إليه لا يمكن أن يصل قريباً منه ؛ لأن الهيبة تمنع العبد من القرب إلى حضرة المولىٰ إلاّ بإذنه ، وهذا جارٍ حتىٰ عند ملوك الأرض مع من يقربونه إليهم أو يبعدونه عنهم ؛ ولذلك نشأت مسألة الوسائط عند الملوك بمن هو مقرب منهم .

## عملية الجذب

ثم يقول ـ عليه السلام ـ ( واجذبني بمنك حتىٰ أقبل عليك ) والجذب بحسب ما ورد في معاجم اللغة هو مدّ الشيء ، وهذا أحد المعاني ، وأما في العبارة فإن ذلك يعني الأخذ .

وفي العبارة التفاتة دقيقة ينبغي أن نلتفت إليها ، وهو أن الجذب بمعنىٰ الأخذ يأتي بعدها المن يعني الإبتداء بالأخذ ، وهذا يعني أن الإنسان ليس له حول ولا قوة إلاّ من عند الله . وكذلك أنه ـ عليه السلام ـ

يقول : كما مننت على غيري بالرعاية فمنّ عليّ كذلك ، وخذني إليك . فبدون رعايتك لا أستطيع أن أهتدي طريق الحق حتىٰ أصل إليك ، وهذا الوصول ليس مسبباً عني ، وعن حركتي إليك ، وإن كنت قد أردت ذلك ، ولكن إرادتك فوق إرادتي ؛ ولهذا فإني أسألك أن تجمعني إليك وتهديني إلى الصراط المستقيم .

وعملية الجذب هذه إذا تأملناها فهي ليست من جانب واحد ، لأن الإنسان وإن كان ليس له في تدبير أمره شيء فكل توفيق للطاعة فهو من الله ، لكن العبد إذا لم يكن له رغبة وميل إلى هذه الطاعة ولو قليلاً فإن عملية الجذب هذه لا تتم ؛ لأن الله ينساه كما نسي الله . فعملية الجذب هذه تكون من الطرفين ، إما بالتساوي وإما بالتفاوت ، وهذا التفاوت إما أن يكون قليلاً أو كثيراً ، وهذا ما يحتاج إلى تفصيل وبيان ليتضح هذا المعنىٰ .

## الجاذبية في الأجسام

يقول الخبراء بقصص العلم وطرائف العلماء ، ان نيوتن كان مضطجعاً تحت شجرة تفاح ، فسقطت تفاحة على رأسه جعلته يفكر في سبب سقوطها وسقوط الأشياء الأخرىٰ على الأرض . ولا أظن إلاّ أن كل فرد منا يود أن يشكر تلك التفاحة التي أختارت رأس نيوتن لتسقط عليه فتجعله يفكر في الجاذبية ، ويضع لنا قانونها الشهير بإسمه .

فقد كان الناس قبل نيوتن يشاهدون الأشياء وهي تسقط على الأرض ، ويظنون أن الأرض بطريقة ما تجذب هذه الأشياء إليها . ولكن نيوتن هو أول من قال بأن الجذب متبادل بين الأرض وبين ما عليها من أجسام . فالأرض جذبت التفاحة التي سقطت علىٰ رأسه ، ولكن التفاحة في الوقت نفسه جذبت الأرض إليها ، وبما أن جسم الأرض أكبر من جسم

التفاحة لذلك وجدنا أن التفاحة هي التي تحركت حتىٰ وصلت الأرض .

وظاهرة الجذب هذه ليست موجودة بين الأرض وما عليها من أجسام وحسب ، بل هي موجودة بين الأجرام السماوية ، وبين أي كتلة وأخرى في هذا الكون . فالأرض والكواكب تجذب بعضها البعض وتجذب الشمس إليها ، والشمس بدورها تجذب الأرض والكواكب وهكذا .

وكان ( نيوتن ) والعلماء الآخرون حتى مطلع القرن العشرين يعتقدون أن الفضاء منسجم متناسق ـ أو بحسب تعبير نيوتن ـ متشابه في جميع جهاته ، مملوء بالأثير الذي تسبح فيه الكواكب . وقد وجد نيوتن أن أحسن تفسير لهذه الظاهرة هي افتراض وجود قوة في الكتل المادية تشدها إلى بعضها البعض . وسمّيت هذه القوة بالجاذبية . وقال إن من طبيعة أي جسم في هذا الكون أن يجذب إليه أي جسم آخر . ووضع قانونه الشهير القائل بأن قوة الجاذبية بين أي جسمين تتناسب تناسباً طردياً مع حاصل ضرب كتلتيهما وتناسباً عكسياً مع مربع المسافة بينهما . فقوة الجذب بين الأرض والشمس مثلاً تساوي :

كتلة الأرض × كتلة الشمس / ( □ المسافة بين الأرض والشمس )

إن ( نيوتن ) بعقله الجبار وتفكيره العلمي قد وضع قانونه هذا لتفسير ظاهرة موجودة من ظواهر الطبيعة . وقد افترض وجود قوة الجذب في الأجسام واعتبرها خاصة أساسية من خصائص المادة . ووجدنا في الواقع أن قوة الجذب أو قوة الشد الذي تبذله الشمس على الكواكب هي التي تفسر لنا مسار هذه الكواكب في مداراتها . إذن فقد اخترع ( نيوتن ) هذه القوة لكي يفسر هذه الظاهرة . وقد فسّرها في الحقيقة تفسيراً مقنعاً .

لكننا لا نجد أي دليل يثبت لنا أن الجاذبية هي قوة كامنة فعلاً في الكتل المادية ، إلاّ الظاهرة التي اخترعت هذه القوة لتفسيرها .

وقد يصعب على المرء ، إذا فكر تفكيراً مجرداً ، أن يدرك وجود قوة في الشمس تشد الكواكب إليها أو وجود قوة في الأرض تشد بهـا الأجسام الكائنة على سطحها . ولكنه يسلم مكرهاً بوجودها لتفسير الظاهرة الغريبـة التي يراها أمام عينيه .

وكان نيوتن يعـرف أن الكون يتكـون من ثلاثـة أبعاد ، وأن الفضـاء متشابه في جميع أنحائه تسبح فيه الأفلاك ، وأن من المفروض في الأجسام أن تمشي في خطوط مستقيمة في الفضاء، وقد استغرب عندما رأى الكواكب تدور حول الشمس في مدارات شبه دائرية ، فـرأى من البديهي أن تكـون هناك قوة شدّ في الشمس تشد الكـواكب إليها بهـا ، سماهـا قوة الجـاذبية ووضع لها قانوناً كان وما يزال ناجحاً إلى حدٍ بعيد .

هذا ما جاء حول نـظرة نيوتن إلى الجـاذبية . أمـا نظرة انشتين فهي تتمثل في نظريته النسبية العامة ونستطيع أن ندركها من مفهومنا عن الفضاء المتحدب ، الذي ينتج عنه أشكال كروية يخلق حول النجوم شبه أخـاديد تسير فيها الكواكب حولها . فتحدب الفضـاء حول الشمس ـ مثـلاً ـ يخلق حولها أخاديد رباعية الأبعاد تجعل الأرض والكواكب الاخرى تسير فيها في مـدارات شبه دائـرية ، لا لأن الشمس تشـد الكواكب إليهـا ـ كمـا يقـول نيوتن ـ ، ولا لأن هناك قوة أسمها الجاذبية ، فقوة كهذه لا وجود لها ، ولكن لمجرد أن الفضاء متحدب وفيه هذه الأخاديد الفضائية ، فالكواكب إذاً تسير بحسب أبسط ممر تجده أمامها ، وهي في الواقع لا تستطيع إلاّ أن تسير في هـذا الممر وفي الإتجـاه الذي تحـدده طبيعة الفضـاء المتحدب الـرباعي الأبعاد .

إن الجاذبية عند نيوتن قوة ، ولكنها عند أنشتين مجال .

إن طبيعة الفضاء المتحدب حول الكتـل تحدبـاً يخف تدريجيـاً عن

الكتل والواقعة في مركز التحدب ، يجعل من الجاذبية مجالاً أشبه بالمجال المغناطيسي الذي ينتمي إلي الفيزياء .

ونيوتن عندما يضع قانونه يقيس مقدار القوة ما بين كتلتين ثابتتين ، أما آنشتين فإنه يقيس المسار الهندسي لجسم معين في فضاء ذي هندسة معينة .

ولا نريد أن نخوض في كثير من متاهات هذه النظرية النسبية المعقدة ، ونكتفي بما عرضنا ملخصاً عن كلا النظريتين وما بينهما من الفوارق[٣] .

لكن بقي أن نشير إلى ما يلائم هذا الموضوع ، أو على الأقل إلى ما يشير إليه في شرعنا الشريف ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ **والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾[٤] . قال في الميزان : جريها حركتها والمستقر مصدر ميمي أو إسم زمان أو مكان ، والمعنىٰ أنها تتحرك نحو مستقرها أو حتى تنتهي إلى مستقرها .

وأما جريها وهو حركتها فظاهر النظر الحسي يثبت لها حركة دورية حول الأرض ، ولكن الأبحاث العلمية تقضي بالعكس ، وتكشف أن لها مع سياراتها حركة انتقالية نحو النسر الواقع .

وكيف كان فمحصل المعنىٰ أن الشمس لا تزال تجري ما دام النظام الدنيوي على حاله حتىٰ تستقر .

ولا يبعد هنا أن يقال أن ذلك إشارة إلى ما يعطيه ظاهر الحس من حركتها اليومية والفصلية والسنوية وهي حالها بالنسبة إلينا[٥] .

---

(٣) الكون الأحدب ص ٢١٩ بتصرف .
(٤) سورة يس : الآية ، ٣٨ .
(٥) تفسير الميزان ج ١٧ ، ص ٨٩ .

ثم بين ـ عليه السلام ـ الأمل الذي يداعب فكره كـإنسان تعلق قلبـه برحمة ربه فقال : ( إلهي إن رجائي لا ينقطع عنك وإن عصيتك ) وقد مر بنـا في كثير من المـواطن من أبحاث الكتـاب هذا المعنى . ونضيـف هنـا فنقول : إن المعصية لا تمنـع رزقه ـ سبحـانه ـ ولا تمنـع عطاءه فهـو يغفر للعاصين ، ويتوب عليهم وإن اقترفوا الذنوب صغيرها وكبيرها .

على أنانقول :لا يجوز للإنسان أن يعول على هذا الأمل من الغفران كلية ، فيهمل كل شيء ليضيع منه كل شيء ، وإنا لنرىٰ هذا الغفران وهذه الرحمة الواسعة من العوامل التي تدفع الإنسان إلى الأمام ليرغب أكثر فيما عند الله ليصل إلى الغايات السامية والدرجات العالية ، وينبغي أن يكون كـذلك ، فإن الطمع في ما عند الله وطلب الزيادة من الثواب لا يمنعه العقل السليم .

## أسباب الخوف من الله

ثم قـال ـ عليه السـلام ـ ( كما أن خـوفي لا يـزايلني وإن أطعتـك ) والخوف من الله ـ سبحانه ـ من الدرجات العالية ، خصوصاً إذا قلنا : بـأن الخوف مسألة من المسائل الوجدانية التي تنبعث من الداخل .

والحقيقـة أن الخوف من الله هـو أمان من كـل شيء ؛ لأن الإنسان عندما يشعـر بالخـوف من الله لا يشعر بخـوف آخر ؛ لأن كـل خوف عـدا الخـوف من الله مسبب عن المخلوق المساوي لبعضـه البعض في التسيير والتخيير، والقوة والضعف .

ثم أن هذا الخوف من الإنسان يزول بزوال سببه . أما الخوف من الله فإنه لا يزول ، بل يبقىٰ كلما وعىٰ الإنسان هذا الجانب من جوانب العلاقة مع الله ـ تعالى ـ ؛ لأن الله حي لا يموت ؛ ولأن التهديد والوعيد جارٍ على الإنسان إلى أن يموت ، سواءً كان أطاع أم عصىٰ ، وهذا مـا أشارت إليـه العبارة بوضوح .

فمزايلة الخوف يعني زوال سببه ، والسبب في خوف الإنسان من الله إما أن يكون من تقصيره في طاعة مولاه ، وإما لاقترافه من الذنوب الموبقات ما يورده النار .

ثم ذكر ـ عليه السلام ـ المؤثرات والعلاقات التي جعلته يسير في هذا النهج فقال : ( فقد دفعتني العوالم إليك ) والعوالم جمع عالم ، ويقصد بها المجموعات المستقلة عن بعضها البعض من المخلوقات ، كالأجرام السماوية والرياح على اختلاف اتجاهاتها ، والجن والإنس والوحوش والطيور والحشرات والحيتان في البحار والنباتات والجمادات كلها عوالم قد ملأت هذا الكون الرحيب ، وكلها تستحق التأمل والنظرة الفاحصة في تدبيرها وتنظيمها ، فإذا تأمل فيها الإنسان قاده ذلك التأمل ودفعه إلى الله ـ سبحانه ـ ؛ لأنها عجائب ، ولأن الإنسان بطبعه يطلب تفسيراً لكل عجب ، فإذا ما كشف السر لذلك العجب انقاد بلا شك إلى المسبب لذلك واستعظمه .

ثم واصل ـ عليه السلام ـ كلامه بهذه اللهجة فقال : ( وقد أوقعني علمي بكرمك عليك ) . ومعنىٰ ذلك أن معرفته بربه وصفاته دله على أنه كريم ، ومقتضىٰ ذلك أن سائله لا يخيب ، ولكن إذا أخلص في السؤال ، وإلا فإنه تعالى يعطي من سأله ومن لم يسأله ، غير أن العلم بكرمه تعالى يطمع الإنسان ، ويسيل لعابه في أن يسأل من ذلك الخير الذي لا ينتهي ولا يحد .

وإن العلم بحقائق الاشياء يحث الإنسان على طلب مواطنها ، ويحثه على معرفتها خصوصاً إذا كان الإنسان في حاجة ، أو بدافع حاجة إلى ذلك المطلب .

قال عليه السلام :

( إلٰهي كَيْفَ اَخيبُ وَاَنْتَ اَمَلي ؟ اَمْ كَيْفَ اُهانُ وَعَلَيْكَ مُتَّكَلي ؟ إلٰهي كَيْفَ اَسْتَعِزُّ وَفي الذِّلَّةِ اَرْكَزْتَني ؟ اَمْ كَيْفَ لا اَسْتَعِزُّ وَإلَيْكَ نَسَبْتَني ؟ إلٰهي كَيْفَ لا اَفْتَقِرُ وَاَنْتَ الَّذي في الْفُقَراءِ اَقَمْتَني ؟ اَمْ كَيْفَ اَفْتَقِرُ وَاَنْتَ الَّذي بِجُودِكَ اَغْنَيْتَني ) .

## اللُّغَةُ

**أهان** : الهون الخزي ، والهوان والهون نقيض العز . وأهانة وهونه واستهان به ، وتهاون به استخف به ، والإسم الهوان والمهانة ، ورجل فيه مهانه أي ذل وضعف . وفي الحديث : ( ليس بالجافي ولا المهين ) .

وشيء هين أي سهل ، وهين ( مخفف ) بهذا المعنى أيضاً ، والجمع أهوناء .

قال ابن بري : لم يأتِ هكذا في كلام العرب .

والهون والهوان والهون ( بفتح الهاء ) الرفق . قال تعالى : ﴿ **وعباد الرحمٰن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا**

سلاماً ﴾[1] .

وقال الشاعر :

مـــررت على الـــوديعـــة ذات يـــوم تهـــادى في رداء المـــرط هـــونـــا

## البَيَان

في هــذه الفقرة تســاءل ـ عليه الســلام ـ باستغــراب عن الخيبة التي يكون عليها لعبد ؛ لأن العلائق المتعددة التي تربط بين العبد وربه ، والتي تتعدد بتعدد أنواع العبادات والطاعات كفيلة بنجاحه في الدارين .

## الخيبة والخسران

إذن فما هي الأسباب المباشرة للخيبة والخسران في حياة الإنسان ، يقول ـ عليه السلام ـ : ( الهي كيف أخيب وأنت املي ) هذا التساؤل كيف يعتري الإنسان ذلك والحال أن الله ـ سبحانه ـ قد تكفل لـه بكل شيء من رزقه ، ولم يكله إلى نفسه طرفة عين ؟ إضافة إلى ما وعده سبحانه بجزيل الثـواب على الطاعـة ، وردعه للتهـديد بـالعقاب على المعصيـة ، ووعـد سبحـانه بين هـذا وذاك برحمـة واسعة ، ورد في شـأنها أن إبليس الغـوي ليطمع فيها يوم القيامة عندما يشاهد انتشارها وشمولها العباد في ذلك اليوم قال تعالىٰ : ﴿ **فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة . . الآية** ﴾[2] ففي ذلك أمر بإنذارهم وتهديدهم إن كذبوا بالبأس الالٰهي الذي لا مرد له ، لكن لا ببيان يسلط عليهم اليأس والقنوط ، بل بما يشوبه بعض الرجاء ؛ ولذلك قدم عليه قوله ﴿ **ربكم ذو رحمة واسعة** ﴾[3] .

---

(١) سورة الفرقان : الآية ، ٦٣ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ، ١٤٧ .

(٣) تفسير الميزان ج ٧ ، ص ٣٦٦ .

ومن خلال ما ورد في تفسير الآية نرىٰ أن الله سبحانه لا يقطع العلاقة بينه وبين عبده ، أو يبدأ بقطعها ، ولكن العبد بجهله يقطع جميع هذه العلائق ظاهراً كما يتخيل إليه ذلك ، ولكنه لو تأمل قليلاً لرأى أن العلاقات بينه وبين الله لا زالت قائمة على أشدها لم ينقطع منها شيء حتىٰ في حالة كفره . وما مسألة الرزق ، وفتح باب التوبة للإنسان على مصراعيه يدخل فيه الإنسان متىٰ ما أراد ورعايته بالحفظة إلا بعض من هذه العلاقات .

غير أن الإنسان يقصر نظره ، وبتفكيره المحدود ينسىٰ أو يتناسىٰ تلك الوعود الصادقة من الرحمة والمغفرة والتوبة الصادرة منه تعالى لعباده ؛ ولأنه بطبعه المادي لا يؤمن إلا بما يشاهد ويرىٰ بحواسه ، فإنه لا يعرف ما أخفي له من قرة عين ، اللهم إلا من كشف له الغطاء من المؤمنين فإنه ينظر بنور الله ، فتنكشف له بعض الحجب ليرىٰ ما لا يراه غيره وفي ذلك امتياز خاص لهؤلاء الفئة من الناس .

ونعود مرة ثانية إلى العبارة فقد جاءت بصيغة الإستفهام المجازي ؛ لكي تنفي جميع أنواع الخيبة عندما يعلق الإنسان أمله بالله في كل شيء ، وهذا ليس من التواكل في شيء . لأن الأمل وهو تعلق الإنسان بربه قلباً وقالباً هو من أعظم الإرتباطات والصلاة بين الخالق والمخلوق ، وهذه الثقة تظهر نتائجها تباعاً وتتضاعف بمرور الزمن وتوالي الأيام شيئاً فشيئاً ، حتى يصل الإنسان إلى درجة لا يعرف فيها غير الله ، فيكون اعتماده واتكاله عليه دون سواه .

ولهذا فإنه قد جاء في العبارة التالية هذا المعنىٰ بعينه ( أم كيف أهان وعليك متكلي ) وقد مرّ بنا في ما تقدم من أبحاث الكتاب أن التوكل على الله يختلف عن التواكل ، فإذا توكل الإنسان على ربه فإن العز يأتيه من عزة الله تعالىٰ .

# الإهانة

والإهانة وهي شيء يمارسه الإنسان بين أبناء جنسه لها دوافع مختلفة ، يجدر بنا أن ننظر في تأمل إلى هذه الدوافع التي تحدث بين أبناء البشر لبعضهم البعض في حالات مختلفة منها :

١ ـ أن الإهانة قد تحدث بين البعض والبعض لاختلاف الهويات أو الهوايات ، فكل واحد يحاول أن يفرض ما يريد على غيره بأسلوب أو بآخر .

٢ ـ وقد تكون هذه الإهانة بدافع مادي ، وهذه الحال التي تعتري الإنسان ناتجة عن تعلقه بالمادة أكثر مما يلزم ، مما يجعله لا يرىٰ غير المادة شيئاً ، وكلما فعل ذلك وقرب من المادة وتعلق بها قلبه بعد عن الله فيتحمل في سبيل ذلك الإهانة ولا يبالي بما يقال فيه ، فتكون حياته من أشقى أنواع الحياة ، وسيرته بين الناس من أخس السير وأحطها .

وفي ما يروىٰ عن عيسى ابن مريم صلوات الله عليه قال : يا معشر الحواريين إن ابن آدم مخلوق في الدنيا في أربع منازل . هو في ثلاث منها واثق ، وهو في الرابعة سيء الظن يخاف خذلان الله إياه . فأما المنزلة الأولى فإنه خلق في ظلمات ثلاث : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة . فوفّاه الله رزقه في جوف ظلمة البطن . فإذا أخرج من ظلمة البطن وقع في اللبن لا يخطو إليه بقدم ، ولا ساق ، ولا يتناوله بيد ، ولا ينهض إليه بقوة ، بل يكره إليه إكراهاً . ويؤجر إيجاراً حتى ينبت عليه لحمه ودمه . فإذا ارتفع عن اللبن وقع في المنزلة الثالثة من الطعام من أبويه ، يكسبان عليه من حلال وحرام ؛ فإن ماتا عطف عليه الناس . هذا يطعمه ، وهذا يسقيه ، وهذا يأويه ، وهذا يكسوه . فإذا وقع في المنزلة الرابعة ، واشتد واستوى ، وكان رجلاً خشي أن لا يرزق ، فيثب على الناس ،

فيخون أماناتهم ، ويسرق امتعتهم ، ويغصبهم أموالهم مخافة خذلان الله تعالى إياه[٤] .

٣ ـ أو أن الإهانة هذه تأتي من الله مباشرة للعبد ، ولكن ضمن حدود وضوابط معينة ، فإن الإنسان إذا تردىٰ في المعاصي فإن الله سبحانه يرسله إرسال من لا خير فيه ليلقىٰ جزاءه بعد حين ، أو أن الله يبتليه ابتلاءً ليراه أيشكر أم يكفر . وقد أشار إلى ذلك الذكر الحكيم في قوله تعالىٰ : ﴿ **وأما إذا ما ابتلاه ربه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن** ﴾[٥] قال في الميزان أي وأما إذا ما امتحنه واختبره فضيق عليه رزقه فيقول ربي أذلني واستخف بي[٦]. وذلك أن إيتاء النعم بما أنه فضل ورحمة إكرام إن لم يبدلها الإنسان نقماً على نفسه ، والآية هذه وما قبلها معاً تفيدان أن الإنسان يرىٰ سعادته في الحياة هي التنعم في الدنيا بنعم الله تعالىٰ وهو الكرامة عنده ، والحرمان منه شقاء عنده ، والحال أن الكرامة هي في التقرب إليه تعالىٰ بالإيمان والعمل الصالح سواء في ذلك الغنى والفقر ، وأي وجدان وفقدان فإنما ذلك بلاء وامتحان .

وهكذا نرىٰ أن الإهانة تأتي من جهات يخلقها الإنسان يفتحها على نفسه فعليه أن يسد هذه الثغرات التي يحتمل الشر منها . أما ما يتخيله من أن الأهانة قد تأتي من الله فإن ذلك وهم محض ، لأن الله سبحانه لا يرضىٰ لعبده الشر ، ولكنه يرضىٰ له الخير ، لأنه غير محتاج إلى عذابه وشقائه .

## العز والذل

في هـذا المعنى يقـول ـ عليـه السـلام ـ : ( إلهي كيف أستعـز

(٤) المحاسن والأضداد ص ٢٠٢ .
(٥) سورة الفجر : الآية ، ١٦ .
(٦) تفسير الميزان ج ٢٠ ، ص ٢٨٢ .

وفي الـذلـة أركـزتني ، أم كيف لا أستعـز وإليـك نسبتني ) بين هـاتين الجملتين طباق ـ كما اصطلح على ذلك علماء البلاغة ـ وفيهما تساؤل يشير إلى أن العزيز هو من أعزه الله ، والذليل هو من أذله الله ، وفي المـأثور عنهم ـ عليهم السلام ـ ( من أراد عزاً بلا عشيرة ، وهيبة بلا سلطان فيخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعته ) فالعزة والذلة مناطهما الطاعة والمعصية . فالإنسان عزيز بالله وإن ذل ، وهو ذليـل بغير الله وإن عـز ؛ لأن العزة لله جميعاً

فالفقير ذليل بين الناس كما يخيل إليهم بنظرتهم المادية البحتة ؛ لأنه لا إعتبار عندهم لغير المادة ، ولكنه عزيز عند الله إذا كان مؤمناً صـالحاً ؛ لأن موضوع ما وراء المادة بعيد عن أذهان البشر كل البعد .

ويخيل للناس أن الغني عزيز بماله بحسب تلك النظرة أيضاً ، ولكنه عزيز إن كان كذلك بطاعة ربه ، لأن الله عـزيز ، وعنـه يؤخذ العـز ، وهو باق . فالعز المنتمي إلى الله دائم ، وبعكسه العز الذي يستمده الإنسان من المال ؛ لأن المال فان .

وقـوله ـ عليـه السلام : ( وإليـك نسبتني ) أي أن العز الـذي ينسب إلى الله باق ما بقي الدهر ، وهو العز الحقيقي الذي لا ينكره الوجدان وما سواه ذل . فالعزيز من أعزه الله ، والذليل من أذله الله .

والعبارة المطروحة تشير إلى ذلـك بوضـوح ، فهي تدل على أن من سلبه الله العز لا يستعزفيكتب . عليه الـذل ، وأن من ألبسه الله لبـاس العز هيهات أن يذل ؛ لأن الله قد أراد عزته .

## الفقر والغنىٰ من الله

ثم رواه ـ عليـه السلام ـ بهـذه اللهجة التي ملؤهـا الإنقطاع إلى الله يناجي ربه فيقول : ( إلٰهي كيف لا أفتقر وأنت الـذي في الفقراء أقمتني )

وكأنه يعني أن الفقر حتمي لكل مخلوق لأن الله خلق الإنسان فأخـرجه من بطن أمه لا يعلم شيئـاً ولا يملك شيئاً من رزقـه وسائـر حاجـاته ، وبكـونه مخلوقاً ممكناً لا بد وأن يكون محتـاجاً ، وهـذا هو عين الإفتقـار ، فقولـه ـ عليه السلام ـ : ( وأنت الذي في الفقراء أقمتني ) لم يقصد أنك حتمت عليّ الفقر فأفقرتني ، ولكن المقصود هو كونه مخلوقاً ، وكل مخلوق مفتقر إلى خالقه ؛ لأن الله لا يريد لعباده الفقر ، ولكنـه خلقهم لا يملكون شيئـاً وهذا هو الفقر الحقيقي .

وأمـا قـولـه ـ عليـه السـلام ـ : ( كيف أفتقـر وأنت الـذي بجـودك أغنيتني ؟ ) يعني أنـه طـالمـا أن رزقي بيـدك ، وأنت الـذي تقسم أرزاق العباد ، فلا خوف عليّ من أن أفتقر ، ولا خوف علىٰ رزقي من أن ينقطع ، ولا حاجة لي في الدنيا بأكثر من هذا .

فالإنسان وإن كان فقيراً معدماً إلا أنه لا ينبغي له أن يقطع الرجاء من الخير فيما عند الله ؛ لأنه سبحانه كريم ، ومتفضل ومنان . وقد حتم على نفسه الرزق .

وهـذه الصفات كلهـا قابلة لأن تقلب المقـاييس رأسـاً على عقب . فالفقير يصبح غنياً بين عشية وضحاها . والذليـل يصبح عـزيزاً بين لحـظة وأخرى قال الشاعر :

مـا بين غفـوة عين وانتبـاهتهـا ... يـغيّـر الله مـن حـال إلـى حـال
وإنمـا الفـرج المكنـون في يـده ... فبينمـا المـرء في خـوف وبلبـال
أتـاه من ربـه مـا ليس يحسبـه ... من جـانب لـم يكن للمـرء ذا بـال
يا كاشف الكرب عن أيوب إن يدي ... مـدت إلى جنبـات ذات افضـال
ويـا مفـرج عن ذي النـون كـربتـه ... فـرّج كروب ذليـل أيهـا العـالي(٧)

(٧) الأبيات الأربعة الأخيرة من تذييل المؤلف .

**قال عليه السلام :**

**( وَاَنْتَ الَّذي لا اِلٰهَ غَيْـرُكَ ، تَعَرَّفْتَ لِكُـلِّ شَيْءٍ فَما جَهِلَكَ شَيْءٌ ، وَاَنْتَ الَّذي تَعَرَّفْتَ لي في كُلِّ شَـيْءٍ فَرَأَيْتُكَ ظاهِراً في كُلِّ شَيْءٍ ، وَاَنْتَ الظّاهِرُ لِكُلِّ شَيءٍ ) .**

## اللُّغَةُ

**ظاهراً** : بادياً للعين ، وظهـر الشيء بدا . والـظهر خـلاف البطن ، وظهرت الطير من بلد كذا إلى بلد كذا انحدرت منه إليه ، وظهـرت البيت علوته . وتظاهر القوم تدابروا كأنه ولّى كل واحد منهم ظهـره إلى صاحبه. والظواهر أشراف الأرض ، وظاهر الجبل أعلاه ، وتظاهروا عليه تعـاونوا ، وأظهــره الله على عـدوه . وفي التنـزيـل العـزيـز : ﴿ **وإن تـظاهــرا عليه . . . الآية** ﴾[1] والظهرة الأعوان . قال تميم :

ألـهـفـي عـلى عــزيــز وظـهــرة وظـل شبـاب كنت فيــه فـأدبـرا

والظهار في ألنساء هو أن يقـول الرجـل لزوجتـه : أنت علي كظهـر أمي .

---

(١) سورة التحريم **الآية** ، ٤ .

## البيَان

بدأ في الفقرة يستعيد بعض ما تقدم ؛ لكي ينهي كلامه بما ختم ، فقال ـ عليه السلام ـ ( وأنت الذي لا إله غيرك ) وقد مرّ شرح هذه العبارة المباركة في كثير من البحوث المناسبة في الكتاب بكل أجزائه ، ونعود هنا أيضاً فنقول : إن نفي الشريك عنه ـ تعالى ـ هو الأمر الذي بنيت عليه الشرائع السماوية ، وهو الذي نادت به الأنبياء منذ أن فطر الله الخلق ، ولا زال ينادي به المصلحون المتقون إلى آخر الدهر ، وهذا من الأمور البديهية التي لا تحتاج إلى نظر كما أسلفنا ذلك مراراً .

وعلى كل حال فإن نفي الشريك من مستلزمات التوحيد ، ولا يمكن للإنسان أن يعبد ربه إلاّ بمعرفة ، والمعرفة لله ـ سبحانه وتعالى ـ من أهمها نفي الشركاء . وقد اختلف العلماء فيها فمنهم من قال : إنها فطرية ولا دخل للإنسان فيها . ومنهم قال بأنها كسبية يجب على الإنسان أن يعرف ربه بما تسنىٰ له من الأدلة ، سواءً كانت عقلية أو نقلية ، وبعد ذلك أن الله أعذر لعبده وأرحم به إذ لا يكلفه إلاّ بما يستطيع .

وقد استعرضنا هذين الرأيين في الجزء الأول من الكتاب ، وثبت لدينا بأن معرفته ـ سبحانه ـ قائمة على الفطرة بالآيات والروايات ، وهذا ما أشار إليه النص الماثل بين أيدينا .

### معرفة الله

فقوله ـ عليه السلام ـ ( تعرفت لكل شيء فما جهلك شيء . . إلى آخر النص ) هذه العبارات التي تشرق نوراً وتتألق صفاءً ، تدل بوضوح على أن الله لم يكلف العباد فوق ما يستطيعون ، ومعرفته بلا شك لا يستطيعونها ، وقد تكفل بتعريفهم نفسه ـ كما تقدم ـ ولقد ورد في الدعاء المأثور عن الأئمة الأطهار ـ عليهم السلام ـ ما يشير إلى هذا المعنىٰ ، وهو

مروي عن أبي عبد الله جعفر بن محمد ـ عليه السلام ـ قال : ( اللهم عرفني نفسك ، فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف نبيك ، اللهم عرفني رسولك ، فإنك إن لم تعرفني رسولك لم أعرف حجتك ، اللهم عرفني حجتك ، فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني ) .

وأنت إذا تأملت ما جاء في هذا الدعاء المروي عن الصادق ـ عليه السلام ـ وجدته ينطبق على ما جاء في النص الماثل أمام هذا البحث .

ثم إن التصديق بوجوده ـ تعالى ـ وهو فرع معرفته ، بل هو المعرفة كلها من أجل البديهيات ـ كما سبق القول بذلك ـ ، وهو كما قال ـ تعالى ـ ﴿ **قالت لهم رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض** ﴾[٢] الشك كما مرّ في كثير من مناسبات الكلام هو تردد العقل بين طرفي النقيض. جاء في تفسير هذه الآية : إن ذلك برهان على توحيد الربوبية ، إذ لو سيق لمجرد الإنكار على الكفار من غير إشارة إلى برهان لم يكن حاجة إلى ذكر الوصف ـ فاطر السماوات والأرض ـ ففي ذكره دلالة على أنه مزيل كل شك وريب عنه ـ تعالى ـ .

وهذا برهان تام سهل التناوب حتى للأفهام البسيطة يناله الإنسان الذي يذعن بفطرته أن للعالم المشهود حقيقة وواقعية من غير أن يكون وهماً مجرداً كما يبديه السفسطة والشك ، وثبت به توحيد الالوهية والربوبية ، ولذلك تمسك في هذا المقام الذي هو مقام خصام الوثنية .

ولا شك أن من سنته ـ تعالى ـ الجارية هداية كل شيء إلى كماله وسعادته النوعية ، والإنسان أحد هذه الأنواع المشمولة للهداية الإلهية ، فمن الواجب في العناية الإلهية أن يهتدي إلى سعادة حياته ، ولكن له حياة

---

(٢) سورة إبراهيم : الآية ، ١٠ .

خالدة غير محدودة بالدنيا ، ولا منقطعة بالموت ، وسعادته في الحياة أن يعيش في الدنيا عيشة مطمئنة على أساس تعديل قواه في التمتع من أمتعة الحياة من مأكول ومشروب ولباس ونكاح وغير ذلك وهي الأعمال الصالحة ، وفي الآخرة أن يعيش على ما اكتسبه من الإعتقاد الحق والعمل الصالح .

فربوبيته ـ تعالى ـ لكل شيء المستوجبة لتدبيرها أحسن تدبير ، وهدايته كل نوع إلى غايته السعيدة تستدعي أن تعنىٰ بالناس بإرسال رسل منهم إليهم ودعوته الناس بلسان رسله إلى الإيمان والعمل الصالح ليتم بذلك سعادتهم في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فبالتخلص عن النكال والعقوبة القاضية عليهم ، وأما في الآخرة فبالمغفرة الإلهية بمقدار ما تلبسوا به من الإيمان والعمل الصالح[٣] .

ومن خلال معنى الآية يظهر السر من معنىٰ العبارة ، المطروحة للبحث ، وخصوصاً الغرض من الظهور والتجلي لعباده سبحانه في كل شيء وهو معرفته معرفة تليق بأن يعبد ليس على حرف ، وإنما عبادة معرفة .

أما تصور كنه الحقيقة أو ما يقرب من الكنه فمن أمحل المحالات قال تعالى : ﴿ **ولا يحيطون به علماً** ﴾[٤] كيف وسيد البشر صلوات الله عليه وآله يقول : ( ما عرفناك حق معرفتك ) . وقال صلى الله عليه وآله : ( وإن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار ، وإن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه انتم .

قال ابن أبي الحديد :

---

(٣) تفسير الميزان ج ١٢ ، ص ٢٥ .
(٤) سورة طه : الآية ، ١١٠ .

تـــاه الأنــــام بـــســكـــرهـــم ... فلذاك صـاحي الـقـوم عـربَـد
تـــالله لا مـــوســـى الـــكـلـيـم ... ولا الـمـسـيـح ولا مـحـمـد
كـــلا ولا جـبـريـــل وهـــو الـــى ... مـحـل الـقـدس يـصـعـد
عـلـمــوا ولا الـنـفـس الـبـسـيـطـة ... لا ولا الـعـقـل الـمـجـرد
مـــن كـنـــه ذاتـــك غـيـــر أنـــك ... أوحـدي الـذات سـرمـد
فـلـيـخـسـأ الـحـكـمـاء عـــن ... حـرم لـه الإمـلاك سـجّـد
مـــن أنـــت يـــا رسـطـو ومـــن ... أفـلاط قـبـلـك يـا مـبـلّـد
ومـــن ابـن سـيـنـا حـيـن هـذّ ... ب مـا أتـيـت بـه وشـيّـد
مـــا أنـتـــم إلا الـفـــراش ... رأى الـسـراج وقـد تـوقـد
فـدنـا فـأحـرق نـفـسـه ... ولـو اهـتـدى رشـداً لأبـعـد

ويقول آخر :

فـيـك يـا اغـلوطـة الـفـكـر ... تـاه عـقـلي وانـقـضىٰ عـمـري
سـافـرت فـيـك الـعـقـول فـمـا ... ربـحـت إلا أذى الـسـفـر
رجـعـت حـسـرى ومـا وقـعـت ... لا عـلـى عـيـن ولا أثـر

وأما ما ينقل عن سيد الأولياء وسند الأصفياء أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ من قوله : ( لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا ) فالمراد لو كشف عن أحوال النشأة الأخرىٰ وعما هو خفي عن النشأة الأولىٰ ، ولو كان المراد غير ذلك لنا في قول سيد البشر : ما عرفناك حق معرفتك . وقول الحكماء : جل جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد ، وأن يطلع عليه إلا واحد بعد واحد ، لا يريدون به الإطلاع التام ولا ما يزاحم التمام .

ومن الأبيات المشهورة في هذا المعنىٰ ـ وقد ذكرناهافي ما مضىٰ إلا أننا سنذكرها هنا ونذيلها بأبيات أخرى مناسبة وهي :

فواعـجبـاً كـيـف يـعـصىٰ الإلـه ... أم كـيـف بـمـجـده الـجـاحـد

ولله في كل تحريكة وتسكينة أبداً شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

***

فصعِّد بطرفك نحو السماء وسله وقل أيها الصاعد
رأيت البراهين ملأ الفضاء امستيقظ أنت أم راقد
وماذا تشاهد بعد الضياء فما كل باكية فاقد
ألست ترى كل نجم له دليل على ربه عاضد
فسبح كما سبح الجامدات فيكف له سبح الجامد
ولكن تسبيحهم لا نعيه وما كل ذي سجدة عابد(٥)

ومما تقدم من أحاديث نبوية وآيات قرآنية وأبيات عرفانية يظهر لك معنىً العبارة في النص برمته ، وينكشف لك الغطاء عن غوامض تلك الأسرار المودعة في تلك الكلمات العرفانية الغامضة الظاهرة .

---

(٥) الأبيات الستة الأخيرة من تذييل المؤلف .

قال عليه السلام :

**( يٰا مَنِ اسْتَوىٰ بِرَحْمٰانِيَّتِه فَصٰارَ الْعَرْشُ غَيْباً في ذٰاتِهِ ، مَحَقْتَ الآثَارَ بِالآثارِ ، وَمَحَوْتَ الأَغْيارَ بِمُحيطاتِ اَفْلاٰكِ الأَنْوٰارِ ) .**

## اللُّغةُ

**استوى** : استوى الشيء إعتدل ، والإسم السواء ، يقال : سواء عليَّ قمت أو قعدت . واستوى الرجل بلغ أشده ، وقيل بلغ أربعين سنة . وقوله عز وجل : **﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء ﴾**[1] . كما تقول : بلغ الأمير من بلد كذا وكذا ثم استوى إلى بلد كذا ، معناه قصد بالإستواء إليه ، وقيل استوىٰ إلى السماء صعد أمره إليها، وقيل استولىٰ . الجوهري : استوى إلى السماء أي قصد ، واستوىٰ أي استولى وظهر ، قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق    من غير سيف ودم مهراق

وقال الفراء : الإستواء في كلام العرب على وجهين : أحدهما أن يستوي الرجل وينتهي شبابه وقوته ، أو يستوي عن العرش : سرير الملك يدلك على ذلك سرير ملكة سبأ قال تعالىٰ : **﴿ إني وجدت إمرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ﴾**[2] وقد يستعار لغيره ، وعرش الباري

(١) سورة الحديد : الآية ، ٤ .    (٢) سورة النمل : الآية ، ٢٣ .

سبحانه لا يحد والجمع أعراش ، وعرش البيت سقفه وفي التنزيل العزيز : ﴿ **الرحمن على العرش استوىٰ** ﴾[3]، وقال تعالى ﴿ **ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية** ﴾[4] وعرش الثريا كواكب قريبة منها . والعرش والعريش ما يستظل به قالت الخنساء :

كان أبو حسان عرشاً خوىٰ     مما بناه الدهر دان خليل

وعرش الكرم ما يدعم به من الخشب وعرَّشه إذا عطف العيدان التي ترسل عليها قضبان الكرم ، والواحد عرش والجمع عروش .

**مَحَوْت** : محا الشيء يمحوه محواً ومحياً أذهب أثره . وكرّه بعضهم امتحىٰ ، والأجود انمحىٰ .

والماحي من أسماء النبي ـ صلى الله عليه وآله ـ لأنه قد محا الله به الكفر وآثاره ، وقيل لأنه يمحو الكفر ويعفي آثاره بإذن الله والمحو السواد الذي في القمر كأن ذلك كان نيرّاً فمحىٰ وقال الأصمعي وغيره : من أسماء الشمال محوة . قال ابن السكيت : هبت محوة وأنشد :

قد بكرت محوة بالعجاج     فدمرت بقية الدجاج

وقيل هو الجنوب ، وقال غيره : سمّيت الشمال محوة لأنها تمحو السحاب وتذهب بها .

## البيَان

في هذه الفقرة طرح ـ عليه السلام ـ بعض ما تميز به الباري عن مخلوقاته وإن كانت المميزات لا تحصىٰ إلا أنه هنا قد أبرز بعضاً منها على سبيل الإستطراد فقال :

( يا من استوى برحمانيته فصار العرش غيباً في ذاته ) والإستواء هذا

---

(٣) سورة طه : الآية، ٥ .     (٤) سورة الحاقة الآية ١٧ .

كمـا ورد في بحث اللغة أنـه يفسر مـرة بـالإستيـلاء والهيمنـة على جميـع الموجودات ، ومرة يفسر بالتساوي ، وكلا المعنيين محتمل كل الإحتمال ، وارد كل الورود .

١ ـ فـالإستواء بمعنىٰ الهيمنـة والإستيلاء إنـه بهذه الـرحمانيـة التي اختص بها ، ولم يشاركه أحد من خلقه فحـقّ له التحكم في الأخذ والعطاء فهو الذي يعطي ويمنع على سبيل الدوام .

٢ ـ وأما بمعنى التساوي فإنه سبحانه قد ساوىٰ بين خلقه بمعنىٰ أنه قد أعطىٰ كل ذي حق حقه ، ولا يـظلم ربك أحـداً . فالمسـاواة بمعناهـا الصحيح هو العطاء لمن يستحق بمقدار ما يستحق ، فلو اعطى أحداً فوق ما يستحق ، وأعطىٰ الآخر ما يستحق ، وأعطى ثالثاً أقل مما يستحق لا نمحي معنى المساواة .

وإذا رأيت ثم رأيت عجباً في هذه العبارة ، فعندمـا تتأمـل كلماتهـا يأخذك الذهول من كيفية الربط بين هذه الكلمات التي أخذت كل واحـدة بذيل الأخرى .

فقوله ـ عليه السلام ـ : ( استوى برحمانيته ) وقوله : ( العـرش غيباً في ذاته ) يؤكد استيلاءه لا بالقوة والغلبة ولكن بالرحمانية التي هي شأنه مع جميع خلقه من إنس وجن وحيوان وملك وغير ذلك . ولماذا يكون العرش غيبـاً وهو الـذي ينطق عن القـوة ؟ أخفاه الله سبحـانه وجعله غيبـاً وأظهـر الرحمانية وتفضل بها على العباد دون القوة الصاعقة التي لا تبقي ولا تذر ، وبهذا نستطيـع أن نفسر القـول المأثـور في الدعـاء الوارد عن أهـل البيت الطاهر ـ عليهم السلام ـ : ( يا من رحمته سبقت غضبه ) .

## بحث حول العرش

أما العرش فعلى أساس الإختلاف في تفسيره إنه سبحـانه لم يكلف

العبـاد بشيء من معـرفـة العـرش ؛ لأنـه غيب في ذاتـه ـ كمـا قـالت العبارة ـ والبحث عن ذلك أو عما وراء ذلك لم يكلف به العباد ؛ لذلك فإن رحمانيته التي انبسطت على جميع من خلق أكدت عدم تكليف هؤلاء بشيء لا يستطيعونه ، ومنه التفكير في العرش ؛ لأن العرش غيب وهذا الغيب لا يمكن التحدث عنه بحال من الأحوال ؛ لأنـه لم يظهـر على غيبه أحـداً ، خصـوصاً إذا قلنـا بأن العـرش هو الملك ، ومن أسمـائه سبحـانـه الملك المنسوب إليه الملك ( بضم الميم ) ومالك يوم الدين ، فالحديث عن ذلك حديث عن ذاته المقدسة وقد نهىٰ سبحانـه عن ذلك ، إلا أن العلمـاء بما استشفـوا من معاني الآيـات والروايـات معـان كثيـرة لـذلـك ذكـروهـا في مطولاتهم ، ونحن بدورنا نبحث هذا الموضوع فنقول .

روى الشيـخ الصدوق في كتـاب التوحيـد عن أبيـه ، عن سعـد بن عبـد الله ، عن محمـد بن الحسن ، بن أبي الخـطاب ، عن صفـوان بن يحيى ، عن عبد الرحمن بن الحجاج قال : سألت أبا عبد الله عن قول الله عز وجل ﴿ الرحمٰن على العرش استوىٰ ﴾[5] فقال إستوى من كل شيء ، فليس أقرب إليه من شيء ، لم يبعد منه بعيد ولم يقرب منه قريب استوىٰ من كل شيء[6] .

قال المجلسي عليه الرحمة بعد ذكر كثير من الوجوه لمعنى العرش : هو الجسم الكبير الذي فوق السمـاوات والكرسي ، وذهب الأكثـر إلى أن المـراد به الفلك التـاسع ، وبـالكرسي الثـامن ، لكن الظاهـر من الأخبار الكثيرة أنه جسم مربع ذو قوائم ، وأركان. وحمل بعضهم القوائم والأركـان على الجهات والحدود .

---

(٥) سورة طه : الآية ، ٥ .

(٦) كتاب التوحيد للصدوق ص ٢٣٢ .

ثم قال رحمه الله والظاهر أنـه لا ضرورة تـدعو إلى هـذا التكلف ، وحملة هذا العرش في الدنيا الملائكة ، وفي الآخرة إما الملائكة أو الأنبياء أو الأئمة ـ عليهم السلام ـ .

ويظهر من الأخبار أن الكرسي أيضاً قد يـطلق على العلم ، وحملته نبينا وأيمتنا ـ عليهم السلام ـ ، كما رواه الصدوق رحمه الله عن بن سنان عن أبي عبـد الله ـ عليه السـلام ـ في قول الله عـز وجل ﴿ **وسـع كـرسيـه السمٰـوات والأرض** ﴾ (٧) فقال ـ عليـه السلام ـ : السمـاوات والأرض وما بينهما في الكرسي ، والعرش هو العلم لا يقدر أحد قدره (٨) .

وفي معنىً آخر قيل بأن العرش هـو كل صفـة من صفاتـه الكماليـة والجلالية وهو مستقر لعظمته وكبـريائـه ، فله عرش الـرحمانيـة والرحيميـة والعلم والقدرة إلى غير ذلك من صفاته تعالى .

وقيل العرش قلب كـلّ المؤمنين ، فإن مستقر معرفته ومحبته وذكره ، وقد روي من طرق العامة : ( أن قلب المؤمن عرش الرحمن ) وقد روي من طرقنا أنه تعالى قال : « لا يسعني أرضي ولا سمائي ، ووسعني قلب عبدي المؤمن » .

وقال المجلسي ـ عليه الرحمة ـ : وتحقيق المقام أنه لما كان ظهـور قدرة الملوك ونفاذ أمرهم وشوكتهم إذا كانوا على عرشهم ، والله ـ تعالى ـ كان منزهاً عن المكان ، غنياً عن كونه في مكان خاص ، فكل شيء يظهر آثار قدرته تعالى فيه ، أو يصير سبباً لظهوره أو ظهور قدرته وكمـاله يسمى عرشاً له ، فالجسم الكبير الذي فوق السموات لكونه أعظم الجسمانيات ، وأنورها وظهور قدرته تعالى منه اكثر ، وتقدير الأمور عنده ونزول الوحي منه

---

(٧) سورة البقرة : الآية ، ٢٥٥ .

(٨) كتاب التوحيد للصدوق ص ٢٣٩ .

وعروج الأَعمال إليه وإحاطة الكروبيين ، وأرواح المقربين به يسمى عرشاً له تعالى .

ولما كان كل ذرة من ذرات الوجود دليلاً على وجوده ومظهراً لقدرته ، وفيض وجوده ، فجميع الموجودات الإمكانية بهذا الأعتبار عرشه تعالى ، والقلب لكونه محل ظهوره العلمي وموضع معرفته فهو أيضاً من عروشه ، ولما لم يحط بكنه ذاته وصفاته غير علمه الكامل ولم يظهر كما هو إلا فيه فهو عرشه الأعظم . ولما كان تمكنه على قدرته التي هي عين ذاته وبه يظهر الآثار منه فهو كالعرش الذي يتكي عليه الملوك ، وأيضاً لما كان كل صفة من صفاته الكمالية منشأ لصدور آثار بها يظهر وجوده تعالى وكماله على الغير فكل منها عرش له تعالى بجهة .

فإذا عرفت هذا فإما أن يكون (ع) فسر العرش بمجموع الأشياء وضمن الإستواء ما يتعدى (بعلى) كالإستيلاء والإستعلاء والإشراف فالمعنى استوت نسبته إلى كل شيء حال كونه مستوليا عليها .

أو فسره بالعلم ويكون متعلق الإستواء مقدراً أي تساوت نسبته من كل شيء حال كونه متمكناً على عرش العلم فيكون إشارة إلى بيان نسبته تعالى ، وأنها بالعلم والإحاطة .

أو المراد بالعرش عرش العظمة والجلال والقدرة أي استوى من كل شيء مع كونه في غاية العظمة ومتمكناً على عرش التقدس والجلالة ، والحاصل أن علو قدره ليس مانعاً من دنوه بالحفظ والتربية والإحاطة ، وكذا العكس وعلى التقادير فقوله : ( استوى ) خبر ، وقوله على العرش حال .

ويحتمل أن يكونا خبرين ، على بعض التقادير ولا يبعد على الإحتمال الأول جعل قوله على العرش متعلقاً بالإستواء بأن تكون كلمة على بمعنى إلى .

ويحتمل على تقدير حمل العرش على العلم أن يكون قوله : ﴿ **على العرش** ﴾ خبراً ، وقوله : ﴿ **استوى** ﴾ حالا عن العرش ولكنه بعيد ، وعلى التقادير يمكن أن يقال : إن النكتة في إيراد الرحمن بيان أن رحمانيته توجب استواء نسبته إيجاداً وحفظاً وتربية وعلماً إلى الجميع بخلاف الرحيمية فانها تقتضي إفاضة الهدايات الخاصة على المؤمنين فقط وكذا كثير من أسمائه الحسنى تخص جماعة .

ويحتمل أيضاً أن يكون المراد بالعرش عرش الرحمانية أي حال كونه على عرش الرحمانية تستوي نسبته إلى كل شيء ، وإن كان من جهة تمكنه على عرش الرحيمية بالمؤمنين أقرب(٩) .

وعندما قالوا بأن العرش هو الفلك التاسع المحيط بالعالم الجسماني والمحدد للجهات ، والأطلس الخالي من الكواكب ، والراسم بحركته اليومية للزمان ، وفي جوفه مماساً به الكرسي وهو الفلك الثامن الذي فيه الثوابت ، وفي جوفه الأفلاك السبعة الكلية التي هي افلاك السيارات السبع : زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر بالترتيب محيطاً بعضها ببعض كانوا يقصدون من ذلك ما يفرضه علم الهيئة على مسلك بطليموس بتنظيم الحركات العلوية الظاهرة للحس ، طبقوا عليها ما يذكره القران من السماوات السبع والكرسي والعرش فما وجدوا من أحكامها المذكورة في الهيئة والطبيعيات لايخالف الظواهر قبلوه ، وما وجدوه يخالف الظواهر الموجودة في الكتاب ردوه ، كقولهم : ( ليس للفلك المحدد وراء ، لا خلأ ولا ملأ ) . وقولهم بدوام الحركات الفلكية ، واستحالة الخرق والإلتئام عليها ، وكون كل فلك يماس بسطحه سطح غيره من غير وجود بعد بينها ، ولا سكنة فيها ، وكون أجسامها بسيطة متشابهة لا ثقب فيها ولا باب .

---

(٩) كتاب الأربعين للعلامة المجلسي ص ٩٥ .

والـظواهـر من القـرآن والحـديث تثبت أن وراء العـرش حجبـاً وسرادقات ، وأن له قوائم ، وأن له حملة ، وأن الله سيطوي السماء كطي السجل للكتب ، وأن في السماء سكنـة من الملائكـة ، ليس فيها مـوضع إهاب إلا وفيه ملك راكع أو ساجد يلجونه وينزلون منه ويصعدون إليه ، وان للسماء أبواباً ، وان الجنة فيها عند سدرة المنتهى التي ينتهي إليها أعمـال العباد إلى غير ذلك مما ينافي بظاهره ما افترضه علمـاء الهيئة والـطبيعيات سابقاً ، والقائلون منا أن السماوات والكرسي والعرش هي ما افتـرضوه من الأفلاك التسعة الكلية يدفعون ذلك كله بمخالفة الظواهر .

ولم ينبههم هذا الإختلاف في الوصف على أن ما يصفه القرآن غير ما يفترضه أولئك لتوجيـه الحركـات العلوية حتى أوضحت الأبحـاث الأخيرة العميقة في الهيئة والطبيعيات المؤيدة بالحس والتجربة بـطلان الفرضيـات السابقة من أصلها فاضطر هؤلاء إلى فسخ تطبيقهم ورفع اليد عنه[١٠] .

من هذا البيان المفصل في معنى العرش ندرك ما قاله ـ عليه السلام ـ في العبـارة ( فصار العـرش غيباً في ذاتـه ) فإن الغيب لا يعلمـه إلا الله ؛ ولذلك فقـد حامت الأوهـام ؛ واضطربت العقـول ، واختلفت الآراء ( في معنى العرش ) فذهبت كل مذهب وسلكت كل طريق بحثاً عن هذا المعنىٰ الدقيق العميق ، ولكنهم لم يبلغوا ما أرادوا فارتدوا خاسئين .

## محق الآثار بالآثار

تحت هذا العنوان يقول ـ عليه السلام ـ مخاطبـاً الله بأنـه هو القـادر على كل شيء فقال : ( محقت الآثار بالآثـار ) ومحق الآثار هـو محوهـا بحيث يحـل محلها مـا ينـاقضهـا أو يخلفهـا وإلا لم يكن محقـاً ، كمحق الصحة بالمرض وبالعكس ، ومحق الفقر بالغنىٰ وبالعكس ، ومحق الحياة

(١٠) الميزان ج ٨ ، ص ١٥٣ .

بالموت وبالعكس ، وهكذا .

على أن هذا المحق المذكور هو لا يقل شأناً عن البراهين الساطعة التي تثبت وجوده ـ سبحانه ـ في كل شيء كما تقدم ذكر ذلك ، وبهذا الإعتبار يمكن القول بأن هذا المحق هو تحد محض لجميع القدرات المتصورة في عالم الوجود .

فإن القدرات الأخرىٰ إن استطاعت أن تمحق آثاراً فلا تستطيع أن تأتي بآثار أخرىٰ ، فهي لم تمحق الآثار بالآثار ، وإنما محقت الآثار بغير شيء ، فلم يحل محل هذه الآثار الممحوقة آثار أخرىٰ .

ولهذا نراه ـ عليه السلام ـ يشير إلى هذا التحدي بوضوح في قوله : ( ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار ) فالأغيار جمع غير ، على وزن أموات وميت ، وهذا الغير هو ما أشار إليه في العبارة السابقة بالمحق .

فالأغيار هنا بمعنىٰ العدم الذي يقابل الوجود مقابلة النقيضين . أما هذا الوجود فهو ما عبر عنه ( بمحيطات أفلاك الأنوار ) والمحيط هو البحر الكبير المتناهي في الكبر ، أو الذي لا يدرك الإنسان ساحله .

وقد استعار هذا للتعبير عن كثرة الأنوار التي تظهر البراهين المشرقة على وجود الصانع سبحانه وإن لم يره الإنسان ، أو أن هذه الأنوار هي بنفسها براهين ساطعة على ذلك ـ كما سوف يأتينا في الفقرة التالية من الدعاء ـ أو بعبارة أخرىٰ إنه عبر بهذه الكثرة من الأنوار وهذه السعة ليقول : بأن هذه الأنوار لم تقتصر على النور المادي الذ ي ينحصر في رؤية البصر ، ولكنها تتعدىٰ إلى إنارة القلوب الباحثة عن معرفة الله سبحانه وتعالى .

ومن الغريب ، بل ومن الغريب جداً أنك ترىٰ استعمال كلمة المحيطات في العبارة المطروحة أمام هذا البحث لتدل علىٰ الشمول كما تدل علىٰ السعة التي لا يدركها الإنسان .

ففي سعتها إلى أن الإنسان أينما رمىٰ ببصره وجد الله في آياته وعلاماته ، ظاهراً في كل شيء ـ كما مر بنا في الفقرة السابقة ـ وبذلك لا يكون للإنسان عذر في إنكار ما يجد من هذه الآثار والعلامات الدالة بتغيراتها وتقلباتها وإلفاتها للنظر في حركاتها وسكونها علىٰ الصانع سبحانه .

وأما في تحديدها فإنها تعني أن الإنسان ليس له مفر من قبضة الله سبحانه ، فأينما توجه فهو مملوك ، وبذلك لا يسعه إلا الإذعان للأوامر والنواهي ؛ لأنه مجبور بالأدلة الظاهرة والباطنة على معرفة الله سبحانه ، ومرغم على الإعتراف بذلك ـ كما دلت عليه الآيات والروايات ـ .

قال عليه السلام :

**( يٰا مَنِ احْتَجَبَ في سُرٰادُقّاتِ عَرْشِهِ ، عَنْ اَنْ تُدْرِكَهُ الْأَبْصارُ ، يٰا مَنْ تَجَلّىٰ بِكَمٰالِ بَهٰائِهِ ، فَتَحَقَّقَتْ عَظَمَتُهُ الإسْتِوٰاءَ ، كَيْفَ تَخْفىٰ وَاَنْتَ الظّٰاهِرُ ؟ اَمْ كَيْفَ تَغيبُ وَاَنْتَ الرَّقيبُ الْحاضِرُ ؟ اِنَّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ ، وَالْحَمْدُ لله وَحْدَهُ) .**

## اللُّغَةُ

**احتجب** : الحجاب الستر ، حجب الشيء يحجبه حجباً وحجاباً ستره ، وامرأة محجوبة قد سترت بستر وحجاب الجوف ما يحجب بين الفؤاد وسائر الأحشاء وقال الأزهري : هي جلدة بين الفؤاد وسائر البطن ، والحاجب البواب وفي الحديث قالت بنو قصي : فينا الحجابة ، يعنون حجابة الكعبة وهي سدانتها وهم الذين بأيديهم مفاتيحها وكل شيء منع شيء فقد حجبه وحاجب الشمس قرنها وهو ناحية من قرصها حين تبدأ بالطلوع قال الغنوي :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية　　هتكنا حجاب الشمس أو مطرت دما

**سرادقات** : السرادق ما أحاط بالبناء ، والجمع سرادقات قال

سيبويه : جمعوه بالتاء وان كان مذكر . وفي التنزيل ﴿ **أحاط بهم سرادقها** ﴾[1] في صفة النار أعاذنا الله منها . قال الزجاج : صار عليهم سرادق من العذاب . والسرادق : كل ما أحاط بشيء أو هو كل ما أحاط بشيء من حائط أو مضرب أو خبا وبيت مسردق هو أن يكون أعلاه وأسفله مشدود كله قال سلام بن جندل يذكر قتل كسرى للنعمان :

هو المدخل النعمان بيتاً سماؤه      صدور الفيول بعد بيت مسردق

**بهائه** : البهاء المنظر الحسن الرائع المالىء العين والبهي الشيء ذو البهاء ، والبهاء الحسن . يبهىٰ ويبهو بهاء وبهاءة فهو باهٍ . وابتهأت بالشيء إذا أنست به وأحببت قربه . قال الأعشى :

وفي الحي من يهوى هوانا ويبتهي      وآخر قد أبدىٰ الكآبة مغضباً

**والمباهاة** : المفاخرة وتباهوا أي تفاخروا وفي حديث عرفة يباهي بهم الملائكة .

## البيَان ـ الخفاء والظهور

لا زال في هذه الفقرة يواصل ـ عليه السلام ـ وصف الباري بما تفرد به من صفات دون غيره من الموجودات ، وقد ذكرنا في شرح الفقرة السابقة أنه ـ عليه السلام ـ وصفه بالدوام في رحمته ، فعدل عن كلمة الرحمة إلى كلمة ( الرحمانية ) التي تشعر باستمرار الرحمة ودوامها ، وهٰهنا وصفه بالإحتجاب في سرادقات عرشه عن أن تدركه الأبصار .

وإذا رجعنا إلى التفسيرات الواردة في البحث السابق حول العرش ، والمعاني التي طرحها العلماء ضمن الوجوه المحتملة لمعنىٰ العرش عرفنا المقصود من هذا الإحتجاب في سرادقات العرش .

---

(١) سورة الكهف : الآية ، ٢٩ .

ونضيف هنا شيئاً آخر فنقول : إن الإحتجاب المذكور لا يفيد المكانية ، كما أن ( في ) لا تدل بصورة جازمة على معنىٰ الظرفية بعد التأمل في ما سبق من المعاني ، وإنما ذلك أعم وأشمل ، فالاحتجاب هنا يعني عدم إدراك البصر لذاته المقدسه .

وقد ورد في معنى السرادق إضافة إلى ما تقدم في بحث اللغة أن السرادق حائط من نار يحيط بالكفار عند دخولهم النار إشارة إلى قوله تعالى :﴿ . . . **إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماءٍ كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً** ﴾[٢] .

كما ورد عن بن عباس ، وقيل هو دخان النار ولهيبها يصل إليهم قبل وصولهم إليها ، وهو الذي في قوله تعالىٰ : ﴿ **إلى ظل ذي ثلاث شعب** ﴾[٣] عن قتادة ، وقيل أراد أن النار أحاطت بهم من جميع جوانبهم فشبه ذلك في السرداق عن أبي مسلم[٤] . وإذا أمعنا النظر في معنىٰ الآية وقارنا بينها وبين ما ورد في عبارة الدعاء أدركنا أن المعنىٰ واحد وإن اختلفت المناسبة في الإستعمال .

والمعنىٰ باختصار هو أن الله تبارك وتعالىٰ قد احتجب عن خلقه بحواجب مختلفة ، فمنها الساتر الذي يحجب الرؤية ـ وإن كان استعمال ذلك مجازاً ـ ، ومرة أخرىٰ بشدة الظهور فلا تقوىٰ العين أو الجوارح على إدراك نوره ، ومثاله كالشمس الساطعة القوية يحاول الإنسان أن يرىٰ ما في وسطها ، وعبثاً يحاول مع تسامح في التعبير وإلى هذا أشار قوله تعالىٰ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾[٥] ورد

---

(٢) سورة الكهف : الآية ، ٢٩ .

(٣) سورة المرسلات : الآية ، ٣٠ .

(٤) تفسير مجمع البيان .

(٥) سورة الأنعام : الآية ، ١٠٣ .

في تفسيرها أي لا تراه العيون ؛ لأن الإدراك متى قرن بالبصر لا يفهم منه إلا الرؤية ، كما أنه إذا قرن بآلة السمع فقيل أدركت بأذني لم يفهم منه إلا السماع ، وكذلك إذا أضيف إلى كل واحد من الحواس أفاد ما تلده الحاسة آلة فيه . فقولهم أدركته بفمي معناه : وجدت طعمه ، وأدركته بأنفي معناه وجدت رائحته . ﴿ **وهو يدرك الأبصار** ﴾ تقديره لا تدركه ذوو الأبصار وهو يدرك ذوي الأبصار ، أي المبصرين ، ومعناه : أنه يرىٰ ولا يُـرى ، وبهذا خالف سبحانه جميع الموجودات لأن منها ما يرى ويُرىٰ كالأحيـاء ، ومنها ما يُرى ولا يَرى كالجمادات والأعراض المدركة ، ومنها ما لا يُرى ولا يَرىٰ كالأعراض غير المدركة .

فالله تعالى خالف جميعها وتفرد لأن يَرىٰ ولا يُرىٰ ، وتمدح في الآية بمجموع الأمرين ، كما تمدح في آية أخرىٰ بقوله : ﴿ **وهو يطعم ولا يطعم** ﴾[٦] .

وروى العياشي بالاسناد المتصل أن الفضل ابن سهل ذا الرياستين سأل أبا الحسن علي بن موسىٰ الرضا ـ عليه السلام ـ فقال : أخبرني عما أختلف الناس فيه من الرؤية ، فقال من وصف الله بخلاف ما وصف به نفسه ، فقال أعظم الفرية على الله لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهذه الأبصار ليست هي الأعين ، إنما هي الأبصار التي في القلوب ، لا يقع عليه الأوهام ولا يدرك كيف هو .

( وهو اللطيف ) قيل في معناه وجوه :

**أحدهما** : أنه اللاطف بعباده بسبوغ الأنعام ، غير أنه عدل عن وزن فاعل إلى فعيل للمبالغة .

**الثاني** : إن معناه لطيف التدبير إلا أنه حذف لدلالة الكلام عليه .

---

(٦) سورة الأنعام : الآية ، ١٤ .

**الثالث** : إن اللطيف الذي إذا دعوته لباك ، وإن قصدته آواك ، وإن أحببته أدناك ، وإن أطعته كافاك ، وإن عصيته عافاك ، وإن أعرضت عنه دعاك ، وإن أقبلت إليه هداك .

**الخامس** : اللطيف من يكافي الوافي ، ويعفو عن الجافي .

**السادس** : اللطيف من يعز المفتخر به ويغني المفتقر إليه .

**السابع** : اللطيف من يكون عطاؤه خيرة ، ومنعه وخيرة[٧] .

ومن خلال ما ورد من الوجوه في تفسير الآية نستطيع أن ندرك معنى الإحتجاب أيضاً . على أن هذه المعاني التي سيقت في هذا الغرض كلها شاهدة على أنه سبحانه احتجب عن عباده لأن عباده لا يجانسونه في الوجود فهو يختلف عنهم إختلاف الخالق عن المخلوق . غير أن هذا الإحتجاب وإن أخفىٰ إدراكهم له حتى بالعقول ، لكنه بمقدار ما احتجب عنهم تجلىٰ لهم لكمال البهاء ، وذلك قوله ـ عليه السلام ـ : ( يا من تجلىٰ بكمال بهائه فتحققت عظمته الإستواء ) وهذا الأسلوب المنسجم مع بعضه البعض إذا تأملت فيه أخذك العجب من كيفية الربط بين عباراته ، فهو مع كونه لا يدرك بالبصر ، إلا أنه يتجلىٰ بكمال بهائه ، وكمال البهاء مرة يكون للظهور بجلاء ووضوح ومعنىٰ ذلك مثول الأدلة والبراهين أمام الإنسان على وجوده سبحانه وعظمته وحكمته ، وهذه البراهين تظهر لا مجرد ظهور ، وتمثل لا مجرد مثول ، ولكنها تبدو في تناسق واعتدال بحيث يرتاح الناظر من هيئتها ودلالتها على المطلوب فلا يعاني وحشة ولا اشمئزازاً ولكنه يريد أكثر مما رأىٰ ويرغب في معرفة أكثر مما عرف ؛ لأن عملية الجذب تجره إلى ذلك ، وهذا معنىٰ كمال البهاء ، أو كما الجمال ، أو كمال النور ـ كما جاء معنىٰ ذلك في بحث اللغة .

---

(٧) مجمع البيان للطوسي ج ٤ ، ص ٥٣٢ .

ومرة أخرى يكون التجلي بكمال البهاء لدىٰ القلوب المتعطشة لمعرفة الله سبحانه ، فإذا قلنا أن البهاء هو جمال باعثه النور فإن القلوب أولىٰ بهذا الجمال وأولىٰ بهذه الإنارة ، لأنه يشمل البصير والمكفوف ، ويعم البصيرة والبصر ؛ لأن هذا النور الذي أنتج البهاء ليس مقصوراً على العين فقط بل تنفعل وتنتعش له جميع جوارح الإنسان العاملة .

على أن ما تناولته العبارة من كلا المعنيين وارد كل الورود ، صحيح كل الصحة ، جميل كل الجمال ، ثابت كل الثبوت ، بناءً على ما ورد من تحليل وتعليل .

## تحقق العظمة

يقول ـ عليه السلام ـ في هذا المعنى : ( فتحققت عظمته الإستواء ) إما أن يكون ( الإستواء ) مفعولاً به و ( عظمته ) هي الفاعل ، فتكون عظمته بهذا المعنىٰ قد بلغت الذروة في الإستعلاء والجبروت ، ويرد على هذا إشكال وهو أن الفعل ( تحققت ) لازم وليس بمتعدي ، فهو لا يأخذ مفعولاً به إلا على سبيل التكلف وهو بعيد عن لهجة المعصوم المبنية على عكس ذلك .

وإما أن يكون ( الإستواء ) منصوباً بنزع الخافض فيكون المعنىٰ أن العظمة قد تحققت بالإستيلاء ، ولولا ذلك لم يظهر لها أي مصداق أمام العين ، وكلا المعنيين وارد بما يعطيه المعنىٰ اللغوي للفظ إلا أن الأول أقوىٰ بحسب ما يفيده سياق الكلام ، والثاني أكمل بحسب ما تفيده القواعد العربية .

## الظهور الجلي

ثم ذكر ـ عليه السلام ـ من الصفات الإلهية البارزة التي اختص بها سبحانه فقال : ( كيف تخفىٰ وأنت الظاهر ) ؟ و( الظاهر ) هنا ليس كما

يعطيه المعنىٰ المتبادر إلى الذهن وهو المثول أمام العين للرؤية ، ولكن بحسب ما تعطيه القرائن الموجودة في سياق الكلام ، وهو أن ظهوره سبحانه ليس بذاته ؛ لأنه لا يحد بمكان ولا تدركه الأبصار ـ كما مر في تفسير الآية ـ غير أن هذا الظهور ـ كما قلنا مراراً ـ هو ظهور بآثاره وعلاماته .

قال في مصباح الكفعمي الظاهر : أي الظاهر بحججه الظاهرة وبراهينه الباهرة الدالة على صحة ربوبيته ، وثبوت وحدانيته ، فلا موجود إلا وهو يشهد بوجوده ، ولا مخترع إلا هو يعرب عن توحيده قال الشاعر وقد تقدم ذكر ذلك[٨] :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وقد يكون الظاهر بمعنىٰ العالي ، ومنه قوله ـ صلى الله عليه وآله : ( أنت الظاهر فليس فوقك شيء ) ، وقد يكون بمعنىٰ الغالب ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ **فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين** ﴾[٩] إلا أن الظاهر بالمعنى الأول هو أنسب بالعبارة الواردة بالنص الماثل أمامنا وذلك لأن في الجملة طباق بين قوله : ( تخفىٰ ) وبين ( الظاهر ) .

ثم يتابع ـ عليه السلام ـ الكلام بهذا المعنىٰ فيقول : ( أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر ) والرقابة قد مر معناها في بحث سابق من الكتاب ونزيد هنا فنقول : إن رقابته سبحانه التي فرضها على جميع مخلوقاته لمصلحة مقتضاها التكليف ، وذلك لكي يحاسب الإنسان على ما يأتي به وعلى ما يؤتىٰ .

أما ما يأتي به من عمل فمن عمله من خير أو شر لكي يعطىٰ بقدر ما أعطىٰ ، ولكي يحاسب على ما أعطي من نعم ؛ لأن الله سبحانه يحاسب

---

(٨) مصباح الكفعمي ص ٣٣١ .
(٩) سورة الصف : الآية ، ١٤ .

بقدر تلك النعم التي وفرها للإنسان ؛ لكي لا يبدو على الإنسان شيء من الظلم ولا يفوته شيء من الخير . ولا يظلم ربك أحداً .

أما الرقابات الأخرىٰ فلا تخلو من شوائب العبثية ، ولا يقصد الإنسان منها إلا حماية نفسه لأنه لا يعلم ما يخبىء له القدر في ليل أو نهار ، فهو يضطر إلى فرض الرقابة على الجهات التي يتوقع مجيء الخطر منها . وهذا أمر لا يختلف فيه إثنان إلا أن هذه الرقابة قد تمتد ويمتد معها الأذى ، وذلك من لوازم هذه الرقابة التي فرضها الإنسان .

## القدير والقادر

ثم يقول ـ عليه السلام ـ : ( إنك على كل شيء قدير ) وقد بحثنا القدرة فيما سبق إلا أننا هنا نبحث الفرق بين هاتين الصفتين المتعلقتين به سبحانه فنقول : إن القدير أبلغ من القادر في الإستعمال اللغوي ، والإصطلاحي .

قال الكفعمي في المصباح : القدير القادر هما بمعنىً ، غير أن القدير مبالغة في القادر ، وهو الموجد للشيء اختياراً من غير عجز ولا فتور ، والقدير الذي قدرته لا تتناهىٰ ، فهوم أبلغ من القادر ؛ ولهذا لا يوصف به غير الله تعالى .

والقدرة هي التمكن من إيجاد الشيء ، وقيل قدرة الإنسان هيئة يتمكن بها من الفعل ، وقدرة الله عبارة عن نفي العجز عنه ، والقادر هو الذي إن شاء فعل وإن شاء ترك ، والقدير الفعال لما يشاء ، واشتقاق القدرة من القدر ؛ لأن القادر يوقع الفعل على مقدار ما تقتضيه مشيئته وفيه دليل على أن مقدور العبد مقدور لله ؛ لأنه شيء وكل شيء مقدور له . قاله البيضاوي في تفسيره ، وهو معنىٰ النص بلا فرق .

وقال الطبرسي في تفسيره الكبير في قوله تعالى : ﴿ إن الله على كل

شيء قدير ﴾ إنه عام فهو قادر على الأشياء كلها على ثلاثة أوجه : على المعدومات بأن يوجدها ، وعلى الموجودات بأن يفنيها ، وعلى مقدور غيره بأن يقدر عليه ويمنع منه .

وفي كتاب منتهىٰ السؤال : القادر هو الذي إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، وليس القدرة مشروطة بأن يشاء حتىٰ إذا لم يكن يشاء لم يكن قادراً ، بل هو ـ جلت عظمته ـ قادراً مطلقاً من غير اعتبار المشيئة وعدمها ؛ لأنه ـ تعالى ـ قادر على إقامة القيامة الآن ، إلا أنه لم يشأ إقامتها لما جرىٰ من سابق علمه من تقدير أجلها ووقتها ، فذلك لا يقدح في القدرة . والقادر المطلق الذي يخترع كل موجود اختراعاً ينفرد به ويستغني عن معاونة غيره وهو الله تعالى .

أما المقتدر فهو التام القدرة الذي لا يمنعه شيء عن مراده .

وقال الشهيد رحمه الله : المقتدر أبلغ من القادر لاقتضائه الإطلاق ، ولا يوصف بالقدرة المطلقة غير الله تعالى(١٠) .

هذا وقد قامت الأدلة الكثيرة على أنه سبحانه قادر على كل شيء . وربما راود العقل هذا الإشكال مطالباً بالدليل وتصويره هو ما الدليل على أنه سبحانه قادر على كل مقدور ؟

قال الفيلسوف الكبير الشيخ ميثم البحراني قدس الله نفسه الزكية :

**الجواب** : الدليل على ذلك أن نسبة ذاته المقدسة إلى جميع المقدورات متساوية ؛ لكونه مجرداً ، ونسبتها في الإحتياج إلى ذاته المقدسة على السوية لكونها ممكنة والإمكان علة الإحتياج العامة ، فاختصاص قدرته تعالىٰ بمقدور دون مقدور ترجيح من غير مرجح وهو

(١٠) مصباح الكفعمي ص ٣٣٠ .

باطل . انتهى .

قال المؤلف في توضيح ذلك : إن جميع الكائنات والموجودات هي ممكنة إلا الله سبحانه وتعالىٰ فإنه واجب الوجود وبذلك يمتاز عن سائر الموجودات ، وبذلك تكون هذه الموجودات بما أنها ممكنة في حاجة إلى موجد ليخرجها من العدم إلى الإمكان كما تحتاج إلى رعاية دائمة فاحتياجها أولاً إلى موجد ، واحتياجها ثانياً إلى من تستمد منه وجودها لازم ، وهذه الحاجة تنبسط على جميع هذه الموجودات المخلوقة بقدرته تعالى ، سواء في ذلك الجبل الأشم أو الذرة التي لا ترىٰ بالعين .

وإلى هذا أشار سيد المتكلمين أمير المؤمنين علي ـ عليه السلام ـ في خطبة النملة بقوله : ( ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلتك الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة ، لدقيق تفصيل كل شيء ، وغامض اختلاف كل حي . وما الجليل واللطيف ، والثقيل والخفيف ، والقوي والضعيف في خلقه إلا سواء ) .

## الحمد كلمة خاصة

ثم ختم ـ عليه السلام ـ كلامه بما بدأ به في أول الدعاء ، فقال : ( الحمد لله وحده ) وقد ذكرنا في بداية الجزء الأول ، وكذلك في بداية الجزء الثاني تحقيقات حول معنىٰ الحمد ، والفرق بينه وبين الشكر ، وفي كل مناسبة اقتضت ذلك في مطاوي أبحاث الكتاب المتواصلة ، وفي هذا المقام نقول أيضاً : إنه ـ عليه السلام ـ قد أكد على ما قلناه سابقاً من اختصاص الحمد بالله سبحانه ، وهي كلمة لا تقال لغيره ، أكد ذلك في هذه العبارة المطروحة باللام في لفظ الجلالة وفي كلمة ( وحده ) ، وهذه الكلمة ربما توجه إلى عدة معاني :

**المعنى الأول** : إنه يريد أن يقول : إن الحمد لا يصلح إلا لله دون

غيره من بقية المنعمين ؛ لأن الصفات التي تقارن هذه الصفة ، وهي كونه منعماً لا تتوفر إلا فيه ، كما أشرنا إلى ذلك في بداية الجزء الثاني من الكتاب .

**المعنى الثاني** : إن كلمة ( وحده ) هي بمعنىٰ ( منفرداً ) وهي كما نص على ذلك علماء النحو : بأنها حال ، فكأنه يريد أن يقول : إن الحمد لا يصلح ولا ينطبق تمام الإنطباق إلا إذا كان لله وحده خاصة دون غيره من بقية المنعمين ، أما إذا أعطيت هذه الصفة لغيره أيضاً فإن معنىٰ الكلمة يكون هزيلاً باستعمالها لكل منعم ، وبذلك تخرج عن إطارها المحدد واستعمالها اللغوي والإصطلاحي .

**المعنى الثالث** : إن الحمد يعطىٰ لله سبحانه على أي حال من الأحوال ، في حالة السراء والضراء ، وهذا ما قد أشار إليه الكفعمي في المصباح في معنىٰ ( الحميد ) قال : هو الذي استحق الحمد بفعاله في السراء والضراء[11] . فهو سبحانه الذي لا يحمد على مكروه سواه ، وقد ورد هذا المعنىٰ متواتراً عن أهل البيت الطاهر سلام الله عليهم أجمعين .

وهناك احتمالات أخرى ترد ضمن هذه المعاني تركناها خوف الإطالة .

وإلى هنا ينتهي بنا المطاف في هذا الشرح لهذا الدعاء الشريف ، نسأل الله أن يعمم فائدته ، وان يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يكون عنده مقبولاً ، ويجعله دخيرة ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، إلا من أتىٰ الله بقل سليم .

وقد وقع الفراغ من تسويده صباح الجمعة في الساعة الثامنة ، اليوم

---

(١١) مصباح الكفعمي ص ٣٢٧ .

المصادف الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٤١٢ هجرية الموافق الرابع من شهر اكتوبر سنة ١٩٩١ ميلادية كما وقع الفراغ من تبييضه في ليلة الجمعة الساعة السابعة تماماً الموافق الثاني من شهر ربيع الثاني سنة ١٤١٢ هجرية الموافق الحادي عشر من شهر اكتوبر سنة ١٩٩١ ميلادية بقرية الدراز ـ البحرين ـ ، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين .

## الخاتمة

دعاء الحسين ـ عليه السلام ـ في يوم عرفة من الأدعية الفريدة من نوعها ، فقد جمع فأوعىٰ ، على أن ما جاء عنهم جميعاً ـ عليهم السلام ـ يستحق الإكبار والإجلال ؛ لأنه من نفس المصدر الذي صدر عنه هذا الدعاء .

غير أن دعاء عرفة قد امتاز عنها بارتباطه بالمناسبة التي قيل فيها وهي يوم عرفة ، الذي يحتشد فيه المسلمون على تلك الحال التي يتساوون فيها بين السيد والمسود ، يبتهلون فيها إلى الله ويدعونه بفنون الدعوات وفي مقدمتها هذا الدعاء الشريف .

وقد ذكر هذا الدعاء السيد بن طاووس الحلي في كتابه ( إقبال الأعمال ) كاملاً ، كما جئنا به في الجزء الأول من الكتاب .

ولقد سمعت سماعاً من أحد العلماء في الإحساء بأن الفقرات العرفانية الأخيرة من الدعاء ينسبها البعض لابن عطاء في بعض رسائله ، لكني أستبعد ذلك ، بل وأرفض هذا القول رفضاً باتاً .

لأن ذلك لو صح لما أثبته السيد ابن طاووس في كتابه المذكور ، وهو العالم العارف والمطلع على نسبة الأدعية إلى قائلها من المعصومين منذ ذلك العهد القديم ؛ لأنه رحمهُ الله قد تتبع ما نسب إليهم فأثبته في هذا الكتاب الجليل ، وما اشتبه في أمره نفاه عن حظيرته ؛ ولأن اللغة

المنسجمة في جميع فقرات الدعاء من أوله إلى آخره لا يستطيع رص كلماتها ، ورصف عباراتها إلاّ الإمام المعصوم ، لأنه نور ، ولأن كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق . أو كما قال الإمام العسكري : ( إن لكلام الله فضلاً على الكلام كفضل الله على خلقه ، ولكلامنا فضل على كلام الناس كفضلنا عليهم ) .

ولقد كان هذا الدعاء سراً خفياً من أسرار أهل البيت عليهم السلام تفضل به علينا أبو عبد الله الحسين عليه السلام في ذلك اليوم الأغر ، فكان معروفاً عند شيعتهم أن قراءته من لوازم موقف عرفة ، لا بد للناسك من قراءته ؛ ليكمل بذلك تضرعه وخشوعه إلى ربه .

ومن الغريب أن دعاءً بهذه المكانة في هذه العبادة الهامة أن يعرض عنه وعن النظر فيه شيعة أهل البيت ويتركوا شرحه إلى هذا الوقت ، حتىٰ أن السيد إمام الأمة وزعيمها ـ رحمة الله عليه ـ أخذ ينحو باللآئمة عليهم لأنهم قد تركوه في سنبله ، وقد كان هذا أيام كتابة الجزء الأول من ـ أصول المعرفة ـ .

ولقد ذكر السيد محسن الأمين في كتاب أعيان الشيعة أن أحد علماء الطائفة ، يدعى السيد خلف بن السيد عبد المطلب بن حيدر بن السلطان محسن ابن محمد الملقب بالمهدي بن فلاح الموسوي المشعشعي الحويزي ، والى الحويزة والدورق وهو معاصر لشيخنا البهائي ـ رحمه الله ـ قد قام بشرحه في مجلد يحتوي على عشرة آلاف بيت على اصطلاحهم القديم ، إلاّ أنه لم يعرف عن هذا الشرح شيء .

وقد وجهت رسالة إلى بعض الإخوة الفضلاء المشتغلين في قم المقدسة للبحث عن هذا الكتاب في مكاتبها العامة ، وقد مضىٰ على تاريخها ما يقرب ثلاثة أشهر دون أي ردّ سلباً أو إيجاباً ، وربما دلّ ذلك على عدم وجود الكتاب .

وقد ذكر السيد الأمين في المجلد السادس من أعيان الشيعة في الصفحة ( ٣٣٠ ) ترجمة مفصلة للسيد المذكور نورد ملخصاً منها لنعرف السبب المباشر لشرح هذا الدعاء .

قال السيد الأمين ـ رحمه الله ـ :

هو السيد خلف واسم والده عبد المطلب ( والمشعشعي ) نسبة إلى أحد أجدادهم الملقب بالمشعشع ـ بلفظ إسم المفعول ـ و( الحويزي ) نسبة إلى الحويزة بالتصغير اسم لقطر واسع قصبته تسمىٰ الحويزة .

وطائفة المشعشعيين هي طائفة شريفة موسوية حسينية علوية ملكت الحويزة وتلك الأصقاع مدة طويلة بالإقطاع من الدولة الإيرانية ، وبهذه المناسبة يطلق عليهم إسم ( خان ) ثم انقرضت دولتهم ، ويسمىٰ الحكام منهم أو طائفة منهم بالموالي ، ويسمون أيضاً بالمشعشعيين ، خرج منهم علماء شعراء مؤلفون أمثال المترجم وولده السيد علي خان .

ووالده السيد عبد المطلب كان من أكابر علماء عصره وفضلائهم ، وبأمره كتب الشيخ حسن بن محمد الإسترابادي شرحاً على فصول الخواجة نصير الدين .

وفي الطليعة كان فاضلاً ، وصنف كتباً مفيدة ، وكان أديباً شاعراً ، واجتمع بالشيخ البهائي في فارس ، وبالميرزا محمد الإسترابادي صاحب كتاب ( الرجال ) في الحجاز ، وأضر في آخر عمره .

وقال ولده السيد علي خان : كان زاهداً مرتاضاً يأكل الجشب ويلبس الخشن ، مع أنه كان والياً اقتداءً بسيرة آبائه ـ عليهم السلام ـ ، وكانت عبادته يضرب بها المثل ، حتىٰ أنه لما كان بصره سالماً كان أكثر ليالي الجمع يختم بها القرآن ، ولا تفوته النوافل، وكان كثير الصيام لم يفته ذلك في سنة من السنين إلّا أنه كان تارةً يصوم رجب ويفطر في شعبان أياماً ،

ومع ما كان عليه من الزهد والتقوى كانت شجاعته تضرب بها الأمثال ، وأيامه فيها مشهورة ، ومواقفه معلومة ذا عزم وشدة على هجوم النوائب ونزول الحوادث ، ويتلقاها بالعزم الشديد الذي تميد له الجبال ولا يميل ، ولو عدّت مناقبه ومفاخره ومآثره لكانت كتاباً مفرداً ولكننا اقتصرنا على ما أوردناه ها هنا .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وذكره الفاضل النوري في كتابه ( دار السلام ) فيما يتعلق بالرؤيا والمنام ، ووصفه بالسيد الجليل والعالم النبيل صاحب التصانيف الكثيرة الرائقة .

أما أنه كان حاكم الحويزة فقد صرّح به صاحب الرياض ، وبعض المعاصرين ، والظاهر أنه كان حاكماً في بعض مدنها ؛ لأن الحاكم العام أولاً كان أباه ، وولي بعد أبيه أخوه مبارك .

وكان قد تعدّىٰ عليه أخوه فسمل عينيه وسلبه نور البصر فعوضه الله عنه بنور البصيرة ، وكان يصرف عمره في طاعة الله وعبادته ، وقسم فعله على قسمين ، قسم للتصنيف والتأليف فصنّف كتباً كثيرة ورسائل . وأما القسم الثاني من أفعاله فقد كان ماهراً في معرفة تعمير الأراضي وإحياء المواد منها ، وقد عمر عدّة قرىٰ في الأرض التي توطنها بعد خروجه من بلاد الدورق عقيب مصيبته بفقد بصره ، ففارق أباه ونزل أولاً ببلاد زيدان على الشط الغربي ( بالهندجان ) فعمر بها ثلاث قرىٰ ، وذلك أنه يسأل العارفين بالتعمير عن الماء والأرض ، وعن علوه وانخفاضه فيحكم من طريق المعرفة والسير القاطع بركوب الماء من الموضع الذي يستخرجه منه على الأرض المرادة من غير وزن الأرض بميزان ، فيأمرهم بقدر ما تحتاجه الأرض من الحفر فيحفرون ، فيركب الماء تلك الأرض على ما قرر .

ثم بعد ذلك انتقل إلى الشط الشمالي من تلك الأرض ، وهو الشط المعروف ( بالحرارحي ) الذي ينزل إلى بلاد الدورق ، وأحدث منه تسعة أنهر من الجانبين ، وصارت قرىٰ عامرة بيمن توجهه وسبعه وكل ذلك بمعرفته .

ومن جملة البلاد التي عمرها بلدة تسمىٰ ( خلف أباد ) أي عمارة خلف ، لا تزال باقية إلى اليوم . وفي الرياض هي قصبة كبيرة معمورة بتلك البلاد .

وقال ولده السيد علي خان : كان مدة حياته يصرف محاصيله من قراه التي أحدثها كما مر بهذه الطريقة ، فبعضها يصرفه في الزكاة ، ويكتب عليه في الدفتر (ز) وبعضها في الصدقة المستحبة ، فيكتب عليه في الدفتر (ق) أيّ القربة ، وبعضها للرحم ، فيكتب عليه (ص) أي صلة الرحم ، وبعضها للوفود والشعراء ومخالفي المذهب ، فيكتب عليه (س) أي ستر العرض ، وكانت هذه مصارفه ، وكان يؤثر على نفسه ، ولا يرغب في جمع المال . فإذا رأىٰ شيئاً فاضلاً على ما أنفقه يقول : ربي لا تجعلني من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله .

قال جامع ديوان الشيخ جعفر الخطي : كان قبل حدوث تلك المصيبة عليه من سمل عينيه أرسل إلى الشيخ جعفر الخطي البحراني عدة كتب يستقدمه إليه ، فأجابه يعتذر إليه عن التوجه بشعر على طريقة أهل تلك الأطراف يسمىٰ ( المواليـة ) فلما جرى عليه ذلك كتب إليه الخطي من ( الهندجان ) وهو المكان الذي يسكنه آن ذاك ، يشكو ما جرىٰ عليه ، ويستقدمه إليه ويعاتبه في عدم تعزيته عما جرى عليه فعرض للخطي سفر إلى فارس ، فأنشأ قصيدة ، واستصحبها معه ، فتوافيا بشيراز فأنشده إياها وذلك في سنة ١٠١٦ :

أبا هاشم أنهي إليك تحية　　　يحييك رياها برائحة العطر

وأشكو لك الدهر الذى عض جاهداً فـأدمى وسام العـظم نازلـة الكسر
وأنحىٰ على عـودي فما زال عـابثاً بـأوراقـه حتى ألـح على القشـر
وخـطاً لو استسـريت ناسمـة الصبا شتـاء لأسـراهـا أحـر من الجمـر
وإخوان سوء إن رمى الدهر سهمه فـأخطأني كـانوا سداد يـد الـدهـر
وأتبـع تسـليمـي إذا مـا لقـيتـهم ببشرى فأجزى بالعبوس عن البشر
تعـوضتهم عن معشـر حـال بيننا وبينهم ريب المنـون إلى الحشـر
أطالوا يدي فالشبر بـاع فمذ مضوا تقـاصر بـاعي عن مـطاولـة الشبـر
عفقتهم إن لم أكـاثـر بـأدمـعي عليهم غمـار البحر أو سبـل القطر
برغمي أن ألقى بني الدهر بعدهم قـذى وشجى للعين مني وللصـدر
قضىٰ من قضىٰ منهم وأصبح من بقي أخـا نكبـات يستقيـل من العمـر
تقسمهم ريب الـزمـان فـأصبحـوا فريقين في ناب الحـوادث والظفـر
أسفت لهـذا الشـطر منهم وإنني لـذو كمد بـاق على ذلـك الشـطر
ومتسـم بـالـبـر يبـطن ضـده وأضيـع شيء خلطك الحلو بالمر
أدافـع عنـه مـا استـطعت وإنـه ليخذلني ما شـاء إن سمته نصـري
أرى قـربـه غنمـي ولم أدر أنـه على عكس ما عندي يرى غمه هجري
سلكت بـه نهج الـوفـاء فغـرني فنكب منحـازاً إلى جـانب الغـدر
سقىٰ الله حياً من تميم بقـدرمـا شربنا بأيدهم من النـائل الغمر
همُ أوطأونا سـاحـة اليسـر بعـدمـا أزلت خـطى اقدامنـا عثـرة العسـر
فـلم يبـلغ الأم الـرؤوم ببـرهـا بنيهـا مـدى مـا أسلفـونـا من البـر
وأنت ابن أخت القوم والخال والد وإن كانت الأعمام من ضضيء النظر
وأنت الذي يعدى على المحل جوده ويعشب من معروفه يـابس الصخر
وإن قعـودي عنـك حين بعثتني إليك على قرب المكانين عن عذر
قمور لو أني سمتها الحصر لم يكن ليأتي على معشار معشارها حصري

وهي طويلة تبلغ أو تزيد على الخمسين بيتاً ذكرها السيد الأمين في

موسوعته ( أعيان الشيعة ) في ترجمة السيد المذكور .

وحكي في دار السلام عن كتابه ( مظهر الغرائب )في شرح دعاء عرفة للإمام أبي عبد الله الحسين بن علي عليهما السلام أنه قال عند قوله : ( وما أقلت الأرض مني ونومي ويقظتي ) إن الرؤيا مدارها على تزكية النفس وصفاء السر واليقين في الإعتقاد ، والصدق في القول والعمل ، فهناك تحصل المكاشفة للرؤيا الصالحة فتأتي عياناً ، وهذا الأمر قد جرت به التجربة ، ورد في الكتاب العزيز ، وأنا العبد المذنب قد صدرت علي ثم أورد حكايتين من نوادر الرؤيا ، من أرادها فليطلبها في المصدر المذكور .

توفي السيد رحمه الله سنة ١٠٧٤ هجرية ، أما مؤلفاته التي أحصاها العلماء فقد ذكر بعضها صاحب أمل الآمل ، وغيره وأكثر من ذكرها استيفاءاً لها ولده السيد علي الخان فيما حكاه صاحب الرياض عن رسالة ولده التي اعتمد عليها العلماء في ترجمته وقال إن صاحب البيت أدرىٰ بما فيه فنحن ننقلها عنه :

١ ـ حق اليقين في علم السلوك والطريقة خمسة عشر ألف بيت . والبيت خمسون حرفاً على نهج لم يسبق إليه ، وهو أن مأخذها كلها من أحاديث أهل البيت عليهم السلام ، وهي موافقة للطريقة والشريعة سالمة من شطحات الصوفية ، وإلحاداتهم وقولهم بالحلول والإتحاد قال : والحق أنها طريقة الأنبياء والصالحين . ومن هنا قال صاحب الرياض كما مر إن له ميلاً إلى طريقة الصوفية ، وأي حاجة لاستعمال مصطلحات الصوفية وتكلف تطبيقها على أحاديث أهل البيت ، وصاحب الأمل قال إن حق اليقين في الكلام .

٢ ـ الحق المبين ثمانية آلاف بيت في معرفة العلم والمنطق والكلام .

٣ ـ سبيل الرشاد ستة آلاف بيت في الصرف والنحو والأصول والفروع من العبادات .

٤ ـ مظهر الغرائب : عشرة آلاف بيت ، في شرح دعاء الحسين عليه السلام يوم عرفة ، وذلك أنه ( أي السيد خلف المترجم رحمه الله ) قد اجتمع مع الميرزا محمد الإسترابادي صاحب كتاب الرجال في الحج يوم عرفة . قال السيد علي خان ( ولد المترجم ) فقال له والدي يا سيدنا : هذا الدعاء قابل للشرح ، وينبغي أن تشرحه . فقال : أنا ألتمس منك ذلك ، فقال والدي : إني لست من فرسان هذا الميدان ، كسراً لنفسه ، فقال له : أنت أهل له ، ومن أحق به منك ؟ قال : فقبلت التماسه ، فلما رجعت من حجتي إلى الوطن لم يكن لي هم إلا شرح الدعاء المبارك . فشرحه كما ينبغي ، وأودعه أسراراً وعلوماً جمة ، ومعارف وفق لجمعها . فلما أتمه بعث بنسخته إليه فأعجب بها كل الإعجاب ، وطلبت نسختها الأكابر من والدي واستنسخوها ، وقال بعضهم : إنه نفيس جداً يدل على كثرة علمه وفضله وتبحره وحسن سليقته .

قال مؤلف ( أصول المعرفة ) إننا قد أوردنا ترجمة هذا السيد النجيب والعالم الجليل لأجل معرفة ما قام به من نشاط علمي ، وعلى رأسه ( مظهر الغرائب ) في شرح دعاء الحسين يوم عرفة ؛ لأنه لم يخرج عن موضوع كتابنا ، بل وله مساس كبير وعلاقة وطيده بذلك .

٥ ـ النهج القويم من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، جمع فيه ما فات نهج البلاغة ، ولكنه لم يتم .

٦ ـ البلاغ المبين جمع فيه الأحاديث القدسية المنزله على الأنبياء والرسل إلى محمد صلوات الله عليه وعليهم ، وجمع فيه كلام الأنبياء ، وحكمهم ومواعظهم ، وكلام الأئمة الطاهرين والأولياء الصالحين والمشايخ المعتبرين ، ونبذة من واردات خاطره من الحكم والأمثال ، وهذه هي السنة

التي ألفها قبل ذهاب بصره .

٧ ـ فخر الشيعة نحو ثمانية آلاف بيت في فضائل أمير المؤمنين عليه السلام ومعجزاته وكراماته .

٨ ـ سيف الشيعة في المطاعن نحو ثلاثة وعشرين ألف بيت .

٩ ـ الحجة البالغة : خمسة عشر ألف بيت في إثبات خلافة أمير المؤمنين عليه السلام بالنصوص القرآنية ، والأخبار النبوية من طريق غير الشيعة ، ثم يتبعها بما ورد من طرق الشيعة .

١٠ ـ برهان الشيعة : ثلاثة وثلاثون ألف بيت في إثبات إمامة أمير المؤمنين علي عليه السلام بالبراهين العقلية والنقلية مشتملاً على أربعين برهاناً وأربعين مجلساً .

١١ ـ سفينة النجاة في فضائل الأئمة الهداة في عشرة آلاف بيت ، في فضائل ومناقب أمير المؤمنين وباقي الأئمة الإثني عشر عليهم السلام .

١٢ ـ المودة في القربىٰ ثلاثة وثلاثين ألف بيت في فضائل الزهراء وأمها ، والأئمة الإثني عشر عليهم السلام ، وإثبات إمامتهم بالنص ، وفضائلهم ومعجزاتهم وكراماتهم ، وعدد أولادهم وتاريخ مولدهم ، والإحتجاج على من لم يقل بإمامتهم كالزيدية والكيسانية والواقفية وغير ذلك .

١٣ ـ خير الكلام في المنطق والكلام ، وإثبات إمامة كل إمام ، سبعة وعشرون ألف بيت ، وهذه السبعة الأخيرة ألفها بعد ذهاب بصره .

١٤ ـ الأثنا عشرية في الطهارة والصلاة .

١٥ ـ دليل النجاة في الدعاء .

١٦ ـ كتاب في الدعاء يشبه الدروع الواقية ، وهذه الثلاثة ذكرها

صاحب الرياض .

١٧ ـ رسالة في النحو .

١٨ ـ إرجوزة في النحو .

١٩ ـ ديوان شعر عربي .

٢٠ ـ ديوان شعر فارسي ، وهذه الأربعة ذكرها صاحب الأمل .

ومن شعره قوله :

وخريدة قد زار ليلا طيفها    وإلى الخلافة صبحه يترشح
أعرضت عما دون أنس كلامها    ثم انتبهت وعفتي تترجح

وقوله في مدح علي عليه السلام :

أبا حسن يا حمىٰ المستجير    إذا الخطب وافىٰ علينا وجارا
لأنت أبر الورىٰ ذمة    وأكبر قدراً وأمنع جارا
فلا فخر للمرء ما لم يمت    إليك انتساباً فينمي النجارا

ولما توفي رثاه الشهاب الحويزي .

بقوله من قصيدة ضاهىٰ بها رائية أبي تمام في محمد بن حميد الطائي :

مضىٰ خلف الأبرار والسيد الطهر    فصدر العلا من قلبه بعده صفر
وغيب منه في الثرىٰ نير الهدى    فغارت ذكاء الدين وانكسف البدر
ومات الندى فلترثه ألسن الثنا    وليث الوغىٰ فلتبكه البيض والسمر
هو المرء يوم الحرب تثنىٰ حرابه    عليه وفي المحراب يعرفه الذكر
فمن لليتامىٰ والأرامل بعده    وممن ترجي النفع إن مسنا الضر

وهي طويلة موجودة في ديوانه المطبوع .

وإلى هنا ننتهي من ترجمة هذا السيد النجيب وبنهاية ترجمتـه نختم آخر الأجزاء من كتاب أصول المعرفة في شرح دعاء عرفة لـلإمام الحسين عليه السلام ختم الله لنا وله وللمؤمنين بالمغفرة والرضوان إنه كريم منان .

توجد أبيات مقتطفة من القصائد العصماء التي نظمت في رثاء الشيخ عباس الريّس صاحب هذا الديوان في الصفحات الأخيرة من هـذا الجزء (الرابع) لمن يريد أن يتلوها وسيصدر كتيّب خاص عن حياة الفقيد تغمّده الله بـرحمته الـوافرة يتضمن جميع القصائد التي رثي بها أيام الفاتحة والتأبين .

**يوسف سلمان زاير علي**

من قصيدة للدكتور محمد علي الشيخ منصور قال فيها:

يـوم بـه حـطنـا سـريـرك أربَعـا ... حط الـنـوى والحـزن منـا أربُـعـا
يـا شـارحـاً كلم الحسين بيـومـه ... أكبـرت يـومـك أن تكـون مـودعـا
ومـضيت لا يثنيـك وضـع دنيـة ... أو يستـطيبـك عـاجـل أن تقنعـا
فـاهنـأ بـرحلتـك الـتي هيّـأتهـا ... عـلمـاً وأخـلاقـاً وفنـاً جـامعـا
واذا بكيتـك وهـو مـا يـدمي الحشـا ... فـي منتهـاك بـكيـت قـلبـاً وادعـا
نعي الصـديق أمضى من ذوب الحشـا ... ورحـيله عـنـا يقـضي الـمضـجـعـا

من قصيدة للشيخ محمد علي زين الدين:

في مـوكب العلمـاء وجهـك يلمـع ... وبحب أهـل الـبيـت قلبـك متـرع
قـد ألبسـتـك يـد المـكـارم حـلة ... تحميـك عن نـقص يشـين وتـمنـع
أنفقـت عـمـرك دارسـاً ومـدرّسـاً ... وإلـيـك سبـاقـاً تـسيـر الأصبـع

وكفــاك شــرح دعــا الحسين فضيلة — وذو خيــرة يــوم القيــامــة تـنـفــع
مــا كــان في حسبــاننا يــومـاً بــأنــا — كــأس فــقــدك والأسـى نــتـجــرع
ونــعـيش آلام الــفــراق وأنـت فــي — غــرف الجنــان بـمـنّــه تـتـمـتــع

ومن قصيدة من نظم محمد صالح الشيخ كاظم المطر الأحسائي :

رزؤ ألــحَّ عــلى الـقـلـوب فـلـمَّــا — بكت المحــاجــر من فجيعتــه دمــا
وأطــاح بــالـبحــريـن قــرم قضيـلة — قــد كــان ركنــاً للهــدى فتهــدمــا
مــا كـنت أعـلم قـبـل يــوم وداعــه — لـلقبــر كيف يــودعــون الأنــجــمــا
هــذي الـدراز أغــلامها منكــوســة — من بعــد عبــاس وكــان لهــا حـمى
فحيــاتــه كــانـت سجــلاً حــافـلاً — بـالمكـرمــات وكـان فيهــا الأكـرمـا
ولــه يــد بيــد الحسيـن وقــد كفى — فـخــراً غــداة الفـخــر حيث سمى

ومن قصيدة للسيد محمد صالح السيد عدنان :

أنؤمــل أمنــاً فـي حيــاتــك أو خـلدا — وفي الخلد عباس الرئيس هــوى قصدا
أبـا البـاقـر أبشر فـالـذي قـد تـركتــه — ستحيــا بـه ذكــراً وتـرقى بــه مجــدا
وفــي ولــدك الأبــرار كــل مــؤمــل — لأن يخلدوا ذكـراك مـا عـرفـوا الخلدا
ونــأمــل فـيهـم يخـلفـونــك رتبــة — وعلمــاً كـأم الفهــد ان ولـدت فهــدا
فهم قصــدوا ذكـراك نشــراً وأرّخــوا — (وفي الخلد عباس الرئيس هوى قصدا)

ومن قصيدة للشيخ عبد المحسن ملاّ عطية الجمري .

حــريــب مــن رآك عــلى ســريــر — يسيــر بــك الســريــر الى الـقبــور
يـسيــر الـنعش والـعبــرات تـجــري — وأهــل الــعــلـم فــي حــال مــريــر
واعــولـن النســاء عـلـيـك حـزنــاً — وولــولـن الـحــرائــر في الـخــدور
حــري أن نــعــود بـغـيــر لــبٍ — ونــار الحــزن تقــدح في الصــدور
بــفـقــدك لــف لـلعـلـمــاء مجــد — وصــيــح بــرايــة الأدبــاء مــورى
وأصـبـحـت القـصـيـد بــلا قــوافي — وأصــبــحــت الـيــراع بــلا خـبـيــر
هــوى عَـلَم تـمـثـل في عـظـيـم — هــو العبــاس ذو الـشــأن الخـطيــر

ومن قصيدة لأخيه الأستاذ يوسف سلمان زاير علي :

غـاب الحبيب وغـاب العلم والكـرم ... ونـاح نـاعي الـردى واستعبـر القلم
يـا شيخ عبـاس يـا من كنت ملجـأنـا ... فمن لـنـا بعـد أنسٍ كـان منتـظم
مـجـالس الـعلم والآداب مـظلمـة ... مـذ غبت عنهـا وكـانت كلهـا حكم
عشنـا السنين معـاً في دار بـهجتنـا ... والصـدر منشـرح والثغـر مبتسـم
يبكي بـدمـع غـزار والهـاً أسـفـاً ... لفقـدك المنبـر المحـزون يـا علم
نـاحت لفقـدك أعـواد الخطاب فهل ... تـحـظى بمثلك يـا مـن للعلوم فـم
تبكي عليك المحافـل في قصائـدهـا ... فـأنت رائـدهـا والشـاعـر الحكم

ومن قصيدة للحاج محمد إبراهيم النجّار :

بـالجمعـة بميـلاد بنت الـرسـول ... قضى شيـخ عبـاس فمـاذا أقـول
أقـول هـوى الـمجـد من شـاهـق ... ولـكـن تـجـلى بـشـرح الأصـول
أصـولـك تـمّت هـنـيئـاً بـمـا ... كـتبت بـهـا حـيـرت لـلعـقـول
أبـا بـاقـر أيـن أنـت مـضـيـت ... وأيـن خـطابـك يـهـدي الـعـقـول
ثـلمت بـفـقـدك ديـن الـسـلام ... كـأنـك بـدراً عـلاه الأفـول
تـرى الـكـل يـنـعـاك مـن وجـده ... كـغـصـن رطـيـب رمـاه الـذبـول
وفـاتـك بـادئـاً أرخـت ... (بـالجمعـة بميـلاد بنت الـرسـول)

# الفهرس